مكتبة الأسرة الأردنية
القراءة للجميع
2016

وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية
The Hashemite Kingdom of Jordan

د. سعود محمود عبد الجبار

الشعر

في رحاب سيف الدولة الحمداني



الشعر

في رحاب سيف الدولة الحمداني

وزارة الثقافة
مكتبة الأسرة الأردنية / مهرجان القرأة للجميع

• الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني
•المؤلف : د. سعود محمود عبد الجابر
•الناشر : وزارة الثقافة
شارع صبحي القطب
المتفرع من شارع وصفي التل
ص.ب. 6140 – عمان – الأردن
تلفون : 5696218 / 5699054
فاكس : 5696598
Email : info@culture.gov.jo

•الطباعة : مطبعة السفير 064657015
•رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٦/٩/٤٣٠٢)
•رقم ردمك (٩-٢٦٤-٩٤-٩٩٥٧-٩٧٨)

الشعر

في رحاب سيف الدولة الحمداني

تأليف
الدكتور سعود محمود عبد الجابر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

شهدت حلب في القرن الرابع للهجرة في عهد سيف الدولة نهضة علمية وأدبية زاهرة ، وأصبح بلاط الأمير الحمداني مثابة العلماء، ومستراد الأدباء، ومنتدى الحكماء ، ومقصد الشعراء الذين وفدوا من شتى الأمصار ومختلف الأقطار .

هذا بالإضافة إلى أن الأمير ذاد عن حمى الوطن وحمى الديار وتصدى للزحف الرومي في أحرج اللحظات التاريخية التي شغل فيها الحكام بالتطاحن على الملك فكان سيف الدولة هو البطل المنقذ الذي قاد المسلمين من نصر إلى نصر ومن ظفر إلى ظفر . وكان الشعر على موعد مع هذا الأمير فغنى أعذب ألحانه وخلد مآثره وسيرته وبطولاته وتضحياته .

ولقد بنى هذا الفتى العربي دعائم مجده على عاملين أساسيين هما : مقارعة الدولة البيزنطية ومنازعتها الحياة ، والعناية بالعلم والأدب وتشجيع العلماء والأدباء .

وكان الأمير الحمداني فارس الفرسان وقائد الشجعان في ساحة الوغى كما كان بطل الميدان في مجال البيان . ولهذا كان عندما يلتقط أنفاسه من شدة القتال يجمع إليه العلماء والشعراء والأدباء ذاكراً فضلهم مشيداً بقدرهم ،

مثيراً لعبقرياتهم مستمعاً لقصائد الشعراء مصغياً لآراء الأدباء ، مبدياً وجهات نظره فيما يحدث أمامه من مساجلات . ومن وحي هذا المجد أفادت حلب طوق الخلد ونفثت نهضة علمية وأدبية لم تشهد لها نظيراً من قبل . فأخذت تدل في برود العز وتختال ، وحظيت بكوكبة لامعة من صفوة شعراء ذاك العصر . وهؤلاء جميعاً جديرون بالبحث حريون بالدراسة . ولكن إذا استثنينا من فرسان هذه الحلبة أبا الطيب المتنبي وأبا فراس الحمداني فاننا نجد لكل من الشعراء السيفيين كالصنوبري وكشاجم والسري الرفّاء وابن نباتة السعدي والوأواء والببغاء والخالديين وغيرهم نصيباً من الإهمال التام عند قدامى الباحثين الذين شغلوا بأبي الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

ومن المقطوع به أن يتيمة الدهر للثعالبي تعد من أهم المراجع التي تناولت بالبحث والدراسة شعراء الندوة السيفية من حيث أشعارهم ، وإن كان هذا السفر الهام قد أغفل الترجمة لحياة هؤلاء الشعراء والتعريف بآثارهم وذكر أخبارهم مكتفياً بايراد ما اختار من أشعارهم والتقديم لها باللغة المسجوعة مع إيراد نبذ قصيرة لا تبلُّ أواماً ولا تشفي غليلاً .

أما بقية المصادر القديمة التي كتبت عن الشعراء بإفاضة أو بايجاز كمعجم الشعراء للمرزباني والمؤتلف والمختلف للآمدي والفهرست لابن النديم وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والمنتظم لابن الجوزي ، وغيرها من كبرى المصادر فانها سارت على سنن اليتيمة في إغفال الترجمة الوافية لهؤلاء الشعراء الأفذاذ والاكتفاء بإيراد نتف من أخبارهم الموجزة المنقولة غالباً عن اليتيمة .

ولقد تطرقت بعض الدراسات الحديثة للشعر الحمداني ومن هذا القبيل كتاب (الشعر في ظل سيف الدولة) لدرويش الجندي وهو دراسة موجزة

تناولت جانباً محدوداً وأشعاراً بعينها دون التعرض للشعراء بالدراسة والترجمة والتحليل ، وهي مناسبة لحجمها وطبيعتها .

والكتاب الآخر الذي تطرق للشعر الحمداني هو كتاب الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة (فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين) وهو كتاب قيم أفدت منه كثيراً إلا أنه مع أهميته وقيمته العلمية كتاب عام ، وقد كان منهجه متوجهاً إلى دراسة مجتمع الحمدانيين وفنون الشعر دون تناول حياة الشعراء بالترجمة والتحليل .

أما الأستاذ محمد كرد علي فقد جمع شعراء القرن الرابع الهجري في الشام ومنهم شعراء الندوة السيفية في الجزء الرابع من كتابه خطط الشام وذكر أسماء هؤلاء الشعراء . وكان هذا الكتاب من مراجع دراستي التي أفدت منها .

وفي مراجع الأدب العام التي عرضت للبحث في أدب القرن الرابع الهجري من مثل كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان وكتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان وكتاب أدباء العرب لبطرس البستاني وغيرها وردت بعض الشذرات عن حياة هؤلاء الشعراء الأفذاذ واكتفى في الأغلب بالإشارة والإلماع دون البحث والتفصيل .

وقد كان دأبي منصباً على البحث عن دواوين الشعر ومصادر الأدب سواء المخطوطة منها أو المطبوعة التي تضمنت شعر هؤلاء الشعراء .

كما رجعت إلى كتب السير والتاريخ والتراجم كمعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الشعراء للمرزباني كما اطلعت على كتب الجغرافية والبلدان والأديار كمعجم البلدان لياقوت ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والديارات للشابشتي وغيرها . وقد أفدت كثيراً من

كتب التاريخ وأهمها : تاريخ الطبري ، ومروج المسعودي ، وتاريخ بغداد ، والكامل لابن الأثير ، وتجارب الأمم لابن مسكويه وزبدة الحلب في تاريخ حلب ، وبغية الطلب من أخبار حلب لابن العديم ، والأنساب للسمعاني وغير ذلك كثير .

وتمكنت بفضل من الله أن أحصل على كثير من النصوص الشعرية التي لم تنشر وساعدني ذلك على تقديم دراسة مستفيضة عن شعراء الندوة السيفية وقد اعتمدت في ذلك على دراسة أشعارهم واتباع المنهج العلمي القائم على البحث والدرس والموازنة والتحليل والتعليل .

وتحدثت عن الأغراض الشعرية التي لمع سناها في تلك البيئة سواء الأغراض التقليدية أو الأغراض الحديثة . وتوصلت الدراسة في هذا الصدد إلى تحديد ملامح الجِدّة ورسم معالمها وإبراز السمات الفاصلة في هذا الشأن .

وأسأل الله سبحانه التوفيق والسداد.وأن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه فبالله التوفيق ومنه العون والحمد لله أولاً وآخراً .

دكتور سعود محمود عبد الجابر

البابُ الأول

سيفُ الدّولة في ميدان الحياة

- ١ -

حياة سيف الدولة

نشأة سيف الدولة :

كان سيف الدولة واسطة قلادة بني حمدان كما كان غرة الزمان وعماد الإسلام ومن به سداد الثغور وسداد الأمور وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها وتفل أنيابها وتذل صعابها ، وكانت غزواته تدرك من طاغية الروم الثأر وتحسن في الإسلام الآثار وكان مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرحال [١] .

وقد ولد الأمير علي بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن حمدون بن الحارث ابن لقمان بن أسد بن راشد في ميافارقين [٢] سنة ثلاث وثلاثمائة ، وقيل سنة واحدة وثلثمائة . وكان أبوه أبو الهيجاء رجلاً عرف بالشجاعة وولي عدة ولايات يخوض الحروب ويشارك في عزل الخلفاء وكان أعمامه ممن

---

(١) يتيمة الدهر (١١/١) .
(٢) ميافارقين ؟ ـ مدينة جليلة عظيمة الخطر عليها سور من حجارة وفصيل وخندق عميق مصطكة العمارة ضيقة الاسوار وبها مسجد جامع والاشجار والانهار محتفة بها ، صورة الارض بن حوقل ص(٢٠٢) .

عرفوا بأساً وقوة وشجاعة كالحسين وداود وسليمان الحرون وأبي العلاء سعيد.

وينشأ الأمير الحمداني وأنظاره تتفتح على مجد أسرته ويسمع ببطولات فرسانها ويهفو قلبه لخوض المعامع وتسجيل المفاخر .

ولم يكد الأمير الحمداني يتم العقد الأول من حياته حتى أسلمه أبوه إلى العلماء والحكماء يدربونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له على أن يزدرد من حكمة وعلوم العصر بأن يأخذ من كل شيء بطرف وأن يهز قلبه الأدب والشعر أكثر من كل شيء .. وأن يكون لهوه في القنص وركوب الخيل والرمي وأن تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وأن تكون أقاصيص الغزوات والحروب هي أشهى ما يستهوي فؤاده [1] .

وكان من أساتذة سيف الدولة ابن خالويه الذي يعد مؤدب أمراء بني حمدان وكان من أساتذته أبو ذَرّ الذي ذكره الثعالبي ونعته بأنه أستاذ سيف الدولة وذكر له شعراً رقيقاً منه قوله [2] .

نفسي الفداء لمن عصيت عواذلي في حبه لم أخش من رقبائهِ
الشمس تطلع في أسِرَّةِ وجهه والبدر يطلعُ من خلال قبائهِ

ويرى الدكتور طه حسين أن ثقافة سيف الدولة ثقافة واسعة عميقة فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة ــ أبعد الناس عن حياة البدوي الجاهل الذي لا يعرف إلاّ الشجاعة والبأس والكرم والجود .

وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت

(١) سيف الدولة ــ سامي الكيالي ص (٢٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ٨٥) .

مسيطرة في بغداد . وأخذت أسرته بأسباب الترف وعاشت عيشة المتسلطين ولم تترك أبناءها بغير تربية ولا تثقيف وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين وعلمتهم ما لم يكن بد من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال [1] .

ويظن أحمد أمين أن سيف الدولة كان يعرف غير العربية مستدلاً بما ذكره ابن خلكان في ترجمة الفارابي من أنه كان لسيف الدولة مماليك وكان له معهم لسان خاص يحدثهم به [2] . ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون سيف الدولة ملماً شيئاً ما باليونانية وثقافتها معللاً ذلك باتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشؤونها [3] .

وينشأ الأمير الفتى وسط الزعازع العصيبة التي كانت تعصف بالدولة العباسية فيقدم ولا يحجم ويدرع للأهوال بنفس واثقة وفؤاد جياش وعزيمة قوية . وما يكاد الأمير الشاب يبلغ منتصف العقد الثاني من عمره حتى يفجع بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر له فيزداد حنقاً وثورة ووثوقاً وإيماناً بالله . وقد طبع هذا التاريخ الدامي لأسرته نفسه منذ نشأتها بطابع البطولة والشجاعة التي أظلت فيما بعد شعراء الندوة السيفية في حلب بظلال الفروسية والقوة .

وقد تحدث كثير من المستشرقين عن سيف الدولة فرأى بعضهم فيه البطل والقائد وسليل الأسرة الحرة من الحمدانيين الذين حكموا حلب ، ورأوا في بلاطه مركزاً أدبياً مشرقاً وكان مزامنوه يسمون عصره بالعصر

---

(١) مع المتنبي ص (٢٣٨) .
(٢) فيض الخاطر ـ احمد امين (٤ / ٧٥) .
(٣) مع المتنبي ص (١٨٤) .

الذهبي [1] :

وكان سيف الدولة قبل انطلاقه إلى حلب الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة فأظهر قدرة وكفاءة وعبقرية وشجاعة في قيادة الجيوش عندما غزا الروم في سنة ٣٢٦ وأنزل بهم هزيمة كبيرة وأسر سبعين بطريقاً وأخذ سرير الدمستق وكرسيه [2] .

وفي سنة ٣٢٨ يقدم الأمير الشجاع على غزو الروم مرة ثانية ويصل إلى قاليقلا ويكتسح هَفْجيج وتطأ أقدامه مواطىء لم يصل إليها أحد من المسلمين من قبل ، ويمضي إلى قُلُونيه [3] الحصينة المتأبية فتخضع له ويحرق رساتيقها [4] ويكتب إلى ملك الروم من هناك مستهزئاً به ويمنعه بلاده ثم يعود بجيشه ظافرا منتصراً بعد أن توغل في بلاد الروم مسافات لم يدخلها أحد من قبله وأسقط من مدنهم أكثرها حصانة وأشدها مناعة .

ويعرض الشاعر النامي لهذه الحادثة مخاطباً سيف الدولة فيقول [5] :

ونادى الهُدَى مستصرخاً فأجَبْتَهُ بقاليقَلا إذْ كنت بالخيلِ مُسْهِما
ولم تَتَئِدْ َهفْجيجُ أيدي بُنـاتِـها أبَدْتَهُمُ تحت السنابكِ رُغما
لئِنْ حُسِبت عذراءَ والبحرُ خِدرَها لقد وجدَتْ فيهِ ثُكولاً وأيِّما

وفي سنة ٣٣٠ يسير الأمير الحمداني للقاء البَريديّ فيهزمه ويأسر جماعة من غلمانه ويكتب إليه الخليفة رسالة تمجيد وتعظيم لبطولته ويقول فيها :

---

(1) History of the Roman Empire (1 : 373)
(٢) نخبة تاريخية ــ كانار ــ ص (٧٣ ــ ٧٤) .
(٣) قلونيه ــ بلد بالروم بينه وبين قسطنطينيه ستون بريدا وصله سيف الدولة في غزواته ــ معجم البلدان (٤ / ١٦٨) .
(٤) الرستاق ــ فارسي معرب والجمع الرساتيق وهي السواد « اللسان مادة رستقه » (١١ / ٤٠٧) .
(٥) شعر النامي ص (٧٠) .

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . عرفتُ لا أخلاني الله منك ما تقرر عليه العزم في رواحك ، قرنه الله بالخيرة التامة والمعونة الشاملة والكفاية الجامعة ووصله بالنصر والفلح والظفر والفتح فتعجلت الاستيحاش لبعدك والتحسر لما يفوت من قربك — لا خلوت منك — وكنت أحب أن ألقاك وأسر برؤيتك قبل نفوذك « أي خروجك للقتال » ولما تعذر ذلك دعوت الله لك بجميل الصحابة ولي عليك بحسن الخلافة وأن يسعدنا بذلك سعادة محمودة البدء والعاقبة ، انه سميع الدعاء ، لطيف لما يشاء ، ولا يزال قلبي متطلعاً لمعرفة خبرك إلى أن يرد علي من مستقرك بما تريه وتمضيه وتدبره وتمشيه فتعمل — لا أخلاني الله منك — على ملاحظتي من ذلك في كل وقت وساعة بما تعلم حسن موقعه مني والسلام [1] .

ويتابع سيف الدولة انتصاراته على البريديين قرب المدائن وينزل بهم هزيمة نكراء ، ويأسر عدداً كبيراً من قوادهم وجنودهم ويرى بعض المؤرخين أن هذه المعركة وما وليها من نصر كانت السبب الرئيسي للإنعام عليه بلقب سيف الدولة [2] وإن كان كثير منهم يذهبون إلى أنه منح هذا اللقب قبل ذلك . . . أي . . . قبل دخوله بغداد وعلى أثر قتل ناصر الدولة لابن رائق بالموصل [3] .

وعلى أثر مغادرة الأميرين الحمدانيين لبغداد يعود سيف الدولة ليقيم في نصيبين حيث اختارها مقراً له قبل رحلته لبغداد وفي سنة ٣٣٢ يقلد ناصر الدولة الحسين بن سعيد أخا الأمير أبي فراس حلب وأعمالها وديار مضر والعواصم فيتألم سيف الدولة لذلك ويشعر أن ناصر الدولة يمتلىء قلبه حقداً

---

(١) نخبة تاريخية — كانار — ص (٤٩) .
(٢) تجارب الامم — مسكويه (٢ / ٢٩) .
(٣) انظر ابن الاثير (٨ / ١٤٩) والصولي ص (٢٢٨) .

عليه وفرقاً منه أن يطمع في ملكه ولكن الحسين ينصرف عن حلب لما دنا الإخشيد منها في ذي الحجة سنة ٣٣٢ [١] وولى الإخشيد حلب أبا الفتح عثمان ابن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي وولى أخاه أنطاكية فحسد أبا الفتح أخوته الكلابيون وبعثوا إلى سيف الدولة ليسلموا إليه حلب وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين فسار إلى حلب ودخلها في ربيع الأول ٣٣٣ هـ ، وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له ناصر الدولة « الشام أمامك ، وما فيه أحد يمنعك منه » [٢] .

وهناك رواية أخرى حول فتح سيف الدولة حلب ومفادها أن سيف الدولة طلب المعونة المادية والعسكرية من أخيه ناصر الدولة فرفض في بادىء الأمر فاستعان سيف الدولة بفاطمة الكردية زوج ناصر الدولة وأم أبي تغلب فوافق ناصر الدولة على إمداد أخيه بالمال والجند فسار سيف الدولة إلى حلب وملكها [٣] .

ويميل درويش الجندي إلى القول بأن سيف الدولة لم ينتزع حلب من يد عامل الإخشيد وإنما انتزعها من يد ابن عمه الحسين بن سعيد الذي كان والياً على حلب سنة ٣٣٢ وهو يرجح هذا الرأي بسبب التنافس الذي كان قائماً بين أفراد الأسرة الحمدانية . وان المتأمل في هذا الرأي يرى خطله وذلك لأن المؤرخين الثقات يكادون يجمعون على القول بأن الحسين بن سعيد قد ترك حلب بعد أن دنا منها الإخشيد في ذي الحجة من السنة المذكورة نفسها [٤] .

ويبدو لنا أن سيف الدولة كان منذ فترة طويلة يفكر في إقامة دولة في حلب فلقد ذكر مسكويه أن سيف الدولة أثناء وجوده في العراق وقتاله

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٠٥) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١١٢) .
(٣) نشوار المحاضرة ص (٤٣٠) .
(٤) زبدة الحلب (١ / ١١) وابن خلكان (٢ / ٦٩) وابن الاثير (٦/٣١٢).

للبريديين كان يزهد الأتراك في العراق ويحملهم على قصد الشام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر [1] .

ولعل سيف الدولة اختار حلب اتكون عاصمة ملكه ليبتعد عن آتون المنازعات الداخلية التي كانت تعصف ريحها في بغداد ليزج نفسه في حرب تعلي من شأن الوطن ، لقد اختار حلب وهو يدرك أنه سيخوض في سبيلها عشرات المعارك الدامية مع الروم وهذا بحث طويل سنوفيه حقه حين نتكلم عن شعر الحرب في رحاب الأمير .

وبعد أن دخل سيف الدولة حلب مد سلطانه إلى شمالي سورية وأقام الدعوة فيها للمستكفي الخليفة العباسي ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه [2] .

سيف الدولة والاخشيديون

انطلق سيف الدولة الأمير الحمداني يوسع أراضي إمارته الفتية فحث الخطا إلى حمص حيث التقى بجيش كبير من الأخاشدة على رأسه خيرة قوادهم ومن بينهم كافور الإخشيدي وفاتك ، ودارت الدائرة على الإخشيديين وفروا إلى دمشق وهو في أعقابهم [3] .

ويعلم الإخشيد بهزيمة جيوشه أمام سيف الدولة فيخرج من مصر قاصداً الشام على رأس جيش كبير وعندما اقترب من دمشق تركها سيف الدولة متجهاً نحو الشمال إلى حمص ويسير الإخشيد في أعقابه ويلتقي الجيشان عند قِنَّسْرين وتجري بينهما معركة مريرة ينتصر فيها سيف الدولة على الإخشيد في البداية إلاّ أن الحسد يفتك بقلب ابن عمه الحسين بن سعيد الذي عجز عن هزيمة الإخشيديين في محاولته الأولى لغزو حلب فيأتي ببعض التصرفات التي ينتج عنها انتصار الإخشيد . ولكن سيف الدولة لا ينصرف بل يعسكر مواجهاً

(١) تجارب الامم (٢ / ٤٠) .
(٢) مصر في عهد الاخشيديين ص (٣٩٣) .
(٣) الكامل (٨ / ٣٣٥) .

للإخشيد الذي يرهبه ويخشى بأسه ويرسل إليه طالباً الصلح والمسالمة [1] . وتنتهي المعركة بمصاهرة حمدانية إخشيدية ويتزوج فيها سيف الدولة من فاطمة ابنة أخي الإخشيد عبيد الله بن طغج وينتظم هذا الأمر على يد الحسن ابن طاهر العلوي [2] . ويقول أبو فراس في معرض الفخر بابن عمه سيف الدولة مشيراً إلى هذا النسب :

فلمّا رأى الإخشيدُ ما قد أطالهُ تلافاه يثني غَرْبَـــهُ ويكاثرُ
رأى الصهر والرسل الذي هو عاقد ينال به ما لا تنال العساكرُ [3]

وتم الصلح بينهم على أن يترك الإخشيد لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً وتعهد لهم بأن يدفع اتاوة سنوية في مقابل احتفـــاظه بدمشق [4] . ويدل هذا الصلح على دهاء الإخشيد وسعة أفقه السياسي فقد رأى أن يكف من طموح سيف الدولة بهذا النوع الراقي من أسباب الود ، كما يبدو لنا أنه كان يعلم تمام العلم أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام كان لا بد أن ينتهي بانتصارهم عليه لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الإقليم ولأنه كان المجال الحيوي لتوسع الحمدانيين ومن المحتمل أن الإخشيد كان لا يكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من وقت إلى آخر [5] .

ولقد رأى الإخشيد إذن أن يلاين هذا الأمير الطموح والقائد الشجاع ليأمن جانبه من جهة وليجعل من إمارته الناشئة درعاً منيعة تقيه خطر الدولة

---

(١) نخب تاريخية ــ كانار ــ ص (٢٩) .
(٢) تجارب الامم (٢ / ٨٣) في زبدة الحلب (١ / ١١٥) .
(٣) نخبة تاريخية ــ كانار ــ ص (٣١) .
(٤) تاريخ الاسلام السياسي والثقافي (٣ / ٢٢١) .
(٥) مصر في عهد الاخشيديين ــ د. سيده اسماعيل ص (٣٥٣) .

البيزنطية في عهد أقوى حكامها وأبرع قادتها ، ولا غرابة أن يلم الشاعر المتنبي بهذه الحقيقة حيث يقول :

ليس إلاّكَ يا عليُّ همامٌ	سيفهُ دون عرضه مسلولُ
كيف لا تأمن العراقُ ومصرٌ	وسراياكَ دونها والخيولُ
لو تحرفت عن طريق الأعادي	ربط السدّرُ خيلَهم والنخيلُ
ودرَى مَن أعزّهُ الدفعُ عنهُ	فيهما أنهُ الحقيرُ الذليلُ
أنت طولَ الحياةِ للروم غازٍ	فمتى الوعدُ أن يكونَ القفولُ
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ	فعلى أيّ جانبيك تميلُ
قعد الناس كلهم عن مساعيـ	ـكَ وقامت بها القنا والنصُولُ
ما الذي عنده تُدارُ المنايا	كالذي عنده تُدار الشمولُ

ويحكي الإخشيد القصة بنفسه لمن لامه على ما تم بينه وبين سيف الدولة من الصلح والمصاهرة ويجيبه بقوله اعلم أن علي بن حمدان كاتبناه عن الرملة فبذلنا له فلم يفعل وكاتبناه عن طبرية فامتنع ، ثم سرنا إليه ورزقنا الله تعالى النصر عليه وعلى أصحابه ، فلم ينصرف وخيم حذاءنا بوجه صفيق وقلة حياء فتوقفت عنه . فقال لي الغلمان دعنا نمض تلقاءه ففكرت في قولهم ولم أخل من أحد وجهين ، إما أن يهزمنا ويرزق علينا النصر فتكون الفضيحة ، وإما أن نرزق عليه النصر فماذا أفعل به ، هل أكثر من أن أنزله في مضرب يشبهه وأنفق عليه ما يصلح له ، ثم أجهزه وأرده لأخيه وأهله لأنهم لا يتركونه ، وأقل ما كان يكفينا له مائتا ألف دينار ثم ألاّ أطيق غلماني من ادلال وامتنان علي بما عملوه ويطلبون مني الأعمال والولايات فرأيت أن مسالمته ومصالحته أفضل [1] .

---

(١) ابن سعيد ص (٤٣) .

وبعد أن تمّ الصلح بين الحمدانيين والإخشيديين استقر الإخشيد في دمشق وكأنه كان يخشى سيف الدولة ولا يأمن جانبه فأراد أن يكون على مقربة منه ولكن المنية عاجلته في نهاية سنة ٣٣٤ فخلفه ابنه أنوجور . ورجع كافور بالجيش إلى مصر فاغتنم سيف الدولة هـذه الفرصة واستولى علـى دمشق مرة أخرى .

وأقام سيف الدولة في دمشق وجنى خراجها . . . وقيل أنه كان يسير بصحبة الشريف العقيقي في الغوطة بظاهر البلد فقال سيف الدولة للعقيقي : « ما تصلح هذه الغوطة تكون لرجل واحد » فقال له الشريف هي لأقوام كثر ، فقال سيف الدولة لئن أخذتها القوانين لتبرأ أهلها منها ، فأسرها الشريف في نفسه وأعلم أهل دمشق بذلك . وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودائع الإخشيد فكاتبوا كافوراً فخرج في العساكر المصرية ومعه أنوجور ابن الإخشيد [1] وخرج سيف الدولة إلى اللّجون [2] وأقام قريباً من عسكر الإخشيد ونشب القتال بين الفريقين وكتب النصر للإخشيديين وانهزم سيف الدولة إلى دمشق فأخذ والدته ومن كان بها من أهله وسار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين وسار إلى حمص وجمع جمعاً كبيراً من بني عقيل وبني نمير وبني كلب وبني كلاب والتقى بالإخشيديين شمالي دمشق بمرج عذراء وكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه وانهزم وتفرقت جيوشه وطارده الإخشيديون إلى حلب فهرب إلى الرقة ثم عقدت بينهما معاهدة بالشروط

(١) زبدة الحلب ــ ابن العديم (١ / ١٠١) .
(٢) في معجم البلدان لياقوت الحموي (٤ / ٣١٥) اللجون ــ بفتح أوله وضم ثانيه وتشديده وسكون الواو وآخره نون ــ هو بلـد بالاردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلا والى الرملة مدينة في فلسطين اربعون ميلا وهي في الجنوب الشرقي من حيفا .

التي عقدت مع الإخشيد سابقاً إلاّ الجزية التي كان يدفعها الإخشيديون مقابل احتفاظهم بدمشق فإنهم امتنعوا عن دفعها [١] .

وبعد ذلك بقي السلام قائماً بين سيف الدولة والإخشيديين ورسخ أسس إمارته الفتية التي كانت تشمل جند حمص وجند قنّسرين والثغور الشامية والجزرية وديار مصر وديار بكر واتخذ حلب عاصمة لملكه .

سيف الدولة والروم :

أخذ سيف الدولة بعد إتمام السلام مع الإخشيديين في توطيد أركان ملكه وتحويل دولته إلى سد منيع استطاع الوقوف أمام الخطر البيزنطي وقد وقف الفتى الحمداني عشرين عاماً شجى في حلق الدولة الرومانية ونار الحرب لا تخمد جذوتها ذياداً عن ديار الإسلام وقد روت كتب التاريخ أنه غزاها ما يزيد على أربعين غزوة كان النجاح حليفه في معظمها .

ولقد ذاع اسم الأمير الحمداني في العالم الإسلامي لا على أنه حاكم حلب فحسب بل على أنه البطل المجاهد ضد الروم . وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأعظم بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية [٢] .

كان لسيف الدولة وقائع مع الروم قبل أن يؤسس دولته في حلب وكانت أولى حروبه معهم سنة ٣٢٤ هـ . فلما استقر سيف الدولة بحلب وطن نفسه على حرب طويلة الأمد مع الروم ، وكانت أولى معاركه مع الدولة البيزنطية بعد تأسيسه دولته سنة ٣٣٧ ففتح حصن برزويه ووقع بينه وبين الروم وقعة

---

(١) زبدة الحلب (١ / ٣٧٣) .
(٢) الدولة البيزنطية ــ الباز العريني ص (٤٤) .

كانت الغلبة فيها للروم فملكوا مرعش ونهبوا طرطوس [1] .

وفي سنة ٣٣٩ غزا سيف الدولة الروم وأوغل في بلادهم حتى كان على بعد سبعة أيام من القسطنطينية فظفر فيها وغنم غنائم كبيرة ، ولكن الروم أخذوا عليه الدرب وكاد سيف الدولة يهلك نفسه فسميت تلك الغزوة غزوة المصيبة [2] .

وفي سنة ٣٤١ التقى سيف الدولة مع الروم عندما بنى مرعش وأتاه الدمستق [3] ليمنعه فألحق به سيف الدولة هزيمة منكرة ، وفي السنة التالية التقى سيف الدولة بالدمستق قرب مرعش ، فأوقع به وهزم جيشه وكانت معركة رهيبة جرح فيها القائد البيزنطي برداس فوكاس وأسر ابنه قسطنطين الذي ظل في الأسر حتى مات من علة اعتلها . وكانت هذه المعركة من أكبر ما مر على البيزنطيين من نكبات فبعدها حزن برداس فوكاس حزناً شديداً على أمر ولده ودخل الدير مترهباً [4] .

وقال شعراء سيف الدولة شعراً كثيراً يصور ترهب القائد وأسر ابنه ، ففي ذلك يقول المتنبي [5] :

فلو كان يُنجي من عليٍّ ترهُّبٌ ترهّبت الأملاكُ مثنىً وموْحَدا

---

(١) زبدة الحلب (١ / ٢٢٠) .
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والامم / ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٦ / ٣٦٧) .
(٣) الدمستق ــ معناها باللغة البيزنطية ــ ضابط البلاط وهي الصفة التي كان يحملها نقفور ــ اخبار الدول المنقطعة ــ خ ــ ٢ .
(٤) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) .
(٥) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) .

وقال النامي :

لكنه طلب الترهّب خيفةً ممن لهُ تتقاصر الأعمارُ
فمكان قائم سيفه عكازه ومكان ما يتمنطق الزنّار

وفي سنة ٣٤٣ خرج سيف الدولة بجيشه لبناء الحدث وسارع الدمستق عندما علم بالخبر للقاء الأمير الحمداني بجيش لجب بلغ عدد جنوده خمسين ألفاً والتحم الجيشان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف سيف الدولة وقتل في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف من جنود البيزنطيين ووقع عدد كبير في الأسر من بطارقتهم وجنودهم وكان من ضمن الأسرى صهر الدمستق وابن ابنته [١] وتغنى أكثر شعراء سيف الدولة بهذه الموقعة ، فقال أبو فراس [٢] :

وحسبي بها يوم الأحيدب وقعة على مثلها في العز تُثنى الخناصرُ [٣]
عدلنا بها في قسمة الموت بينهم وللسيف حكم في الكتيبة جائرُ
إذا الشيخ لا يلوي ونقفور مُجحِرٌ وفي القيد ألفٌ كالليوث قساورُ
لم يبقَ إلاّ صُهرُه وابن صهرِهِ وثوَّر بالباقينَ من هو ثائرُ

ووصف المتنبي الموقعة بقصيدته الميمية الرائعة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقيين الغمائمُ

وترتب على الهزيمة الساحقة التي حاقت بالبيزنطيين أن أرسل الأمبراطور

---

(١) نخب تاريخية وادبية ص (١٠٦) .
(٢) ديوان ابي فراس ــ شرح ابن خالويه (٢ / ١٤٥) .
(٣) الاحيدب ــ اسم جبل مشرف على الحدث ــ معجم البلدان (١/١٥٧).

قسطنطين سفارة إلى سيف الدولة يلتمس منه الصّلح غير أنه رفض أن يستجيب لطلبه [1] .

وفي سنة ٣٤٥ غزا سيف الدولة بلاد الروم ووطىء من أرضهم موطئاً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين سنة وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل وغنم ما يفوت الإحصاء من الدواب والديباج وعاد سالماً إلى آمد [2] وبقدر ما أحرز سيف الدولة من نصر في هذه الموقعة مني بخسارة كبيرة بأسر ابن عمه أبي العشائر القائد الحمداني الكبير الذي خلفه على حصن عرنداس فقصده ليون بن الدمستق وأسره وحماه إلى القسطنطينية فمات بها [3] .

وفي سنة ٣٤٦ لجأ الروم إلى الغدر والخيانة لإحراز النصر على سيف الدولة فتآمروا مع بعض غلمانه على أسره ولكن أحد القادة المعروف بابن كَيَغَلَغَ كشف أمر المتمردين وقضى الأمير على المحاولة الغادرة [4] .

وفي عام ٣٤٩ أوغل سيف الدولة في بلاد الروم فأحرز نصراً وعاد غانماً غنائم كثيرة إلاّ أن الروم أخذوا عليه الدرب المعروف بدرب « **مغارة الكحل** » فتحاربوا فغُلب سيف الدولة وحلت به الهزيمة وارتجع الروم ما كان سيف الدولة قد أخذه من سبي وأسرى وغنيمة وأُخذت جميع خزائنه وسلاحه وكان سبب هزيمته أنه لم يستمع لنصيحة أهل طرطوس الذين أشاروا عليه ألاّ يسلك ذلك الطريق وحذّروه فأبى أن يستمع إليهم وكان مُعجَباً برأيه يحبّ

---

(١) الدولة البيزنطية ــ السيد العريني ص (٤٢) .
(٢) اخبار الدول المنقطعة ــ خ ــ (١٥) .
(٣) زبدة الحلب (١ / ١٢٦) .
(٤) المرجع نفسه ص (١٢٧) .

أن يستبد به ولا يشاور أحداً ائلاّ يقال انه أصاب برأي غيره [1] .

وأُسر في هذه المعركة أبو فراس الحمداني كما قتل فيها أبو الحصين الرّقّي قاضي حلب [2] .

هال الروم الهزائم المتلاحقة التي ألحقها بهم سيف الدولة فأخذوا يُعدّون العدة للانتقام واستدعوا أمهر قائد من قوادهم وهو نقفور فوكاس ونقل من الجبهةالغربية إلى الجبهة الشرقية وولي إمارة الجيوش في المشرق سنة ٣٥٠[3].

وفي سنة ٣٥١ هجم نقفور عيْن زَرْبَة [4] في مائة وستين ألف مقاتل وبهذا الجيش اللجب أحاط نِقْفُورُ بالمدينة فلما رأى أهل عين زَرْبَة أن الجبل قد ملك عليهم وأن جيشاً آخر ورد إلى باب المدينة وأن مع الدمستق دبابات كثيرة وأنه قد أخذ في نقب السور طلبوا منه الأمان فأمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها فوجد خيله الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إعطائهم الأمان فنادى في البلد من أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع وأن من تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنـــه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألف رجل وكل من وجدوه في منزله قتل فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجمع منه أمر عظيم . . . وقطع ما في البلد من النخل فقطع نحو خمسين ألف نخلة ونادى فيمن حصل في المسجد الجامع من الناس

---

(١) الكامل ــ ابن الاثير (٦ / ٢٥٨) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١٣١) .
(٣) الامبراطورية البيزنطية ــ نبيه عاقل ص (٢٠٤) .
(٤) في معجم البلدان لياقوت عين زربى ــ بفتح الزاي وسكون الراء وياء موحدة والف مقصورة ــ يجوز أن يكون من زرب الغنم وهو ماواها وهو بلد بالثغر من نواحي المصيصة ٣ / ١٧٧ .

بأن يخرجوا من البلد إلى حيث شاءوا وأن من أمسى ولم يخرج قتل فخرج الناس مبادرين وتزاحموا في الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ومرّوا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون إلى أين يتوجهون فماتوا في الطرقات ومن وجد في المدينة آخر النهار قتل وأخذ كل ما خلفه الناس من أمتعتهم وأموالهم وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الإسلام واحداً وعشرين يوماً فتح فيها حول عين زربة أربعةً وخمسين حصناً [1] .

لقد ظهرت وحشية البيزنطيين في هذه المعركة بصورة جلية واضحة فكانت النساء والأطفال وحتّى أشجار النخيل طعمة لنيران حقدهم ولقد آلمت المأساة الدامية نفس الأمير الحمداني فسارع إلى عين زَرْبَة . وأعاد تشييد ما تخرب منها .

ثم إن نِقْفُورَ قصد حلب في هذه السنة بجيش يبلغ تعداده مائتا ألف جندي ولم يشعر سيف الدولة بخبرهم حتّى قربوا منه فأنفذ غلامه نجا في جمهور عسكره ولكن جيش الروم خالفه في الطريق ولم يلتق به ، وأسرع الأمير الحمداني للقاء الروم خارج حلب في أربعة آلاف جندي ولكنه تيقن ألاّ طاقة له بمحاربة هذا العدد الضخم فعاد إلى عاصمته وبذل خزائن السلاح للرعية وفي الصباح شارف العدو على المدينة ونشبت معركة طاحنة غير متكافئة من ناحية العدد وقتل عدد من قادة الجيش الحمداني منهم أبو داود بن حمدان وبشرى الصغير غلام سيف الدولة وأبو محمد الفياض كاتبه واضطر سيف الدولة أن يتراجع نحو بالس لكي يعيد تنظيم جيشه ويطارده ابن الشمْشقيق في عشرة آلاف من الفرسان . وأحاط الجيش الرومي بالمدينة وقاوم أهلها

---

(١) نخب تاريخية ـــ كانار ـــ ص (١٣٨) .

بكل شجاعة وبسالة إلاّ أن بعض اللصوص قاموا بالاعتداء على بيوت المدينة مما اضطر المدافعين أن ينصرفوا لحماية بيوتهم فانقض الروم على السور وتمكنوا من فتح ثغرة كبيرة فيه واقتحموا المدينة وأعملوا القتل والنهب وأحرقوا مسجد المدينة وخربوا قصر الحَلْبَة ونهبوا كل ما فيه من سلاح وعتاد وخيل وحرير وديباج وألوان وعلى الرغم من سقوط المدينة بيد البيزنطيين لم يستطيعوا احتلال قلعتها التي اعتصم بها عدد من أهالي المدينة وظلت منيعة تصد كل المحاولات لاقتحامها [1] . وقتل أمامها ابن أخت الدمستق فانتقم لمقتله بقتل من معه من الأسرى وكانوا ألفاً ومائتي رجل .

وأقام نقفور بالمدينة تسعة أيام ثم ارتد عن المدينة ولعل ذلك القرار راجع لخشيته من أن يقوم سيف الدولة بهجوم مفاجىء لا سيما بعد أن شاع انحياز نجا إليه في قنسرين . ويقول شلمبرجر المستشرق الفرنسي : «كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره كما كان عظيماً في انكساره وكانت أمبراطورية البيزنطيين تخافه منتصراً وتجله منكسراً [2] ».

وما كادت الجيوش البيزنطية ترتد عن حلب حتى دخل سيف الدولة حلب وانصرف إلى إزالة ما تخرب ونقل إليها من استطاع جمعه من سكان مدينة قنسرين المجاورة وأعاد بناء أسوار حلب .

ورغم الهزيمة القاسية التي لحقت بالأمير الحمداني لم يفت ذلك في عضده ولم يذهب بثبات عزيمته فلقد أعاد تنظيم جنده ووجّه ثلاثة جيوش للهجوم على الروم وأوغلت جيوش المسلمين من طرسوس في بلاد الروم حتى وصلوا قونية فأوقعوا بالبيزنطيين وانتصروا عليهم وتوجه نجا غلام سيف الدولة من

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٣٣) .
(٢) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ــ سامي الكيالي ص (١١٢) .

ناحية ملطية ، وعلى الرغم من المرض الذي ألمّ بسيف الدولة توغل بعسكره في الأراضي البيزنطية وحصل من السبي على أكثر من ألفين ومن المواشي على مائة ألف .

والجدير بالذكر هنا أن الحرب التي خاضها سيف الدولة ضد الدولة البيزنطية لمدة عشرين عاماً قد اتسمت بالصبغة الدينية ، ويمكن القول بأنها كانت حرباً صليبية قبل بدء الحروب الصليبية المعروفة وكانت هذه الحرب جهاداً قام به سيف الدولة على أحسن الوجوه فتصدى للخطر البيزنطي تصدياً شجاعاً .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا تزمكسيس هو أول من فكر في الشروع في الحروب الصليبية عندما فكر في استرجاع بيت المقدس من المسلمين في زحفه على بلاد الشام سنة ٣٦٤ وبذلك يكون قد سبق الحروب الصليبية بنحو مائة سنة تقريباً[١] ولكن الواقع أن نقفور فوكاس الذي سبق تزمكسيس ببضعة عشر عاماً يعد في رأينا أول من تبنى الحروب الصليبية ونفذها بحيث أنها كانت تسيطر على تفكيره في كل حملة قادها ضد سيف الدولة والحمدانيين .

والشواهد التي تدعم هذا الرأي كثيرة ، فنقفور عندما فتح طرسوس عام ٣٥٤ صعد منبرها وقال لمن حوله « أين أنا » فقالوا على منبر طرسوس فقال « لا » ولكني على منبر بيت المقدس وهذه كانت تمنعكم من ذلك[٢] .

ويبدو أن فكرة الاستيلاء على بيت المقدس كانت تراود نقفور كثيراً

---

(١) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ـ د. ابراهيم احمد العدوي ص (١٢٦) .
(٢) زبدة الحلب ص (١٤٢) .

وقد وضح ذلك من موقفه في طرسوس كما أنه يتضح من حملته سنة ٣٥٥ التي عاث خلالها في بلاد الشام وأقام بها نحو خمسين يوماً فبعث سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة قائلاً أن نقفور قد عسكر بالدرب ومنع رسولنا ابن المغربي أن يكتب بشيء ، فقال لا أجيب سيف الدولة إلاّ من انطاكيّة ليذهب عن الشام فانه لنا ويمض إلى بلده ويهادنْ عنه وأن أهل انطاكيّة راسلوا نقفور وبذلوا له الطاعة وأن يحملوا إليه مالاً وأنه التمس منهم يد يحيى ابن زكريا عليهما السلام وأن يدخل بيعة انطاكيّة ليصلي فيها ويسير إلى بيت المقدس [1] . وقد كشف هذا القائد عن نواياه حين خاطب أهل القرى العربية بعد عودته من الهجوم على حلب قائلاً ارعوا فهذا بلدنا وبعد قليل نعود إليكم [2] . وقد كان نقفور يمهد لفكرته الصليبية في القسسطنطينية حيث كان يظهر في أعياد الفصح مرتدياً ملابس غريبة مذهبة منتعلاً نعلاً مذهباً تشبهاً بالسيد المسيح [3] .

وكان الجند البيزنطيون يحملون خلال المعارك راياتهم التي تزينها صور القديسين المقاتلين والصلبان الكبيرة حتّى تعطي الحرب صبغة مقدسة [4] .

وكان الروم في أناشيدهم يسمون سيف الدولة عدُوّ المسيح فيقولون : « النصر لله الذي هدم البلاد العربية والنصر لله الذي شتت شمل من ينكر التثليث المقدس والنصر لله الذي جلل بالخيبة هذا الامير القاسي عدو المسيح » [5] .

ويرى الدكتور درويش الجندي أن طابع حرب الحمدانيين ضد الروم

---

(١) نخب تاريخية وادبية ـ كانار ـ ص (١٩٥) .
(٢) ابن الشحنة ص (٤٩) .
(٣) ابن سعيد الانطاكي ص (١٠٧) .
(٤) الدولة البيزنطية د. سيد عريني ص (٤٢٥) .
(٥) شعر الحرب ـ المحاسني ص (٢٥٦) .

لم يكن دينياً وأن الحمدانيين قاتلوا من أجل الملك حيث يقول : أكبر الظن أن النزعة الدينية عند بني حمدان وعند سائر حكام ذلك العصر جميعاً كانت في الدرجة الثانية بعد شهوة الملك ونزعة التغلب ، وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم كان السبب الأول وأن الحرب لم تكن حرباً مذهبية . ويستطرد قائلاً : نعم لقد حمى سيف الدولة بحروبه مع الروم ذمار السلام ويحمد له الإسلام والمسلمون هذا الفضل ولكن غيرته على ملكه وحبه الاحتفاظ به وبسط رحابه كل ذلك كان الدافع الأول لما بذله من جهود في تلك الحروب الشعواء وإذا كان يحارب غير المسلمين من الروم فلماذا حارب الأخشيديين وقد كانوا مسلمين [1] .

وإني لا أوافق هذا الرأي وأرى أن الحرب كان دافعها الأول كما اتضح لنا دافعاً دينياً وخير دليل على ذلك أن جيوش سيف الدولة عندما كانت تنطلق لقتال الروم كانت تزود بخطب الجهاد التي تثير في نفوسهم الحمية الدينية وتدفعهم للاستماتة في القتال والاستشهاد في سبيل الله ، وكان ممن يقوم بهذه المهمة ابن نُباتة الفارقي خطيب سيف الدولة الحمداني الذي اشتهر بخطبه الحماسية في الجهاد التي كانت تهز قلوب المسلمين هزاً فلا يكاد ينزل عن المنبر حتى تنطلق جحافل المسلمين إلى قتال الروم وهي تبحث عن الشهادة في ساحات الوغى في سبيل الله .

أما بالنسبة لقول الجندي : إذا كان سيف الدولة يحارب غير المسلمين من الروم فلماذا حارب الإخشيديين وقد كانوا مسلمين . فان الأمير الحمداني لم يسع لقتال الإخشيديين وموقفه كان موقف الدفاع كما أنه كان متسامحاً كريماً معهم ففي موقعة الرستن التي خاضها ضد كافور انهزم الأخشيديون

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة ـ درويش الجندي ص (٨٣) .

وازدحم جماعة منهم في جسر الرستن ووقع جماعة منهم في النهر فرفع الأمير الحمداني السيف وأمر جنده ألا يقتلوا أحداً من الإخشيديين قائلاً « الدم لي والمال لكم » وأسر نحو أربعة آلاف من الأمراء وغيرهم . ثم بعد قليل أطلق سراحهم طائعاً مختاراً فمضوا وهم يشكرون صنعه .

ولقد جهد سيف الدولة لعقد صلات سلمية مع الإخشيديين وبعد عقد الصلح معهم انصرف بكل جهده لمقاومة البيزنطيين ولم يجر بينه وبينهم أي اصطدام طوال مدة حكمه كما أنه كان يحرص على حسن العلاقة مع البويهيين والخليفة وحتى عندما تمكن معز الدولة من طرد ناصر الدولة من الموصل وجاء الأخ الطريد إلى حلب واستقبله سيف الدولة استقبالاً حافلاً حاول بكل جهده ألا يصطدم بالبويهيين فعرض عليهم المفاوضة والصلح وعقد باسمه دون اسم أخيه الاتفاق وتعهد بدفع الجزية السنوية .

وخلاصة القول أن سيف الدولة كرس كل جهده لمقارعة الروم والدفاع عن ذمار المسلمين ودرء خطرهم ووقف زحفهم الصليبي . وأن حرب البيزنطيين ضده كانت حرباً صليبية صريحة وسابقة للحروب الصليبية المشهورة بفترة طويلة .

الأحداث الداخلية :

واجه سيف الدولة أخطاراً داخلية اضطر من أجل القضاء عليها إلى خوض المعارك وكان يخوضها مرغماً لأنه كان يحس بالخطر الكامن على حدود إمارته والمتمثل في البيزنطيين وأطماعهم ، وكان في إمكانه أن يحرز نصراً أعظم على الروم لولا أنه اضطر أحياناً لمقارعة الأخاشدة ومحاربة بعض القبائل العربية حيناً آخر وبعض القرامطة والعمال والقواد المتمردين .

كانت بعض القبائل العربية تزيد من هموم الأمير بين الحين والآخر

بثوراتها التي كانت تهدف للعبث والفساد والسلب والنهب ولكنه كان لها بالمرصاد ففي سنة ٣٤٣ أوقعت القبائل النزارية واليمانية بعامل سيف الدولة في قنسرين فأوقع بهم الأمير الحمداني وقتل وجوههم وسَراتَهُمْ :

ويتغنى أبو فراس في تلك الموقعة فيقول مفتخراً [١] :

ألم ترنا أعزّ الناس جاراً وأمرعهم وأمنعهم جنابا
لنا الجبل المطلّ على نزار حللنا النجْدَ منه والهضابا
فلما أن طغت سفهاء كعب فتحنا بيننا للحرب بـــابا
منحناها الرغائبَ غير أنّا إذا شئنا منحناها الحِرابـــا

وعلى الرغم من عصيان هذه القبائل كان سيف الدولة رحيماً يصفح ويعفو بعد أن يقضي على محاولاتها . ولقد أحفظه بنو كلاب الذين أدناهم وقرّبهم فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حُرَمَهم وأموالهم ثم صفح عنهم وكرم وجمع الحرم ووكل بهن الخدم وأفضل عليهن وأحسن إليهن ليسل بكرمه أضغان هذه القبائل ويردها إلى حظيرة الطاعة . ولقد أحسن أبو فراس تصوير ذلك بقوله [٢] :

وما أنس لا أنس يومَ المغا رِ محجبةً لفظتهـــا الحجبْ
دعاك ذووها بسوء الفعالِ لما لا تشاء وما لا تحبْ
فوافتْك تعثُرُ في مِرْطِهـــا وقد رأت الموت من عن كثبْ [٣]
وقد خلَط الخوفُ لمّا طَلَعْـ تَ دَلَّ الجمال بذُلِّ الرعبْ

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١١) .
(٢) الديوان (٢ / ١٨) .
(٣) المرط : كساء من صوف ونحوه .

تُسارعُ في الخَطْوِ لا خِفّةً وتهتزُّ في المَشْي لا من طرَبْ
فلما بدتْ لك دون البيوت بدا لك منهنّ جيشٌ لجِبْ
فكنت أخــاهُنَّ إذْ لا أخٌ وكنتَ أباهُنَّ إذْ ليس أبْ
وما زلتَ مذ كنتَ تأتي الجميلَ وتحميْ الحريمَ وترعى النَّسَبْ
وتغضَبُ حتى إذا ما ملكتَ أطعتَ الرّضا وعصيْتَ الغضَبْ
فولّيْن عنْكَ يفــدّينَهــا ويرفَعْنَ من ذيلها ما انسحَبْ
ينــادينَ بــين خلال البيو ت لا يقطعُ اللهُ نسْلَ العرَبْ
أمرتَ وأنتَ المُطاعُ الكريمُ ببَذْل الأمانِ وردّ السَّلَبْ

ويقول المتنبي واصفاً رفق الأمير بقومه من العرب :

وكيف يتمّ بأسك في أناس تصيبهم فيؤلمكَ المصاب

ويذكر الببغاء حلم الأمير وعفوه عن بني كلاب [1] :

إذا استلكَّ الجانونَ أغمدك الحلم وإن كفّك الإبقاء أنهضك العزم
لذا العُرْبُ لم تجْز اصطناع ملوكها بشكر تمادت في سياستها العجم
أعدها إلى عادات عفوك محسنــاً كما عودتها قبل آباوك الشمُّ
فان ضاقَ عنها العذرُ عندك في الذي جنته فما ضاق التفضل والحلم

وبقدر ما كان سيف الدولة رحيماً بالقبائل العربية كان شديداً على الروم شديداً على القرامطة وذوي الدعوات الهدامة يضربهم في عنف وقسوة كما فعل بالمبرقع ٣٣٦ ه الذي أخذ يدعو الناس إلى نفسه في بادية السماوة وافتتح

(١) نشوار المحاضرة ــ ابو المحسن التنوخي (١ / ١٠٣) .

مدائن أطراف الشام وأسرَ أبا تغلب بن داود بن حمدان وهو نائب سيف الدولة على حمص وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال فأسرع إليه سيف الدولة من حلب يغذ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به وقتله ووضع السيف في أصحابه فلم ينْجُ إلاّ من سبق فرسه وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل وبين يديه رأس الخارجي على رمح (١) .

وقد صوَّر أبو فراس هذا الحدث بقوله (٢) :

وأنقذ من مسّ الحديد وثقله	أبا وائل والدهر أجدع صاغر
وآب ورأس القرمطي أمامه	له جسد من أكعب الرمح ظاهر

وذهب بعض الباحثين إلى أن سيف الدولة قد صانع القرامطة رتفادى الاصطدام بهم وذكروا مثالاً على ذلك أنه في سنة ٣٥٣ استهدى الهَجَريّون من سيف الدولة حديداً فقلع سيف الدولة أبواب الرَّقّة وهي من حديد وسد مكانها وأخذ حديداً بديار مضر حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين ثم كتبوا إليه أنّا قد استغنينا عن الحديد فأخذ القاضي أبو حصين الأبواب فكسرها وعمل منها أبواباً لداره . ثم كتب الهجريون يلتمسون الحديد فأخذ الأبواب التي عملها أبو حصين وسائر ما قدر عليه من الحديد وحمله في الفرات إلى هيت تم منها إليهم في البرية (٣) .

ولا نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا القول ونسلم به وإليك الدليل الذي يدفعنا إلى الشك ويقوي في النفس رفض هذه الرواية ودحضها ، تزعم الرواية أن القاضي أبا حصين أخذ سنة ٣٥٣ الأبواب فكسرها وعمل منها أبواباً

---

(١) يتيمة الدهر الطبعة الثانية (١ / ٣٦ ـ ٣٧) .
(٢) ديوان أبي فراس ـ شرح ابن خالويه (٢ / ١٤٧) .
(٣) تجارب الامم ـ مسكويه (٢ / ٢٠٣) .

لداره وذلك عندما كتب القرامطة إلى سيف الدولة أنهم استغنوا عن الحديد . بينما من الثابت المؤكد أن القاضي أبا حصين لم يكن على قيد الحياة آنذاك إذ كان قد قتل سنة تسع وأربعين وثلثماية في غزوة مغارة الكحل .

وفي سنة ٣٥٤ ه خرج مروان العقيلي وكان من مستأمنة القرامطة واستطاع أن يدخل حلب أثناء غياب سيف الدولة عنها من أجل الفداء ولكن مدته لم تطل فيها حيث مات من ضربة ضربه بها أحد غلمان سيف الدولة [١] .

وقد خرج كذلك بعض عمال وقواد سيف الدولة وأعلنوا التمرد والعصيان وذلك لِما شعَروا به من قوة ومنعة خاصة في الفترة الأخيرة من حكم سيف الدولة .

ففي سنة ٣٥٢ ه حاول هبة الله بن أخيه ناصر الدولة التمرد في حَرّان [٢] وأرسل سيف الدولة غلامه نَجا إلى حَرّان ليعيدها إلى حظيرة الأمير فما أن علم هبة الله بذلك حتى هرب إلى أبيه بالموصل [٣] ولكنّ نجا نفْسَه خرج من حرّان إلى ميافارقين ، وهناك أظهر العصيان ولم يكتف بذلك بل كاتب معز الدولة البويهي يعِدُه المعاضدة والمساعدة على بني حمدان وسار إليه سيف الدولة يريد تأديبه وقتاله فهرب نَجا ثم أرسل إليه الأمير يرَغّبه ويرهّبه فرجع إلى سيده الذي أحسن إليه وأعاده إلى سابق رتبته إلاّ أن غلمان سيف الدولة وثبوا عليه فقتلوه فحزن الأمير حزناً شديداً [٤] .

وفي سنة ٣٥٤ خرج أهل إنطاكيّة عن طاعة الأمير وحدثت الفتنة التي

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٤٧ ـ ١٤٨) .
(٢) من الاماكن المشهورة في لواء الرها وكانت قصدة ديار مضر ، صورة الارض ابن حوقل ص (٢٢٦) .
(٣) الكامل ـ ابن الاثير (٧ / ٧) .
(٤) الكامل ـ ابن الاثير (٧ / ٩) .

قام بها الحسن الأهوازي في انطاكيّة وكان عاملاً عليها من قبل سيف الدولة فثار بمصاحبة رشيق النسيمي أحد قواد سيف الدولة الحمداني في الثغور إلاّ أن الأمير الحمداني استطاع أن يخضع الثائرين ويقتل القائمين بالفتنة وأعاد انطاكيّة إلى طاعته [1] .

ويظهر مما تقدم أن سيف الدولة قد ضعف في آخر عمره لمرض لحقه إذ أنه أصيب بالفالج وقد أدى ضعف الأمير إلى انهيار تلك الوحدة التي حققها بين أطراف دولته وانعدام الاستقرار الذي أوجده وبذل من أجله الكثير .

وفاة سيف الدولة

حياة سيف الدولة كان معظمها جهاداً وجلاداً وكفاحاً ونفاحاً ، إما مع الزوم وإما مع المنقضين عليه من القبائل النازلة في ملكه أو القرامطة أو بعض العمال والقادة المتمردين الخارجين .

وحسبك أن سيف الدولة كان قد جمع من نفض الغبار الذي أصابه في الغزوات ما تكوّن منه لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده فنفذت وصيته [2] .

ولقد قضى الأمير المجاهد نحبه سنة ٣٥٦ فاشتد بكاء الناس عليه ومنه كما يقول الأزدي [3] فتذرف الناس الدمع عليه لأنه كان فارساً مجاهداً وأديباً حانياً على كثير من الأدباء والشعراء والعلماء وبكوا منه لأنه كان يجور على رعيته في بعض الأحيان .

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٤٨) .
(٢) العبر في خبر من غبر ــ الحافظ الذهبي (٢ / ٣٠٦) .
(٣) اخبار الدول المنقطعة ــ خ ــ (٢١) .

ولقد أُثِرَ عن أبي الحصين الرّقّي قاضي سيف الدولة قولُه « كُلُّ مَنْ هَلَكَ فَلِسَيْفِ الدّولَةِ ما مَلَكَ »[1] .

وقد نقل إلى ميافارقين ودفن في مقبرة أمّه داخل المدينة[2] .

وبوفاة الأمير الحمداني ضعف شأن الحمدانيين وتزعزعت دولتهم في حلب وخلفه ابنه سعد الدولة وبقي حاكماً إلى أن توفي سنة ٣٨١ هـ فملك بعده ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة وبقي في الحكم إلى أن توفي سنة ٣٩٢ هـ وبموته انقرض حكم الحمدانيين في حلب .

---

(١) زبدة الحلب (١/١١٢) .
(٢) ابن خلكان (٢ / ٩٩) .

– ٢ –

تشجيع سيف الدولة للأدباء والشعراء

لقد انتشى الشعر في بلاط سيف الدولة واهتزت أعطافه وسالت به الأودية وارتفعت له أعلام خافقة وقامت في ميدانه سوق نافقة ، ويرجع أكبر الفضل في إشعال جذوته وإيقاد شعلته إلى الأمير الحمداني الذي شُغِفَ بالعلم والأدب وفاز الشعر منه بأعظم عناية وأسمى رعاية ولقي الشعراء في أكنافه جاهاً عريضاً وغنى واسعاً ، فلقد نثر عطاياه لكل ناظم وفتح قصره لكل ناغم وأغدق منحه على المجيدين السابقين .

ومما ساعد على تقدير الشعر وتكريم الشعراء أن الأمير كان على جانب عظيم من الثقافة والبصر بمواطن الجمال والقدرة على تمييز الخبيث من الطيب .

وكان الأمير الحمداني يمتاز بذوق أدبي بالغ دفعه إلى وزن الآثار الأدبية بميزان الذهب على قانون النقد الصحيح وجعل في قدرته المفاضلة بين الشعراء والأدباء بلغة الناقد المتفحص . وبسبب هذه الروح التي بثها الأمير الحمداني سمقت شجرة الشعر الفينانة وأينعت ثماره وامتدت أغصانه . وكثر الشعراء الوافدون وتضاعف عددهم فكان بلاط الأمير ملتقى الشعراء ومنتدى الأدباء ومنهم بالإضافة إلى المتنبي أبي الطيب من الشعراء الفحول أبو العباس النامي والصنوبري وعلي بن عبد الله الناشىء والسريُّ الرَّفاء وأبو الفرج الببَّغاء

وأبو الفرج الوأواء وأبو الفتح كُشاجِمُ وأبو نصر بن نُباتة السعدي وأبو العباس الصفري والخالديان وأبو القاسم الشيظمي وغيرهم .

ولقد عادت جهود الأمير على الأدب باليمن والبركة فبرَّزَ الشعراء في رحابه وبزوا أقرانهم وفاقوا أمثالهم وهذا هو الثعالبي يقول : « والسبب في تبريز القوم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهُم عن بلاد العجم وسلامةُ ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنَّبَط ومداخلتهم إيّاهم ، ولمّا جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم وبالجمع بين أدوات السيف والقلم وما منهم إلاّ أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفْضِل—انبعثت قرائحهم في الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا [1] .

ولقد كان جُودُ الأمير وعطاؤه عاملاً له أهمية كبيرة في تلك النهضة الشعرية التي شهدَتْها حلب ،ولقد ذاع صيت سيف الدولة بجوده وكرَمه حتى أنشأ بديع الزمان الهمذاني مقامة سماها « المقامة الحمْدانيّة » صوَّر فيها ما كان يجري في مجلس الأمير حيث عُرِض عليه فَرَسٌ أصيل لحظته الجماعة فقال :—أيكم أحسن صنعته جعلته صلته فكلٌّ جَهَدَ جُهْدَهُ وبذل ما عنده [2]. وهذه القصة الخيالية تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء وأمثالهم .

كما أن ثقافة الأمير وتذوقَه للأدب ونَقْده كان له دور مهم في ذلك الإشعاع الفكري والأدبي ، ويجب ألاّ يأخذنا العجب مما يروى عن سيف

---

(١) يتيمة الدهر (١ / ١٢ — ١٣) .
(٢) مقامات الهمذاني ص (١٥١) .

الدولة في هذا الشأن فقد كان كما اتضح لنا سابقاً ـ صاحب ثقافة واسعة عميقة ولقد هيأت له بيئته الخاصة التي نشأ فيها حياةً مثقفةً لها حظ من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة في بغداد .

وتظهر ثقافته في أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن وقدرته على التمييز الدقيق فيما يقال في مجلسه ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء وفي أن تتفرع فيها الثقافات فتزهر الفلسفة إلى جانب العلم وتزدان علوم الدين إلى جانب علم اللغة والأدب [1].

وحسبنا أن نقولُ إن هذا الجو الذي أوجده سيف الدولة في حلب وهذا الاهتمام الكبير الذي أبداه بالشعر والشعراء شجع كل من كان عنده قدرة فنية على قول الشعر والإجادة فيه ، فبائع البطّيخ وهو الوأواء الدمشقي أصبح شاعراً كبيراً وكُشاجم الذي قيل انه كان طباخ سيف الدولة أصبح مع هذا شاعراً ظريفاً وكذلك قيّما المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين مشهورين. ولقد كثُر الشعراء في عهد سيف الدولة كثْرة نادرة حتى أن الثعالبي يقول لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [2].

ولقد كانت ميزات سيف الدولة مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة فهو عربي من تغلب يعتز بنسبه ومجد بيته وفيه الطباع العربية التي اشتهرت في البيوتات الكبيرة فكان يطمح كل الطموح لحسن الأحدُوثة ولذلك كان يهمّه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يُشيدُون

(١) مع المتنبي ص (١٨٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ١١) .

بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحاً فيه ، ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء وفخر ونُصرَة للضعيف ومعونة للبائس والفقير ، وكان يرى المجد والمروءة في الزهادة في المال معتزاً بالشرف مغدقاً على الأصدقاء والشعراء [1] .

ولقد كان الأمير الحمداني مقصد الشعراء والأدباء حيث ينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته وكان قد أمر بضرب دنانير خاصة للصلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً [2] .

نحنُ بجُودِ الأمير في حَرَمٍ   نَرْتَعُ بين السّعودِ والنّعَمِ
أبدعُ من هذه الدّنانيرِ لَمْ   يَجْرِ قديماً في خاطر الكرمِ
فقد غدَتْ باسمهِ وصورتِهِ   في دهرنا عُوذَةً من العَدَمِ

فزاده عشرة أخرى . والأمثلة كثيرة على ما لقي الشعراء في بلاط سيف الدولة من رعاية فائقة وعناية بالغة ، ولهذا لا عجب أن تكون حلب في عهده ملتقى الشعراء من الشرق والغرب .

ومن تلك الأمثلة أن أبا فراس كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولي ، وليس له إلاّ سيدي « يعني أبا فراس » :

لكَ جسْمي تُعِلُّهُ   فدَمي لِمَ تُحِلُّهُ
لكَ منْ قلبي المَكا   نُ فلِمَ لا تَحُلُّهُ

---

(١) ظهر الاسلام ـ احمد امين ص (١٧٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٠) .

فارتجل أبو فراس قوله :

أنا إن كنتُ مالِكاً فَلِيَ الأمْرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنبج تُغِلّ ألفي دينار [١] .

وحدث أبو الحسن علي بن محمد الهَمْذاني قال : كنت واقفاً بين السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء يُنشدونَه فتقدم إليه أعرابي رثّ الهيئة فاستأذن الحجّاب في الإنشاد فأذنوا له . فأنشد :

أنتَ عَلِيٌّ وهَـــذِهِ حَلَبُ قد نَفِدَ الزّادُ وانتهى الطَّلَبُ
بهذهِ تَفْخَرُ البِلادُ وبـــالْـ أميرِ تُزْهَى على الوَرَى العَرَبُ
وعَبْدُكَ الدَّهرُ قَدْ أضرَّ بِنا إليكَ مِن جورِ عبدِكَ الهَرَبُ

فقال سيف الدولة : أحسنت ولله أنت ! ! وأمر له بمائتي دينار [٢] .
ولقد كان للمتنبي منزلة خاصة لدى الأمير ولقي في ذُراهُ كرماً وافراً وعطاءً كبيراً فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار إزاء ثلاث قصائد يُنشدُها إيّاهُ كل عام [٣] .

وقد أعطى سيفُ الدولة أبا الطيب المتنبي ضيعة بالمعَرَّة اسمُها صَفٌ إقطاعاً له [٤] .

وقد روى ابن حِجّةَ الحَمَويّ في ثمرات الأوراق « أن سيف الدولة انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل رجل شامي فأنشده :

---

(١) اليتيمة (١ / ٢١) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٠) .
(٣) الصبح المبنى عن حيثية المتنى ص (٤٦) .
(٤) أعلام النبلاء (١ / ٢٨٨) .

وكانوا كفأرٍ وَسْوَسُوا خلفَ حائطٍ وكُنتَ كسِنَّوْرٍ عليهِم تَسَقَّفا

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببكائه فرقّ له وأمر بردّه وقال له : مالك تبكي ؟ قال : قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بكَيْتُ ، فقال له سيف الدولة ويلك فمن يكونُ له مثل هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم . وكم كنت أمّلْتَ ؟ قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف [1] .

وذُكِر أن الشاعر الأحصى دخل على سيف الدولة فأنشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له اعْذُرْ فما يتأخّر حَمْلُ المال إلينا فإذا بلغك ذلك فإننا لنضاعف جائزتك ونحسن إليك .

ثم اتفق أن حُمِلَ إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بَغْلٌ بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحصى فأخذ ما عليه من المال وأطلقه ثم دخل حلب ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها :

ومَن ظنّ أن الرزق يأتي بحيلةٍ فقد كذَبَتْه نفسُه وهو آثمُ
يفوتُ الغِنى مَنْ لا ينام عنِ السُّرى وآخرُ يأتي رزقه وهو نائمُ

فقال سيف الدولة بحياتي وصل إليك المال الذي كان على البغل فقال نعم : فقال خذه بجائزتك مباركاً لك فيه [2] . وهذه القصة التي يغلب عليها الوضع تحمل بين طياتها دلالة على كرم الأمير وجوده .

---

(١) نخبة تاريخية ـ كانار ـ ص (٣٥٠) .
(٢) معجم البلدان ـ ياقوت (١ / ١١٤ ـ ١١٥) .

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيساً فارغاً واستأذنه في إنشاده فأذن له فأنشده قصيدة أولها :

حِبَاؤكَ مُعْتادٌ وأمْرُكَ نافِذٌ   وعَبْدُكَ مُحْتاجٌ إلى ألفِ درْهمِ

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً وأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه [1] .

ولقد ذاع صيت عطائه الواسع في سائر الأقطار الإسلامية وفي كل نادٍ ومحفل ، مما كان يدفع بعض الشعراء أن يمدحوه بُغْيةَ النوال دون أنّ يقصدوا حلب .

ولم يقتصر مدح سيف الدولة على الشعراء بل ان بعض الشاعرات هزجن بكرمه وصدحن بأريحيته . فلقد روي عن أبي علي التنوخي ــ قال أخبرني ابن عبد الله السلامي أنه كانت له ابنة خال بغدادية مخزومية تقول الشعر [2] . وقال أنشدتني لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة :

لَوْلا حذَاري مِنْ أنْ ألامَ على   عِتابِ يَوْمٍ مِنْــهُ وإعْتابِهِ
لَسِرْتُ والليلُ هَوْدَجي وذُبابُ الـ   ـسّيفِ في نَحْرِهِ إلى بابِهِ [3]

وهكذا نلحظ أن جانباً آخر غير الحرب لامعاً في شخصية الأمير الحمداني وهو نزعته الأدبية التي حفزته إلى العمل على نهضة الشعر والعلوم والآداب

---

(١) ابن خلكان (١ / ٤٦٢) .
(٢) عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد عبد الله السلامي الشاعر كانت شاعرة فصيحة مدحت عضد الدولة ببغداد وتوفيت سنة ٣٦٧ .
(٣) نشوار المحاضرة ــ التنوخي (٥ / ٢٧٠) .

ولقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية .

ويقول بروكلمان : ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول ليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه على العلوم والفنون ورعايته لها [١] .

ولقد أخذ بعض الباحثين على سيف الدولة تغالبه في الإفضال على الشعراء والأدباء فقد قال الأستاذ محمد كرد علي : كان رحمه الله يجوز أخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والأدباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا [٢] .

وقال في محاضرة ألقاها في نادي الشهباء عام ١٩٢٣ « إن ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرَم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تُجْبى هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ثم يأخذه شاعر واحد » . وهذا القول صحيح إذا قسناهُ بالمقياس المتداول في عصرنا ولكن عصر سيف الدولة يختلف عما نحن فيه كل الاختلاف فليس الغرض فيما نعتقد من هبات الأمير وعطاياه الكثيرَة للمتنبي والناشيء وأمثالهم مجرد المدح بل كانت ألسنة الشعراء تؤدي في ذلك الوقت ما تؤديه اليوم أجهزة الإعلام من الإذاعة المسموعة والجرائد والإذاعة المرئية التي تستهلك معظم ميزانيات الدول . فكانت وظيفة الشعراء أن ينشروا فضائل من تقلد زمام الحكم من سياسة

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية (٢ / ٩١) .
(٢) القديم والحديث ــ محمد كرد علي ص (١٧٧) .

وحسن تدبير وإشفاق على الرعية وقهر للأعداء ، ولذلك كانت تجرى عليهم الهبات والصلات والجوائز . وبعبارة أخرى لقد كان الشعراء وسيلة دعائية للأمير الحمداني يتغنون بانتصاراته ويسوّغون هزائمه ويدعون الناس إلى نصرته .

وخلاصة القول أن بلاط الأمير الحمداني ضم أعظم شعراء العربية من مختلف الأوطان وكانوا يتسابقون في مدح الأمير ، وليس من شك في أن شخصيته هي التي جمعت هذا العدد الفريد من الشعراء في صعيد واحد فما أن قضى الأمير نَحْبَهُ حتى تفرق هذا الجمع وانفرط هـذا العِقْدُ وانتثر هؤلاء الشعراء يضربون في بقاع الأرض شرقاً ومغرباً [1] .

وبالإضافة إلى كرم الأمير وسخائه كان ذرقه الفني وتقديره للشعر الجيد يدفع الشعراء لقصد بلاطه وعرض فنهم عليه .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني الذي يقول فيه المتنبي :

عَلِيمٌ بأسْرَارِ الدّيانَـاتِ واللُّغى   لهُ خطَرَاتٌ تفْضَحُ الناسَ والكُتُبْا

كما أن حب المنافسة كان يحفز الشعراء إلى أن يقصدوا حلب حاضرة الأمير التي كانت تموج بالشعراء والأدباء والعلماء وذلك من أجل الحصول على التفوق والغلبة ، ويضاف إلى هذا أن سيف الدولة نفسه بطلٌ عظيم وفارس شجاع ومجاهد ذاد عن حمى الإسلام والدين فكان كل هذا باعثاً للشعراء إلى التغني بانتصاراته وبطولاته والحصول على عطاياه وهباته . ولذلك كثر الشعراء في بلاط سيف الدولة كثرة نادرة فلم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [2] .

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) .   (٢) اليتيمة (١ / ١١) .

- ٣ -

أدبُ سَيْفِ الدَّولة

كان سيف الدولة أديباً شاعراً يحب جيد الشعر ويطرب لسماعه ويروى له شعر جميل يدل على شاعرية موهوبة ومن محاسن شعره وصفُه قوسَ قُزَحَ وقد أبدع فيه . وإن كان البعض قد نسبها لأبي الصقر القبيصي [1] .

وساقٍ صَبيحٍ للصَّبُوحِ دعوتُهُ ... فقام وفي أجفانهِ سِنَةَ الغَمْضَ
يطوفُ بكاساتِ العُقارِ كأنْجُمٍ ... فمنْ بينِ مُنقضٍ علينا ومُنْفَضٍّ
وقد نَشَرَتْ أيدي الجَنُوبِ مطارِفاً ... على الجود كنا والحواشي على الأرضَ
يطرِّزُها قوسُ الغمامِ بأصفرٍ ... على أحمَرٍ في أخضرٍ تحتَ مُبْيَضّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلتْ في غَلائِلِ ... مُصبّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ [2]

ومن شعره الجميل في صباه قوله :

أُقَبّلُهُ على جَزَعٍ ... كشُرْبِ الطّائرِ الفَزِعِ

(١) لأبي الصقر القبيصي ذكر في الفهرست ويفهم مما قيل فيه أنه كان من غلمان أبي عثمان الدمشقي وكان يقرأ عليه المجسطي . وفيات الاعيان (٤٠٢) .
(٢) اليتيمة (١ / ٣١) .

رأى مـــــاء فأطمعه وخافَ عواقِب الطمعِ
وصادفَ فرصَةً فدَنا ولمْ يلْتَذّ بالجزَعِ [1]

وأغلب المأثور من شعره غَزَلٌ وسبب ذلك فيما أعتقد راجع لحبه لفتاة بيزنطية سابية الحسن والجمال ، وقد ذكرها الثعالبي فقال : « ويحكى أنه كانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم لا يَرى الدنيا إلاّ بها ، ويشفق من الريح الهابّة عليها ، فحسدتْها سائرُ حظاياه على لطف محلها منه وأزمَعْنَ إيقاع مكروه بها من سم أو غيره . وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها وقال [2] :

راقبتْني العيونُ فيكِ فأشفقـ ـتُ ولم أخلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيت العَذُولَ يحسُدُني فيـ ـكِ مُجِداً يا أنفسَ الأعلاقِ
فتمنيتُ أن تكوني بعيـــــداً والذي بيْننَا من الوُدّ باقي
رُبَّ هجْرٍ يكون من خوفِ هجرٍ وفِراق يكون خوفَ فُراقِ

ويقول ابن خلكان إنه رأى أن هذه الأبيات المذكورة بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري ولا يرجّح نسبتها لأحد منهما [3] .

وله غزل رقيق أيضاً كقوله [4] :

تجنّى عليَّ الذّنبَ والذنبُ ذنبُهُ وعاتبَني ظُلْماً وفي شقّه العُتْبُ
وأعرضَ لمّا صارَ قلْبي بكفّه فهلاّ جفَاني حينَ كانَ لي القلبُ
إذا برِمَ المولى بخِدْمَةِ عبْدِهِ تجنّى له ذَنْباً وإنْ لم يكن ذنبُ

(1) اليتيمة (١ / ٣٢) .
(2) المصدر نفسه (١ / ٣٢) .
(3) وفيات الاعيان (٢ / ٤٠٢) .
(4) اليتيمة (١ / ٣٢ — ٣٣) .

ومن بديع غزله قوله [1] :

قدْ جرَى في دمْعِه دَمُهُ فإلى كمْ أنتَ تظْلمُهُ ؟
رُدَّ عنهُ الطَّرْفَ منكَ فقدْ جرَحَتْهُ مِنْكَ أسهُمُهُ
كيفَ يَسْتَطيعُ التجلُّدَ مَنْ خطَراتُ الوَهْمِ تُؤلِمُهُ ؟

ومن بديع نجياله قوله [2] :

كأنَّما النَّارُ والرَّمادُ معاً وضَوؤُها في ظلامه يُحْجَبُ
وجَنَّةٌ عذْراءُ مَسَّها خجلٌ فاسْتَترتْ تحتَ عنبرٍ أشْهبُ

وقد قال في أخيه ناصر الدولة عن وحشة جرت بينهما ، وقد كان ناصر الدولة شديداً عليه لأنه يخشاه ويتوجس منازعته في إمارة الموصل :

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ
ولم يكُ بي عنها نكول وإنما تجافيت عن حقي فتم لك الحقّ
ولا بدّ لي من أن أكون مصلياً [3] إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق [4]

وقد أنكر بعض المؤرخين جل الأشعار المنسوبة إلى سيف الدولة . قال ابن النديم فينسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة لا يصلح منها له غير بيتين ، ذكر أبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه — وهو جد الوزير أبي القاسم المغربي — أنهما لسيف الدولة — ولم يعرف له غيرهما . وكتب بهما إلى أخيه

(١) المرجع نفسه (١ / ٣٣) .
(٢) المرجع نفسه (١ / ٣٤) .
(٣) المصلي : من الخيل الذي يتلو السابق في الحلبة .
(٤) اليتيمة (١ / ٣٣) .

ناصر الدولة وقد مد يده إلى شيء من بلاده المجاورة له من ديار بكر وكانت في يد أخيه .

لسْتُ أجْفو إذا جَفَيتَ[1] ولا أتْـ ـرُكُ حقّاً عليَّ في كلّ حالِ
إنّما أنتَ والدٌ والأبُ الجَا في يُجازى بالصَّبر والاحتمالِ[2]

ونقرر أن سيف الدولة كان شاعراً رقيقاً لا يخلو شعره من عاطفة وحساسيّة وأغلب شعره الذي وصلنا يكاد لا يتعدى ما رواه الثعالبي في اليتيمة وجلّه في الغزل ولم يؤثر لسيف الدولة ديوان . وعلى ذلك يعد شاعراً مقلاّ ، وإن كان الثعالبي في حديثه عن شعره يُعَنْوِنُ له بقوله : « ملح من شعر سيف الدولة » وهذا قد يدل على أن له شعراً كثيراً غير ما ذكره صاحب اليتيمة .

وبالإضافة إلى شاعرية سيف الدولة عرف عنه أنه كان صاحب نظرات نفاذة ومعايير فنية في النقد وكان ذا باع طويل في العلم والأدب وذا مقدرة كبيرة على إدارة المجالس الأدبية وتوجيه النقد الصائب .

ولقد كان مجلسه في حلب قليل النظير فالشعراء والأدباء في مجلسه كانوا يثيرون الموضوعات المتنوعة ويسهم فيها سيف الدولة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ويجزل العطاء لمن أجاد ، فحيناً يتذاكرون الشعر القديم وتارة يسألهم إجازة شعر ومرة يناقشهم في مسألة نحوية أو مسألة لغوية حسبما اتفق[3] .

استنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها :

---

(1) جفيت مثل جفوت ــ فهي يائية وواوية .
(2) زبدة الحلب (١ / ١٥٢) .
(3) فيض الخاطر (٤ / ٧٦) .

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قَدرِ الكرامِ المكارم

وكان معجباً بها كثير الاستعادة لها فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله :

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقف كأنكَ في جَفْنِ الرَّدى وهْوَ نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهُكَ وضّاحٌ وثغركَ باسمُ

فقال الأمير :

قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتُقِدَ على امرىء القيس بيتاه :

كأنّي لم أركبْ جواداً لِلَذّةٍ ولم أتبَطّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزّقّ الرّويّ ولم أقُلْ لخيلي كُرّي كرة بعد إجفالِ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين وكان ينبغي لأمرىء القيس أن يقول :

كأنّي لم أركبْ جواداً ولم أقلْ لخيلي كري كرة بعد إجفالِ
ولم أسبأ الزّقّ الرويّ للذّةٍ ولم أتبطنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسمُ
تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

فقال : أيد الله مولانا ان الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ أمرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته

وتفاريقه/لأنه هو الذي أخرجه من الغَزَليّة إلى الثوبية وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد رقرن السماحة وشراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية : فقلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها .

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار [1] .

وهذا يدل على أن سيف الدولة قد اقتنع بحسن تخريج المتنبي وأن الأمير يتمتع بذوق فني رفيع .

وجاء في اليتيمة أن سيف الدولة بعث إلى الشاعرين أبي بكر وأبي عثمان الخالديين وكانا من خواص شعرائه رصيفة ووصيفاً ومع كل واحد منهما بدرةٌ وتختٌ من ثياب مصر فقال أحدهما من قصيدة طويلة :

لم يَغْدُ شكرُكَ في الخلائقِ مطلقاً ... إلاّ ومالُكَ في النّوالِ حبيسُ
خوّلـتَنْا شمساً وبـدراً أشرقتْ ... بهما لدينا الظلمة الحِنْدِيسُ [2]
رَشَأ أتانا وهْوَ حُسْناً يوسُفٌ ... وغزالةٌ هيَ بهجةً بِلْقِيسُ
هذا ولمْ تَقْنَعْ بذاكَ وهـذهِ ... حتى بعثتَ المالَ وهْوَ نَفيسُ
أتَتِ الوصيفةُ وهي تحمل بِدْرَةً ... وأتى على ظهرِ الوصيف الكيسُ
وبَرَدْتَنا ممّا أجادتْ حَوْكَهُ ... مِصرٌ وزادتْ حُسْنَهُ تنّيسُ [3]

---

(١) اليتيمة (١ / ٢١ ــ ٢٢) .
(٢) الحنديس ــ أصله الحندس ــ بكسر الحاء والدال جميعا ــ والحندس ــ الليل الشديد الظلمة .
(٣) تنيس ــ مدينة قديمة بمصر اشتهرت بالنسيج .

فغَدا لَنا من جودك المأكولُ والـ مَشْرُوبُ والمَنْكُوحُ والمَلبوسُ

فقال له سيف الدولة : أحسنت إلاّ في لفظة « المنكوح » فليست مما يخاطب بها الملوك . وهذا من عجيب نقده [1] .

وكان الأمير يعرف درجات الحُسْنِ في فن شعرائه وكان يميل إلى أبي العباس النامي ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي فقدمه عليه فغاظ ذلك أبا العباس وعاتب الأمير لماذا يفضل عليه المتنبي ؟ فأمسك عن جوابه وعندما ألحّ عليه مطالبه بالجواب قال لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كلّ فَتح غيرَ مفتخِرٍ وقد أغَذّ إليهِ غيرَ مُحْتَفِلِ

وكان السَّرّي الرفّاء يحسُد المتنبي على منزلته الرفيعة عند الأمير فطلب منه قصيدة من غرر قصائد المتنبي ليعارضها له ويتحقق أنه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها :

لعينِكَ ما يَلْقى الفؤادُ وما لَقي وللحُبّ ما لمْ يبقَ منهُ وما بَقي

قال السريّ : فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة ، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكني رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه :

إذا شاءَ أنْ يَلْهو بلِحيَةِ أحمقٍ أراهُ غُباري ثمّ قالَ لهُ الْحَقِ

(1) اليتيمة (١ / ٢١) .

فقلت : والله ما شاء إلاّ إلى هذا وأحجمت عن معارضة القصيدة [١] .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كثيراً ما كان يتمثل بأبيات قديمة وتعجبه أبيات يرددها أو قافية يستملحها أو معنى يستجيده فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها فمرة مثلاً ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف وهما :

أَمِنّي تخافُ انتشَارَ الحديثِ وحَظّيَ في سَتْرِهِ أوفَرُ
ولَوْ لمْ أصُنْهُ لِبُقْيا عَلَيْـ ـكَ نظَرْتُ لنفسي كما تنظرُ

واستحسن المعنى فأرسل رسولاً مستعجلاً لأبي الطيب المتنبي ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رِضاكَ رِضايَ الّذي أُوثِرُ وسِرُّكَ سِرِّي فَما أُظْهِرُ [٢]

وجاء في كتاب الكنايات للجرجاني : سمعت الطبري يقول كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بحلب فدخل عليه ابن عم له فاستبطأه الأمير وقال له أين كنت اليوم وبما اشتغلت فقال له : أيد الله مولانا حلقت رأسي وأصلحت شعري وقلمت أظافري فقال له : لو قلت أخذت من أطرافي لكان أوجز وأبلغ [٣] .

وقال ابن خالويه : دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي : أقعد ، ولم يقل أجلس فتبينت بذلك أعلاقه بأهل الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند

---

(١) خزانة الادب ــ ابن حجة ــ ص (٢٣١) .
(٢) فيض الخاطر ــ أحمد أمين (٤ / ٧٥) .
(٣) أعلام النبلاء ــ محمد راغب الطباخ ص (٢٨٥) .

أهل الأدب أن يقال للقائم أقعد وللنائم والساجد أجلس [1] .

ومما يدل على ثقافة سيف الدولة الواسعة وعنايته الكبيرة بالأدب وتوجيهاته النقدية الصائبة أنه كتب إلى أبي عبد الله الحسين بن خالويه يسأل عن دمشق هل يقال فيها دِمَشْقَةٌ أم لا ؟ فأجابه دِمَشْقُ اسم هذه المدينة ليست عربية فيما ذكر ابن دريد ، إنما هي مُعَرَّبَة ولا يقال إلاّ بغيرها . فأما الدمشقة فالسرعة في المشي يقال دَمْشَقَ يُدَمْشِقُ دَمْشَقَةً ودِمْشاقاً إذا أسرع — وكل سريع دَمْشَقَ .

فأعاد سيف الدولة الرقعة وقد وقع فيها : مر بنا في كتاب قال عبد الرحمن ابن حل الجمحي وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق :

أبْلِغْ أبـــا سُفْيانَ عنّا بأنّنا على خَيْرِ حال كانَ جيشٌ يكونها
وأنّا على بـــابَيْ دِمَشقَةَ نرتمي وقد حان من بابَيْ دِمَشْقَةَ حَينُها

وفي الرقعة أيضاً أن الناقة السريعة يقال لها دَمْشَقٌ والمرأة السريعة اليد في العمل .

فكتب إليه ابن خالويه : هذا جائز للشاعر ولا سيما إذا يقصدُ بدِمَشْقَ إلى مدينة فزادها هاء تأكيداً للتأنيث ، كما أن يقال عقرباً مؤنثة بغير علامة التأنيث والعُقْرُبان [2] ذَكَرُها . فقالوا عَقْرَبَةٌ تأكيداً ، فكذلك دِمَشْقُ ودِمَشْقَةُ وذكر يونس وغيرُه . أتانَةٌ وعَجُوزَةٌ وفَرَسَةٌ . كل ذلك تأكيد وقرأ ابن مسعود « تِسعٌ وتِسعُونَ نَعْجَةً أُنثى .

---

(1) نخبة كانار ص (٢٨٦) .
(2) العقرب واحدة العقارب من الهوام يكون للذكر والانثى بلفظ واحد والغالب عليه التأنيث ، وقد يقال للانثى عقربة وعقرباء ممدودا غير معروف — لسان العرب (٢ / ١١٥) .

فبعث إليه سيف الدولة يستحضره فلما مثلَ بين يديه قال : أيها الأمير رُبَّ عِلْمٍ كنْتَ سببه وقد استفَدْتُ دَمشْقَةَ ، إلاّ أنه في النحو كما ذكرت والعرب تزيد المذكّر بياناً كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم » ابنُ لَبُون ذَكَر » ـ وتزيد المؤنّث تأكيداً مثل « نعجة » أنثى » وذكر كلاماً غيره [1] .

إن هذه الأمثلة التي أوردناها تدل دلالةً بيّنةً واضحةً على شاعرية سيف الدولة وتذوقه للأدب وقدرته على النقد والتمييز . فلذلك لا عجب أن يكثر الشعراء في بلاطه وأن يكون رحابه مُنْتدى الأدباء والعلماء ، فوفد إلى حلَب الشعراء من شتّى الأمصار والأصقاع يقصدون الأمير الفارس والفتى الشاعر ليستظلوا بظله ويعيشوا في كنفه .

---

(١) الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ ابن شداد (١ / ١٥ ـ ١٦) .

الباب الثاني

أعلام الشعر في بلاط سيف الدولة

— ١ —

الباب الثاني

أعلام الشعر في بلاط سيف الدولة

تمهيد :

كان بلاط سيف الدولة ميدان سباق بين الشعراء والعلماء والأدباء فسارع كل شاعر إلى ساحته لينال عطاء الأمير ويحصُلُ على صِلاته ، فكثر الشعراء في عهد سيف الدولة كثرة نادرةً فلم يجتمع قط بباب واحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [١] . ولقد ضم بلاطُه أعظمَ شعراء العربية في عصره من مختلف الأقطار فكان في بلاطه المتنبي وأبو فراس والصنوبري وكشاجم والسريّ الرفّاء والوأواء الدمشقي والنامي والخالديّان وابنُ نَباتَة السعدي والسّلامي وغيرُهم ووفد عليه من أرض الكنانة أكثر من شاعر كالمُغَنَّم المصري ومحمد بن سُلْمِيّ الشيباني [٢] وابن أبي الجوع عبيد الله ابن محمد بن أبي الجوع [٣] .

وقد اختار أبو الحسن الشمشاطي وأبو محمد الفياض الكاتبُ من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت [٤] .

(١) اليتيمة (١ / ١١) .
(٢) الفهرست لابن النديم ص (٢٤٠) .
(٣) اليتيمة ط ٢ (١ / ٤١١) .
(٤) اليتيمة (١ / ١١) .

والحقيقة أن كثرة الشعراء في رحاب الأمير الحَمْدانيّ جنت على عدد كبير فحُشِروا مع النكرات الشعرية ، فكان إلى جانب الشعراء المشهورين عشرات من الشعراء المغمورين الذين لم تُعْنَ بهم مصادر الأدب والتاريخ إلاّ لماماً .

ويرى المرحوم الأستاذ العقاد : أنه في القرنين الثالث والرابع أوشك كل متعلمٍ متأدّبٍ أن يكون شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراض الشعر ، فالخلفاء ينظمون في الغزل والغناء ، والأمراءُ والوزراءُ والقوادُ والكتّابُ والقضاةُ كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير لذلك عاش في هذين القرنين كثرةٌ فائقةٌ من قائلي الشعر المحسنين محترفين وغير محترفين[1]. ويمكننا أن نقول: أن مدرسة شعرية كثيرة الطلاب والفصول والأساتذة قد ظهرت في بلاد الشام في عهد سيف الدولة وقد اختلفت هذه المدرسة عن غيرها ، وتنافس أعلامها وفحولها في إبراز الشعر الرفيع ونسج اللفظ البديع ذي المعنى الجديد والفكر الوطيد وأصبحت جواهر الشعر لا تروج في بلاط الأمير إلاّ إذا كانت ذات طابع ممتاز ورواء أخاذ في التصوير والتفكير والتعبير .

وهذه المدرسة الشعرية التي امتازت بحسن السبك وجمال الحوك . وانفردت بالإشعاع ذي الإبداع كان الصاحب ابن عباد يعجب بها وبطريقة شعرائها المثلى التي كانت سبيل البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة ومن هنا كان شديد الحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، كثير الشغف باستملاء الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع والروائع حتّى كتب دفتراً ضخم الحجم منها .

---

(١) ابن الرومي ــ العقاد ــ ص (٤٤) .

وكان حفياً بمصاحبته ، حريصاً على ألاّ يتملأ منه أحد سواه وانثال ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي شبا قلمه ليحاضر به في مخاطباته ومحاوراته أو ينشره بعد أن ينثره في رسائله [1] .

وسنعرض بالبحث الفاحص والدراسة الماحصة لحياة فحول هذه المدرسة الشعرية التي عاشت في القرن الرابع بأطراف الشام والتي ضمت شاعر العربية الكبير المتنبي وزميله أبا فراس الحمداني وكشاجم والصنوبري والسري الرفاء والنامي والوأواء وغيرهم من أعلام الشعر وسادته وقادته وسوف نلقي عليهم الأضواء ونسلط الأنوار بعد أن كادت شهرة المتنبي تشجب وجودهم وتحجب شهرتهم وتمنع الالتفاف إليهم أو العناية بهم . ولقد غطى المتنبي على جميع مزامنيه من الشعراء ولم يذكر منهم بجانبه إلاّ أبو فراس الحمداني ، وذلك لقرابته من الأمير وجزالة شعره الأثير ولولا مكانته من السلطان لاختفى اسمه كما اختفى غيره من الشعراء [2] .

وقد اضطررنا إلى إجمال الحديث في هذا الباب دون ذكر فصول لأن كل شاعر من هؤلاء الأعلام يمثل بحثاً مستقلاً وقد تعرضنا لأحد عشر شاعراً بالدرس والتحليل واكتفينا باسم كل منهم ليكون عنواناً خاصاً يقوم مقام الفصل في هذا المجال الفسيح .

---

(١) اليتيمة (١ / ١٣) .
(٢) العمدة (١ / ١٣) .

— ١ —

المتنبي

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الكبير سفر خالد في تراثنا الأدبي كتبت عنه مجلدات ضخمة ولا تزال حياته تستهوي الباحثين والدارسين ولست هنا بصدد تأريخ حياة الشاعر الكبير ولكن صلته بسيف الدولة تدفعني إلى أن ألمّ بحياته وجوانب إبداعه الفني في البلاط الحمداني .

والمشهور في نسب المتنبي أنه أحمد بن الحسين بن الحسن عبد الصمد الجعفي الكندي [١] .

وقد ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها وليس من كندة القبيلة العربية المعروفة بل هو جعفي النسب من مذحج [٢] وقد أخطأ بعض المؤرخين فظنها كندة القبيلة التي منها امرؤ القيس حيث قال « بدىء الشعر بكندة وختم بكندة يعني امرؤ القيس والمتنبي [٣] » ولقد كان المتنبي يخفي نسبه دائماً لأمر في نفسه ، ولما سأله التنوخي عنه لم يجب وقال : أنا رجل أنزل دائماً على القبائل والأعراب وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لا آمن أن يكون لبعض الأعراب ثار في قومي فيأخذوني بهم ، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ولا يخافون لساني [٤] . ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن هذا الاعتذار يكاد يكون مقبولاً فإن عصره كان عهد فتن وثورات

(١) وفيات الاعيان (١ / ٤٤) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٢) .
(٢) شذرات الذهب (٣ / ١٤) .
(٣) وفيات الاعيان (٢ / ٥٤٢) .
(٤) نشوار المحاضرة (٤ / ١٢٠) .

دينية وسياسية واجتماعية وكان النزاع بالغاً أشدّه بين القبائل العربية وبين العرب وسواهم ولقد أحسن في إخفاء نسبه من نواح أخرى فهو رجل عظيم النفس عالي الهمة كبير الآمال كثير الأعداء ومن الصعب أن يعترف بنسب لا يرفع رأساً ولا يورث مجداً لأن أهله فقراء والمال عصب الحياة وسبيل الجاه في ذلك العصر [1].

روى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان أبوه يعرف بعبدان السقا ويسقي لنا ولأهل المحلة . . . وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفى بن سعد العشيرة وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات [2] وقال ابن نباتة وقيل أن أباه كان يسمى عبدان السقاء وهو رجل كان يسقي الماء على جمل له بالكوفة [3] . ويذهب إلى هذا القول نفسه ابن خلكان [4] ويشك الثعالبي في صحة هذا القول ويذهب إلى أن ابن لنكك أحد شعراء البصرة هو الذي شمت بالمتنبي بعد وقيعة شعراء بغداد فيه بإغراء الوزير المهلبي لأن المتنبي ترفع عن مدحه وذلك قبيل سفره إلى بغداد فقال زاعماً ــ والعبارة للثعالبي ــ إن أباه كان سقاء وسجل ذلك في قوله :

قولا لأهل زمان لا خلاق له ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتمُ المتنبي فوقَ منيته فزوجوهُ برغمٍ أمهاتكم
لكنّ بغدادَ جاد الغيث ساكنها نِعالُهم في قَفا السقاء تزدحمُ [4]

ويرى الدكتور عمر فروخ أن هذا الزعم باطل إذ أنه عثر في قاموس

---

(١) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ــ عبد السلام سرحان ــ خ ــ ص (٣٦٧) .
(٢) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .
(٣) سرح العيون ص (١٦) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٦) .
(٥) يتيمة الدهر (١ / ١٠٠) .

الفيروزابادي على عبارة بهذا النص . إن عبدان السّقاء بالكسر لقب والد المتنبي فقال يبدو لي أن والد المتنبي كان طويل الأطراف دقيقها لذلك شبه بعيدان السقا وهي العيدان أو العصي التي تُنصَبُ ليقام عليها السّقاء ، فلا يكون حينئذ لهذا اللقب صلة بسقي الماء ولا بالفقر والغنى والخمول والشهرة[1] .

ومهما يكن من أمر فإن شاعرنا عربي الأب والأم ولا يعيبه إن كان من بيت فقير ، ومن الحق أن أهله شرفوا به وارتفع مجدهم على أكتافه .

نشأته :

ولد المتنبي بمحلة كندة في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً[2] . وفي هذا الكُتّاب تعلم القراءة والكتابة[3] وقد امتاز أثناء دراسته بالذكاء النــادر والذهن المتوقد والشغف الشديد بالعلم[4] . وذهب في صباه إلى البادية وصحب الأعراب ثم عاد إلى الكوفة بعد سنين بدوياً قحّاً[5] .

وبعد أن قضى فترة صباه بالعراق متنقلاً بين ضواحي الكوفة والبوادي المحيطة بها ووازداً بغداد سنة ٣١٩ هـ لما أغار القرامطة على الكوفة سافر أبوه إلى بلاد الشام سنة ٣٢١ هـ[6] .

ويقول الثعالبي عن نشأة أبي الطيب : ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في سنة ثلاث وثلثمائة وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه إلى المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه وضوامن النجح فيه حتى توفي أبوه ، وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع[7] .

---

(١) فن المتنبي بعد الف عام ــ ابراهيم العريض ص (٦٠) .
(٢) خزانة الادب ــ البغدادي ــ (١ / ٦) .
(٣) الصبح المنبي (١ / ٦) .
(٤) سرح العيون ص (١٦) .
(٥) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .
(٦) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ــ الصاحب بن عباد ص (١٢) .
(٧) اليتيمة (١ / ١١٢) .

ويرى الأستاذ عبد الوهاب عزام أن قول الثعالبي هذا وهم لأنه من المؤكد تاريخياً أن المتنبي قد نزح إلى بلاد الشام وهو في ريعان الشباب .

وقد خرج المتنبي إلى بني كلب وأقام فيهم ويزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية وكثر أتباعه وأشياعه . وقد سجن من أجل ذلك وفي هذا كلام كثير ليس هذا محله . والذي لا شك فيه أن المتنبي سجن بالشام في شبابه ويتفق على هذا شعر أبي الطيب ورواة سيرة حياته ، وأما الجناية التي سجن من أجلها ففيها اختلاف كبير فبعض الرواة ذهب إلى أنه ادعى النبوة وبعضهم يرى أنه ذهب مذهب العلوية وبشر في حقهم بالخلافة وطغيان بني العباس عليهم . والمتنبي نفى عن نفسه هذه التهمة ولم يرضَ بها ، قال له بعض الأكابر في مدينة السلام أخبَرَني من أثق به أنك قلت إنّك نبي . فقال الذي قلته أنا أحمد النبي [1] .

ويرى الدكتور طه حسين أن سبب سجن المتنبي هو آراؤه الثورية التي ضمنها شعره واستهانَتُه بالقواعد الدينية وتشبيهه المسلمين باليهود والقرود ودعوته الناس إلى تلك المبادىء الخطرة التي عرفت عن القرامطة [2] . وكذلك أنكر نبوته الأستاذ عبد الوهاب عزام [3] ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن أسباب سجنه هي استعداده للخروج على الدولة وإلهابه نفوس الشباب من لداته وتهوين الموت في سبيل المجد واجتماع كثير من شباب البادية حواليه إعجاباً بشجاعته وأدبه ومبادئه الثورية [4] . كما أنه يرجح أن المتنبي سجن سنة ٣٣٠ هـ أو بعدها بقليل .

---

(١) شرح ابن جنى (ص ٩٩) .
(٢) مع المتنبي ص (١٦٦) .
(٣) ذكرى أبي الطيب ص (٧٢) .
(٤) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر — عبد السلام سرحان — خ — ص (٣٦٧) .

ولما خرج المتنبي من سجنه هام على وجهه في بلاد الشام متكسباً بشعره يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه أو يعطونه نزراً فيثور ثم تضطره الحاجة إلى المدح . ومن أشهر ممدوحيه قبل اتصاله بسيف الدولة بدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية ومساور بن محمد الرومي والي حلب وسعيد ابن عبيد الكلابي والحسين بن عبيد الله بن طغج بن أخي الإخشيد وطاهر العلوي وعلي بن إبراهيم التنوخي ومحمد بن زريق الطرسوسي وغيرهم .

واتصل المتنبي بأبي العشائر والي إنطاكيَّة سنة ست وثلاثين وكان أبو العشائر والياً على إنطاكيَّة من قبل سيف الدولة فلما قدم الأمير الحمداني إنطاكيَّة سنة ٣٣٧ هـ قدَّم أبو العشائر إليه أبا الطيب واثنى عليه . وقال صاحب الصبح المُنْبي [١] واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد وألاّ يكلّف تقبيل الأرض بين يديه فنُسِبَ إليه الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وصحب أبو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات وقد قربه سيف الدولة وأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه إليه وأحبه واكتفى منه في العام بثلاث قصائد يجيزه عليها بثلاثة آلاف دينار [٢] .

ولبث المتنبي مع سيف الدولة مدة طويلة وقال فيه نحو ثلث شعره كماً وأجوَدَه كيفاً وقد قال في هذه الفترة أروع شعره في تصوير معارك سيف الدولة وحروبه إذ كان يشهد المواقـع وكان يبدي ضروباً من البطولة ولكنه اضطرَّ لترك حلب عندما لم يكبح الأمير جماح المتطاولين عليه وقد فارقه لأنه سمح لابن خالويه النحوي أن يضربه بمفتاح كان في يده حينما اشتد الجدل بينهما في مجلسه على مسألة في علم النحو ، فتوجه إلى دمشق سنة ٣٤٦ هـ

(١) الصبح المنبي (١ / ٦٦) .
(٢) الصبح المنبي (١ / ٦٥) .

ومنها يمّم شطر مصر فتلقاه كافور بالتكريم والتبجيل فمدحه بمدائح بالغ فيها مبالغات كبيرة ووعده بإحدى الولايات ولكنه ظل يماطله إلى أن نَفِدَ صبره وعندما سنحت له الفرصة هرب من مصر في سنة ٣٥١ هـ وذم كافوراً بقصيدته المشهورة :

عيدٌ بأيّةِ حال عُدْتَ يا عيدُ   بما مضى أم لأمْرٍ فيكَ تجْديدُ ؟

ووصل إلى الكوفة ومنها توجه إلى بغداد وحضر فيها بعض مجالس الوزير المهلبي العلمية وترفع عن مدح المهلبي فغاظه ذلك وأغرى به شعراء بغداد الذين تباروا في هجائه والنّيْل منه وفيهم ابنُ الحجّاج وابن سُكّرةَ الهاشمي وأبو علي الحاتمي فلم يردَّ عليهم احتقاراً لهم [1] .

وأرسل إليه ابن العميد منْ أرَّجانَ فسار إليه ومدحه ، ثم اتصل بعَضُدِ الدولة في شيرازَ ثم ارتحل عنها فقتل في الطريق ٣٥٤ هـ قريباً من النعمانية في الجانب الغربي من سَوادِ بغدادَ والذي قتله هو فاتك بن أبي جهل الأسدي وقتل معه ابنه مُحَسَّداً وغلامَهُ مُفْلِحاً [2] وذكر الباحثون أن سبب قتله إياه هو هجاؤه ابنَ أُختِ فاتك ضبّةَ بنَ يزيدَ العُتْبي .

المتنبي وسيف الدولة :

خرج المتنبي من سجنه فقيراً ناقماً على الزمان وأهله وأخذ يتردد على الحكام فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لا لنفسه ولا لشاعريته ولقد مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غوارباً   اللاّبساتُ من الحريرِ جلاَبِبا

---

(١) العمدة (١ / ٩٢) .
(٢) الكامل (٨ / ٢٢٣) .

فلم يُعْطِهِ إلاّ ديناراً واحداً ولذا سميت الدينارية [1] .

وكان المتنبي آنذاك يشكو الفَقْر وسوء الحال ويصرّحُ بذلك في قصيدة مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي :

لمّا أقمْتَ بإنطاكيّة اختلفت إليَّ بالخبرِ الرّكبانُ في حَلَبا
فسرتُ نحوكَ لا ألْوي على أحدٍ أحُثُّ راحلتيَّ الفَقرَ والأدَبا
أذاقَني زَمَني بلْوى شرِقْتُ بها لو ذاقها لبَكى ما عاشَ وانتحبا [2]

ولقد روي أن المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم [3] ولقد قالوا : إن أكثر ما نال شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة [4] .

وشعر المتنبي في تلك الفترة ينحط في أغلبه عن شعره في الأطوار التي تلت . ولقد قال الواحدي : ولو طرح أبو الطيب شعره في صباه من ديوانه لكان أولى بـــه ثم اتصل المتنبي بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ هـ فوفر له بعطائه السخي وصلاته الوافرة الهدوء والاستقرار ، ووجد في البلاط الحمداني كثيراً من المنافسين . والمنافسة تُذْكي الخيال وتثيرُ القريحة وصحب الأمير شاعره في الحروب التي خاضها فشهد المعارك الدامية وأبصر ضروباً من البطولات فوصفها بملاحمه الخالدة التي فاق فيها أقرانه وعلا فوق كافة الشعراء .

فلقد صور في سيفياته بطولات الأمير وذكر القواد وتنظيم الجيوش والخيول والرماح المحطمة والسيوف المتكسرة والدماء السائلة كما وصف

---

(١) اليتيمة (١ / ٩٥) .
(٢) الديوان ص (٧٢) .
(٣) خزانة الادب ــ البغدادي ــ ص (٣٤٦) .
(٤) المرجع نفسه ص (٣٥٠) .

سماء المعارك والغبار المثار والمنعقد في الفضاء والجبال التي طواها الجيش الحمداني والأنهار والسهول التي قطعها . ولقد أكثر وأجاد في وصف المعارك حتى قال ابن الأثير واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا منه متلثماً وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى يظنّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقته في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدى إليه عيانُه [1] .

ولقد أقام المتنبي برحاب الأمير عشر سنين وقال فيه غرر قصائده وعيون شعره التي بلغت نحو ثلث ما قال في ديوانه . وسجل بها مآثر سيف الدولة وبطولاته وانتصاره وهزيمته والضربَ والطعنَ والأسر والسَّبي كما سجل الشاعر أحاسيس نفسه في مشاعرها المختلفة من انقباض وانبساط واضطراب .

ولم يألُ سيف الدولة جهداً في برّ شاعره ومنحه العطاء والصلات وإغداق النعمة عليه وإكرامه وإعظامه ، وقد روى البغدادي أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى للمتنبي فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات [2] ولقد هدأت نفس الشاعر في رحاب الأمير فترك الشكوى وابتعد عن حديث الثورة الذي طفح به شعره في الماضي .

ولقد وجد الشاعر في سيف الدولة الأمير الذي ينشُدُه ورأى الأمير في المتنبي فتىً أبيّاً جديراً بصداقته وشاعراً مجيداً خليقاً بتخليد بطولاته وانتصاراته فكان يصحبه في حله وترحاله ، وكان يفضّله على الشعراء كافة فاستطاع أن يحتل الصدارة وينتزع من الشعراء لواء الإمارة

---

(١) جواهر الادب ــ احمد الهاشمي (١ / ٣٧٣) .
(٢) خزانة الادب ــ البغدادي (٢ / ٣٥٢) .

أجاد المتنبي في سيفياته وقوي شعره في رحاب الأمير الحمداني وأخرج غرر شعره، ولم يجُدْ شعرُه في زمنٍ جَوْدَته أيام سيف الدولة وذلك لأسباب أهمها : أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجد في هذه الأيام فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته فكان يحتقر كافوراً لاعجميته ويسب ابن خالويه لأعجميته ويقول في أبياته :

تُهابُ سيوفُ الهندِ وهي حدائدٌ فكيف إذا كانت نِزاريّةً عَرْبا

فكان لهذا إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخْلِصْ ولم يواتِهْ طبعهُ وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضةً في مدحه وانثالت عليه المعاني انثيالاً [1] .

كما أن المتنبي نِرْبُ سيف الدولة فهُما من مواليد سنة ٣٠٣ هـ واتحاد سنهما كان من عوامل الانسجام بينهما وتقوية أواصر اتصالهما .

وعامل آخر من شأنه أن يلهم الطبع ويقوي الاستعداد ويلهب العاطفة ذلك أن سيف الدولة فارس شجاع وقائد محارب ، والمتنبي فارس شجاع جريء يعشق الضرب والطعان . وقد صحب الأمير في عدة معارك وفي إحدى هذه المعارك فر الجنود والقواد ولم يبقَ حول سيف الدولة غير ستة أحدهم المتنبي [2] .

كما أن سيف الدولة شاعر مُجيدٌ وناقد بارع ذو بصر بالشعر [3] والمتنبي شاعر فذٌ وثقافته واسعة وقدرته في مجال الأدب كبيرة ، هذا بالإضافة

---

(١) فيض الخاطر ــ احمد امين ص (٧٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ١٥ ، ٣٤) .
(٣) اليتيمة (١ / ١٥) .

إلى ندوة الأمير التي جمعت نفراً من العلماء والشعراء والموسيقيين والفلاسفة مما لم يجتمع بباب أحد من الملوك . وهذا من شأنه أن يهييء لكل من يعيش في رحاب البلاط حظاً كبيراً من الثقافة والمعرفة وينمي الشاعرية لدى ذوي المقدرة والاستعداد .

وكان للمتنبي خصوم يبحثون عن ذامٍ يشوهون به سمعته وعيب ينقصون به شعره وينزلون به من قدره ويحاولون جادين أن يهدموا مجده ويقوضوا مدحه . فكان يجهد ليعمل على زيادة غيظهم ويبالغ في إرغامهم وردّ سهامهم إلى نحورهم .

وعامل آخر له أهميته في توطيد صلة الأمير بالشاعر ومن شأنه أن يعمل على إجادة شعره وهو اشتراك المتنبي وسيف الدولة في التشيع إلى العلويين ومناصرة دعاتهم ومدهم بالمال دائماً [1] .

كما يجب ألاّ يغْرُبَ عن بالنا الهباتُ والصلاتُ والجوائز السنيّة التي كان سيف الدولة ينعم بها على المتنبي والتي كانت تدفعه للإجادة وتحثه على أن يسعى بكل جهده للبحث عن المعاني العميقة والأفكار الدقيقة وهو القائل :

تركتُ السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلت أفراسي بنعماكَ عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبّةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا [2]

المتنبي وفساد أمره مع سيف الدولة :

كثر حساد المتنبي وخصومه في بلاط الأمير من الشعراء والأدباء ويرى

---

(١) خزانة الأدب (٢ / ١٤٤) .
(٢) اليتيمة (١ / ١١٦) .

طه حسين أنه ليس غريباً أن تكره حاشية الأمير ولا سيما الشعراء والأدباء تقدم الشاعر وما صحبه من غطرسة عليها واستعلاء وليس غريباً أن تضيق بالشاعر حين ترى أن شعره يقع من الأمير موقعاً حسناً ثم تبغضه أشد البغض حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهي مكرهةٌ أن تلزم الصمت عن هذا الشاعر الذي يسودها في نفسها وفي مكانتها من صاحب القصر ثم يستأثر عنها بالحظوة [1] .

وربما كان من أشد خصومه أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس الحمداني وابن خالويه النحوي .

لقد كان النامي يحتل مكانة الصدارة في البلاط الحمْداني حتّى جاء المتنبي فحلّ محلّه ونزل منزلتَه فغاظ ذلك النامي وجاء في الصبح المنبي أن أبا فراس قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدق كثير الإدلال عليك . وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره [2] .

كما أن المتنبي كان دائم الجدل مع ابن خالويه في المسائل اللغوية فكان ذلك يثير غضبه ونقمته عــلى الشاعر ، هــذا بالإضافة للصداقة الحميمة التي كانت تربط ابن خالويه بأبي فراس والتي كانت سبباً في عدائه للمتنبي .

يضاف إلى ذلك أن صفات المتنبي من غرور وشعور بالعظمة وتعالٍ واحتقار للآخرين كانت تثير النقمة عليه والعداء له ولقد عرض بالشعراء الذين ضمهم بلاط الأمير الحمداني فرماهم بأنهم أدعياء الشعر وأنهم ليسوا إلاّ صدى لصوته فقال :

---

(١) مع المتنبي ص (٢٥٨ ــ ٢٥٩) .
(٢) الصبح المنبي ص (٤٥) .

ودع كلّ صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

وكيف لا ينقم عليه الشعراء في بلاط الأمير وهو القائل :

أنا السابقُ الهادي إلى ما أقولهُ إذْ القولُ قبل القائلينَ مقولُ

ولا شك أن أولئك الشعراء قد بيتوا المكايد للمتنبي وناصبوه العداء ، وقد صرح بذلك حيث يقول :

أفي كلّ يومٍ تحت ضبني شُوَيْعِرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطــاولُ
لساني بنُطْقٍ صامتٌ عنه عاذلٌ وقلبي بصمتّي ضاحكٌ منه هازلُ
وأتعبُ ما ناداكَ مَنْ لا تجيبُهُ وأغْيَظُ من عاداكَ من لا تشاكل[1]

وحيث يقول لسيف الدولة :

أرى المتشاعرينَ غَرُوا بــــذمي ومَنْ ذا يحمَدُ الداء العُضالا
ومَن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا[2]

وديوانه حافل بالشعر الذي يتحدث عنه الحساد والوشاة والناقمين :

وذهب الأستاذ محمود شاكر إلى أن العداوة بين أبي فراس والمتنبي لا ترجع إلى منافسة في الشعر وإنما السبب الحقيقي في هذا العداء راجع لحب المتنبي لخولة ــ شقيقة سيف الدولة ــ الذي جلب كيد أبي فراس ثم أبي العشائر[3] .

---

(١) الديوان (٣ / ٢٩٤) .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٩ .
(٣) أبو الطيب المتنبي بعد ألف سنة ــ صحيفة دار العلوم ــ مقال بعنوان المتنبي يعشق (١٩٩ ــ ٢٠٢) .

وقال بمثل هذا القول محمد سعيد العريان والدكتور المحاسني [1] ومارون عبود [2] الذي يرى في قصيدة رثاء المتنبي لخولة شبهة تدعم ظن الأستاذ محمود شاكر ، وإن ما حدث بين المتنبي وسيف الدولة يثير شكاً قوياً وهو يتساءل عما يخاف الشاعر ليعقب على قوله :

يظنُّ أنَّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ　　وأنَّ دمع جفُوني غيرُ مُنسكبِ

بقوله :

ولا ذكَرْتُ جميلاً من صنائعها　　إلاّ بكيتُ ، ولا ودّ بلا سببِ

فمثل هذا البسط بل مثل هذا التعليل لا يطلبا من الشعراء فهي إذن عاطفة حاول الشاعر إخفاءها فأبتْ إلاّ أن تظهر وتبين . ثم يقول : — بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بألوان الحب أشد اصطباغ .

رحلتُ فكم باك بأجفان شادنٍ　　عليَّ وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ
ولوْ أنَّ ما بي من حبيب مُقَنَّعٍ　　عذَرْتُ ولكن من حبيبٍ معمَّمِ
رمَى واقعي من دون ما كنت أتقي　　هوًى كاسرٌ كفيّ وقوْسي وأسهُمي

كما ذهب الأستاذ إبراهيم العريض إلى تأكيد قصة الحب المزعومة قائلاً : ان الفضل في كشف النقاب عن هذا الجانب الخفي من حياة المتنبي يرجع إلى الأستاذ محمود شاكر [3] .

ويرى الدكتور طه حسين أن القصيدة التي رثى بها أبو الطيب خولة لا

---

(١) المتنبي ص (٣١ / ٤٨) .
(٢) فن المتنبي بعد الف عام — يوسف المريض — ص (٢٤٢ / ٢٤٣) .
(٣) فن المتنبي بعد الف عام — ابراهيم العريض — ص (٢٤١) .

تدل على صلة قريبة أو بعيدة بينه وبين القصيدة وكل ما يمكن أن يُفهَم منها أن الشاعر يتحدث عن بر القصيدة له وإحسانها إليه كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب [1] . وإني أرى أن المتنبي رجل يجري وراء المجد ويبحث عن العُلا والوصول إلى الولاية وقد أفنى عمره وهو يتطلع إلى تحقيق ذلك ولا يهم إلاّ بنفسه ولا يعيش إلاّ لها فهو كما يصفه شوقي ضيف : — كان يعيش في نفسه ويحس آماله ومطامحه وما يجيش في صدره من ثورة على الزمن والمجتمع [2] واستبعد عدد من الباحثين حكاية الحب هذه ومن هؤلاء محمد كمال حلمي [3] وأحمد الشايب [4] وشفيق جبري [5] وشوقي ضيف .

وأود أن أضيف أن شخصية الأمير الحمداني العظيمة الجديرة بالحب والإعجاب كان لها أثر في استحداث أسلوب فني جديد في شعر المتنبي بمخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبته المحبوب والصديق . ولقد تنبه إلى ذلك الثعالبي وعده من محاسن شعر المتنبي حيث قال : — وهو مذهب له تفرد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه وتبحّراً في الألفاظ والمعاني ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجاً لها إلى مماثلة الملوك في مثل قوله :

مالي أكتُمُ حُبّاً قد بَرَى جسَدي ... وتدَّعي حُبَّ سيف الدولة الأممُ ؟
إن كان يجمعنا حُبّ لغُرَّتِهِ ... فليتَ أنّا بقدر الحبّ نقتسمُ

وقوله لكافور :

(1) مع المتنبي (٢١١ — ٢١٢) .
(2) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص (٣٠٥) .
(3) ابو الطيب المتنبي (١٩٠ — ١٩١) .
(4) ابحاث ومقالات ص (٨٣) .
(5) المتنبي ص (١٥١) .

وما أنا بالباغي على الحبّ رشوةً ضعيفٌ هوًى يُبْغى عليهِ ثوابُ
وما شِئتُ إلاّ أن أدُلَّ عَواذِلي على أنَّ رأيي في هَواكَ صوابُ

وهذه الخاصية وجدت في شعر المتنبي بعد اتصاله بسيف الدولة وعلة ذلك أن الأمير الحمداني نال إعجاب الشاعر وملك قلبه ورأى فيه المَثَل الذي يعشقه فهو البطل المجاهد والفتى العربي الذي خاض المعامع وواقع الروم عشرين عاماً والمتنبي كما نعلم متعصب للعروبة وكاره للعجم :

وإنما الناسُ بالملوكِ ومَـا تُفْلحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا لا نميل مطلقاً إلى الزعم القائل بحب المتنبي لخولة وبأن هذا محض من الوهم والخيال لا يثبت أمام الحقيقة والواقع .

ونعود إلى القول بأن المتنبي أنشد سيف الدولة آخر قصيدة له في سنة ٣٤٥ ﻫ تلك التي أولها :

عقْبى اليمين على عقْبى الوغى ندَمُ ماذا يـَزيدُكَ في إقدامكَ القسَمُ

ثم يمم شطر الكنانة بعد خلافه الذي تحدثنا عنه مع ابن خالويه الذي ضربه على وجهه بمفتاح من حديد فأسال دمه على وجنتيه وثيابه .

ولقد تنقل المتنبي بعد رحيله عن حلب بين مصر والعراق وبلاد فارس ومدح الملوك والأمراء ولقي في ربوعهم التقدير والإكبار ، إلاّ أنه لم تَحْلُ بعد سيف الدولة أيامُه وتراجع شعره بعد مفارقته وعندما سئل عن ذلك قال :
ــ قد تجوزت في قولي وأعفَيْتُ طبعي واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان [1] ومن المؤكد أن فراقه هذا كان مؤلماً لقلبه عزيزاً على نفسه .

---

(١) الصبح المنبى ص (٢٤٠) .

ولقد كاتب الأمير الحمداني أبا الطيب بعد رحيله عن مصر وعودته إلى الكوفة داعياً إياه إلى العودة إلى حلب [1] فأجابه المتنبي بقصيدة رائعة يتضح فيها إكباره للأمير ولكنه يتغاضى عن أمر العودة إلى البلاط الحمداني فقال:

مـــالنَا كُلُّنا جَوىً يا رسول   أنا أهْوى وقَلبُكَ المتبُول
كلّما عادَ مَنْ بَعَثْتُ إليها   غـــارَ منّي وخانَ فيما يقولُ

إلى أن يقول :

كيف لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ   وسراياكَ دونهـــا والخيولُ ؟
لو تحَرّفتَ عن طريق الأعادي   رَبَطَ السِّدْرُ خيلهمْ والنّخيلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للروم غازٍ   فمتى الوعدُ أن يكونَ القفولُ ؟
وسوى الروم خلفَ ظهرك رُومٌ   فعلى أيّ جانبيْكَ تميلُ ؟
قعد الناس كلهم عن مساعيـ   ـكَ وقامتْ بها القَنا والنُّصُولُ
ما الذي عنده تُدارُ المَنايـــا   كالّذي عنده تُدارُ الشَّمُولُ

وسمع المتنبي بوفاة أخت سيف الدولة « خولة » فرثاها قائلاً :

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بنتِ خيرِ أبِ   كَنايةً بهما عن أشرفِ النّسَبِ
طَوى الجزيرةَ حتى جاءَني خَبَرٌ   فزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتّى إذا لم يدَعْ لي صدقهُ أملاً   شَرِقْتُ بالدّمْعِ حتى كاد يشرق بي

وعلى أثر ذلك أرسل إليه الأمير الحمداني مالاً وهديةً وكتب إليه يدعوه للعودة إلى حلب إلاّ أن المتنبي اعتذر وبعث إليه يقول :

---

(١) ذكرى ابي الطيب ــ عبد الوهاب عزام ــ ص (١٧٣) .

فهمتُ الكتابَ أبَرَّ الكتُبْ فسمْعاً لأمر أميرِ العَرَبْ
وطوعاً له وابتهاجاً بـــــه وإن قصّرَ الفعل عما يجب
وما عاقني غيرُ خوف الوُشاة وأن الوشايات طرُق الكَذِبْ

وخلاصة القول أن سيف الدولة كان عظيماً وكان المتنبي شاعراً عبقرياً أحبّ كلّ منهما الآخر وسعى الحسّادُ بالنميمة ففرقوا بينهما . ولقد كان كل منهما متمماً جزءاً من الثاني وممهداً له طريق البقاء والخلود .

- ٢ -

أبو فراس الحمداني

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة ابني حمدان . . . كان أميراً شجاعاً وفارساً مغواراً وشاعراً بليغاً وكان الصاحبُ بنَ عبّاد يقول : « بدىء الشعر بملك وختم بملك » يعني أمرأ القيس وأبا فراس [١] .

وكنية أبو فراس هي كنية الأسد [٢] وقيل الفراس هو الأسد [٣] وقد غلبت هذه الكنية على الشاعر حتى كاد لا يعرف إلاّ بها .

وأبو فراس عربي الجذم صريح النسب وقد اعتز الشاعر بنجاره اعتزازاً كبيراً فقال :

لئن خُلِقَ الأنام لحسْوِ كأس ومِزْمارٍ وطُنْبورٍ وعود
فلمْ يُخْلَقْ بنو حمدان إلاّ لمجد أو لبأس أو لجود [٤]

---

(١) اليتيمة (١ / ٣٥) .
(٢) اللسان مادة فراس .
(٣) قاموس المحيط ــ مادة فراس .
(٤) اليتيمة (١ / ٤٤) .

وأبوه أبو العلاء سعيدٌ أمير من أمراء بني حمدان احتلَّ مكانةً مرموقة في عهد الخليفة المقتدر وتولّى ولايات عدةً من قِبَل الخليفة العباسي، وقتله ابن أخيه ناصر الدولة غدراً سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة هجرية، وسبب ذلك أن الخليفة ولاّه إمارة الموصل وأغراه أن يطْرد منها ابنَ أخيه فدبّر له ناصر الدولة مكيدة أودتْ بحياته.

وكان لأبي فراس عدد من الأخوة ذكرهم في شعره ومنهم أخوه أبو الهيجاء حربُ بن سعيد وأبو عبد الله الحسين وأبو الفضل الذي كان كما يظهر أسيراً مع أبي فراس وبعث إليه ليزوره ويخفف عنه ويؤنسه فقال:

يضيقُ عليَّ الحَبْسُ حتى تَزورَهُ فما هوَ إلاّ روضَةٌ وغديرُ(1)

وكان له أختان تزوج إحداهما سيف الدولة وتزوج الأخرى أبو العشائر.

ولقد ولد أبو فراس في الموصل سنة ٣٢٠ هـ يؤكد ذلك رواية ابن خالويه عن أبي فراس: — غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون سنة ٣٣٩ هـ وسني إذ ذاك تسعَ عشرةَ سنة (2) ولقد نشأ يتيم الأب ولم يحظ برعاية منه إذ أنه اغتيل في عام ٣٢٣ هـ كما تقدم ولم يكن أبو فراس آنذاك قد تجاوز الثالثة من عمره على أن سيف الدولة أحاط ابنَ عمّه اليتيم بالعطف والعناية ووفّر له تربية صالحةً وتعهدهُ بالتدريب في ميادين الرجولة. ولا عجب أن يصرح الشاعر فيما بعد بذلك العطف وتلك العناية فنسمعه يقول:

فمِنْ سعيدِ بنِ حمْدانَ ولادتَهُ ومن عليٍّ بن عبد الله ساتِرُهُ
لقد فقدتُ أبي طِفْلاً فكأنَ أبي مِنَ الرجال، كريمُ العودِ ناصِرُهُ(3)

---

(1) ديوان ابي فراس (٢ / ٢١٤).
(2) شرح ابن خالويه — للديوان (١ / ١٢).
(3) الديوان ص (٧٧) تحقيق البدوي الملثم.

وعندما استولى سيف الدولة على حلب سنة ٣٣٣ هـ وأقام دولته فيها انتقل معه أبو فراس وأمّه وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً وهناك تولاه الفرسانُ يدرّبونـَهُ على أساليب الفروسية وتتلمذ على يدَيْ ابن خالويه الذي كان مؤدِّباً لبني حمـْدان ومختصاً بهم على أبي ذرّ أستاذ سيف الدولة . والأهمّ من هذا أن أبا فراس عاش معظم سني حياته في البيئة الحلبية التي كانت زاخرة بالنشاط الأدبي والعلمي ومركزاً للإشعاع الفكري في العالم الإسلامي في ذلك العصر . ولقد كان بلاط الأمير حافلاً بالشعراء والأدباء واللغويين والفلاسفة وبقيت ندوته غرّةً بيضاء ناصعة في جبين الأدب العربي هذا بالإضافة إلى أن أبا فراس قد حبـَاهُ الله شاعريةً فذّةً مكنت له أن يلمع في سماء الشعر الجزل إلى جانب كونه فارساً شجاعاً بارعاً في قيادة الجيوش وممارسة الحرب ومزاولة الطعان .

ولقد كان سيف الدولة يُعجَبُ جداً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطفيه لنفسه ويصطحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله [1] وعندما اشتد ساعده قلّده في سنة ٣٣٦ هـ منبج وما حولها[2] وكانت هذه مهمة عسيرة لا يُنتدبُ لها إلاّ فارسٌ ذو جدارة وكفاءة .

وأظهر أبو فراس كفاءة وجدارة في إدارة منبج وتفانى في الذود عن مُلك بني حمدان فحمى ذمارَ ولايته وصدّ الغزو البيزنطي بمهارة وقوة واتّصف بالبسالة والإقدام وسار مع سيف الدولة في كثير من معاركه وتوغلا في بلاد الروم وأظهر ضروباً لا مثيل لها من الشجاعة .

وظهرت كفاءة أبي فراس في الأعمال الحربية التي قام بها وتـُوّجت بأكاليل

---

(١) اليتيمة (١ / ٣٥) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١١٩) .

المجد والفخار غير أن الحظ الذي طالما حالفه في حروبه خانه في إحدى المرات فوقع أسيراً في أيدي الروم وقضى في الأسر عدة سنوات عصيبة مريرة .

وفيها أنشأ رومياته التي تُعَدّ من أروع وأجود ما قيل في الشعر العربي .

واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي أُسر فيها أبو فراس وعدد مرات أسره وحكاية الأسر . فمنهم من ذهب إلى أنه أُسر مرتين كانت أولاها سنة ٣٤٨ هـ وكانت ثانيتهما سنة ٣٥١ هـ ومنهم من قال — انه لم يؤسر إلاّ مرة واحدة حددها عام ٣٥١ هـ .

ويرى ابن خالَوَيْه أن أبا فراس أُسر سنة ٣٥١ هـ وذلك أثناء خروجه للصيد في عدد يسير من أصحابه إذ التقى بابن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس إلى نواحي منبج فنشبت بينهما معركة شديدة غير متكافئة من ناحية العدد ثبت فيها أبو فراس حتى أُثْخِنَ بالجراح وأُسر [١] .

وروى التنوخي [٢] كذلك أن أبا فراس قد أُسر في سنة ٣٥١ هـ .

أما ابنُ خلّكان فإنّه يذهب إلى أن أبا فراس أُسر مرتين فالمرة الأولى بمغارة الكحل في سنة ٣٤٨ هـ وما تعدوا به خرشنه وهي قلعة ببلاد الروم والفُراتُ يجري من تحتها وفيها يقال : — إنه ركب فرسه وركضه برجله فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات . والمرة الثانية أسره الروم على مقربة من منبج في شوال سنة ٣٥١ هـ وحملوه إلى قسطنطينية وأقام في الأسر أربع سنين [٣] .

---

(١) شرح ابن خالويه ـ الديوان (٢ / ٧٥ ـ ٧٦) .
(٢) نشوار المحاضرة (١ / ١١١) .
(٣) وفيات الاعيان (١ / ١٢٧) .

ويبدو أن الرأي القائل بأن أبا فراس أُسر مرة واحدة سنة ٣٥١ هـ ادْعى إلى التصديق كما استظهر أكثر النقاد ومؤرخو الأدب ويرجح هذا أن الشعر الذي نظمه أبو فراس في الأسر وأُطلقَ عليه اسم الروميات لم يشر إلاّ إلى أسره مرة واحدة أورد فيها ذكر خرشنة . ولو كان أُسر قبل ٣٥١ هـ ونجا بتلك الطريقة الأسطوريّة التي ذكرها ابن خلّكان لكان افتخر بذلك في شعره .

والأسير لا يترك الأعداء جواده في متناول يده وروح الخيال والأسطورة الذي يتغلغل في روايات البطولة يبدو واضحاً في رواية الفرار . يضاف إلى هذا وذاك أن ابن خالويه والقاضي التنوخي والثعالبي لم يشيروا إلى أن الأسر وقع مرتين . ولو حدث ذلك لكان جديراً بأن يذكر . فمن المعلوم أن ابن خالويه قد عاش في عصر الشاعر وروى شعره وكان من مؤدبيه كما قلنا سابقاً ، فروايته أهم من غيرها والتنوخي عاش في عصر ابن خالويه والثعالبي قريب من أبي فراس وعصره وعلى هذا تبدو روايتهم القائلة أن أبا فراس أُسر مرة واحدة سنة ٣٥١ هـ أدعى إلى التصديق لقرب عهدهم بالشاعر ولكونهم قد عُرفوا بالدقة والثبوت .

وقضى أبو فراس في الأسر سنوات عدة وعومل في الفترة الأولى من أسره معاملة حسنة ، ثم بعد ذلك تغيرت معاملتهم فوضع في مكان شديد الضيق وألبس الثياب الخشنة فساءت حالتُه حتى فارق الجَمالُ وجهه الوسيم وإنه ليقول مخاطباً سيف الدولة :

يا واسعَ الدّارِ كيْفَ توسعُها   ونحنُ في صخْرَةٍ نُزَلْزِلُها
يا ناعِمَ الثّوْبِ كيفَ تُبْدِلُهُ   ثيابُنا الصّوفُ ما نُبَدِّلُها
يا راكبَ الخَيْلِ لو بصرتَ بِنا   نَحمِلُ أقْيادَنا ونَنْقُلُها
رأيْتُ في الضرّ أوْجُهاً كَرُمَتْ   فارقَ فيكَ الجَمالَ أجملُها

قدْ آثر الدَّهْرُ في محاسِنِهِــا تعرِفُها تارَةً وتَجْهَلُها[1]

وأخذ أبو فراس يلح في طلب الفداء وألّف رومياته استعجالاً لفداء سيف الدولة إيّاهُ ولكنَّ الفِداءَ لم يحدُثُ إلاّ في سنة ٣٥٥ ه كما ذكر مُعظم المؤرخين . وذهب بعض الدّارسين إلى أنَّ سيف الدولة قصَد عدَم الإسراع في فكّ أسْر ابن عمه وأنَّ كلَّ واحد منهما كان غير واثق من صاحبه وغير مطمئن إلى وفائه[2] . وأن قلب سيف الدولة كان متغيراً عليه وأن الصفاء الذي كان يسود علاقتهما شابهُ شيء من الكدَر والجَفاء بدليل ما نجده في شعر أبي فراس من عتاب كثير لابن عمه[3] .

ونحن نتساءل ما السبب الحقيقي لهذا الإبطاء في فداء أبي فراس وهل ما زُعِم من تغير سيف الدولة وقصده الإبطاء في الفداء صحيح ؟

وإن الإجابة على الإبطاء في فداء أبي فراس تستدعي النظر في الحال التي كان عليها سيف الدولة بعد أسر الشاعر فلقد سقطت حلَب بأيدي الروم ونهبت أموالُها وأسلحتُها وأمتعتُها والفداء يتطلب المال الكثير . والروم كان في أيديهم فضل ثلاثة آلاف أسير من العرب . ولم يكن سيف الدولة بافتداء أبي فراس وزمرة قليلة معه ليُبْقيَ بين يدي الروم هذا العدد الضخم من رجاله لهذا ظل ينتظر الظروف المواتية التي تسمح بافتداء الجميع[4] . وعندما سنحت الفرصة سنة ٣٥٥ ه أقام الفداء بشاطىء الفرات في سنة خمس وخمسين وثلثمائة فأنفق عليه خمسمائة ألف دينار وأخرج كل من قدر على إخراجه من أسارى المسلمين من بلد الروم[5] . ودفع المال الذي لزمه لفداء الأسرى

---

(١) الديوان (٣ / ٣٣٣) .
(٢) أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم ــ عمر فروخ ص (٣٢)
(٣) شاعر بني حمدان ص (٧٢) .
(٤) ديوان أبي فراس ــ سامي الدهان (٣ / ٣٠٣) .
(٥) نشوار المحاضرة (١ / ٢٨١) .

من ماله دون أن يعاونه أحد من الملوك ولا غيرهم [١] وبلغ به الأمر أن يرهن بدَنَتَه [٢] الجوهر المعدومة المثل لمّا نفذ ما كان معه من المال [٣] .

وخرج من الأسر أبو فراس ومحمد بن ناصر الدولة والقاضي أبو الهيثم عبد الرحمن بن القاضي أبي حصين وكان قد أُسِرَ في حرّان وخرج من المسلمين عدد ضخم [٤] .

وعين أبو فراس بعد عودته والياً على حمص ولم يمهل القدَرُ سيف الدولة فقد توفي بعد بضعة أشهر من خروج أبي فراس من أسره وتسلم الحكم من بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي وهو ابن أخت أبي فراس . وفسد الأمر بين أبي فراس وابن أخته أبي المعالي والحاجب قرغويه وعزم على التغلب على حمص فاتصل خبره بأبي المعالي وغلام أبيه قرغويه وكان صاحب حلب فأرسل إليه من قاتله فأخِذ وقد ضُرِب ضربات فمات في الطريق [٥] . وكان مقتل أبي فراس سنة ٣٥٧ هـ .

خلف أبو فراس ديوان شعر رتبه قبل وفاته بقليل بعد أن نقده ومحا منه بعض القصائد [٦] وشعره سائر بيّنُ الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة مع رُواء الطبع وسِمَة الظرف وعزة الملك [٧] .

ولقد أتْحَفَ الأدب العربي برومياته تلك القصائد التي أنشدها إبّانَ

---

(١) نخب تاريخية ـ كانار ـ ص (١٩٤) .
(٢) بدنته : درعه القصيرة .
(٣) زبدة الحلب (١ / ٤٦) .
(٤) نخب تاريخية ـ ص (٣١٥) .
(٥) النشوار (١ / ١١٢) .
(٦) تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان ص (٩٢) .
(٧) اليتيمة (١ / ٣٥) .

أسره يحن فيها إلى مراتع شبابه ومرابع صباه ويطالب بسرعة افتدائه ويفخر بنفسه ويتألم من أسره .

وتحدث الأدباء والنقاد عن هذه الأشعار فرأوا فيها صفوة نِتاج أبي فراس وقال الثعالبي أنها غُرَرٌ جادت بها قريحة الشاعر الأسير وكانت أشعاره تصدر في الأسر والمرض واستزارة سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وأخوانه وأحبابه والتبرم بحاله ومكانه عن صدر حرج وقلب شجٍ فتزداد رقة ولطافة وتبكي سامعها وتعْلَقُ بالحافظة لسلاستها [1] .

وقال التنوخي : ولأبي فراس كل شيء حسن من الشعر في معنى أسره ويروى عن أبي الفرج الببّغاء قوله وله — أي — أبي فراس في صنعة أسره وعللٍ لحقته هناك ومراث لنفسه في الأسر وتعطفٍ لسيف الدولة شعرٌ كثيرٌ حسن حافل بمعانٍ مخترعة لم يسبق إليها [2] .

(١) المصدر نفسه (١ / ٦١) .
(٢) النشوار (١ / ١١٢) .

- ٣ -

النامي

هو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المَصِّيصيُّ .شاعر من فحولة شعراء العصر وخواص شعراء سيف الدولة ، وكان عنده تِلْوَ المتنبي في المنزلة والرتبة [١] وكان في أول أمره جزاراً [٢] . ثم ترك هذه المهنة وانصرف إلى قول الشعر والتحق بسيف الدولة ، وأصبح في عداد شعرائه المنقطعين إليه .

ولد النامي في حدود سنة ٣٠٩ هـ في مدينة المِصّيصة [٣] بالقرب من طَرَسُوسُ .

أما شهرته بالنّامي فيبدو أنها مشتقة من النّماء ويذهب السمعاني إلى أن النامي بفتح النون مأخوذ من النماء وهو الزيادة والمشهور بهذه النسبة أبو العباس أحمد بن محمد النامي المصيصي الشاعر [٤] .

وينتسب النامي إلى بني دارِمٍ ، من ولد مالك بن حنظلة بن زيد بن تميم .

---

(١) اليتيمة (١ / ١٣٥) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١٣١) .
(٣) المصيصة ـ بكسر الميم والصاد المشددة ـ مدينة على ساحل بحر الروم تجاه طرسوس ـ وفيات الاعيان (١ / ٦٧) وقال الحموي فيها ـ وهي مدينة على شاطىء جيحان ، من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس ـ معجم البلدان (٤ / ٥٥٨) .
(٤) الانساب ص (٥٥٢) .

وبنو دارمٍ من البطون الكبيرة في قبيلة تميم وبيتُ الشرف فيها وإلى دارمٍ ينسب خلق كثير من الشعراء والأدباء والعلماء [1] .

ويقول ابن دريد في معنى دارم : — فاشتقاقه من أشياء . . . قولهم امرأةٌ درماءُ ورجلٌ أدرَمُ ، إذا لم يكن لعظامه حجم ، والدَّرَمَان — أيضاً — ضرب من المشي فيه تقارب خطو وهي مشية المرأة القصيرة المختالة. ودَرِمَت الأرنب درَماناً ، مشت مشياً سريعاً في قصر خطو [2] .

عُرِفَ عن النامي البراعة وسعَةُ الاطلاع وغزارة المعرفة بعلوم اللغة وفنونها وكان أديباً فاضلاً مقدّماً في اللغة عارفاً بالأدب ، وله أمال أملاها بحلَب وروى عن أبي الحسين علي بن سليمان الأخفش وابن دُرُسْتُوَيْه وأبي عبد الله الكَرْمانيّ وأبي بكر الصولي وروى عنه جماعة من العلماء والأدباء منهم أبو القاسم الحسين بن علي بن أسامة الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وأبو الفرج البَبَّغاءُ والقاضي أبو طاهر صالح بن أسامة الحلبي جعفر الهاشمي وأبو بكر الخالدي [3] .

وقد عدَّه من ترجموا له من فحول الشعراء وكانت منزلته كبيرة في البلاط الحمداني وله قصائد كثيرة في مدح الأمير ، وذكر الثعالبي قسماً منها وأورد مختارات من شعره في يتيمة الدهر ووصفها بأنها من عقائل شعره وفرائد عقده [4] .

وذكر ياقوت الحموي أن النامي كان مولعاً بالطباق والجناس إلى حد الصنعة فهو يقول في ترجمة علي بن يوسف المعروف بابن البقال : — وكانت

---

(١) الاشتقاق — ابن دريد ص (٢٣٣) .
(٢) المرجع نفسه ص (٢٣٤) .
(٣) شذرات الذهب (٣ / ١٥٤) .
(٤) اليتيمة (١ / ٢٢٥) .

له محاضرة حسنة وبضاعة في الأدب صالحة وطبقته في الشعر جيدة ، يذهب مذهب النامي في التطبيق وطلب الصنعة [1] .

وذكر ابن النديم أن للنامي ديوان شعر يقع في مائة وخمسين ورقة جمعه أبو أحمد الخلاّل الخالع [2] . وديوانه هذا لم يصل إلينا ولعله أصبح في عداد المخطوطات المفقودة أو يرقد بين جدران إحدى المكتبات .

وعلى الرغم من مكانة النامي الأدبية وشهرته الشعرية لم ينل اهتماماً كبيراً من المترجمين القدماء أو الدارسين الباحثين في العصر الحديث وكان شأنه في هذا شأن الكثير من شعراء البلاط الحمْدانيّ الذين غطّت عليهم شهرة المتنبي ، الذي شغل الناس بشعره وشهرة أبي فراس الحمداني ابن عم الأمير الذي كان شاعراً مبدعاً وأميراً حاكماً لمنبج .

ولقد جمع الأستاذ صبيح رَديف قطعاً من شعر النامي ونشرها في عام ١٩٧٠ وهو لا يدعي أنه قد جمع كل ما ضمّنتْه كُتُب الأدب من شعر الشاعر ويقول : انه من المحتمل أن يكون قد فاته قسم من شعره في مصادر لم يوفّق في الحصول عليها لا سيما المخطوطة منها [3] ولقد حقق ما جمع ووازن بين النصوص بعد فحصها وعرضها بالروايات المختلفة . وثمة بضع قطع أخرى في المنتخب الميكالي الورقة ٤٨ ب ، سفينة الأدباء : الورقة ٣ ب ، ١٤ أ ، ٢٢٥ ب — ٢٢٦ أ ، كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي انظر السيد م .يوسف في الموضع المذكور ص ٣٦٩حماسة ابن الشجري رقم ٦٥٢ ، الدر الفريد ٢ / الورقة ٢٢ أ ب ، ١٦٧ أ .

---

(١) معجم الادباء ط ٢ (٥ / ٥٠٧) .
(٢) الفهرست ص (٢٤٠) .
(٣) شعر النامي « مقدمة المحقق » ص (٥) .

ويوجد له بالإضافة لديوان شعره كتابان هما : كتاب « الأمالي » الذي أملاه بحلب [1] وكتاب « القوافي » ذكره ياقوت في ترجمة إبراهيم بن عبد الرحيم العروضي قائلاً : — حكى عنه أبو العباس أحمد بن النامي محمد في كتاب « القوافي » فهو من طبقة ابن دُرَسْتُوَيْه وعلي بن سليمان الأخفش [2].

ولقد عُمِّر النامي طويلاً حتى أربى على تسعين سنة من العمر وكانت وفاته بمدينة حلب سنة ٣٩٩ هـ وذكر ابن خلكان أنه قيل في وفاته : — أنها كانت سنة سبعين أو إحدى وسبعين [3] .

ولقد ذكر ابن خلكان حادثة طريفة تشير إلى طول عمر النامي إذ قال : « وحكى أبو الخطاب ابن عَوْن الحريريّ النحوي الشاعر ، انه دخل على أبي العباس النامي — قال : فوجدته جالساً ورأسه كالنعامة بياضاً ، وفيه شعرة واحدة سوداء فقلت : — يا سيدي في رأسك شعرة سوداء ؟ فقال : نعم هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها ولي فيها شعر . فقلت أنشدنيه فأنشدني :

رأيت في الرأس شعرةً بقيتْ سوداءَ تهوَى العيونُ رؤيتها
فقلتُ للبيضِ إذْ تُروِّعُها باللهِ ألاّ رَحِمْتِ غربتَها
فقلَّ لُبْثُ السّوداء في وَطَنٍ تكونُ فيه البيضاء ضُرَّتَها [4]

صلته بسيف الدولة :

اتصل النامي بسيف الدولة وكانت له منزلة أثيرة في نفس الأمير وكانت

---

(١) وفيات الاعيان (١ / ٤٦) .
(٢) معجم الادباء ط ٢ (١ / ٢٧٩) .
(٣) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

له فيه مدائح رائعة وغرر بديعة . وهو يأتي تلو المتنبي في المكانة والمنزلة والرتبة كما يقول الثعالبي [1] وله مع المتنبي وقائع ومعارضات .

ولقد كان شاعر الأمير الأول والمقدم على غيره سيما بعد مغادرة المتنبي لرحاب الأمير غضباً ، مولياً وجهه صوب مصر طمعاً في الحصول على ولاية ، ولا نكاد نحصل على تفصيلات وافية عن مدى علاقة النامي بالأمير الحمداني كالذي نجده في علاقة المتنبي به . فتلك العلاقة لم تقتصر على وقت السلم سواء في مجلسه أو علاقاته العامة والخاصة بل تعدتها إلى مشاركة المتنبي في الحروب شاعراً بقصائده وجندياً مقداماً يشهر سيفه في ساحات الوغى ، يذب به الأعداء عن سيف الدولة الحمداني [2] .

وكان الحساد في بلاط الأمير ينظرون للنامي بحكم منزلته التي تلي منزلة المتنبي بعين الحقد والكره وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد [3] أويتضح ذلك من قول النامي : كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت شتهي أن قد سبقته إلى معنيين قالهما — ما سبق إليهما أحد — هما قوله :

رماني الدَّهرُ بالأرزاء حتّى فؤاديَ في غشاءٍ من نِبالِ
فصِرْتُ إذا أصابَتْني سهامٌ تكسّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

وآخر قوله :

في جحفَلٍ سترَ العيونَ غبارُهُ فكأنما يُبصِرنَ بالآذانِ [4]

(١) اليتيمة طبعة ١٩٣٤ (١ / ١٩٠) .
(٢) الاعلام (١ / ٢٣) .
(٣) شعر الحرب في أدب العرب ص (٢٥٦) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

وأشار الأستاذ الكيّالي إلى أن النامي كان في جملة مناوئي المتنبي وحساده حيث يقول : وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسّون عليه ويصوّرون شعره بشكل مبتذل ، أجمله مسروق ، لا يستحق هذا الإكبار والإجلال . وكان في طليعة هذا النفر النامي الشاعر وابن خالويه مؤدّبُ سيف الدولة وأبو فراس ابن عمه . وكان أبو فراسٍ أكثرهم حِقداً عليه [1] .

وذهب هذا المذهب الأستاذ جوزيف الهاشمُ بقوله : وكان لكبرياء أبي الطيب وتعاليه على رجال البلاط وشعرائه ، وإيثار سيف الدولة له القدرة على أن يؤلّب عليه الحساد ليوقعوا بينه وبين أسيره . وقد أثمرتْ هذه السعايات التي كان يقوم بها رجال مقربون كأبي فراس وابن خالويه والنامي ثمراً مريراً فيما بعد [2] .

ويخالف هذا الرأي الدكتور الشكعة ويميل إلى أن النامي وقف إلى جانب المتنبي في خصومته مع أبي فراس الحمداني . فيقول : نشأت المشاحنات وتعددت المعسكرات التي استفاضت بها كتب تاريخ الأدب عما حدث في بلاط سيف الدولة من مساجلات ومشاحنات لم تكن لتخلو من دماء في بعض الأحيان فهناك الخلافُ الشديد بين كل من أبي فراس والمتنبي ولّكل منهما أحبّاءٌ وأنصارٌ فالجبهة الأولى على رأسها أبو فراس وجناحاها ابن خالويه وأبو العشائر ، والجبهة الثانية زعيمها المتنبي وجناحاها ابن جنيّ وأبو العباس النامي [3] .

ونرى أن النامي كان من جملة حساد المتنبي فلقد كان الأمير يميل إليه ويفضله على غيره من الشعراء إلى أن قدم المتنبي فقدّمه عليه ، فغاظ ذلك

(١) سيف الدولة ــ سامي الكيالي ــ ص (١٣٩) .
(٢) المتنبي ص (٢١) .
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص (١٢٤) .

أبا العباس ولم يستطيع الصبر فعاتب الأمير : لماذا يفضل عليه المتنبي ؟ ولح في عتابه ، فقال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كلّ فتْحٍ غيرَ مُفْتخِرٍ وقدْ أغذّ إليهِ غيرَ مُحْتَفِلِ

فهذه الرواية بها إشارة واضحة للمنافسة والخصومة بين المتنبي وأبي العباس النامي ولم تكن صلة النامي بالمتنبي وحده صلة العداوة والكُرْه بل كانت صلته بالسّريّ الرفّاء الشاعر كذلك فقد هجاه السريّ الرفاء ، وأمعن في الهجاء متهماً النامي بسرقة شعره والسطو عليه حيث يقول :

أجزّارَ بابِ الشّامِ كيفَ وجدتَني وأنتَ جزور بين نابي ومِخْلَبي
أراكَ انْتَهبتَ الشعرَ ثمّ خبأتَهُ على الناس فِعْلَ الخائفِ المترقّبِ
تباعدتُ عن باقورةَ الشّعر بالمدى إليهِ فلم نخْرجْ ولمْ تتحوَّبِ
ولمّا جرى الحُذّاقُ في ضوءِ صُبحهِ تعثّرتَ منه في ضَبابَةِ غَيْهَبِ
جريتَ من الإيجازِ أقربَ مسلَكٍ ومنْ ذَهَبِ الألفاظِ أحسن مذهبِ
وتزعُمُ أن الشّعرَ عندكَ أعْربَتْ محاسِنُهُ عن ناطِقٍ منك مُعْربِ
فما بالُ شِعْرِ الناسِ ملءُ عيُونِنا وشعركَ في الأشعارِ عنقاء مغربِ[1]

ويهجوه السّري في قصيدة ثانية ويفصح فيها عن سبب عداوته للنامي مكرراً اتّهامه بسرقة الشعر وترقيع شعره بما يسطو عليه :

أرى الجَــزّارَ هَيّجَني وولّى وكاشَفَني وأسْرَعَ في انْكِشافي
ورَقّع شِعْرُهُ بعيونِ شِعْري فشابَ الشّهْدَ بالسّمّ الزّعافِ
لقد شَقِيَتْ بمُدْيَتِكَ الأضاحي كما شَقِيَتْ بغارتك القوافي[2]

(١) ديوان السري الرفاء ــ القاهرة ــ نشرة مكتبة القدس ص (٤٥) .
(٢) المصدر السابق ص (١٧٨) .

كما أن النامي عندما قَدِمَ الناشيء الأصغر إلى حلب أوغر عليه صدر سيف الدولة وعمل على التقليل من شأنه واتهمه بالشعوذة [1] وذلك خوفاً من منافسته له لدى سيف الدولة :

ويبدو أن النامي كان كثير الاعتداد بنفسه وبقوة شاعريته فهو يقول :

وشِعْرٍ لَوْ عَبيدُ الشّعرِ أصْغى إليْهِ لَظَلّ لي عَبْداً عبيدُ [2]
كأنّ لفكرةٍ نُشِرَ ابنُ حُجْرٍ ونُودي مِنْ حفيرَتهِ لَبيدُ [3]

وهو في مِعْرَضِ مدحه للأمير ينوّه بفضله على الشعراء قائلاً :

وَوَلّدَ شِعْري فيكَ لِمَعْشَرٍ فكنْتَ عليهِمْ مِثْلَ نُعماكَ مُنعِما

وكان هذا سبباً في خصومته مع الشعراء ونظرهم إليه نظرةً ملؤها الحقد والحسد والضغينة، ولقد عبر عن ذلك السّريّ الرّفّاء في هجائه للنامي قائلاً :

وشرُّ الشّعْرِ ما أدّاهُ فِكْرٌ تَعَثّرَ بينَ كَدٍّ واعْتِسافِ
لقد شَكَتِ القصائدُ منكَ ضَيْماً فهلْ حامٍ يقيها الضّيْمَ كافي ؟
جَرَيْتَ وطرْفُها السّبّاقُ جارٍ وضِقْتَ وباعُها المتَدُّ وافي [4]

ولئن كان النامي على عداء مع عدد من شعراء بلاط الأمير فإنه كان على صلة مودّة ومحبّة مع نفر منهم . فلقد كانت له صلةٌ طيبةٌ بالشاعر أبي الفرَج الببّغاء ، قوامُها ما يربطُ التلميذُ بأستاذه من صلاتٍ روحية وفكرية فقد تتلمذ الببغاء على يد النامي وروى عنه بعض أماليه [5] .

---

(١) معجم الادباء ط ٢ (٥ / ٢٣٩) .
(٢) عبيد ــ اشارة الى الشاعر الجاهلي عبيد بن الابرص بن عوف بن جشم الاسدي ــ الاعلام (٤ / ٣٢٩) .
(٣) ابن حجر ــ اشارة الى الشاعر الجاهلي امرىء القيس ، لبيد ــ اشارة الى الشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة بن مالك ابي عقيل العامري ــ الاعلام (٦ / ١٠٤) .
(٤) ديوان السري ص (١٧٨) .
(٥) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

- ٤ -

ابن نباتة السعدي

أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نُباتة بن تيم بن مُرّة التميمي السعدي [١] .

فالشاعر عربي النِّجارِ من قبيلة تميم المشهورة التي عُرِفَتْ منذ أيام الجاهلية بالقوة والبأس ، ولقد أشار أبو نصر إلى نسبه وافتخر به قائلاً :

رَضينا وما ترْضى السيوفُ القواضِبُ   نجاذِبها عن هامكمْ وتُجاذِبُ
عمائمُ طُلاّب المعالي صَوارِمٌ   وأثوابُ طُلاّبِ المعالي ثعالِبُ
ولي عندَ أعناقِ الملُوكِ مآرِبٌ   تقولُ : سُيوفيَ هنَّ لي والمناكبُ
فإنْ أنا لم أجذبهم بنصالها   فما ولَدَتْني من تميمَ الأجادبُ [٢]

وقد ولد ابن نباتة في بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومركز إشعاع الفكر والنور وكانت ولادته سنة سبع وعشرين وثلثمائة [٣] وبها نشأ ونهل من ينابيع العلم والمعرفة وصدح منذ ريعان شبابه بغرر القصائد . وجمع شعره بين الرقة والسهولة وحسن السبك .

---

(١) وفيات الاعيان (٣ / ١٩٠) .
(٢) مخطوطة ديوان ابن نباتة ــ ميكروفيلم ــ مكتبة جامعة الدول العربية ص (٢٤١) .
(٣) تاريخ بغداد ــ البغدادي (١٠ / ٤٦٣) .

وكان ابن نباتة طموحاً منذ صغره باحثاً عن العلو والرفعة . ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً في أكثر من موطن في شعره ؛ ومن ذلك ما قاله مفتخراً:

تضاءلَ الدّهرُ حتى ضاع في هممي | واستفحل الهمُّ حتى صار منشيمي
فالعيش من نعمي والموتُ من نقمي | وحكمةُ الفَلَكِ الدّوّار من حِكَمي
والحزمُ والعزمُ في الأقوام من خلُقي | كما الفصاحة في الأقوال من كلمي
مالي رضيتُ بقعْرِ البيتِ منزِلَــةً | وليس ترضى سيوفُ الهند عن هممي
متى أُعيدُ الدّجى صبحاً بروْنقها | وأُلبسُ الشّمسَ أثواباً من السّقَمِ
لولايَ لم تسكُنِ الحيّاتُ من حذَرٍ | بطنَ التراب ولا الآسادُ في الأجم (١)

فهذه الأبيات توحي بأنه برم بالعراق منذ صباه وأخذ يفكر في مغادرته ليحقق المجد الذي يصبو إليه ، ولهذا أخذ يفكر في المسير إلى بلاط سيف الدولة الحمداني الذي ذاعت شهرته في الآفاق وقصده الشعراء من شتّى البلاد فكتب إليه قصيدة يمدحه بها ويخبرهُ بعزمه على القدوم :

يا أيهــا السيف الذي بِــذُبابِهِ | تَحمي الخلافةُ ملكها وتُطارِقُ
ما أبتغي غيري إليكَ وسيلَــةً | إني بفضلكَ والقوافي واثِقُ
لا تحسبنّي كــالذينَ رأيْتَهُمْ | بالعيّ أفصحَ والتّمَهّلُ شائِقُ
ولَدَيَّ من غُرَرِ الكلامِ شواهقٌ | لا يستقلّ بها اللّسانُ النّاطقُ
إنّا بَرِمْنا بــالعِراقِ وأهْلِها | حتى سئِمنا العيشَ وهوَ موافقُ (٢)

وغادر الشاعر العراق متجهاً صوبَ حلَب ومدح الأمير عند وصوله

---

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ـ ميكروفيلم ـ مكتبة جامعة الدول العربية ص (٢١) .
(٢) مخطوطة ديوان ابن نباته ـ ص (٤) .

بقصيدة عصماء أشاد فيها ببطولته في موقعة « مَرعش » مع الروم وبحسن بلائه وشجاعته ومنها :

طِلابُ المعالي للمنُونِ صديقُ وطول اللّيالي للنّفوسِ عَشيقُ
ولولاكَ سيفَ الدّولةِ انقلبَتْ بنا همومٌ لها عندَ الزّمانِ حقُوقُ
تُغيرُ على أحْداثِهِ وصُرُوفِهِ فتَسْبي بِنُنيّاتِ الرّدى وتسوقُ
فِداؤكَ صرْفُ الدّهرِ من حدَثانه فما الدّهْرُ إلاّ من يديْكَ طَليق
أيعرِض مَلكُ الروم وقعةَ مَرْعشٍ وكفٌّ أخيهِ في الحديدِ وثيقُ
ويُنكرُ يوماً بالأحَيدِبِ كذّبتْ بهِ البيضُ حدَّ البيضِ وهو صدوق
به شرّقتْ من خشيةِ الموت بالحصى صدورٌ وفارَتْ بالقلوبِ حلوقُ [1]

ولقد عاش الشاعر في كَنَف الأمير الحمْداني ومدحه بنُخَبِ القصائد وغُرَر الشعر وكان نجماً لامعاً في بلاط سيف الدولة سجّل بشعره مآثره وبطولاته في المعارك التي خاضها ، وأشاد بكرمه وصلاته وعطائه الذي فاق كل حد فقال :

قد جُدتَ لي باللُّهى حتى ضَجرْتُ بها وكدتُ من ضَجَرٍ أُثْني على البخَلِ
إن كنتَ ترغَبُ في بذلِ النّوالِ لنا فاخلُقْ لنا رغبة أوْلا فلا تُنلِ
لمْ يُبْقِ جُودُكَ لي شيئاً أؤمّلُهُ تَركتَني أصحبُ الدّنيا بلا أملِ [2]

وكان ابن نباتة معتداً بنفسه صلفاً متكبراً مغروراً كثير الفخر والاعتزاز بقوته وجودة شعره وإنه ليقول :

إذا ما هززْتَ الصارمَ ابن نُباتَةٍ فصمّمْ بهِ إنّ الحُسام عَتيقُ

---

(١) المصدر نفسه ص (٤) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٨٨) .

فلو شئتُ علّمْتُ المكارمَ شيمتي ولكنّني بالمَكْرُمات رَفيــقُ
أخافُ عليها أن تَجُودَ بنَفْسِها إذا ما أتاها في الزّمانِ مَضيقُ (١)

وقال :

إنّ اللّيالي والأيّامَ لو عَقَلَتْ جرَيْنَ في الخَلْقِ عن رمحي وعن قلمي
لو تعرِفُ الناسُ قدْري في زمانهمُ صلّوا لوجهيَ أو باسوا ثرى قدمي (٢)

وشاعر هذه أبياته وصفاته وتلك كلماته وعباراته لا بد أن يكثر حُسّاده والناقمون عليه خاصة إذا كانت هناك منافسةٌ على مكانة وصدارة — كما هو الحال بين الشعراء في بلاط الأمير الحمداني الذين كثُرت بينهم المُشاحناتُ والخصومات بحثاً عن الجاه والمركز والشهرة الأدبية — فلذا كثُر حسّاد الشاعر والوشاة به هؤلاء الذين نقموا عليه صَلفه وتكبُّره كما ساءتهم مكانته وتقريبُ الأمير له فسعَوْا بالفتنة وساروا بالنميمة وأفلحوا في الإيقاع به .

ولقد ساءت علاقة الشاعر بالأمير حتى انه اضطُرَّ للهرب من حلَب خائفاً من سيف الدولة بعد أن رثى أبا الحسن عليَّ بن الأهوازيّ الذي خرج على الأمير سنة خمس وخمسين وثلثمائة حيث قال :

قد كانَ لا تأمَنِ الظلماء مبْسمهُ ويأمنُ الطعن في الهيجاء من فشَلِهْ
يرعى النجومَ بطرفٍ ليس يُغمضُهُ حتى كأنّ نجومَ الليل من مُقَلِهْ
فهلْ تَقَرّ المعالي بعــد مَصْرَعِه عيناً وتعملُ شيئاً كان من عملِهْ؟
أرثي لها وهْيَ لا ترثي لعاشِقِها حبُّ المواريث يُلهي المرء من خلَلِهْ

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ص (٥٣) .
(٢) ديوان ابن نباته ــ مخطوطة ــ ص (٢٦) .

لا هزْهَزَ المجدُ رُمحاً كان يُحْصِنُهُ   ولا تسربل دِرْعاً كان من حُللِهِ[1]

ومكث الشاعر في بلاد الشام مختفياً بعد هربه من حلب وغادرها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة عندما خرج قرغويه على أبي المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة واستولى على حلب .

وقال أبو نصر يلوم الحمْدانيين ويعرِّض بهم وذلك بعد مفارقته لهم :

وما زالتْ غُواةُ بني العَديِّ   تُضيعُ حقوقنا فيما تُضيعُ
أذِيَّتُهُمْ محرَّمَةٌ علَيْنا   وفي أعْراضِنا لهُمُ رُتُوعُ
ويعجبهم هجوعُ الدَّهرِ عنهم   ويقظته إلينا والولُوعُ
فيخنقُهمْ من الضَّحك والتشفّي   وتخنقُنا من الكَمدِ الدّموعُ
إلى أنْ قامَتْ الأيامُ عنْهمْ   وفي أظفارها منهم نجيعُ
فلو أستطيعُ كربتهمْ تجَلّتْ   ولكنْ حيلتي لا تستطيعُ[2]

وعاد الشاعر إلى بغداد ومدح أمراءها واتصل بعضد الدولة ومدحه بعدة قصائد كما أنه ورد على ابن العميد وهو في الرَّيّ وامتدحه بقصيدته التي أولها :

بَرْحُ اشْتِياقٍ وادّكارْ   ولهيبُ أنْفاسٍ حِرارْ
ومَدامِعٌ عَبَرَاتُها   تَرْفَضُّ عن نَوْمٍ مُطَارْ[3]

ولكن ابن العميد لم يُحسن صلته فانصرف الشاعر مغاضباً وعاد إلى بغداد وأقام فيها ، وتوفي أبو نصر بن نُباتة في سنة خمس وأربعمائة[4] .

---

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ص (١٥) .
(٢) المصدر نفسه ص (٢٦) .
(٣) شذرات الذهب (٣ / ٣٢ ـ ٣٣) .
(٤) تاريخ بغداد (١ / ٤٦٧) .

ولقد ترك أبو نصر ديوان شعرٍ اطّلع عليه الثعالبيّ وأورد مختارات منه وقال : وأول ما وقعَ شعرُه إلى خراسان إنما وقع على يد أبي نصر سهل ابن المرزبان فإنه استصحبه من بغداد في جملة ما حصله بها من ظرائف الدفاتر ولطائفها ، وذخائرها وأخايرها وأتحفني به وهو بغبار السفر وأنا كاتب من عيونه ما يُمتّع الخواطر ويجلو النواظر [1] .

وذكر البغدادي ديوانه حيث قال : «وله ديوان روى لنا أكثره أبو الفتح بن شَيْطا المقرىء عنه» .

ولقد طرق ابن نُباتة مختلف الأغراض الشعرية من مدح وفخر وحكمة ووصف وغزل ورثاء ولكنه أكثر من المدح والفخر والوصف وأجاد فوصف كُماة الحرب وأسرى الروم والفرس والمغنى والسكين وطيب الهواء وخوالج النفس .

أما منهجه في شعره فقد سلك فيه الشاعر مسلك شعراء مدرسة الشام فأحسن احتذاءها والسير على نمطها ، ولقد تنبه إلى ذلك أبو حيان التوحيدي فقال : ان ابن نباتة شاعرُ الوقت لا يدفع ما أقول إلاّ حاسدٌ أو جاهلٌ أو معاندٌ ، قد لحق عصابة سيف الدولة وعدَا معهم ورائهم حسَن الحَذْو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم خفيّ المغاصِ في واديهم ظاهر الأطلال على ناديهم [2] .

وقال البغدادي : أبو نصر أحد الشعراء المحسنين المجوِّدين . كان جزل الكلام فصيح القول [3] وقال ابن خلكان ، وله في سيف الدولة بن حمدان غُرَرُ القصائد ونُخَبُ المدائح ومعظمُ شعره جيّد [4] .

---

(١) اليتيمة (٢ / ٣٧٩) .
(٢) الامتاع والمؤانسة (١ / ١٣٥) .
(٣) تاريخ بغداد (١٠ / ٤٦٦) .
(٤) وفيات الاعيان (٣ / ١٩٠) .

– ٥ –

الصَّنَوْبَرِيّ

أبو بكر أحمدُ بن محمد بن الحسن بن مُراد الضَّبّي باتفاق معظم من ترجموا له ، ولقد خالف في ذلك ابنَ النديم [١] فسماه محمد بن أحمد ووافقه في ذلك ابنُ كثيرٍ [٢] من القدماء وآدم ميتْز من المحدثين [٣] .

وينتسب الشاعر إلى قبيلة ضبّة العربية المشهورة ولقد افتخر بنفسه وقومه فقال :

لو لمْ يكُنْ لي في ذُؤابةِ خِندفٍ   نسبٌ سوى الآدابِ كُنْتُ عريقا
أوَلَسْتُ أطولَها فروعاً في العُلا   وأمدَّها في المكرُماتِ عرُوقا
نحنُ الذينَ بَنَتْ لنا آباؤنا   مجداً يجوزُ بناؤهُ العَيّوقا

ولقد لقب بالصّنوبريّ نسبة إلى الصّنوبر ، وروي أن الصنوبري سئل عن السبب الذي من أجله نسب جدّه إلى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال : كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت حكَم المأمون فجرَتْ له بين

---

(١) الفهرست (١ / ١٦٨) .
(٢) البداية والنهاية (١١ / ١١٩) .
(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (١ / ٤٦٣) .

يديه مناظرة فاستحسنَ كلامه وحدّة مزاجه وقال له إنّك الصّنَوْبَرِيّ الشكل ، يريد بذلك الذكاء وحِدّة المِزاج . [1]

ويرى آدم متز أن لقب الصنوبري يدل على أنه هو وأبوهُ كانا يتّجِران في خشب الصنوبر [2] .

ولد الصنوبري في إنطاكيّة [3] وعاش في حلب مع شعراء سيف الدولة وفيها أنشده شعره ، وروى عنه أبو الحسن الأديب وأبو الحسن محمد بن أحمد بن جُمَيْع وغيرهما [4] وكان من خزَنَة كُتُب سيف الدولة الحمداني [5] .

وصلة الصنوبري بسيف الدولة سابقة على قيام الدولة الحمدانية في حلب وله غُرَرٌ من المدائح التي تشيد بفضل الأمير في غزو الروم ، وهناك من يرى أن الشاعر عاش في بلاط سيف الدولة الحمداني بالمَوْصِل أميناً لخزانة كتبه ثم لما استولى سيف الدولة على حلب انتقل الصنوبري معه [6] .

والذي أرى أن حبال الشاعر قد اتصلت بالأمير قبل أن يلي حلب واستحوذت بطولاتُ الأمير على إعجاب الشاعر فأنشد فيه قصائد رائعة مدح فيها الأمير وذكر بطولاته في محاربة الروم فقال :

وقّاصُ العِدا لآسادِ العِدا أسَدٌ بالقَنا وغرْباً شرْقاً العِدا وقَنَصَ
كمْ بصُبَصُوا لمّا رأوْهُ حَيَّـةً قُرُباً إلى وِرْدِ العُلا بصباصُ

---

(1) التاريخ الكبير لابن عساكر (١ / ٥٤٦) .
(2) الحضارة الاسلامية (١ / ٣٦٤) .
(3) الفهرست ـ ابن النديم (١ / ١٩٨) .
(4) النجوم الزاهرة ـ تغري بردى (٣ / ٢٨٧) .
(5) مطالع البدور (٢ / ١٧٦) .
(6) تتمة ديوان الصنوبري تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ص (٧) عن مجلة المجمع العلمي بدمشق (٣ / م ٤٤ / ٥٧٦) .

والروم أقعص بالجيوشِ جيوشهم إقعاصَ مَن عاداتُه الإقعاصُ[1]
وبحَوا المعاقِلَ والحصونَ وأترصوا إغلاقَها لو ينفَعُ الإتراصُ
فإذا مَعاقِلُهم شِبَاكٌ للـردَى وإذا حُصُونُهم لهمْ أقفاصُ
وكأنّما تلْكَ القِلاعُ مَصاطِبٌ وكأنّما حيطانُها أخْصاصُ[2]

وتحدث في قصيدة ثانية عن انتصار الأمير على الروم وحسن بلائه فقال :

بـأيمَنِ طائرٍ وأَصَحِّ فَأْلٍ وأسْعدِ كوكبٍ يغزو الأميرُ
يؤيّدُ جيشَهُ بجيوش نَصْرٍ تَسيرُ على الجناح إذا تَسيرُ
تركْتَ الروم بعضُهم قَتيلٌ يمُجُّ دَماً وبعضُهُمُ أسيرُ
فَقَدْ ماتوا وما قُبروا ولكنْ كأنَّ بيوتَهُمْ لهُمُ قُبورُ

ونحن نميل إلى القول بأن هذه القصائد أنشدها الشاعر قبل استيلاء سيف الدولة على حلب وذلك لأن الصنوبري مجَّدَ فيها بطولات الأمير في حروبه مع الروم والأميرُ بدأ حروبَه مع الروم في حلَب سنة ٣٣٧ هـ وذلك بعد وفاة الشاعر بثلاث سنوات ، بينما سبق له أن خاض الحرب ضدهم أثناء وجوده في العراق وقبل تأسيسه لملكه في حلب .

ولقد عاش الصنوبري في بلاط الأمير فقرّبه واتخذه نديماً من أخلص ندمائه وجعله أميناً لمكتبة قصره وكان الشاعر يبادل الأمير الحبَّ والتقدير .

ولقد مدح الشاعر كبار رجال عصره ووجهاءِ دولته بالعديد من القصائد كما أنه مدح آل البيت الشريف ورثى الحسين بن علي في كثير من قصائده ،

---

(١) اقعص : رمى الشيء فقتله في مكانه .
(٢) ديوان الصنوبري ص (٢٣٥) .

وتدلّ هذه القصائد على أنه كان يتشيع ومن ذلك ما قاله في قصيدة رثى بها الحسين :

يومُ الحسينِ ابتزَّ صبري فما   منّيَ لا صبرٌ ولا صابِرُ
لهفي على مولايَ مُستَنصِراً   غُيّبَ عن نُصرتِهِ النّاصِرُ [1]

ولقد كان الصنوبريّ محبّاً للأسفار وطوّف في عدد من البلاد ، وتغنّى في شعره كثيراً بذكر حلب والرّقّة وقد عاش مترفاً منعّماً وكان له قصرٌ فخمٌ حوله الغَرْس والرّياحين وشجرُ النّارنج [2] .

وكان صديقاً حميماً للشاعر كُشاجم الذي احتذى طريقته وسار على دربِه وقد طلب منه يد ابنته وعزّاه عن فقدان ابنة أخرى توفيت بكراً [3] .

وقد اهتمّ الصنوبري بالزّهور والرّياض ومظاهر الطبيعة اهتماماً كبيراً حتى قُرِن اسمه عند النقاد بشعر الطبيعة وغلب على شعره هذا الاتجاه من وصف للرياض والنّوْرِ والطير وما شاكل ذلك ، وقال ابن رشيق : لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه كأبي نُواس في الخمر والصنوبري في ذكر النّوْرِ والطّيْرِ [4] . ويقول الخوارزمي : من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وروضيات الصنوبري ولم يخرج إلى الشعر فلا أشّبَ اللهَ قرنَهُ [5] .

ويعدّه آدم متز شاعر الطبيعة الأول في الأدب العربي ويقول: كان

---

(١) ديوان الصنوبري ص (١٢٩) .
(٢) الحضارة الاسلامية ص (١٢٩) .
(٣) اليتيمة (١ / ١١٨) .
(٤) العمدة (١ / ١٩٤) .
(٥) مطالع البدور (١ / ٢١٤) .

الصنوبري وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة [1] .

ويقول الدكتور سيد نوفل : والصنوبري شاعر من شعراء العربية الممتازين في وصف الطبيعة تتوفر له عوامل التفوق الفني من الحب الصادق والمرح وإرهاف الحس والتأمل في الطبيعة وتصويرها جمة النشاط والحركة في صور إنسانية وهو نتاج طبيعي لعصره وبيئته ونشأته [2] .

ولقد نجم عن ذلك قيام المدرسة الحلبية التي مكنت لشعر الطبيعة في الأدب العباسي والتي من أعلامها كُشاجِمُ وأبو فراس والخالديان والسري الرفّاء وغيرهم .

ولقد نسج الشعراء في بغداد على غرار هذه المدرسة ونشر الوزير المهلبي طريقة الصنوبري ببغداد وكان كثير الإنشاد لشعر الصنوبري والنسج على منوال أستاذه فوصف الثلج وهو من الأعاجيب ببغداد [3] .

ولقد توفي الصنوبري سنة ٣٣٤ هـ وقدّر بروكلمان عمره بخمسين عاماً [4] ولعله اعتمد في ذلك على بيت للصنوبري يشير إلى بلوغه الخمسين قائلاً :

لقَدْ غَصَبَتْنيَ الخمسُونَ فَتْكي   وقامَتْ بيْنَ لَــذّاتي وبيْني

ولكن العمر يمتد بالصنوبري إلى أكثر من ذلك فهو يتحدث عن بلوغه الستين قائلاً :

---

(١) الحضارة الاسلامية (١ / ٤٦٧) .
(٢) شعر الطبيعة في الادب العربي ــ الدكتور سيد نوفل ــ ١٩٤٥ ص (٢١١) مع تهذيب واصلاح .
(٣) الحضارة الاسلامية ــ آدم متز (١ / ٤٧٣) .
(٤) تاريخ الادب العربي ــ بروكلمان (٢ / ٩٧) .

وسَبِيلي وقد نَهَضْتُ بسِتّيـ ــنَ نُهُوضَ المُشَمِّرِ المِرْكاض

ولا نستطيع أن نجزم بالقدر الذي عاشه الصنوبري بعد الستين وعلى هذا تكون ولادة الشاعر حتماً قبل عام ٢٧٥ ﻫ .

ولقد ترك الصنوبري ديوان شعر عمله الصولي على الحروف في مائتي ورقة إلاّ أنه لم يصل إلينا كاملاً ولقد جمع محمد السماوي المتوفى سنة ١٩٥٠ شعره من كتب الأدب في خزانة كتبه التي خلفها بالنجف [١] . وجمع الشيخ راغب الطباخ ما استطاع جمعه من شعره في ديوان سماه الروضيات وطبعه في حلب سنة ١٩٣٢ م ويقول الشيخ الطباخ : قد أربى ما جمعه من شعر الصنوبري على ٦٠٠ بيت ويغلب على الظن أن نسخ ديوانه لم تتعدد فلذا ذهبت بها أيدي الزمان [٢] .

ولقد نشر الدكتور إحسان عباس قسماً من شعر الصنوبري وهو يقول : إن ديوان الصنوبري لم يصلنا كله وهذا القسم الذي وصلنا يشمل قصائده من قافية الراء حتّى القاف ولم ترد جميع قصائد هذا الحرف — وعلى هذا يكون هناك جزءان ضائعان منه على الأقل . واحد قبل هذا القسم الموجود وواحد بعده [٣] .

كما قام الأستاذان لطفي الصقال ودريّة الخطيب بجمع مجموعة من شعر الصنوبري التي لم ترد في ديوانه المطبوع ونشراها تحت اسم صلة الديوان مضافة إلى الروضيات التي جمعها الطباخ [٤] .

---

(١) مجلة معهد المخطوطات ٤ / ١٩٥٨ / ٢٢٨ رقم ٢٥٧ .
(٢) الروضيات ص (٨) .
(٣) مقدمة ديوان الصنوبري ص (٦) .
(٤) تتمة ديوان الصنوبري ص (١٨ — ١٩) .

- ٦ -

كشاجم

هو الشاعر الكاتب الأديب أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندي بن شاهك من الشعراء المبدعين ، وقيل : إن لقبه هذا منحوت من عدة علوم كان يتقنها فالكاف من الكتابة والشين من الشعر والألف من الإنشاء والجيم من الجدل والميم من المنطق وكان يضرب بمُلَحِه المَثَل فيقال مُلَحُ كشاجم [١] .

وأبو الفتح من أهل الرملة من نواحي فلسطين وكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وقيل : إنه كان طَبّاخ سيف الدولة وقال ابن مكي الصقلّي صاحب « تثقيف اللسان » أن كشاجم لقب له جمعت أحرفه من صناعته ثم طلب علوم الطب حتى مهر فيه وصار أكبر علمه فزيد في اسمه طاء من طبيب وقدمت فقيل طكشاجم ولكنه لم يشتهر [٢] .

ويقول السيوطي : كشاجم اسمه محمود بن محمد بن الحسين بن السندي ابن شاهك ويكنى أبا نصر [٣] .

---

(١) شذرات الذهب (٣ / ٢٧) .
(٢) المرجع نفسه ص (٣ / ٣٨) .
(٣) حسن المحاضرة (١ / ٢٥٧) .

وأورد الثعالبي أنه محمود بن الحسين المعروف بكشاجم شاعر وكاتب مشهور من أهل الرملة من نواحي فلسطين وكان طبّاخ سيف الدولة وهو الذي أطلق على نفسه لقب كشاجم وكان ريحانة الأدب في زمانه وكان السري الرّفاء مُغْرىً بمنهج ديوانه .

وقال المسعودي — وكان معجباً بكشاجم ومن أهل عصره — : أنشدني أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم — وكان من أهل العلم والدّراية والمعرفة والأدب — أنه كتب لصديق — يذُمّ لعبة النّرْدِ وكان مشتهراً بها — مقطوعة من خمسة أبيات مطلعها :

أيّهـــا المُعْجِبُ المُفاخِرُ بالنّرْ دِ ويزْهَى بهِ على الإخْوانِ [1]

وعدّه ابن النديم بين الكُتّاب والخطباء المترسلين ورجال الخَراج والدواوين وقال عنه : هو أبو الفتح محمود بن الحسين وأدبه مشهور ، وله من الكتب « أدب النديم » وكتاب « الرسائل » وديوان شعره [2] .

وقد تقدم قريباً قول آدم متز أن الصنوبري كان صديقاً للشاعر كشاجم وأنه طلب ابنته وعزاه عن فقد ابنة أخرى له توفيت بكراً [3] .

وبالنسبة لأسرة الشاعر ذكر ابن خلّكان في ترجمته لموسى الكاظم أن جد أبي الفتح السّندي بن شاهك كان من كبار رجالات الدولة العباسية وأنه كان صاحب الشرطة في عهد الرشيد ، وأن الرشيد حبس موسى الكاظم وكان هو الموكل بمدة حبسه [4] .

---

(١) مروج الذهب (٨ / ٣١٨) .
(٢) الفهرست — ابن النديم — ص (٢٠٠) .
(٣) الحضارة الاسلامية — آدم متز (١ / ٢٥٧) .
(٤) وفيات الاعيان (٥ / ٣١٠) .

ويذكر الجاحظُ السّندي بن شاهك بوصفه رجلاً من وجهاء العصر العباسي حيث يقول : حدثني إبراهيم بن السندي قال : لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوس بين القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلاّ للطاعة لله عز وجل وللخلفاء كلّكم أخوة ليس للنّزاري عندي شيء ليس لليَماني مثْلُهُ [1] .

ولقد افتخر الشاعر بقومه من الفرس وأشاد بمناقبهم ويلمس الدارس لديوانه ضرباً من الشعوبية الهادئة في مثل قوله :

قَــوْمي بَنُو ساسانَ لَيْـ ـسَ حِمَاهُمُ بالمُسْتَبَاحِ
العــاقِدي التِّيجــانِ تَضْـ ـحَكُ عن وجوهِهم الصِّباحِ
والجَــاعِلِينَ عِــداهُمُ لَهُمْ بمَنْزِلَةِ الأضاحي
وَوَلاؤنـــا لِلْغُرِّ مِنْ ساداتِ مُعْتَلِجِ البِطاحِ

كما افتخر بشعره وأدبه وعلمه وأكثر من ذلك حتى لا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من الحديث عن نفسه وأدبه .

أما أبوه فلا نكاد نعرف عنه شيئاً بل ان بعضهم يذكر أن الحسين جد الشاعر لا أبوه [2] .

ولا ندري هل السبب في عدم الترجمة لأبيه تدني منزلته الاجتماعية أم أنه قضى مبكّراً قبل أن يصل إلى مكانة مرموقة كتلك المكانة التي وصل إليها جد الشاعر .

---

(1) الحيوان (٥ / ٣٩٣) .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي (١ / ٢٥٧) .

ولقد رثى والده بقصيدة رائعة ضمّنهما شعوره والحُزن لفقده وتمنى أن يفْديه بنفسه وفيها إشارة إلى أن وفاة أبيه كانت مبكرة وأنه ترك وحيده يافعاً يشارف الرجولة وما يكاد :

تَرَكْتَهُ مُقْتَدِياً إلى المَعالي سُبُلَكْ
مِنْ بعْدِ ما أدركْتَ أو شارفْتَ فيه أمَلَكْ
وحُمّلَ الْعِبْءَ الّذي كانَ أبُوكَ حَمّلَكْ

وكذلك رثى كشاجم والدته بقصيدة تموج بلواعج الحُزن والأسى والألم ومنها :

أبَعْدَ مُصابِ الأمّ آلَفُ مضْجَعاً وآوي إلى خَفْضٍ من العيش أوْ ظلّ
سترضع عن قبرها من دموعها بما كلّفتْه من رضاعي ومن حَملي
فأقْسِمُ لو أبصرَتْني عند موْتِها وعيْنيَ تسَحّ الدّمع سجلاً على سجل
رثيتَ لنصلٍ يأخذُ الموتُ جفْنَهُ وأعجبْتَ من فَرْعٍ ينوح على أصلِ

ولقد قضى كشاجم فترة طويلة من حياته متنقلاً بين الأقطار الإسلامية وأقام في بعضها فترة طويلة أثّرت في شعره وأدبه ، ومن البلاد التي رحل إليها وأقام فيها دمَشْقُ والمَوْصلُ وبغدادُ والقُدْسُ ومِصْرُ . ويبدو أنه حل بها مرات عدة وكان يحن إليها كلما فارقها ، وأخذ بحظ وافر من حياة اللهو فيها وكان يتردد مع أصحابه على دير القُصير بالقرب من حُلوان ، وفي ذلك يقول [1] :

سلامٌ على ديْرِ القُصَيْرِ وسَفحهِ بجنّاتِ حُلْوانٍ إلى النّخَلاتِ
مَنازلُ كانت لي بهنّ مآربٌ وكانتْ مَواخيري ومُنتزهاتي

(١) الديوان ــ ص (٢١) .

وقال :

قد كان شوقي إلى مصر يؤرّقني   فاليومَ عدتُ وعادتْ مصرُ لي دارا

ولقد كان كثير الترحال والانتقال حتى أنّه ملّ ذلك حيث يقول :

قدْ سَئِمْتُ وأبْلِيتُ في السّيْـ   ـرِ جُسُومَ المُضَمّراتِ العِتَاقِ
وسَلَكْتُ البلادَ شَرْقاً وغَرباً   وشَآماً مَوْصُولَةً بالعِراقِ

وبعد ترحال طويل استقر به المقام في حلب في رحاب الأمير الحمداني فأغدق عليه من صِلاته ووفّر له سبل النعيم وكان قد سبق له ــ كما قلنا ــ أن اتصل بوالد سيف الدولة أبي الهيجاء عبدِ الله بن حَمْدان ومدحَه وعاش في ظله [1] . ثم صار من حاشية سيف الدولة ولا شك أنه أفاد من النهضة العلمية التي كانت حلب تشهدها آنذاك . واتصل بالعلماء والأدباء الذين كانوا يعيشون في كنف الأمير وأفاد من دروسهم وحلَقاتهم العلميّة واطّلع على خزانةِ كُتُب سيف الدولة وفي قول أنه كان أحد أُمنائها [2] . فنال من المعارفَ أقصى ما يمكن أن يُنال وعبّر عن ذلك بقوله [3] :

وما زِلتُ أبغي العلمَ من حيث يُبتغى   وأفتَنُّ في أطْرَافِهِ أتَطَرَّفُهُ
فقَدْ صرتُ لا ألقى الذي أسْتَزِيدُهُ   ولا أذكرُ الشيء الذي لستُ أعرفُهُ

وكان كشاجم كاتباً من كتّاب سيف الدولة كما ذكرنا سابقاً وهو من هذه الزاوية تظهر آثار صناعته في نتاجه الشعري كالتشبيهات والاعتداد بالكتابة ووصف الخدمات الجليلة التي تقلدها واستخدم القريض فيما يؤدي

---

(١) شذرات الذهب ــ ابن العماد (٣ / ٣٧) .
(٢) الحضارة الاسلامية ــ آدم متز (١ / ٤١٣) .
(٣) الديوان ص (١٢٧) .

بالنثر ، فاستعمله في المهاداة واستقصاء الحاجات ودعوة الأصدقاء وغيرها من أمور الحياة اليومية واستأثر وصف الكتابة والمدح منها بنصيب الأسد .

وفي حلب توثقت صلة المحبة والمودة بين كشاجم وبين الشاعر الصنوبري فقضى في صحبته أوقاتاً ممتعة كانت أبهج أوقاته وأحفلها بمُتَع الحياة المادية والمعنوية : فقد وجد فيه صديقاً وفيّاً وأخاً مخلصاً يذود عنه عوادي الزمان وقد عبر عن صداقته الحميمة للصنوبري بقوله (١) .

أنَنْسى زمَناً كُنّا به كالماءِ والخَمْرِ
أليفَيْنِ حَليفَيْنِ على الإيسارِ والعُسْرِ
يُبَكّينا على اللذاتِ في الصَّحْوِ وفي السّكْرِ
نُرى في فَلَكِ الآدابِ كالشّمْسِ وكالبَدْرِ

ويبدو لنا أن كشاجم كان متشيعاً إذ اشتمل ديوانه على ثلاث قصائد وثلاث قطع في آل البيت . وهو يبكي في قصيدة له على آل البيت ويتفجّع على ما أصابهم من ظلم ويقول :

بكاءٌ وقَلّ غَنَاءُ البكاءِ على رُزْءِ ذريّةِ الأنْبياءِ
لَئِنْ ذلّ فيه غزيرُ الدّموعِ لقدْ عزّ فيهِ ذليلُ العَزَاءِ (٢)

وكما لم يذكر المؤرخون سنة ميلاد الشاعر ، اختلفوا في سنة وفاته إلاّ أن ديوانه يحتوي على قطعة في هجاء كافور الإخشيدي حيث يقول :

تَراهُ في الصَّدْرِ من خَساستِهِ كأنّهُ في أواخرِ المَجْلِسْ

(١) الروضيات : ٩٩ .
(٢) الديوان : ١٩ .

لا يفهَمُ القولَ والخِطابَ ولا يُفهِمهُ فهو أبكَمُ أخرسْ
يحكُمُ في مصرَ والشّامِ وقَدْ كان كثيراً لمِثْلِهِ يحْرُسْ

وكافور حكم مصر من سنة ٣٥٥ ــ ٣٥٧ هـ فلا شك إذن أن كشاجم عاش عصر كافور حيث كان حاكماً لمصر ولا يستبعد أن يكون تأخر عنه وفاة ، وأن يكون تأريخُ ابن العماد لوفاته سنة ٣٦٠ هـ أقرب إلى الصواب من ذلك الذي ذكروه في وفيات ٣٥٠ أو ٣٣٠ هـ وقد خلف كشاجم ولداً عني بالأدب كأبيه وأورد الثعالبي له ترجمة وشعراً وكناه بأبي نصر متجاهلاً اسمه [1] .

ولقد ترك كشاجم مؤلفات قيمةً طُبِعَ بعضها ككتاب « أدب النديم » وكتاب « المصائد والمطارد » وديوان شعره ، كما أن كثيراً منها لم يصلنا عنها إلاّ أسماؤها مثل كتاب « خصائص الطرب » و« فن الطبخ » وقد ذكرهما حاجي خليفة في كشف الظنون [2] وكتاب « الرسائل » وذكره ابن النديم في الفهرست . وقد جمع فيه ما كتبه من الرسائل الأدبية والأخوية [3] .

وخلاصة القول أن كشاجم كان شاعراً مبدعاً ونابغة من نوابغ القرن الرابع الهجري وكان شعره ريحانة أهل الأدب وطوّفت أشعاره في الشرق والغرب . ولو أُنْصِفَ الشاعر لقُدِّم على غيره ولاحْتَلَّ المكان الرفيع بين أهل عصره لأن شعره ترجمةٌ فصيحة عن عميق إحساسه بالتجربة الحية النابضة يحياها أو يلمسها في المجتمع والطبيعة ولعل السبب في عدم إنصافه راجع إلى أن الشاعر كان في زمن أبي الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل

---

(١) اليتيمة ط ٢ (١ / ٣٠١) .
(٢) كشف الظنون ص (١١١٠) .
(٣) الفهرست ص (١٣٩) .

الناس وأبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة الذي كان شاعراً فذّاً على حظ عظيم من القدرة والإبداع .

وقيل إن ديوانه كان ١٠٠ ورقة [١] وروي أن السريّ الرفّاء الشاعر كان متعلقاً بكشاجم ومقلداً له جمع مخطوطات للديوان ونسخه واتّجر به وكي يزيد من بيعه أضاف إليه بعضاً من أحسن قصائد الخالديين [٢] .

ووصل ديوانه إلينا مقسماً على الأغراض مع ترتيب كل غرض على الحروف وهو من صنعة أبي بكر محمد بن عبد الله الحمدوني (من أهل القرن الرابع) الذي أضاف إليه زيادات من رواية أبي الفرج بن كشاجم أحد أبناء الشاعر [٣] . وطبع الديوان في بيروت ١٣١٣ ونشرته خيرية محفوظ في بغداد سنة ١٩٧٠ م .

---

(١) المصدر السابق ص (١٦٨) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١١٨) ، ووفيات الاعيان (١ / ٢٥٢) .
(٣) ديوان كشاجم : المقدمة ص (٦) .

– ٧ و ٨ –

الخالديان

هما أبو بكر محمد بن هاشم بن وَعْلَة بن عُرام بن يزيد بن عبد الله بن يشْرِبيّ بن عبد السلام بن خالد العبديّ ، وأبو عثمان ــ سعيد بن هاشم أخوان شاعران اشتركا في كثير من الشّعر ونُسِب إليهما معاً [١]. وذكر ابنُ النديم وياقوت [٢] أنهما ينتسبان إلى قرية الخالدية قرب المَوصل وأشار إلى نسبتهما للخالدية الشاعر السريّ الرفاء في مِعْرَض هجاءه لهما فقال :

ولقد حمَيْتُ الشّعر وهو بمعشرٍ رُقْمٍ سوى الأسماء والألقابِ
وضربْتُ عنه المدّعينَ وإنّما عن جودةِ الآدابِ كان ضِرابي
فغدتْ نبيطُ الخالديّةِ تدّعي شِعري وترفلُ في حبيرِ ثيابي

وقال أيضاً :

ومن عَجَبٍ أنّ الغَبِيّيْنَ أبْرَقا مُغيرينَ في أقْطارِ شِعري وأرعدا
فقَدْ نَقَلاهُ عن بياض مَناسِبي إلى نَسبٍ في الخالديّةِ أسْوَدا [٣]

---

(١) الفهرست ص (١٦٩) .
(٢) معجم البلدان (١ / ٣٣٨) .
(٣) نفس المصدر ص (٣٣٩) .

وذكر ابن النديم أنه قيل : أنهما نسبا إلى جدهما الأعلى خالد العبيدي[1] نشأ معاً في قرية الخالدية وانتقلا منها إلى الموصل وكانت الموصل آنذاك مقصدَ العلماء والأدباء ، ولمعت فيها أسرة الحمدانيين واختلف إليها الشعراء ومدحوا أمراء بني حمدان وبها اشتهر الخالديّان وكانت لهما أشعار أذاعت اسمَيهما معاً ولفتت إليهما الأنظار ، وقبلها كانا بعيدين عن كل شهرةٍ وصيتٍ[2] .

والأخ الأكبر هو محمد أبو بكر الخالدي وقد توفي سنة ٣٨٠ هـ وتوفي خوه أبو عثمان سعيد الخالدي حوالى سنة٤٠٠ هـ[3] وكانا شاعرين اشتركا في كثير من الشعر ونسب إليهما معاً[4] ولقد اتفقا في كل غاية ونطقا بلسان واحد فكأنهما أحبّا وعشقا معاً ، وتنقلا في الأمصار معاً ولم يفصل بينهما إلاّ الموت ويقول الثعالبي متعجباً من ذلك : أن هذان لساحران ، يغْربان بما يجلبان ويبدعان فيما يصفان وكان من يَجمعهما من أخوّة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوّة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يحْييان بروح واحدة . ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان وكانا في التساوي والتشابك والتشاكل والتشارك كما قال أبو تمام :

رَضيعيَ لِبانٍ شريكَيْ عِنـــانٍ عَتيقيَ رِهانٍ حَليفيّ صفاءٍ[5]

وقال أبو العلاء المعري : ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلاّ في أشياء قليلة وهذا متعذر في ولد آدم إذ كانت الجِبِلّةُ على الخلاف وقلّة المرافقة . فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان[6] .

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب ـ مخطوطة ج ١٠ بالورقة ٢٦٤ .
(٢) قدماء ومعاصرون ـ سامي الدهان ص (٣١) .
(٣) فوات الوفيات (٢ / ٢٧١) .
(٤) فوات الوفيات (٢ / ٢٧١) .
(٥) اليتيمة (٢ / ١٨٣) .
(٦) رسالة الغفران ص (٤٢٤) .

ولقد ارتحلا من المَوصل إلى بغداد واتصلا بأمرائها وقابلا العلماء والرواة واللغويين وأقاما فيها فترةً من الزمن ثم صوّبا نحو حاضرة سيف الدولة وقبلة أنظار الشعراء والأدباء والعلماء .

ويبدو أن الخالديين قد اتصلا بالأمير الحمداني قبل رحيلهما إلى الشام إذ أن ديوانهما يحتوي على قصيدتين أنفذاها إليه قبل قصدهما حلب وصفا بهما قلعة شامخة منيعة خضعت أمام بطولة الأمير وطَأطَأتْ هامَتُها وذلّتْ فقالا :

وخَرْقَاءَ قد تاهَتْ على من يرومُها بمَرقبِها العالي وجانبِها الصَّعْبِ
يزُرّ عليها الجوّ جَيْبَ غَمَامَةٍ ويُلْبِسُها عِقْداً بأنْجُمِهِ الشّهبِ
إذا ما سرى بَرْقٌ بدتْ من خِلالِهِ كما لاحتِ العذراء من خللِ الحجبِ
فكم ذي جُنودٍ قد أماتَ بعَضْبِهِ وذي سطَواتٍ قد أبانَ على عقْبِ
سمَوْتُ لها بالرّأيِ يُشرق في الدّجى ويقطعُ في الجُلّى ويصدعُ في الهضْبِ
فأبْرَزْتُها منهوكةَ الجَيْبِ بالقَنا وغادرْتُها ملصوقة الخدّ بالتّربِ[1]

ولقد نال الخالديان في رحاب الأمير حظوة كبيرة ومنزلة رفيعة إذ كانا من خواص سيف الدولة وكانا خازني كتبه[2] . ولقد أغدق عليهما هباته العميمة وصلاتِه الجزيلة فصدحا بروائع المديح ومن غُرَرِ مدحهما قول أبي بكر مشيداً ببطولة الأمير :

ترى البريّةَ في حالَيْ ندىً وردىً يُريشُها وبحدّ السّيفِ يبْريها
فَفِرْقَةٌ بمناياهــا مُصَبَّحَــةٌ وفِرْقَةٌ صَدَقَتْ فيها أمانيها
كأنّهُ الدّهْرُ في الآمالِ ينشرُها بين العِبادِ وفي الأعْمالِ يطويها

(١) ديوان الخالدين (١٥٥ ــ ١٥٦) .
(٢) نخبة تاريخية ــ كانار ــ ص (٢٩٣) .

إذا الصَّوَارِمُ عَرَّتْهُنَّ غَضْبَتَهُ   فإنّهُ بنفوسِ الأسْدِ كاسيها
يَظَلُّ بالهز يوم الرّوعِ يُضحكُها   وبالدّماء من الهاماتِ يُبكيها
حتى كأنّ جفونَ المشركينَ خلتْ   طَيّاتُها وأعادَتْها مآقيها [1]

ولقد وقعت في بلاط الأمير مخاصمة عنيفة بينهما وبين الشاعر السرّيّ الرّفّاء ، يبدو أن سببها يرجع للمنافسة على المكانة والصدارة وقد اتّهمهما السريّ الرفاء بسرقة شعره وشعر غيره وذكر ذلك الخطيب البغدادي في ترجمته للسريّ الرفّاء حيث قال : وكان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالديّين حالة غير جميلة ولبعضهم في بعض أهاجٍ كثيرة فآذاه الخالديّان أذىً شديداً وقطعا رسْمه عند سيف الدولة وغيره [2] ولقد ذكر ذلك أيضاً ابن الجوزي فقال وكان بينه أي : السرّي وبين الخالديين أهاجٍ كثيرة فبالغا في أذاه وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره [3] . فانحدر إلى بغداد ومدح الوزير أبا محمد المهلبي فانحدر الخالديان وراءه ودخلا على المهلبي وثلباه وحصلا في جملة منادميه وجعلا هجّيراهما ثلبه وآل به الأمر إلى عدم القوت وركبه الدّيْن ومات ببغداد [4] .

ولقد اتّهمهما ابن النديم كذلك بسرقة الشّعر فقال ،بعد أن أشاد بهما : وكانا إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حيّاً كان أو ميتاً لا عجزاً منهما عن قول الشعر ولكن كذا كان طبعهما [5] .

أما الثعالبي فإنه يتهم الشاعر السري صراحة بدس الأشعار على الخالديين

---

(١) ديوان الخالدين ص (١٠٣) .
(٢) تاريخ بغداد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١ (٩ / ١٩٤) .
(٣) تاريخ بغداد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١ (٩ / ١٩٤) .
(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والامم ــ ابو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ط ١ سنة ١٩٣٠ (٧ / ٦٢) .
(٥) الفهرسب ص (٢٤١) .

ويقول : ذكرت ما شجر بينهما وبين السريّ من شأن المغاضبة والمسارقة وما أقدم عليه السري من دسّ أحسن أشعارهما في شعر كُشاجم [1] .

وعلل ابن خلّكان دسّ السري لشعر الخالديين في ديوان كشاجم فقال : وكان السريّ مغرىً بنسخ ديوان أبي الفتح كشاجم الشاعر المشهور وهو إذ ذاك ريحان الأدب بتلك االبلاد والسري في طريقه يذهب ، وعلى قالبه يضرب فكان يدسّ فيما كتبه من شعره أحسن شعر الخالديين ليزيد في حجم ما ينسخه ويُنَفِّق سوقه ويُغلي سعره ويشنّع بذلك عليهما ويغضّ منهما ويظهر مصداق قوله في سرقتهما .

وأقام الخالديان في حلب يرفلان في نعمة الأمير السابغة وعنايته الفائقة حتى حدثت مغاضبة بينهما وبين الأمير فتركا حلب وقصدا بغداد حيث الوزير المهلبي [2] . واتصلا بالأمير فقرّبهما واصطفاهما وانتصر لهما على السّريّ الرفّاء فأبعده وقطع صلته . ويذكر ذلك الصابي في رسائله قائلاً [3] وأحضرني — أي : السرّيّ — عدة قصائد إلى الوزير ، أي : المهلبي — أطال الله بقاءه — قد كان دفع نُسَخاً لها إلى جماعة من حاشيته — أيده الله — ليوصّلوها إليه فتخوفت أن تصل من جهة غيري ويعاد عليه من هذا الخَوْض وما يتحامل فيه عليكما ويخالف إيثاري فيكما فعرضت بعض القصائد . وذكر له بعض الحاضرين ما بينه وبينكما من هذه المشاجرة فقال أدام الله عزه —بهذا اللفظ : قد كثُر في الشعراء من يسمو إلى منازعتهما ويتمرّس بمجاذبتهما . ولم يصل هو إليه ولا عاد له ذكر عليه .

وعاش الخالديان حياة عبث ومجون وانصرفا إلى معاقرة بنت الحان

---

(1) اليتيمة (٢ / ١٨٣ — ١٨٤) .
(٢) رسالة الغفران — ابو العلاء المعري ص (٤٢٤) .
(٣) رسائل ابي اسحق الصابي — مخطوطة دار الكتب رقم ١٤٦٦ ص ١٨٣ ظ .

ووصف الجواري والغلمان وارتادا الأديرة والبيَع ومنازل الصَّحْب وأخْوان اللهو وخرجا على ما تعارف عليه الناس من قيم واتفق الأخوان في العيش الماجن والعبث ولقد صوّرا حياتهما هذه في شعرهما تصويراً بارعاً فكان الشعر قيثارةً عزفا عليه ألحانهما وريشةً رسَما بها أحداث حياتهما .

قال أبو بكر محمد بن هاشم في ديْرِ سعيد [١] :

سَعِدَتْ صحْبَتي بدَيْرِ سَعِيدِ ... يومَ عيدٍ في حُسنه ألفُ عيدَ .
كم فتاةٍ مثْلِ المَهَاةِ سَلَبْنَا ... ها صَلِيباً من بين نَحْرٍ وجيدِ
وغَريرٍ مِثْلِ الغزالِ حَلَلْنـــا ... عَقْدَ زُنّارِ خَصْرِه المَعْقُودِ
وحَطَطْنا رِحالَنـــا بفَنَاءِ الـ ... هَيْكَلِ المُؤنِقِ البَعيدِ المَشيدِ
والرَّوابي مُشَهّرَاتٌ كَغِلْمَـ ... انٍ لنا في محبّراتِ البُرُودِ
فخُدُودٌ مثْلَ الشّقائِقِ في اللّوْ ... نِ تَلِيهـــا شقائقٌ كالخدودِ
وإذا ما الهزارُ غَرَّدَ في الغُصْـ ... نِ حكَتْهُ الأوتارُ في التَغريدِ [٢]

وقال أبو عثمان سعيد بن هاشم في الدير نفسه :

يا حُسْنَ ديْر سعيد إذ حللتُ به ... والأرضُ والرَّوضُ في وشْيٍ وديباجِ
وللحمائمِ ألْحـــانٌ تـذكّرُنا ... أحبابنا بـين أرْمالٍ وأهْزاجِ
وللنسيم على الغدرانِ رِفْرَفَـــةٌ ... يزورُها فتَلَقّـــاه بأمْواجِ
والخَمْرُ تُجْلى على خطّابها فترى ... عرائسَ الكرْمِ قد زُفّتْ لأزواجِ

---

(١) دير سعيـــد هو بالجانب الغربي من الموصل مطل على دجـلة حسن البناء حوله قلال كثيرة حسنة العمارة ظاهرة النضارة في كل قلايـة منها جنينات لرهبانه فيهـا طرائف الرياحين وغرائب الشجـر وهو منسوب الى سعيد بن عبد الملك بن مـروان ، مسالك الابصـار في ممالك الامصار ــ ابن فضل الله العمري (١ / ٢٨٩) .
(٢) ديوان الخالديين ص (٤٨ ــ ٤٦) .

وكلُّنا من أكاليلِ البهارِ عـلى رؤوسنا كأنوشِروانَ في التّاجِ
ونحنُ في فلَكِ اللّهو المُحيطِ بنـا كأنّنا في سماءٍ ذاتِ أبراجِ
ولستُ أنسى ندامى وسْطَ هيكلِهِ حتّى الصَّباحِ غزالاً طرْفهُ ساجي
أهزّ عطْفي قضيبِ البانِ مُعْتَنِقاً منه وألثُمُ عيني لعبـةَ العاجِ
وقولَتي والتفاتي عندَ منصرَفي والشّوْقُ يزعجُ قلبي أيَّ إزْعاجِ
يا ديرُ يا ليتَ داري في فِنائكَ أوْ يا ليتَ أنّكَ لي في دربِ درّاجِ[1]

ويبدو من شعر الخالديين أنهما كانا ضعيفي المعتقد وبهما مُرُوقٌ وزَوْغٌ عن جادَّة الهدى والصواب ، وفي شعرهما دلالة على ذلك إذ يقول أبو بكر :

مَحاسِنُ الدَّيْرِ تسبيحي ومِسباحي وخمرُه في الدّجى صُبحي ومصباحي
أقمت فيهِ إلى أنْ صار هيكلَهُ بيتي ومفتاحهُ للأنس مفتاحي[2]

ويقول أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي :

إنَّ شَهرَ الصّيامِ إذْ جاءَ في فَصْـ ـلِ ربيعٍ أودى بحُسْنٍ وطيبِ
فكأن الورد المضعّف في الصَّوْ مِ حبيبٌ يمشي بجنبِ رقيبِ[3]

وقال :

ريقَتُهُ خَمْرٌ وأنْفاسُهُ مِسْكٌ وذاك الثّغرُ كافورُ
أخْرَجَهُ رِضْوانُ من داره مخافَةً أن تُفْتَنَ الحُورُ
يلومُهُ النّاسُ على تِيهِهِ والبَدْرُ إنْ تاهَ فمعذورُ[4]

---

(١) ديوان الخالدين ص (١١٥) .
(٢) ديوان الخالدين ص (٣٧) .
(٣) المصدر نفسه ص (١١٠) .
(٤) المصدر نفسه ص (١٢٥) .

وللخالديين ديوان شعر ذكره ابن النديم فقال : وقد عمل أبو عثمان شعره وشعر أخيه قبل موته ، وأحسب غلاماً يعرف برشأ عمله أيضاً نحو ألف ورقة [1] ولم يصل إلينا هذا الديوان كاملاً ولقد قام الدكتور سامي الدّهّان بجمع بعض شعر الخالديين ونشره بعنوان ديوان الخالديين في دمشق سنة ١٩٦٩ .

وقد ترك الشاعران عدة تصانيف منها كتاب « حماسة شعر المحدثين » « وأخبار أبي تمام » و « محاسن شعره » و « أخبار الموصل » وكتاب في أخبار شعر ابن الرومي و كتاب « اختيار شعر البحتري » وكتاب « اختيار شعر مسلم بن الوليد » [2] ولهما كذلك كتابا « الأشباه والنظائر » والتحف والهدايا » [3] ولهما أيضاً كتاب اختيار شعر ابن المعتز والتنبيه على معانيه [4].

(١) الفهرست ص (٢٤٠) .
(٢) الفهرست ص (١٦٩) .
(٣) مقدمة ديوان الخالدين ص (٢٥) .
(٤) الاشباه والنظائر (٢ / ٥٣) .

— ٩ —

السّريّ الرّفّاء

أبو الحسن السريُّ بن أحمد بن السري الكِنْدي الرّفّاء الموصلي ، ويعرف بالسري الرفاء وهو الاسم الذي غلَب عليه ولُقّب بالرفّاء لأنه كان يرْفُو الملابس ويطرّزها بعدما عمل صبيّاً مع الرفائين بالموصل (١) :

وقد وصف مهنته في شعره فقال :

وكانت الإبرَةُ فيما مضى صائِنَةً وجْهي وأشعاري
فأصبحَ الرّزْقُ بها ضيّقاً كأنّهُ منْ ثُقْبها جاري (٢)

وهو عربي النّسب من قبيلة كِنْدة التي نزلت شماليّ الجزيرة العربية وفي شعره ما يشير إلى نسبة « الكِندي » هذه إذ افتخر بقومه في قصيدة رثى بها أباه فقال :

والدّهْرُ يطْرُقُ بالفوا دحِ أو يُصبّحُ بالدهارسْ
غازٍ يُظَفّرُ بالنّفو سِ وبالذّخيرات النّفائسْ
وملوكِ كِنْدةَ حطّ عنْ تلكَ الأسرّةِ والقرابِسْ

(١) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٢) المرجع نفسه (٢ / ١١٧) .

ما زالَ يُعْمِلُ فيهِمُ طعْنَ المصالِتِ والمُخالِسْ
إنّي لمَنْ قَوْمٍ مَضَوْا بُشمِّ المآثِرِ والمعاطِسْ
ما نيلَ مجدَهُمُ وأنّى يلمسُ الجَوْزاء لامسْ[1]

ولقد ذكره الثعالبي من جملة شعراء الموصل فقال ما نصه : ومن جملتهم أحمد الكنديّ المعروف بالرفاء[2] .

وبالنسبة لسنة ولادته لم تذكرها المراجع أو تحدّدها ، ولكن يمكن أن نحددها بالتقريب بالاستعانة ببعض النصوص الشعرية للشاعر .

ذكر في قصيدة مدح بها الوزير المهلبي أنه جاوز الأربعين من عمره وأن أيام الشباب قد مرت وولت وذلك حيث يقول :

أتَكتُمُ أسرارَ الهَوى أمْ تُذيعُها وتحفَظُها بعدَ النّوى أم تضيعُها
مَهاةٌ ولكنْ للفِراقِ لِقاؤها وشمْسٌ ولكن للغروبِ طُلُوعِها
سلامٌ على الأيّامِ تبيضُ بَيْنَها صنائعُ سود والعِذارُ شَفيعُها

تلفّت بعْدَ الأربعين وأسرعَتْ عِجالاً فلمْ يرْبَعْ عليَّ سريعُها[3]

فالبيت الرابع به إشارة واضحة إلى أنه قد جاوز الأربعين عندما مدح الوزير المهلبي ، والذي علينا أن نحدده هنا هو متى مدح الشاعر الوزير .

لقد ترك السري بلاط سيف الدولة وانحدر إلى بغداد بعد أن آذاه الخالديان

---

(1) ديوان السري الرفاء ص (١٥٢ ـ ١٥٣) .
(2) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(3) ديوان السري (ص ١٦٤) .

أذىً شديداً وقطعا رسمه عند سيف الدولة وغيره [1] . ولعل رحيله إلى بغداد ومَدْحَه للمهلبي بهذه القصيدة كان في عام ٣٥٠ هـ ونحن نميل إلى تحديد هذا التاريخ لأن ديوانه يحتوي على قصائد قالها في مدح سيف الدولة وذكر بها بعض غزواته إلى بلاد الروم ومواقعه معهم عند خَرْشَنَة . وكان ذلك كما تذكر المصادر التاريخية سنة ٣٤٩ هـ .

قطع سيف الدولة رسمه فورد بغداد في أواخر سنة ٣٤٩ هـ وأوائل سنة ٣٥٠ هـ ومدح الوزير بهذه القصيدة . وما دام عند نظمه لهذه القصيدة قد تجاوز الأربعين من عمره فمن الممكن أن نفترض أن مولده كان في العقد الأول من القرن الرابع الهجري . هذا مع العلم بأن الوزير المهلبي قد مات إبّان ذهابه لفتح عمان سنة ٣٥٢ هـ [2] وهذا ينفي صحة قول الثعالبي أن السري قصد بغداد بعد وفاة سيف الدولة ومدح بها المهلبي الوزير وغيره من الصدور [3] .

وذلك لأنه من الثابت أن وفاة سيف الدولة كانت بعد وفاة المهلبي بأربع سنوات .

نشأ السريّ في الموصل ودرس القرآن في الكُتّاب وتعلم شيئاً من النحو واللغة والأدب والحديث وقرأ الشعر وتذوقه ولم تمْضِ مدةٌ طويلة حتى بدأ ينظمه ويجيده [4] .

ويبدو أن ثقافة السري كانت محدودة جداً فلم يهتمّ بالعلوم التي كانت سائدةً في عصره ، ولم يحفل بالثقافات المترجمة ، من منطق وفلسفة وعلم

---

(١) تاريخ بغداد (٩ / ١٩٤) .
(٢) مسكويه (٦ / ١٩٧) .
(٣) اليتيمة (٢ / ١١٩) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٣٥٨) .

كلام وغيرها ولذلك قال عنه ابن النديم: « ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر »[1] .

كان في بداية شبابه يعمل رفّاء في سوق الرفّائين ولكن مهنته لم تكن تدر عليه ربحاً مجْزياً ، ولذلك كان يضيق بها ، ونحن نلمس ذلك في خلال أبيات أرسلها إلى صديق له فسأله عن خبره أثناء عمله رفاء فكتب إليه[2] .

يكفيكَ من جُملةِ أخباري يُسري من الحبّ واعساري
في سُوقة أفضلُهُم مُرْتد نَقْصاً فَفَضْلي بينهم عاري

ولقد ترك السري الرفاء عملية الرفو واحترف مهنة صيد السمك ، وهو يتحدث في شعره عن فقره وتعبه في سبيل الحصول على قوته بشبكة غبراء عتيقة فيقول :

وشاحبِ اللبْسَةِ والأعْضاءِ أشْعَثَ نائي العهْدِ بالرَّخاءِ
أفضى به العُدْمُ إلى الفضاءِ فوَجْهُهُ للضِّحّ والهواءِ
أغْبَرُ يحوي الرّزق من غبراءِ خفيفَة ثقيلة الأرجاءِ
كأنّها هَلْهَلَةُ الرّداءِ كلّفَها لحظُ بَناتِ الماءِ
بأعْيُنٍ لم تؤتَ منْ إغْفاءِ كثيرة تُرْبي على الإحصاءِ
وأقْبلَتْ تملأ عينَ الرّائي بكلّ صافي المتنِ والأحشاءِ
أبْيَضَ مثلِ الفِضَّةِ البيضاءِ أوْ كذِراعِ الكاعبِ الحسناءِ[3]

وعندما قوي شعره وجاد وبزّ غيره من شعراء الموصل آثر أن يمدح ويتكسب

(١) الفهرست ص (٢٤١) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٣) ديوان السري الرفاء ص (٦) .

بشعره ، وقد قضى باكورة الشباب [1] . فاتصل في بداية الأمر بناصر الدولة وأولاده ومن حوله من الأمراء الحمدانيين ، وقد أجْروا له رسماً شهرياً من المال ولكن سرعان ما حسده الشّاعران الخالديّان الموصليّان اللذان شعرا بجودة شعره ومنافسته لهما في التقرب من الأمراء فأوغرا قلب ممدوحيه عليه ونجحا في قطع رسمه الشّهري ولعلهما كانا السبب في ذلك وأخذ يتظلم إلى الأمراء ويشكو حاله فقال يخاطب الأمير أبا عبد الله الحسين بن سعيد وكان يُجري عليه جارياً في كل شهر فقطعه :

قــلْ للأميرِ المــاجدِ السّامي على أكفــائهِ
والمرتقي أمم العــلا ءِ بفَخْرِهِ وسنائهِ
والمستبدّ بعزْمِــــه كالسّيف عندَ مضائه
إنّ الكَريم إذا بــنى لم ينْو هدمِ بنائهِ
وإذا أفــادَ صنيعَهُ بقيتُ بطولِ بقائهِ
وإذا اجتنى غــرّ المــديحِ سقاهُ من أنْوائهِ
أنا غرسَهُ والغرس يذ وي إن خَلا من مائهِ
يا خير مأمول يعو ذُ مؤمــل بفنائه [2]

ولكنه لم يجد أذناً صاغية تسمع تظلّمهُ ، فلذلك شدّ رحاله وقصد حلب حيث ندوة الأمير الحافلة بالأدباء والشعراء والعلماء .

يقول الثعالبي : ولم يزل السّرّي في ضنك العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة واستكثر من المدح له فطلع سعْدُه بعد الأفول وبَعُدَ

(١) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٢) ديوان السري الرفاء ص (١٣) .

صيته بعد الخمول وحَسُنَ موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق [1] .

ومكث السري في حلب أكثر من عشر سنوات مدح خلالها الأمير الحمداني بغرر قصائده وعيون شعره فأغدق عليه الأمير العطاء وأجزل له المِنَح والصّلاتِ .

والسري يتحدث عن نِعَمِ الأمير الحمداني وفضائله قائلاً [2] :

سأشكُرُ أنعامَ الأميرِ وفضْلَهُ فقد ألبساني أنْعُماً وفضائلا
غدوْتُ وآمالي الظّماء تقودُني إلى جُودِ كفّيه فعادتْ نواهلا
وحلّيْتُ أبكارَ القصائدِ باسمهِ ولولاهُ أضحَتْ ثيِّباتٍ عواطلا

ولكنَّ سعادة السريّ شابها الألم وفرحته اعتراها الحزنُ ، وذلك عندما تغير قلب الأمير عليه ، ونفر منه فلم يعد يلقى عناية أو رعاية كما كان حاله في أول مجيئه — حتى أنَّ سيف الدولة منعه من إنشاد شعره في مجلسه فقال السري مخاطباً الأمير في قصيدة مدحه بها وذكر بعض غزواته :

علامَ حرَمْتَني إنشادَ شِعري لديكَ وقدْ تَناشده الأنامُ
ولي فيكَ التي تُلغى القوافي إذا ذُكرتْ ويمتهنُ الكلامُ
يقصّرُ عن مداها الريح جرْياً وتعجزُ عن مواقعها السّهامُ
تناهَبَ حُسْنَها شادٍ وحادٍ تحُثّ بها المطايا والمُدامُ
لكَ النّعَمُ التي جلّتْ ولكنْ دُنُوّي منك والقُرْبُ التّمامُ

---

(1) اليتيمة (٢ / ١١٩) .
(2) ديوان السري الرفاء ص (٢١٦) .

وتشريفي القيامَ إزاء مَلْك ملوكَ العالمينَ لهُ قيامُ
وإحضاري إذا حبرتَ شعراً لتسمع ما أحبر والسلامُ[1]

ويصل الأمر بعداء الأمير للشاعر ونفوره منه أن أخذ يؤخر أعطياته له فيقول الشاعر :

خَطَراتٌ هي العُلا وارتياحُ وغُدُوٌّ إلى الوغى ورواحُ
وإياد تحُثّهُنّ عِـــداتٌ مثل ما حثّتِ السحاب الرّياحْ
يا حُسامَ الإله يا جبل الدّنْـ يا ويا مجرها الذي يُستماحُ
عبْدُ نعماكَ منذُ شهرينِ ثاوٍ فاعتلاقٌ بحياته أو سراحُ[2]

ويبدو أن السبب في نفور الأمير الحمداني من الشاعر يرجع إلى سعاية الخالديين اللّذين تبعا السّرّي وقدما إلى رحاب سيف الدولة فاشتدت العداوة بينهما وبينه مرة أخرى وكان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالديين حالةٌ غير جميلة ، ولبعضهم في بعض أهاج كثيرة فآذاه الخالديان أذىً شديداً وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره[3] . وهكذا بدأت المنافسة بينهم من جديد وأخذ السري يهجوهما ويتهمهما بالسرقة وحفلت قصائده بالتظلّم منهما . ولكن السري في نهاية الأمر لم يجد بدّاً من مغادرة حلَب فودّعها قاصداً بغداد في أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة واتصل بالوزير المهلبي وغيره من الصدور[4] .

ومكث مدة ليست طويلة في كنفه ومدحه بعدد من قصائده كما مدح

---

(١) ديوان السري ص (٢٥٤) .
(٢) المرجع نفسه ص (٧٥) .
(٣) البغدادي (١٩٤/٩) .
(٤) اليتيمة (٢ / ١١٩) .

كبار رجال بغداد وصدورها من كُتّاب وأصحاب دواوين من أمثال أبي إسحق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب وأبي الخطاب المفضّل بن ثابت الضبّي الكاتب [1] .

وقَبَعَ السري في بغداد يرفلُ في معيشته الجديدة ونعمته التي عثر عليها عند أكابر بغداد مدة قصيرة من الزمن إذ وصل الخالديان إلى بغداد واستطاعا أن يتقرّبا من الوزير المهلبي وأصبحا من جملة ندمائه وحلا محل السري وابتدآ في الوقيعة به عنده ، ويقول البغدادي : ودخلا إلى المهلبي ينادمانه وجعلا هجّيراهما ثَلْب سريّ والوقيعة فيه [2] . وتمكنا من إبعاد السري عن المهلبي وإقصائه عن كبار كتابه أيضاً . فقُطع رسمه وافتقر بعد أن كان في رغَدِ العيش ، ويقال : انه عَدِمَ القوت فضلاً عن غيره فجعل يعمل في الوراقة والنّسْخِ ويورقُ شعره ويبيعهُ ثم نسخ لغيره بالأجرة وافتقر السري حتى أنه لم يعد بإمكانه دفع إيجار داره واضطر أن يستدين لدفع الإيجار [3] .

ولقد صوّر السري سوء حالته في بغداد وفقره وشقاؤه فقال :

شبابُ المرءِ ثَوْبٌ مُسْتَعارُ وأيامُ الصّبا أبداً قِصارُ
طوى الدهرُ الجديدَ من التصابي وليس لما طوى الدهرُ انتشارُ
ولم نُعْطِ المُنى في القربِ منهُ فكيفَ بها وقد شَطَّ المزارُ
صُدُودٌ في التقارُبِ واجتنابٌ وشوقٌ في التّباعُدِ وادّكارُ
يطولُ إذا تقاصرَتِ اللّيالي ويقرُبُ إنْ تباعدت الدّيارُ
لَحَى اللهُ العِراقَ وساكنيهِ فما للحُرّ بينهُمُ قَرارُ
وجادَ الموْصِلَ الغرّاءَ غيثٌ يجودُ للبُرُوقُ بهِ انْسِفارُ

---

(1) ديوان السري (ص ٤١ ، ١٩٧) .
(2) تاريخ بغداد (٩/١٩٤) .
(3) المرجع نفسه (٩ / ١٩٤) .

أأقْعُدُ بالعِراقِ أسيرَ دَهْرٍ غريباً لا أزُورُ ولا أزارُ ؟ [1]

ولقد ندم السري على تركه حلب ورحيله عنها فأرسل يمدح سيف الدولة ويعتذر إليه من انصرافه بغير إذنه فقال [2] :

أؤنّبُ الشّوقَ فيهم وهوَ يضطَرِمُ وأسْتقِلُّ دموعَ العينِ وهْيَ دَمُ
كانَ انصرافيَ جُرْماً لاكفاءَ لهُ عندي وأيّ لبيبٍ ليس يَجترِمُ
رأيٌ هَفَا هَفْوةً زَلّتْ لها قدَمي وما هَفا الرّأيُ إلاّ زلّتِ القَدَمُ
هو اضطرارٌ أزالَ الاختيارَ وهَلْ يختارُ ذُو اللّبّ ما يُردي وما يَصِمُ
وكيفَ يجتنِبُ الظّمآنَ مَوْرِدُهُ عَمْداً إذا راحَ وهوَ الباردُ الشّبِمُ
صَفْحاً فلوْ شُقّ قلبي عن صَحيفَتِهِ لظلّ يُقرَأُ منهُ الخوْفُ والنّــدَمُ

ومات السري فقيراً بائساً [3] . واختلف المؤرخون في سنة وفاته فذكر البغداديّ أنه توفي بُعَيد سنة ستين وثلاثمائة [4] وقال ياقوت أن وفاته كانت ببغداد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة [5] ويبدو أن هذه السنة هي الصحيحة لأنها ذُكِرَتْ في أغلب المصادر . وروى ابن خلكان أنه قيل أن وفاة السري كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة . وهي رواية ضعيفة لا يوثق بها .

ولقد خلف السري بالإضافة لديوان شعره كتاب « المحب والمحبوب » و « المشموم والمشروب » [6] وهو أربعة أقسام في المحبين وأشعارهم والأطياب والأزهار وأسماء الخمر وله كتاب « الديرة » ذكره ياقوت في معجمه [7] .

(1) تاريخ بغداد (٩ / ١٢٩ ــ ١٣٠) .
(2) الديوان ص (٢٤٦) .
(3) تاريخ بغداد ــ البغدادي (٩ / ١٩٤) .
(4) معجم الادباء (١١ / ١٨٥) .
(5) تاريخ الادب العربي ــ بروكلمان ط ٢ (٢ / ٩٧) .
(6) معجم الادباء (٤ / ٢٢٧) ، ووفيات الاعيــان (١ / ٢٥٢) وكشف الظنون (١٦١١) .
(7) معجم الادباء (٤ / ٢٢٧) ووفيات الاعيان ، ١ / ٢٥٣) .

— ١٠ —

الببغاء [١]

هو عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنبطي المعروف بالبّبغاء ، كان شاعراً مجوّداً وكاتباً مترسّلاً مليح الألفاظ جيّد المعاني حسنَ القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف وغير ذلك [٢] . وذكره الثعالبي وقال : هو من أهل نصيبين وبالَغَ في الثناء عليه [٣] .

فالشاعر عَرَبيّ صريح في نسبه ينحدر من قبيلة مخزوم الشهيرة ولُقّب بالببّغاء لِلُثْغَة كانت في لسانه [٤] . أو لحسن فصاحته [٥] وقد رمز أبو إسحق الصابي — الذي كان بينه وبين الببّغاء مكاتبات — إلى لقب الشاعر في قصيدة بعثها إليه فقال :

أبا الفَرَجِ أسلم وابقَ وانعم ولا تزل ... يزيدكَ صرْفُ الدَّهْر حظّاً إذا نقصْ
فحوشيت يا قسّ الطّيورُ فصاحَةً ... إذا أُنشِدَ المنظومُ أودُرِس القصصْ
مِن المنْسرِ الأشفى ومن حزّةِ المُدى ... ومن بُندقِ الرّامي ومن قصّة المقصْ

---

(١) الببغاء : بفتح فسكون وقد تشدد الباء الثانيةمفتوحة — القاموس جـ ٣ مادة ببغا .
(٢) تاريخ بغداد — البغدادي (١١ / ١١) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٣٦) .
(٤) المرجع نفسه (١ / ٢٣٦) .
(٥) وفيات الاعيان (٢ / ٥٣٥) ، شذرات الذهب (٣ / ١٥٣) .

وكتب إليه أيضاً أرجوزةً في صفة الببّغاء وذكر تسمية الشاعر بها :

أنعَتُهــا صَبيحَةً مَليحةً ناطِقَةً بــاللّغَةِ الفَصيحةْ
غَدَتْ من الأطيارِ واللّسانُ يوهِمُني بــأنها إنْسانُ
تُسرِكُ فيها شاعِرُ الزّمانِ والكاتبُ المعروفُ بالبَيانِ
وذاكَ عبدُ الواحدِ بنُ نَصرِ تقيهِ نفسي عاديات الدّهرِ[1]

وذكر في إحدى رسائله إلى الببّغاء أحسن ما قيل في مدح الألثغ وأشار إلى لُثْغهِ حيث قال :

أبا الفَرَجِ استَحقَقْتَ نعتاً لأجْلهِ تسميْتَ من بينِ الخَلائقِ ببّغا
بياناً مُنيراً كاللّجَينِ مُضَمّنَــاً نُضاراً من المعنى أُذيبا وأُفرِغا
وما هجّنْت منكَ المحاسن لُثْغَةٌ وليس سوى الإنسان تلقاهُ ألثَغا
أتَعْرِفُها فيما تُقَدّمُ خــاليــاً لبعيرٍ إذا ما صاح أو جملٍ رغا[2]

ووصف أبو الفرج الببّغاء وذكر أنها لقَبٌ له فقال :

إقْدامُها ببــأسِها الشّديدِ أسْكَنَها في قَفَصِ الحَديدِ
فهْيَ كخودٍ في لباسٍ أخضرِ تأوي إلى خركاهةٍ لمْ تُستَرِ
ووصَفَها المُعجزُ ما لا يُدرِكُ ومثْلُهُ في غيرِها لا يملكُ
لوْ لمْ تكنْ لقَباً لمْ أختَصِرْ لكنْ خشيتُ أن يقال منتصِرْ[3]

وقد نشأ الشاعر في نصيبين ، تلك المدينة الساحرة الجمال التي حباها الله

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٥٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٥٥) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٥٤) .

بالحسن الحلاّب وبها ترعرع وتعلم ثم اتصل في عنفوان عمره وريعان شبابه بسيف الدولة[١] . ولقد أغفل المؤرخون الذين ترجموا له سنة ولادته فلم يذكرها الثعالبي أو البغدادي أو ابن خلكان أو ابن عساكر أو السمعاني أو غيرهم .

ونرجح أنها كانت حوالى سنة ٣١٤ هـ وذلك لأن أبا الفرج روى أنه اضطر أن يتأخر بدمشق عن سيف الدولة وقد سار عنها في بعض وقائعه لأن الخطر كان شديداً على من أراد اللّحاق به وأصحابه حتى أن ذلك كان طريقاً إلى النهب وطول الاعتقال . ويقول انه اضطر إلى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ويذكر أن سنه كانت في ذلك الوقت عشرين سنة[٢] . ونحن نعلم أن سيف الدولة قد دخل دمشق بعد حربه مع الإخشيديين سنة ٣٣٤ هـ وما دام الشاعر يذكر أن عمره آنذاك كان عشرين عاماً فلذا نرجح أنه ولد حوالى سنة ٣١٤ هـ .

ولقد ذكر الشاعر أنه عاد إلى دمشق مع سيف الدولة ولعله يقصد في ذلك دخول الأمير دمشق مرة ثانية أثناء حروبه مع الإخشيديين[٣] .

ولقد دخل الشاعر في نعم الأمير السابغة ولازمه طَوال حكمه ونعمَ بصلاته العميمة وعطاياه الجزيلة فتبدّل حاله من فقر إلى غنىً ومن ضيق يدٍ إلى سعَة في العيش وخفْض في الحياة وهو في إحدى قصائده يشيد بكرم الأمير الذي رد عنه الإقلال حتى لم يبقَ له أمل يرجوه ، وذلك حيث يقول :

فصرْتُ أمسكُ عن أوصاف نعمته ... عجزاً وينطقُ عن آثارها حالي
لمّا تحصّنْتُ من دهري بمعْقِلَهِ ... سَمَتْ بحملانه ألحاظُ إقبالي

---

(١) المرجع نفسه (١ / ٢٣٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٣٧) .
(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٤٤) .

وواصَلَتْني صلاتٌ منه رحتُ بها أختالُ ما بين عزّ الجاهِ والمالِ
فلينْظُرِ الدَّهْرُ عُقْبى ما صبرتُ به إذ كان من بعض حسّادي وعذّالي
ألمْ أكِدْهُ بحُسْنِ الانتظارِ إلى أن صُنْتُ حَظّي عن حَلٍّ وترحالِ
رُوَيدَ جودكَ قد ضاقتْ به هِمَمي ورَدَّ عنّي برغم الدَّهْرِ إقلالي
لمْ يَبْقَ لي أملٌ أرجو نداكَ به دهْري لأنّك قد أفْنَيتَ آمالي [1]

ولقد لبث الشاعر في رحاب الأمير طَوال حكمه وبقي في كنفه حتى وفاته وكان نجماً لامعاً من نجوم النّدوة السّيفية شدا ببطولات الفتى الحمداني في شعره وإنشائه ، فهو بالإضافة لبروزه في الشعر كان كاتباً من كتّاب الأمير المشهورين ، ولقد روى الخوارزمي أن أبا الفرج كتب إلى سيف الدولة يشكرهُ وقد خلع عليه : ان شكري نعمة الله عليّ بما جدده من ملاحظة سيّدنا الأمير –أيده الله– حالي، وتداركه بطب التطول مرض آمالي– وما لا أومّل مع المبالغة والإغراق فيه فكّ نفسي من رِقّ أياديه ، غير أني أُحسِن لها النظر وأُجمِل عندها الأحدوثة والخَبَر – بالدخول في جملة الشاكرين والارتسام بفضيلة المخلصين ، إذ كان قد نصر نباهتي على الخمول واستنقذني من التعبّد للتأميل [2] .

وحدّث أبو الفرج الببغاء أنه كان يعمل كاتباً للأمير وأنه كتب للبلدان والرعية بخير تمام الفداء الذي تم في رجب سنة خمس وخمسين وثلثمائة بين الأمير الحمْداني والروم [3] .

ونثره جيد المعاني تغلب عليه الصناعة والتنسيق .

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٤٧) .
(٢) تاريخ بغداد ـ البغدادي (١١ / ١٢) .
(٣) نشوار المحاضرة (٢ / ٢٩٦) .

ولقد أقام شاعرنا في حلَب بعد وفاة سيف الدولة فترة من الزمن ومدح ابنَه سعد الدولة قائلاً :

لا غيثُ نِعماهُ في الورى خلَبُ الـ ... برْقَ ولا ورْدُ جودِه وشَلُ
جادَ إلى أنْ لمْ يُبْقِ نائلُهُ ... مالاً ولمْ يَبْقَ للورَى أمَلُ [1]

وفي سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ارتحل إلى الموصل حيث عدة الدولة أبو تَغْلِب بن ناصر الدولة . فأجمل برَّه وتقبَّله مدَّة مقامه بحضرته إلى أن سار عنها إلى مدينة السلام سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وجعل يعاود زيارة الموصل مرة ومدينة السلام أخرى [2] . وتقلبت به الأحوال في منادمته بهما الملوك والرؤساء وفي إخفاقِه مرة ونجاحِه أخرى [3] .

ويبدو أن حالة الشاعر قد ساءت بعد وفاة سيف الدولة فأصابه الفقر وعضه الدهر بنابه ولهذا يشكو قائلاً :

نَبَتْ بي داري وفرَّ العَبِيـ ... ـدُ وأوْدَتْ ثيابي وبعتُ فروشي [4]
وكُنْتُ أُلَقَّبُ بالببّغا ... ءِ قديماً فقد مزَّقَ الدَّهرُ ريشي
وكانَ غذائي نَقِيُّ الأرُزِّ ... فَها أنَا مُقْتَنِعٌ بالحَشيشِ [5]

وقد توفي أبو الفرج الببغاء سنة ثمان وتسعين وثلثمائة [6] .
وقال الثعالبي سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يقول

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٦٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٤٩ ــ ٢٥٠) ، زهر الآداب (١ / ٢٢١) .
(٣) وفيات الاعيان ــ ابن خلكان (١ / ٥٣٥) .
(٤) ليس في اللغة فروش . فهو استعمال مولد .
(٥) المنتظم (٧ / ٢٤٢) .
(٦) وفيات الاعيان ــ ابن خلكان ــ (١ / ٥٣٥) .

عند صدوره من الحج ودخوله بغداد في سنة تسعين وثلاثمائة : رأيت بها أبا الفرج الببغاء شيخاً عالي السن متطاول الأمد ، أخذت الأيام من جسمه وقوته ولم تأخذ من ظرفه وأدبه [1] .

ولقد أورد صاحب اليتيمة طائفة من غرر شعره ونثره وقد ذكر أبو علي المُحَسِّنُ التّنوخيّ ديوان الببغاء فقال : اخترت من شعره ما يصلح للمكاتبة في الحوادث أو الأمثال أو معنى لم يُسْبَق إليه وتركتُ أكثرَ محاسنِ شعره وحُسْن نظمه وبلاغته وعذوبة كلامه وأكثر إحسانه موكلاً إلى من ينظرُ في ديوانه [2] .

كما أن البغدادي ذكر أنه روى له جماعة شيئاً كثيراً من شعره [3] وقيل : إن ديوان شعره كان ٣٠٠ ورقة ووقف ابن النديم على مجموعة من رسائله [4] . ولم يصل إلينا ديوان الببغاء ولعله ما زال يقبع في إحدى دور الكتب العالمية ينتظر من يخرجه إلى حيز النور ولقد نشر فولف Phwolff شعر الببغاء الذي ورد في اليتيمة وعلق عليه سنة ١٨٣٤ م .

وتدل المختارات الشعرية التي تمكّنّا من الوصول إليها والعثور عليها في مظانّ الكتب والمصادر على أن الشاعر قد أحسن القول في المدح والغزل العفيف والماجن والوصف والخمرة والروضيّات وسلك طريق اللهو والعبث وأخذ بأسباب اللذة والمجون كقوله :

كمْ مِنّة للظّلامِ في عُنُقي بجَمْعِ شمل وضمّ مُعتنقِ
وكمْ صبَاح للرّاحِ أسلَمَني منْ فلَق ساطِع إلى فلَقِ

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٣٦) .
(٢) نشوا رالمحاضرة (١ / ١٠٣) .
(٣) تاريخ بغداد ـ البغدادي (١١ / ١١) .
(٤) الفهرست ص (٢٤٠) .

فعاطنيها بِكْراً مُشَعْشَعَةً كأنهـا في صِفاتِها خُلُقي[1]

وكقوله يتحدث عن ليلة ماجنة أمضاها في أحد الأديرة :

ولَيْلَــةٍ أوْسَعَتْني حُسْناً ولهواً وأُنْسا
ما زِلْتُ أَلْثُمُ بَدراً بهـا وأشربُ شَمْسَا
إذْ أطْلَعَ الدَّيْرُ سَعداً لمْ يُبقِ مُذْ بانَ نحْسا
فصارَ للرّوحِ مِـنّي روحاً وللنّفس نَفسا[2]

وللببغاء منزلةٌ شعرية رفيعة ، ولقد عرض عليه أبو فراس قبل موته ديوانه ونفى منه شيئاً كثيراً :

قال الببغاء : عرض عليَّ أبو فراس ديوانه فكلّ ما استضعفْناه نفاه وما اجتمعنا على استجادته أقرَّه وحرّره في نسخة تداولها الناس[3] .

وقال الثعالبي عن شعره ونثره : في النظم له كلام بل مُدامٌ فنثره مستوْف أقسام العذوبة ، وشروط الحلاوة والسهولة ونظمُهُ كأنه روضة منوّرة تجمع طيباً ومنظراً حسناً[4] .

وقال البغدادي : كان شاعراً مجَوِّداً جيّد المعاني[5] .

وقال ابن خلّكان : وأكثر شعر أبي الفرج جيداً ومقاصده فيه جميلة[6] .

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٦٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٤١) .
(٣) نشوار المحاضرة ـ التنوخي (١ / ٢٢٥) .
(٤) تاريخ بغداد (١١ / ١١) .
(٥) وفيات الأعيان (١ / ٢٠٢) .
(٦) وفيات الاعيان (١ / ٢٠٢) .

— ١١ —

الوأواء الدمشقي

أبو الفرج بن أحمد الغسّاني الدمشقي الملقب بالوأواء . وكان الوأواء في بدء أمره منادياً في دار البطيخ بدمشْق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه ووقع فيه ما يروقُ ويشوقُ ويفوق [١] .

وأبو الفرج عربي في نسبه ينحدر من سلالة الغسانيين الذين قطنوا بلاد الشام قبل الإسلام . وكان فقيراً في بدء حياته يعمل منادياً في سوق الفواكه وذكر القِفْطيّ نقلاً عن ابن عبد الرحيم في طبقات الشعراء أن الوأواء : كان في أول أمره أحد العامة رَدّاداً في فِنْدق كان جابياً فيه ، وكان يتولى بيع الفاكهة ويجني أثمانها . ولم يكن من أهل الأدب ولا ممن يعرف بقول الشعر [٢].

أما بالنسبة إلى لقب الوأواء فيبدو أنه علق به لطبيعة عمله القائم على المناداة وذكر صاحب التاج أن الوأوأة هي صياح ابن آوى أو صياح الكلب[٣]. ويبدو لنا أن الوأواء قد ولد في دمشق ونشأ بها ولعل كلمة الدمشقي التي تتكرر في المصادر التي ترجمت له تفيد أنهولد فيها ونشأ بها أو قطنها حيناً من الزمن . والمصادر لا تفيدنا الكثير عن نشأته ولا تتحدث عن مكان ولادته

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٧٢) .
(٢) المحمدون من الشعراء ــ علي بن يوسف القفطي ص (٥٥) .
(٣) تاج العروس (١/١٣٠) .

ولكن لعله كما يقول الدكتور سامي الدهان عمل في الصباح لصناعته وأكب في الرياض وغير الرياض على قراءة الدواوين قراءة ظهر أثرها في شعره فقد حفظ من أبي نُواس وعُمَر بن أبي ربيعة وابن المعتز وأبي تمام والبحتري وأعجب بالمتنبي (١) .

واتصل أبو الفرج بالشريف العقيقي ومدحه ، ويقول القفطي وكان أول شيء عمله قصيدته الميميّة في أبي القاسم العقيقي العلويّ التي أولها (٢) :

تَظَلَّمَ الوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ إذْ ظُلِما

فاستحسنها وأعطاه عشرين ديناراً ، وتسامع الناس بها فانتشر بينهم ذكره واستطابوا طريقته في شعره فتوفر على ذلك وفارق ما كان فيه (٣) .

ولا شك أن هذه القصيدة هي أول شيء عمله وشهرَه بين الناس وهذا ما أراده القفطي بقوله ؛ أول شيء أي أنها أول ما اشتهر له ، ولا شك أن الشاعر قد قال شعراً كثيراً قبل هذه القصيدة ولكنه لم يشتهر لأنه لم يكن في مدح أمير أو استعظام وزير أو تمجيد حاكم أو خليفة .

ويبدو لنا أن الوأواء قد ودّع أيام الفقر والفاقة بعد اتصاله بالعقيقي الذي عطف عليه ورعاه ومنحه العطاء وقدم له العون ويسر له الشهرة فذاع اسمه وعرف خبره بين الشعراء .

ويخبرنا التاريخ أن ممدوح الوأواء كان من ذوي المراتب العالية في دمشق ويذكر ابن العديم أن الشريف كان على اتصال بسيف الدولة ، ويقول

(١) مقدمة ديوان الواواء ص (١٠) .
(٢) الشريف ابو القاسم احمد بن ابي هشام العقيقي كان من أعلام الشيعة وهو ممدوح الواواء وتوفي ٣٧٨هـ.
(٣) المحمدون من الشعراء ص (٥٥) .

إن العقيقي قَدِم وافداً على الأمير سيف الدولة وكان مكرماً له وكان العقيقي محترماً عنده [1] . واتصل الوأواء الدمشقي بالأمير الحمداني عندما استولى على دمشق ٣٣٤ هـ وطرد الإخشيديين منها ومدح الشاعر الأمير وتغنّى بشجاعته وكرمه وقال [2] :

فتىً ألبَسَ الأيامَ ثوبَ شبيبة   وكانتْ قديماً في جَلابيبِ شائبِ
تظلُّ المنايا تحتِ ظِلِّ سيوفــهِ   إذا خطَر الخطّيُّ بين الكتائبِ
لَئِنْ أقعدتْ أسيافَهُ كلَّ قائم   فقد أرجلَت أرماحُه كلَّ راكبِ
إذا أبرقَتْ ضرباً سيوفُكَ أمطرتْ   رؤوسَ الأعادي أرض المصائبِ
بما انهَلَّ من كفّيك في ذلك النّدى   وما حملتْه من قَناً وقواضِبِ
أرِحْها قليلاً كي تَقَرَّ فــإنها   من الضربِ أمسَتْ ناحلاتِ المضاربِ

وبعد عودة الأمير الحمداني إلى حلب أثر الصلح الذي عقد بينه وبين الإخشيديين قصد الوأواء بلاط الأمير ووفد على حلب باحثاً عن العطاء والشهرة لعله يصبح من الفحول الذين قصدوا الأمير من شتى الأمصار وعاشوا في كنفه وتفيئوا ظلاله الوارفة ونعموا بسخائه وكرمه ونهلوا العلم من ينبوع المدرسة الحلبية الثرّ التي نشأت بفضل رعاية سيف الدولة وحدبه على الشعر والأدباء والعلماء .

وقد امتدح سيف الدولة بقصائد ثلاث تبلغ أبياتها المائة ولبث في حلب ردحاً من الزمن كان خلالها يحن إلى دمشق فهو يقول [3] :

ها قَدْ تبدّلْتُ أوطاناً بأوطانِ   عمداً وفارقتُ خُلاّناً بخُلاّنِ

---

(١) بغية الطلب خ (١ / ٢٣) .
(٢) ديوان الوأواء ص (٢٢ ــ ٢٣) .
(٣) ديوان الوأواء ص (٢٣١) .

وعندما أصابته علة أثناء إقامته في حلب قال [1] :

عليلُ القَلْبِ والبَدَنِ بعيدُ الـدّارِ والسّكنِ
بكى وشَكا تَشَتّتَـهُ عنِ الأحْبابِ والوَطَنِ

ثم عاد إلى دمشق بالجوائز الكثيرة التي أغدقها عليه الأمير الحمداني فانصرف إلى اللهو والمجون ، يلهو ويعبث ويقضي أيامه بين أفياء الغياض والرياض إلى أن بلغ الشيخوخة .

ولقد سكت أغلب المؤرخين عن تاريخ وفاته فالثعالبي لم يذكر سنة وفاته كما أن الذهبي والقِفْطيّ وابنَ عساكر وابنَ فضل الله العُمَري وابنَ خلّكان أغفلوا ذكر سنة الوفاة ولم يذكرها من القدماء إلاّ ابن شاكر الذي ترجم للوأواء وقال : انه توفي سنة ٣٩٠ ﻫ تقريباً [2] .

أما بروكلمان فذكر أن الوأواء توفي سنة نيف وسبعين من القرن الرابع الهجري [3] .

ويتفق الدكتور سامي الدهان مع بروكلمان في تحديد سنة الوفاة ويذهب مذهبه ويعلل ذلك بأن الشريف العقيقي ممدوح الوأواء توفي سنة ٣٧٨ ﻫ ولم تتأخر عنه وفاة الوأواء ولو كان غير ذلك لبكى الشاعر ممدوحه ورثاه ونحن لا نجد لذلك أثراً في شعره . ولهـذا يؤثر أن يتخذ موعد وفاة الشاعر سنة ٣٧٠ ﻫ أي قبل وفاة ممدوحه في سن مقبولة [4] .

غير أني لا أتفق مع صاحبي هذا الرأي وذلك لأن الوأواءقد انصرف كما

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٤٦) .
(٢) فوات الوفيات (٢ / ١٤٦) .
(٣) تاريخ الادب العربي (٢ / ٧٩) .
(٤) مقدمة ديوان الوأواء ص (١٧) .

قلنا إلى حياة اللهو والعبث ولذلك لم يهتم برثاء ممدوحه لأنه شغل بالحياة التي أرادها كما أن كثيراً من الشعراء الذين عاشوا في رحاب الأمير الحمداني ورغِدوا بنعمه السابغة وصلاته الجزيلة لم يرثوا الأمير بعد وفاته .

والوأواء عاش عيشة خليع ماجن وكان يبحث عن اللذة قائلاً [1] :

نَلْ مِنَ اللّذّاتِ ما تبْغيهِ واللهُ غَفُورُ

وديوان الوأواء حافل بغزله المذكر والمؤنث والحب العفيف والفاجر ووصف الخمرة وهو يغالي في حبها حيث يقول [2] :

اسْقِياني ذَبِيحَةَ الماءِ في الكأ سِ وكُفّا عنْ شُرْبِ ما تسْقيانِ
إنّني قدْ أمِنْتُ بالأمْسِ إذْ مُـ تُّ بها أنْ أموت موتاً ثاني
قهْوَةٌ تَطْرُدُ الهُمومَ إذا مـا سكَنَتْ في مَواطنِ الأحْزانِ

ويبدو أن الوأواء قد عاد إلى خالقه في أواخر حياته وندم على ما اقترفت يداه من آثام . فهو يعلن التوبة ويطلب المغفرة [3] :

اللهُ يَعْلَمُ أنّي هـائمٌ قَلِقٌ عليَّ ثوبانِ مِنْ ضُرٍّ ومن سقمِ
وقد نَدِمْتُ على ما كانَ من زَلَلي وأنْتَ أعظمُ مَن يُرْجى من الألمِ
فاغْفِر لعبدِكَ يا مولايَ زَلّتَهُ أو لا فحكمك فينا غيرُ محتكَمِ

ونرى أن الوأواء كان من شعراء الشيعة لأن شعره حافل بالألفاظ والتشبيهات التي تدل على ذلك فهو يقول [4] :

---

(١) ديوان الواواء ص (٤٦) .
(٢) فوات الوفيات (٢ / ٣٠٣) .
(٣) ديوان الواواء ص (٢٠٦) .
(٤) مختارات الواواء ـ طبعة الاسكوريال ـ مخطوطة مصورة رقم ٤١٧ ادب (٤٦) .

إنّي سألْتُكَ بالنّبيّ محمّد ووصيِّه الهادي الأمين المهتدي
وبسحْرِ مَنْطِقِكَ الذي سُلْطانَهُ حُكْمٌ يجورُ على القلوبِ ويعتدي
ألاّ هَجَرْتَ بفيكَ قولكَ سيّدي مولىً يقولُ لعبدِهِ يا سيّدي

ويقول في قصيدة ثانية [1] :

عَلَوِيٌّ من أهل بيتٍ تعالوا دُونَ أقدارِهِمْ على الأقْدارِ
ضَرَبَتْ كَفُّهُ له في رُبا المَجْدِ رواقاً مُطَنَّباً بالفَخارِ

ولقد ذكر الثعالبي ديوان الوأواء وقال [2] : إنه اطلع عليه واختار منه مختارات كما أن كراتشكوفسكي المستشرق الروسي نشر الديوان مع ترجمة روسية ودراسة عنه ببتروجراد سنة ١٩١٤ م ونشر سامي الدهان الديوان مستعيناً بمخطوط النجف في دمشق سنة ١٩٥٠ م .

ولقد قال عنه الكتبي : أنه شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الإشارة جيد التشبيه [3] .

كما قال عنه القِفْطي : وتسامع الناس بشعره فانتشر بينهم ذكره واستطابوا طريقته [4] .

---

(١) المرجع نفسه (٨) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٠١) .
(٣) فوات الوفيات (٢ / ٣٠١) .
(٤) المحمدون من الشعراء ص (٥٥) .

الباب الثالث

أغراض وفنون

الفصل الأول : الأغراض التقليدية

الفصل الثاني : الأغراض الحديثة

الفصل الثالث : الخصائص الفنية

الباب الثالث

الفصل الأول

الأغراض التّقليديّة

١ ــ المدح
٢ ــ الفخر
٣ ــ الهجاء
٤ ــ الرثاء
٥ ــ الغزل
٦ ــ الخمر
٧ ــ التشيع
٨ ــ الأخويات
٩ ــ الطرد

الفصل الأول

الأغراض التّقليديّة

تمهيد :

ازدهرت الحياة الأدبية في رحاب سيف الدولة ازدهاراً كبيراً فتعددت فنونها وتنوعت ألوانها.وأسهم شعراء الندوة السيفية في الموضوعات التي عرفها الشعر العربي في العصور السابقة من مدح وفخر وهجاء ورثاء وغزل وخمر وتشيع وأخويات وطرديات . وجددوا في صورها وأخيلتها وصياغتها ومعانيها .

وجرت بعض المحاولات التطويرية في بعض هذه الفنون وخاصة الرثاء والغزل والخمر والتشيع والطرد ولكن هذه المحاولات لا تسمح بأن تخرج هذه الفنون عن نطاق التقليد . لأن الشعراء نهجوا فيها نهج سابقيهم وساروا على خطاهم .

ولقد تأثرت الأغراض الشعرية بسيف الدولة وكان معظم الشعر الذي قيل في رحابه يدور حول شخصه كما أن البيئة كان لها أثر كبير في فنون الشعر وألوانه وتعدد صوره ومعانيه .

ولنبدأ هذه الفنون بالمدح .

المـدح

احتلّ شعرُ المدح مكانة عظمى في بلاط سيف الدولة الحمداني وغلب هذا الغرض على شعر الشعراء خاصة الوافدين على حلب بحثاً عن نوال الأمير وصلاته وهباته التي طار صيتها في الآفاق ، فلقد أتوا يحدوهم حب المال ويدفعهم البحث عن الجاه والغنى . ولهذا غلب فن المديح على سائر الفنون الأخرى وأصبح الشاعر يطرق بعض أبواب الشعر مثل الحماسة والفخر والنسيب والوصف من خلال المديح ولا غرو في ذلك لأن الشاعر لم يكن قادراً على الاستغناء عن محافل الأمراء ، لأنهم الطريق الأوحد إلى مجده فلم يكن الشاعر في الأغلبُ يعبّرُ عن خواطره ويشعرُ لنفسه ، وإنما كان يجري وراء رضى ممدوحه وماله ليستطيع أن يعيش ويحصل على ما يرجو .

ونود أن نوضح أنه ليس معنى قولنا هذا أن كل شعر المديح الذي قيل في ظل الأمير الحمداني كان ينبعث من دافع التكسب وحده ، إذ أن هناك نفراً من الشعراء مدحوا الأمير وإلى جانب رغبتهم في التكسب أو التقرب منه أحسوا بعاطفة تشدهم إليه وإعجاب ملك عليهم أنفسهم ودفعهم لأن يقولوا في مآثره غرر القصائد لأنه يكوّن بالنسبة إليهم مثلاً أعلى في الكفاح الدائب والمستمر من أجل الذود عن حياض الإسلام ودرء خطر الأعداء الداهم .

ويعد سيف الدولة أكثر الأمراء في عصره نصيباً في شعر المدح هذا إن لم يكن أكثرهم على طول العصور ، وحسْبك ما ذكرناه ، سابقاً من أن كلا

من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت [1] . ولقد قال الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك — بعد الخلفاء — ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر [2] . وإذا أدركنا أن الهدف الأول لهذا الجمع الكبير من الشعراء هو الحصول على نوال الأمير ومنحه تسنى لنا أن نعرف إلى أي حد تضاعف مدح الأمير وكثر .

ولقد دارت مدائح الشعراء للأمير حول الصفات التي كانت تعد في ذلك العصر أمّهات الفضائل وهي العقل والشجاعة والعدل والعفة ومجد العروبة وشرف الأصل والجود والكرم .

ومن الشعراء الذين مدحوا سيف الدولة المتنبي الذي انقطع للامير طوال إقامته في كنفه لمدة تسع سنوات نظم فيها نيفاً وثمانين قصيدة ومقطوعة .
ولا نكاد نقرأ مدحة من مدائح المتنبي في الأمير حتى نرى فيها التغني بشجاعته وقوته وبسالته في قتال الأعداء ، وبطشه بهم ، فالشجاعة هي أول عنصر بارز في مدحه . ومديح المتنبي للأمير مخلص صادق ينبعث من مشاعر الإعجاب وكوامن التقدير ولعل ذلك عائد إلى العوامل العديدة التي تجمع بين الأمير والشاعر فهما معاً من مواليد سنة ٣٠٣ هـ ويشتركان في إيثار البطولة والفروسية والاهتمام بالشعر والأدب والتعصب للعربية .

ولعل لعربية سيف الدولة وعجمة أمراء عصره جميعاً دخلاً في الهاب نفسية الشاعر ، وكذلك في تميزه بينهم وبين سيف الدولة الذي ملك عليه قلبه وأنزله أعلى المنازل ، والمتنبي ثائر على العجم وتملكهم مقاليد المسلمين وكم سمعنا تحريضه على انتزاع الأمور من أيديهم :

---

(١) اليتيمة (١ / ١٦) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ١٦) .

إنّما النّاسُ بالملوكِ ومــا تنفَعُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدَبٌ عندهمْ ولا حسَبٌ ولا عُهُودٌ لهمْ ولا ذمَمُ
في كلّ أرض وطئتها أمَمُ تُرْعى بعَبْد كأنهم غنَمُ
يستَخْشِنُ الخزَّ حينَ يلبسه وكانَ يُبرى بظفره القَلَمُ(١)

ولقد كان مدح الشاعر للأمير الحمداني فخماً يختال في أبهى الحُلَل وأزهاها ولا إخالُني مبالغاً إذا قلت : إنه وثبة المديح في لغة الضاد .

ولقد أخلص المتنبي لفنه الإخلاص كله خلال مدائحه للأمير الحمداني واتخذ من اسمه أوسمة وقلائد حلّى بها صدْرَ قصائده ومقطعاته وأبياته بصورة لم يسبقه إليها شاعر كقوله :

لَقَدْ رَفَعَ اللهَ مِنْ دَوْلَــة لها مِنْكَ يا سَيْفَها منصلُ(٢)

وقوله :

لقد سلّ سيفُ الدولة المَجْدُ مُعلِماً فلا المجْدُ مخفيهِ ولا الضرْبُ ثالمهْ
على عاتِقِ المَلْكِ الأغَرّ نِجادهُ وفي يَدِ جبّارِ السّماواتِ قائمهْ
وإنّ الذي سَمّى عليّاً لمُنصفٌ وإنّ الذي سمّاه سَيْفاً لظالمُهْ
وما كلّ سيف يقطعُ الهامُ حَدّهُ وتقطعُ لَزْباتِ الزّمانِ مكارمه(٣)

وقوله :

إنّ الخليفَةَ لم يُسمّكَ سيفَه حتى بلاكَ فكنتَ عينَ الصّارِمِ

(١) الديوان ص (٦٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ١٨٥) .
(٣) اليتيمة (١ / ١٨٦) ، واللزبات ــ كاللزب ــ جمع لزبة وهي الشدة .

وإذا تتوَّجَ كنتَ دُرّةَ تاجِهِ   وإذا تختّم كنتَ فصَّ الخاتمِ [1]

وقد سلك المتنبي في قصائده التي مدح بها سيف الدولة مسلك الشعراء القدماء إذ استهل بعض قصائد المدح بذكر الأطلال والوقوف عليها ويقول في إحدى مدائحه لسيف الدولة :

أجابَ دمعي وما الدّاعي سوى طلَلِ   دعا فلَبّاهُ قبلَ الرَّكبِ والإبِلِ
ظلَلْتُ بين أُصَيْحابي أُكَفْكِفُهُ   وظلَّ يسفَحُ بينَ العُذْرِ والعَذَلِ
أشكو النّوى ولهُمْ مِن عبرتي عجبٌ   كذاكَ كنتُ وما أشكو سوى الكللِ [2]

يقول المتنبي : إنه وقف على منازل محبوبته فشجاه ما شاهد من رسوم دارسة واستدعى ذلك بكاءه . ويقول ظلَلْتُ أكفكفُ الدموع خوفاً من لوم أصحابي ولكن دمعي أبى إلاّ أن يسيل وأصحابي بين عاذر لي وعاذل وهم يتعجبون من بكائي للفراق ولا عجب في ذلك فإني على مثل ما يرون حين كانت المحبوبة بجواري لا يحجبها عني سوى السّترُ .

وينتقل المتنبي من ذكر الأطلال إلى الحديث عن هذه الحبيبة المُمَنّعة في قومها بالسيوف والرماح . ويقول أن هجرها أقتل له من سلاحهم . فإذا كان مقتولاً بالهجر لم يبال بعده بالسلاح خاصة أن محبوبته محبوبة في قومها منيعة فيما بينهم وانه في يأس من الوصول إليها :

ومــا صَبابَةُ مشْتاق على أمَلِ   من اللّقاءِ كمشتاق بلا أمَلِ
متى تَزُرْ قومَ من تهوى زيارَتها   لا يُتحِفوكَ بغير البيضِ والأسَلِ
والهَجْرُ أقتَلُ لي ممّا أُراقِبُــهُ   أنا الغريقُ فما خوفي منَ البَلَلِ ؟

---

(١) المصدر نفسه (١ / ١٨٦) .
(٢) شرح ديوان المتنبي ـ عبد الرحمن البرقوقي ـ المجلد الثاني (٣ / ١٩٨) .

ما بالُ كلّ فؤاد في عشيرتها   به الذي بي وما بي غيرُ منتقلِ

ثم يصف جمال المحبوبة الفتّان ، فهي مالكة القلوب ولمقلتيها مُلكٌ عظيم في دولة المقل لهما دونها الأمر النافذُ ، وأن النساء الجميلات يقصرْنَ عن محاسنها فيتشبهنَ بها في حسن المشية ويكتسبن الحسن منها :

مُطاعةُ اللّحظِ في الألحاظِ مالكةٌ   لمُقلتيها عظيمُ المُلْكِ في المُقَلِ
تَشَبّهُ الخفِرَاتُ الآنساتُ بها   في مشيِها فينَلْنَ الحسْنَ بالحِيَلِ

وكان المتنبي يطرق باب الفخر قبل أن يبدأ مدح ممدوحه وكان هذا شأنه في أغلب قصائده . فهو يقول مثلاً مفتخراً في إحدى مدائحه وقبل مدح ممدوحه :

وقدْ طَرَقْتُ فتاةَ الحيّ مرتدياً   بصاحب غيرِ عزهاة ولا غزِلِ[1]
فباتَ بينَ تراقينا نُدَفّعُهُ   وليسَ يعلَمُ بالشّكْوى ولا القُبَلِ
ثم اغتدى وبه من درعِها أثرٌ   على ذُؤابَتِه والجَفْن والخِلَلِ
لا أكسَبُ الذّكْر إلاّ من مضاربهِ   أو من سنان أصمّ الكعبِ مُعتدلِ

ثم يربط الشاعر هذه المقدمة بالمديح ربطاً جميلاً موفقاً بحيث لا نشعر أنه انتقل انتقالاً مفاجئاً فيقول :

جادَ الأميرُ به لي في مواهبِهِ   فزانَها وكساني الدّرْع في الحلَلِ
ومنْ عليّ بن عبد اللهِ معْرِفَتي   بحَمْلِهِ مَنْ كعبدِ اللهِ أو كعَلي ؟

وينتقل الشاعر ليمدح قوة الأمير وحُسْن بلائه في الروم ، فالزمان

(١) عزهاة : عازف عن اللهو والنساء لا يطرب للهو ويبتعد عنه ــ الديوان ص (٢٠٢) .

يضيق عن فخامة قدره والأرض كذلك تضيق عما يحمّلها من جيوشه ، والمسلمون في فرح بانتصاره والروم في خوف منه لغاراته وغزواته والبرّ في شغل بجيشه والبحر رمز الجود والكرم خجِل من ندى كفّيْه :

ضاق الزّمان ووجه الأرض عن ملك مِلْءِ الزمانوملء السّهل والجبَلِ
فنحنُ في جَذَل والرّوم في وجَل والبَرّ في شُغُل والبحرُ في خجلِ

ويمدح الشاعر الأمير بقبيلته تغلب التي اتصفت بالشجاعة والجود ويستطرد قائلاً إذا مدحته بذكر آبائه كان ذلك عين العِيّ فأين هم من الأمير إذا وزنوا به ؟ لقد فاقهم جميعاً :

مِن تَغْلِبُ الغالبين النّاسَ منصبُهُ ومن عديٍّ أعادي الجُبْنِ والبخَلِ
والمدحُ لابن أبي الهيْجاءِ تُنْجِدُهُ بالجاهليّةِ عينُ العِيِّ والخَطَلِ
ليْتَ المَدائِحَ تستوفي مَنَاقِبَه فما كُلَيبٌ وأهلُ الأعصرِ الأوَلِ
وقدْ وجدتَ مجالَ القول ذا سعة فإن وجدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

ويصف المتنبي الأمير بأنه أفضل قائد في كف أفضل أمة ، وأن الأماني التي يطلبها تسقط دون مبلغ همته لأن همته أعلى منها ، فلم يُبْقِ في الدنيا أمنية يتمناها . ويتخذ الشاعر من اسم الأمير مجالاً للمدح فسيف الدولة مؤدّبٌ للدهر والسّيف أداة في يده لقطع هامات الأبطال ، ولقد كسا فكرتَه حُلّة قشيبةً من اللفظ مما جعلها غرّةً من غرر شعره :

إنّ الهُمامَ الذي فخْرُ الأنامِ بهِ خيرُ السيوفِ بكفّي خيرةِ الدّوَلِ
تمسي الأمانيُّ صَرْعى دون مَبْلَغِهِ فما يقول لشيء ليتَ ذلك لي
انظُرْ إذا اجتمع السّيفانِ في رَهَجٍ إلى اختلافِهما في الخلْقِ والعمَلِ
هذا المُعَدُّ لريبِ الدهرُ مُنْصَلِتاً أعَدَّ هذا لرأسِ الفارسِ البطلِ

ويذكر الشاعر شجاعة الأمير وفرار الأعداء منه إلى رؤوس الجبال واجتيازه للدروب وتغلغله في بلاد الروم والرعب والخوفَ الذي دب في قلوبهم والذي لا ينحسر بانصراف الأمير عنهم لشدة وجلهم وكثرة ما رأوا من السّبي والغارة فإنّ الفتاة الرومية أصبحت في نومها تحذر السّبي والحَمَل الذي تتوقع أن تتسنّمه :

وما الفِرارُ إلى الأجبالِ من أسَدٍ تمشي النّعامُ به في معقِلِ الوعِلِ
جازَ الدروبَ إلى ما خلفَ خرشَنَةَ وزالَ عنها وذاكَ الرَّوْعُ لمْ يزُلِ
فكلّما حَلَمَتْ عذراءُ عندَهُمْ فإنّما حَلَمَتْ بالسّبي والجَمَلِ

ويمعن الشاعر في مدح جود الأمير الذي لا يكدره مَنّ أو مماطلة ويطري شجاعته التي تخلع قلوب الأعداء فيقول :

وما ثناكَ كلامُ الناسِ عن كرَمٍ ومَن يسدّ طريقَ العارِضِ الهطِلِ؟
أنتَ الجَوادَ بلا مَنّ ولا كَدَرٍ ولا مِطال ولا عَد ولا مَذَلِ
أنتَ الشجاعُ إذا ما لم يطأْ فرَسٌ غيرَ السَّنَوَّرِ والأشلاءِ والقُلَلِ
وردّ بعضُ القَنا بعضاً مُقارَعَةً كأنّه من نفوس القومِ في جدَلِ
لازِلتَ تضربُ مَن عاداك عن عُرُضٍ بعاجلِ النصرِ في مستأخَرِ الأجَلِ

والجدير بالذكر أن المتنبي لم يفتتح كل قصائده في المدح بالأطلال والنسيب بل أن أغلب قصائده السيفية خلت من ذكر ذلك كمدحه لسيف الدولة وقد عزم على الرحيل عن إنطاكيّة وقد كثر المطر بقوله :

رُوَيدكَ أيّها المَلِكُ الجَليلُ تأنّ وعُدّه مما تُنيلُ[1]

---

(١) ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي (٣ / ١٣٧) .

وجودُكَ بالمَقامِ ولو قَليلاً   فما فيما تجودُ به قليلُ

وقوله :

على قَدْرِ أهل العَزْمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قدْرِ الكِرامِ المكارمُ[1]

وقوله :

أراعَ كذا كلَّ المُلوكِ هُمامُ   وسَحَّ لهُ رسْلَ الملوكِ غَمامُ[2]

وقوله :

عُقبى اليمينِ على عُقبى الوغى ندَمُ   ماذا يزيدكَ في إقدامِكَ القسَمُ[3]

وأحياناً نرى المتنبي يستنكر استهلال القصائد بالنسيب ويسلك مسلك أبي نواس الذي يعد إمام هذا المذهب في عزوفه عن ذكر الأطلال والنسيب في افتتاح القصائد . ويعلّلُ لنا أبو الطيب زهده في النسيب بقوله :

إذا كانَ مدحٌ فالنسيبُ المقَدَّمُ   أكُلُّ فصيح قال شعراً متيَّمُ ؟
لحبّ ابن عبد الله أولى فإنّـــــهُ   به يُبدأُ الذكرُ الجميلُ ويُختَمُ
أطَعْتُ الغَواني قبل مطمحَ ناظري   إلى منظر يصغرن عنهُ ويعظمُ[4]

ولقد أوحت شجاعة الأمير الحمداني وبطولته المعاني الرائعة والتي لا تضاهى روعةً وقوةً إلى المتنبي كقوله :

نهبْتَ من الأعمارِ ما لوْ حَوَيْتَهُ   لهُنِّئَتِ الدّنْيا بأنّكَ خالِدُ

---

(١) المصدر السابق (٤ / ٩٤) .
(٢) المصدر نفسه (٤ / ١٠٩) .
(٣) المصدر نفسه (٤ / ١٢٩) .
(٤) الديوان (٤ / ٦٩) .

قال ابن جني لو لم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلاّ بهذا البيت لكان قد أبقى فيه وحده ما لا يُخْلِقُه الزمان [1] .

وللمتنبي في سيف الدولة روائع كثيرة من المدح كقوله :

الدَّهْرُ مُعتذرٌ والسّيفُ منتَظِرُ وأرضُهُم لكَ مصطافٌ ومرتَبَعُ
للسّبي ما نكحوا والقَتل ما وَلَدُوا والنّهبِ ما جمعوا والنّارِ ما زرعوا [2]

وقوله :

ورُبَّ جواب عن كتاب بَعَثْتَهُ وعنوانُهُ للنّاظرينَ قَتَامُ
حُروف هجاء الناس فيهِ ثلاثَةٌ جَوادٌ ورُمْحٌ ذابلٌ وحُسامُ [3]

وقوله في تهنئة سيف الدولة :

المجْدُ عُوفي إذ عوفيتَ والكَرَمُ وزالَ عنكَ إلى أعدائِكَ الألمُ
وما أخُصّكَ في بُرْءٍ بتهنِئَة إذا سَلِمتُ فكلّ الناس قد سلموا

وقوله :

لكلّ امرىء من دهرهِ ما تعَوَّدا وعادةُ سيف الدولةِ الضرب في العِدا
وأنْ يكذِبِ الإرجافَ عنهُ بضدِّهِ ويُمسي بما تنوي أعاديهِ أسعَدا
ورُبَّ مُريد ضرَّه ضُرَّ نَفسَه وهادٍ إليْهِ الجيشُ أهدى وما هدى
ومُستَكْبِر لم يعرِفِ اللهَ ساعةً رأى سيفَه في كفّه فتَشَهّدا [4]

لقد أحب أبو الطيب سيف الدولة وأخلص له الوُدَّ فكان شعره فيه

(١) اليتيمة (١ / ١٨٥) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ١٩٥) .
(٣) المصدر نفسه (١ / ١٩٧) .
(٤) ديوان المتنبي ــ شرح العسكري ــ (١ / ٢٨١) .

صادقاً وكل ما أنتجت قريحته فيه : شعر رائع التصوير صادق الشعور جزل التعبير بالغ التأثير قوي الأسلوب سائر الأمثال .

ولا يشبه المتنبي — في قلة أو عدم بدء قصائد المديح بالنسيب من شعراء سيف الدولة سوى أبي فراس الذي ترك المقدمات جملة في مدائحه إذ كان يهجم على غرضه مباشرة . ولعلَّ ذلك راجع الى قصر مدائحه التي لم تبرز غرضاً أصيلاً قائماً بذاته في ديوانه ولم يفرد لها الشاعر أكثر من أربع قصائد وجاء في غيرها مختلطاً بالفخر أو الأخويات .

وابتعد أبو فراس في مديحه عن التكسب وبهذا السبب اتسمت مدائحه بالصدق دون خروج إلى مبالغة أو تزيد ، وكانت طريقته أن يسبغ الفضائل الخلقية والنفسية والشجاعة والإقدام على ممدوحه :

أشِدَّةٌ ما أراهُ منك أم كرَمٌ	تجودُ بالنفس والأرواح تصطلمُ
يا باذل النفس والأموال مبتسماً	فما يهولكَ لا موتٌ ولا عدمُ
لقد ظننتكَ بين الجحفلينِ ترى	أنَّ السلامة من وقع القنا تصمُ
نشدتك الله لاتسمح بنفْس علاً	حياةُ صاحبها تحيا بها أُممُ (١)

وقال مادحاً سيف الدولة :

قَدْ ضجَّ جيشُكَ من طولِ القتالِ	وقد شكتكَ إلينا الخيلُ والإبلُ
وقد درى الرّوم مذ جاوزتَ أرضهمُ	أن ليس يعصمهم سهْلٌ ولا جبَلُ
في كل يوم تزورُ الثغرَ لا ضَجَرٌ	يثنيكَ عنه ولا شغلٌ ولا مَلَلُ
فالنّفسُ جاهدةٌ والعَينُ ساهرَةٌ	والجيشُ منهمكٌ والمالُ مبتذلُ (٢)

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٣٥٧) .
(٢) الديوان (٢ / ٢٩٧) .

ويصفه بالشجاعة والجود بالنفس في ساحات الوغى وبالسخاء والحلم والنجدة في ميادين السلم فيقول [1] :

إمامٌ مشبعٌ سَمْحٌ بنَفْسي يعزّ على العشيرة أنْ يُصابا [2]
وما ذاقتْ مَذاهِبَهُ ولكِنْ يهابُ من الحَميّةِ أن يُهابا
ويأمُرُنا فنَكْفِيهِ الأعـادي هُمامٌ لو يشاءُ كَفَى ونابا

وتظهر مدائحه لسيف الدولة صفة الرياسة والإمارة [3] :

ما زالَ يجحَدُها قومٌ وينكرها حتى أقرّوا رفي آنـافهم رَغَمُ
شُكْراً فقد وفّتِ الأيامُ ما وعدَتْ أقَرَّ ممتنعٌ وانقادَ مُعْتَصِمُ
وما الرّياسَة إلاّ مـا تقَرُّ بـه شمسُ الملوكِ وتَعنو تحتهُ الأمَمُ

وتظهر في مديحه نزعة دينية تتجلى في أطراء التصدي للروم ودرء خطرهم .

وهَلْ عُذْرٌ وسيفُ الدّينِ رُكْني إذا لم أرْكَبِ الخُطَطَ العِظاما
وأقْفُو فعلَـهُ في كلّ أمـر وأجعلُ فضلَهُ أبـداً إمامـا
وقد أصبحْتُ منتسِبـاً إليـهِ وحسبي أن أكونَ لهُ غُلاما [4]

ويتحدث أبو فراس عن سيف الدولة ويصفه بأنه بطل شجاع يبني الثغور ويحمي الإسلام والمسلمين من الأعداء :

مَساعٍ يضلّ القولُ فيهِنّ جُهْدَهُ وتَهْلِكُ في أوصافِهِنّ الخواطِرُ
بناهُنّ باني الثّغر والثّغر دارسٌ وعامِرُ دينِ اللهِ والدّينُ واتِرُ [5]

---

(١) الديوان (٢ / ١٦) .
(٢) المشبع : الشجاع .
(٣) الديوان (٣ / ٣٦٦) .
(٤) الديوان (٢ / ٣٦٢) .
(٥) الديوان (٢ / ١١٦) .

ولم يفرد أبو فراس قصيدة المديح لممدوحه فقط بل كان يخص نفسه بجزء منها كقوله :

ألا قُلْ لسيفِ الدولةِ القرم : إنّني ... على كلّ شيءٍ غير وصفك قادرُ
فلا تُلْزِمني خطّةً لا أطيقُها ... فمجدُكَ غلاّبٌ وفضلُك باهرُ
ولو لم يكنْ فَخْري وفخرك واحداً ... لما سار عَنّي بالمَدائحِ سائرُ
ولكنّني لا أُغفل القولَ عن فتىً ... أساهمُ في علْيائِه وأُشاطِرُ
وعن ذكْرِ أيّامٍ مضتْ ومواقِفٍ ... مكاني منها بيِّنُ الفضْلِ ظاهِرُ (1)

ومن شعراء المدح البارزين في البلاط الحمداني أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكانت منزلته عند سيف الدولة تِلْو منزلة المتنبي (2) . ولقد استهلّ بعض قصائد المدح بالنسيب كأبي الطيب ، فقال في قصيدة يمدح بها سيف الدولة (3) :

إلمامه بمغاني دارِهِ لمَمُ ... إذ لا إمامةَ في دارٍ لها أمَمُ
بأي حكم لأيام الفِراقِ نأتْ ... بناعِبٍ كاعبٍ والبينُ يحتكِمُ ؟
عقاتُ عيساً كأني كنت حاسدها ... بدارِ سلمى وتِرْبُ الدّارِ مستلمُ
إحدى الحِسان أساءت بي وقد صرمَتْ ... يومَ الحِمى وهواها ليسَ ينصرمُ

ثم يربط الشاعر هذه المقدمة بالمديح ربطاً جميلاً حسناً :

كأنّ قلبي مُعارٌ للنّوى جزَعاً ... منْ قلْبِ قرنِ عليٍّ وهو منهزمُ
كأنّه أجلٌ أو طَرْفَهُ وجَـلٌ ... أو سيفَهُ قدَرٌ في الروحِ يحتكِمُ

---

(1) الديوان (٢ / ١١٥) .
(2) اليتيمة (١ / ٢٢٥) .
(3) شعر النامي ص (٧٢) .

ويمدح الشاعر قوة الأمير وبأسه وشجاعته ويظهر مذهبه في الشعر وولعه بالطباق والجناس :

يا مُظمىء الخيل أو تروي ذوابِلَه   والخيلُ تشربُ من أشداقِها اللّجمُ
النّصْرُ أسرجَها والعَزْمُ ألْجَمَها   والحزمُ أمسكَ بالأسراجِ لا الحُزُمُ

ويصف المعركة التي خاض غمارها الأمير ونال فيها النصر وصفاً رائعاً ويعرض لنا صوراً حية ناطقة فالأفق أصبح قناً والأرض أضحت دماً [1] :

قالَ النّهارُ له والشمسُ مغْمَدَةٌ   وللمنايا شُموسٌ غِمْدُها القمَمُ
هذا عَجاجٌ فأينَ الأفْقُ وهو قَناً ؟   وتلكَ خيلٌ فأينَ الأرضُ وهي دمُ
في ناظِرِ الشمسِ ان عنتْ له رمَدٌ   ومِسمَعُ الرَّعْدِ إنْ أصغى له صممُ
يردّها ونِظــامُ المُلْكِ متّسقٌ   والموتُ في خرَزَ الأعناقِ ينتظمُ

وينتقل الشاعر إلى مدح أخلاق سيف الدولة وصفاته المعنوية ويبالغ في ذلك مبالغة كبيرة فيقول [2] :

اللهُ أعطاكَ أقسامَ الفَخارِ فَما   خلْقٌ يساميكَ مذْ خيرتْ لك القسمُ
لو كان يرضى لكَ الدّنيا لما فنيتْ   ونلتَ فيها خُلوداً أنتَ والنِّعَمُ

ويشيد بالأمير الذي نصر الدين وهدم قواعد الشرك وحطّمها بحد سيفه فيقول [3] :

بحدّ سيفك سيف الدولة انحَطَمَتْ   قواعدُ الشركِ والأرواح تنحطمُ

---

(١) شعر النامي ص (٧٥) .
(٢) المصدر نفسه ص (٧٣) .
(٣) المصد رنفسه ص (٧٦) .

يحدّثُ الذئبَ ذِئْبٌ وهو مُبْتَهِجٌ ويخبرُ النْسرَ نَسْرٌ وهو مُبتسمُ
قد أرضعتْكَ ثديُّ الأرضِ دِرَّتَها ورُمحكَ ابنُ رضاعٍ ليس ينفطمُ

ويمدح الشاعر بني حمدان قوم الأمير وأهل الملك والعدل والحمد فيقول[1]:

ألسْتَ من مَعشرٍ قامَتْ مَدائحهُم على القَنا وهي بالأرواح تنتظمُ
من آل حمدانَ حيثُ الملكُ مقتبلٌ والمالُ مقتسمٌ والحمدُ مُغتنمُ
قومٌ إذا حَكَمُوا يوماً لأنفسِهِم جارَ السّماحُ عليهم في الذي حكموا
أمِنْ علاً أم ندىً ؟ ادعوك أم بهما فأنتَ ذو الحَيا والصَّارمُ الخَذِمُ

وللنامي كثير من روائع المدح في سيف الدولة لم يبدأها بالنسيب بل طرق المدح مباشرة دون مقدمات كقوله[2]:

إذا ما عَليٌّ أمطرتْكَ سماؤهُ رأيتَ العُلا أنواؤها تَتَحلّبُ
يُرَجّى ويخشى ضرّهُ وهو نافعٌ كذا البحرُ في آذيّهِ متهيّبُ
يروعُ ويبدو الأنسُ منه كأنّه الـ ـهَوى لذْعُهُ بينَ الجوانحِ يعْذُبُ

وقوله[3]:

خُلِقْتَ كما أرادَتكَ المَعالي فأنت لمنْ رجاكَ كما يريدُ
عجيبٌ أن سيفَكَ ليس يَرْوى وسيفُكَ في الوريدِ لهُ وريدُ
وأعجبُ منه رمحكَ حينَ يُسْقى فيصحو وهو نَشْوانٌ يَميدُ

---

(١) المصدر نفسه ص (٧٦ — ٧٧) .
(٢) شعر النامي ص (٣٨) .
(٣) اليتيمة طبعة ١٩٣٤ (١ / ١٤) .

ومن الشعراء الذين ازدان بهم البلاط الحمداني وبرعوا في المدح الشاعر السرّيّ الرفّاء الذي بلغت سيفياته نحو سبع وثلاثين قصيدة بدأ أغلبها بالغزل .

وينهج الشاعر في المديح منهج سابقيه من الشعراء الفحول كالبحتري وأبي تمام ويبدو تأثره إلى درجة كبيرة في شعر المتنبي وأبي العباس النامي من حيث المعاني والألفاظ وقصيدة المديح لديه تشتمل على أغراض وفنون أخرى كالوصف والشكوى والتظلم والاعتذار والعتاب والفخر والهجاء والحكمة .

قال يمدح سيف الدولة ويعتذر إليه من انصرافه عن حلب بغير إذنه واستهل قصيدته في غزل رقيق برع فيه :

أؤنّبُ الشوقَ فيهم وهو يضطرمُ وأستقلّ دموعَ العينِ وهي دَمُ
للهِ أيّ شُموسٍ منهم غَرَبَتْ بغُرَّبٍ وبدُورٍ ضمّها إضَمُ[1]
بيضٌ تخبّرُ عنها البيضُ لامعةً بأنّهُنّ نَعيمٌ دُونَهُ نِقَمُ
أهْدَتْ لهنّ على خوْفٍ إشارتُنا تحيّةً رَدَّها العُتّابُ والعَنَمُ
هي الظّباءُ ولي مِن ربْعِها حرَمٌ وهي الشّفاءُ ولي من لحظها سقَمُ
جادَتْكَ مذْهبَةٌ بالبَرْقِ مُجْلَبَةٌ بالرّعْدِ تَرْبَدُّ أحياناً وتبتَسمُ
كأنّها وجنُوبُ الرّيحِ تَجنُبُها بحرٌ يسدّ فضاءَ الجوّ ملتطمُ[2]

وينتقل الشاعر من هذه المقدمة الغزلية إلى المدح انتقالاً رائعاً فيقول[3] :

كأنّها إذْ تولّتْ وهْيَ مُقْلِعَةٌ جيشُ العَدُوّ تولّى وهوَ منهزمُ

---

(١) غرب : جبل بالشام ، وإضم : واد بالمدينة .
(٢) ديوان السري ص (٢٤٤) .
(٣) ديوان السري ص (٢٤٥) .

عادَتْ حُماتُهم سفعاً خُدودُهُمْ   كأنّما سَفَعَتْ أبشارَها الحُمَمُ
ولّتْ وبيضُ ابنِ عبدِ اللهِ تنشدُها   كالطّيْرِ روّعها من بارقٍ ضَرَمُ
أطفأتَ بالكرّ والإقْدامِ نارهُمُ   وقبل كانتْ على الإسلامِ تضطرم
دفعتهُمُ بغَرارِ السيفِ عن بَلَدٍ   رَحْبٍ يدافِعُ فيه سيلكَ العرِمُ

وينتقل الشاعر ليمدح في الأمير ذوده عن الإسلام وحمايته وتحطيمه للشرك وأهله فيقول [1] :

أضحى بنجدتكَ الإسلامُ معتصماً   وأنتَ باللهِ والمَهْدِيّ مُعتصمُ
تُزْجي القَنا والمنايا فيهِ كامِنَةٌ   فتحطِمُ الشرْكَ أحياناً وينحطمُ
أعجِبْ به حينَ يَدْعوه لمَلْحَمَةٍ   أصَمُّ ليس به عن دعوةٍ صممُ
كأنّها والعَوالي مِلءُ ساحَتِها   مغارِسُ الخَطّ فيها للقَنا أجَمُ
فالغَزْوُ منتظمٌ والفَيْءُ مُقْتَسِمُ   والدّينُ مُبتسمُ والشّرْكُ مصطلمُ

ويذكر مناقب الأمير من سماحة ورحمة وكرم فيقول :

لا يستَعيرُ لهُ المُدّاحُ مَنْقَبَةً   ولا يقولون فيهِ غيرَ ما علِموا
رأى السّماحَ فطيماً فاشرأبَّ لهُ   وخيرُهُ من رآهُ وهْوَ محتَلِمُ
رَحْبٌ على آمِليه ظِلُّ رحمتِه   وليس بينَهُمُ قُرْبَى ولا رَحِمُ
عمّتْ أياديهِ إذْ عَمّ الحَيا بَلَداً   إنّ التي عَمّتِ الدّنيا هيَ الكَرَمُ
هو الحَيا والغِنى ما انهَلّ عارِضُهُ   وهو الرّدى ما ارتدى بالسيف والعدَمُ

وتسيطر النزعة الدينية على نفس الشاعر وتتنزّى أحاسيسه وتثب عواطفه فيخاطب الأمير قائلاً [2] :

---

(١) ديوان السري ص (٢٤٥) .
(٢) ديوان السري ص (٢٤٦) .

رَمَى الصليبَ وأبناءُ الصَّليبِ فَلَمْ تُغمَدْ صوارِمُهُ إلاّ وهم رِمَمُ
بالبيضِ تُنكرها الأغمادُ مغمدَةً والجُرْدِ تعرِفُها الغيطانُ والأكمُ
يا صارمَ الدّينِ إن الدين قد عَلِقتْ كفّاهُ منكَ بحبْلٍ ليسَ ينصرِمُ

وينتقل الشاعر من مدح الأمير إلى الاعتذار له فيبرر عذره ويبين سبب انصرافه عن حلب بغير إذن الأمير ويطلب منه الصفح والعفو [1] :

أشيمُ عَفْوَكَ علماً أنْ ستَنْشرُهُ عليَّ تلكَ السّجايا الغُرّ والشّيَمُ
كأنْ انصرافيَ جُرْماً لا كِفاءَ لهُ عندي وأيّ لبيبٍ لديں يجترمُ
رأيٌ هَفا هَفوةً زُلّتْ لها قدَمي وما هفا الرّأيُ إلاَّ زَلّتِ القَدَمُ
هو اضطِرارٌ أزالَ الاختيارَ وهلْ يختارُ ذوُ اللّبّ ما يردى وما يَصمُ
وكيفَ يجتنبُ الظمآنُ موَرُدُهُ عمداً إذا راحَ وهْوَ الباردُ والشّبِمُ
صَفْحاً فلو شق قلبي عن صحيفتيه لظلَّ يقرأُ منهُ الخوفُ والنّدَمُ

وتظهر النزعة الدينية في كثير من قصائد مدحه لسيف الدولة وشأنه في ذلك شأن أبي فراس وغيره من شعراء العصر وذلك حيث يقول [2] :

وسيفٌ من سيوفِ اللهِ مُغْرًى بسفْكِ دمِ العِدا منه الفِرارُ
وبدْرٌ ما استسرَّ البدرُ إلاّ تعالى أنْ يحيطَ بهِ السِّرارُ
بعثتُ إلى الثّغور سحابَ عدل وبذل لا يغب له انهمارُ
وأسكَنتِ السّكينةُ ساحتيها فقرَّتْ بعدَ ما امْتنعَ القَرارُ

وقوله مخاطباً سيف الدولة [3] :

---

(١) ديوان السري ص (٢٤٦) .
(٢) الديوان ص (٢٣٣) .

يا مجيبَ الإسلامِ حينَ دَعاهُ ومُقيلَ الإسلامِ حينَ استقالا
وعدَ الرومَ سيفُ بأسك وعَداً عدموا الخُلفَ بعدهُ والمطالا
نزلوا منزلاً من الحينِ ضَنْكاً فجعلتَ الرَّدى لهمُ إنزالا

وقوله (١) :

أسيفَ الله أنَّ الناسُ طُرّاً لِراجي العُرْفِ والدّنيا شآمُ
أقمنا لا نَريمُ وسالَمَتْنا بساحتك الخطوبُ فما تُرامُ
فكلُّ زَمانِنا أبداً ربيعٌ وكلّ شُهورِنا الشّهرُ الحرامُ

وقوله (٢) :

ووصَلْتَ للإسلامَ بأسكَ مُقدماً بضياءِ عزمكَ فاستنارَ ظلامُهُ
في موقف صبغتْ سيوفُك أرضهُ بدمِ العُداة فما يثورُ قَتامُهُ

ومن الشعراء الذين وفدوا على الأمير الحمداني وعاشوا في كنفه وتفيئوا ظلالَه ومدحوهُ بغررِ شعرهم وذوبِ أنفسهم وروائعِ نتاجهم أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نُباتة السعدي الذي قدم على حلب شاباً يافعاً فعاش في بلاطِ الأمير فترة من الزمن ، وله فيه مدائح كثيرة منها ما صنع في العراق وأرسله إلى الأمير قبل قدومه عليه ومنها ما صُنع في حلب .

وتمتاز مدائح ابن نباتة السعدي بأنها ابتعدت عن مقدمات الأطلال والنسيب فهو يمدح سيف الدولة مثلاً ويذكر الفدا بملَطْية فيقول (٣) :

(١) الديوان ص (٢٥٣) .
(٢) الديوان ص (٢٦٢) .
(٣) ديوان ابن نباتة المخطوط بدار الكتب ص (١٦) .

أقِمْ في القولِ من نفسي دَليلاً فإنَّ الصدْق ما زرع القَبولا
نُطيعُ اللهَ في خَوْضِ المنـــايا وسيفَ الدَّولة الملكَ الجَليلا

ويصف انتصارات الأمير المتلاحقة وهزائم الروم ويتلاعب بالمعاني تلاعباً سهلاً فالحصون الرومية تُنادي نداهُ وتبدل ساكنيها وتمنحه جزيلا كما تعود الأمير أن يمنح العطاء العميم[1] :

إذا ما أرسلوا جيشاً إلينـــا رددْنا من دِمائِهِمُ رسولا
يسيلُ إليهم فــإذا أتــاهُمْ رأوا فيه الجماجم والخصيلا[2]
وقال لنا الزَّمانُ ظلَمْتُموهمْ فقُلْنا للزَّمانِ دَعِ الفُضولا
فطوَّفَ في بلادِ الرّومِ حتّى توَهَّمْناه قد ضَلَّ السَّبيلا
وكيف يضلّ في سُبُلِ المعالي فتىً جعَلَ الحُسام لهُ دَليلا
كأنَّ حصونَهم نــادتْ نَداهُ أو اختارَتْ بساكِنها بديلا
فأعطَتْهُ الذي تحْوي عَطاءً جزيلاً مَلَّ ما يُعْطي جزيلا
كأنَّ بلادَهم ضمّتْ عليهِ جوانحِها مخافةَ أنْ يزولا

ويصف خيل الأمير الضامرة وصفاً رائعاً ويسوق التشبيهات الجميلة الأخّاذة وذلك حيث يقول :

كأنَّ الخَيل من مَرَحٍ ولهْوٍ تُنازِعُهُ إذا نزل الرَّحيلا
دِقاقٌ كالأهِلَّةِ في الأعادي تعلَّمُ من ذوابلِهِ النُّحولا
يخوّضُها الفُراتُ فتىً يُلاقي بوجه الموتِ في الغمراتِ سيولا

(١) الديوان المخطوط (١٧) .
(٢) الخصيل : جمع خصيلة وهي كل عصبة فيها لحم غليظ .

ولوْ أنَّ الفُراتَ عصَى عليهِ لرَدَّ السَّيْلُ منه أنْ يَسيلا

ويخلص الشاعر إلى الفداء ويذكر أن الأمير بأموال الروم أطلق سراح الأسرى وفادى بهم وأن ألسنتهم تلهج بالثناء والحمد فيقول (١) :

فسالمَهُمْ ولمْ يترُكْ فتَاةً وحاربَهُمْ ولم يترُكْ حليلا
ومنْ أموالهم فَكَّ الأسارى وعن أزواجهم أعطى البعُولا
يراهُ كلّ مأسُورٍ فيَدْعُو ألا حسبي به وكفَى وكيلا
فداؤك مَن فديْتَ منَ البرايا وإنْ كانوا لأنْ تُفدى قليلا
فأنْتَ خلَقْتهم خلْقاً جديداً وصيَّرْتَ السَّماح بهم كفيلا

وللشاعر في مدح سيف الدولة صور من آيات الشعر البارعة ومن بديع مدحه فيه قوله في ذم الروم والأسرى منهم وذكر فضل الأمير عليهم بعد أسرهم حتى أن ملكهم تمنى أن ينال حظهم وأنه معهم في أسر الأمير :

قد كنتَ تأسرَهم بالسّيْفِ مُنصلِتاً فصرتَ تأسرهم بالخوفِ والوَهَلِ
مَن يزرع الضربَ يحصدْ طاعة عجباً ومَن يربّي العُلا يأمَنْ من الثّكَلِ
كانَتْ سَحابكَ فيهم كلُّ بارقَةٍ حمراء تهطلُ بالأيدي على القُلَلِ
فاليومَ سُحبُكَ فيهم كلُّ بارقَةٍ غرّاء تهطلُ بالأموالِ والحُلَلِ
حتّى تمنّى مليكُ الرومِ حظّهُمْ وأنّهُ معَهُمْ في الأسرِ لم يزَلِ (٢)

ويمدح كرم الأمير وعطاءه بمعان خالدة تعد من أروع ما قيل في هذا المجال :

---

(١) الديوان المخطوط (١٧) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٨٨) .

قد جُدتَ لي باللُّهى حتى ضجرتُ بها   وكدتُ من ضجري أُثني على البُخْلِ
إنْ كنتَ ترغبُ في أخْذِ النّوال لنا   فاخلُقْ لنا رغبةً أولا فلا تُنِلِ
لمْ يُبْقِ جودُكَ لي شيئاً أؤمّلُهُ   تركْتَني أصحبُ الدّنيا بلا أملِ

ومن شعراء سيف الدولة الذين عاشوا في رحابه واستظلوا بظله الوأواء الدمشقي الذي يعد من أشهر شعراء عصره في الخمريات والروضيات والغزل . ولقد كان مذهبه في المدح مذهب الطريقة القديمة إذ يستفتح القصيدة بالغزل مع الإطالة ثم يذكر صفات ممدوحه من كرم وشجاعة وسخاء وبطولة ، وقد غلب على مديحه نزعة البديع والمحسنات اللفظية . ومن قصائده في مدح سيف الدولة قوله [1] :

قِفوا ما عليكُمْ من وقوفِ الرّكائبِ   لنبذلَ مذخورَ الدّموعِ السّواكبِ
وليلٍ طويل كان لمّا قرَنْتُهُ   برؤيةِ منْ أهوى قصيرَ الجوانبِ
كخفْقةِ قلبٍ أو كقبلةِ عاشقٍ   على حذَرٍ أو رَدِّ طرْفِ المُراقبِ
كواكبُهُ تبْكي عليْهِ كأنّما   ثكلْنَ الدّجى أو ذقنَ هجرَ الحبائبِ
يبرّحُ بي وجْدي إذا لاحَ كوكَبٌ   كأنّ بهِ وجْداً ببعضِ الكواكبِ
سأهبِطُ من بحْرِ اللّيالي مَذاهِباً   متى قصرْتَ بي في هواهُ مذاهبي

وهكذا وبعد أن وقف الشاعر على الأطلال وتحسّر عليها لما أصابها من نوائب وتحدّث عن المحبوبة ووصف طول الليل بأوصاف جديدة لطيفة فهو ليل طويل كخفقة قلب أو كقبلة عاشق والكواكب تبكّي وكأنّهن قد ثكلن الدّجى واستعمل استعارات في غاية الجمال . ثم انتقل الشاعر إلى مدح شجاعة الأمير وبطولته وحذقه لفنّ الحرب بعد أن أطالَ في الغزل حتى كادت قصيدته تكون غزلاً . . . لا مدحاً فقال :

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي (٢٥ ــ ٢٦ ــ ٢٧) .

هُوَ السَّيْفُ إلاّ أنّهُ ليس نابياً إذا عاقهُ المقدارُ عن كل ضاربِ
إذا شاجروهُ بالرّماحِ تشاجَرَتْ نفوسُ المنايا في نفوسِ الكتائبِ
وتَصْبُغُ أيدي النّقع أيدي خيولِهِ بمُحْمَرّ تُرْبٍ من نجيعِ الترائبِ
وكم خاضَ نَقْعاً يمطُرُ الهامَ وقعَهُ إلى الموْتِ في صَفّيْ قَناً وقواضبِ

ومن بديع شعره وجيد تشبيهه قوله في مدح سيف الدولة :

ما أرطَبَ العيشَ في ذُراكَ رما أهْنا النّدى في جنابك اللّيْنِ
علوْتَ في المَجْدِ كلَّ مَكرُمَةٍ كنتَ بها ثالثَ السِّماكَيْنِ
مَنْ قاس جودَكَ بالغَمامِ فَما أنصفَ في الحكمِ بينَ شكلَيْنِ
أنْتَ إذا جُدْتَ ضاحِكٌ أبَداً وهوَ إذا جادَ دامعُ العَيْنِ [1]

وقوله [2] :

إذا أبرَقَتْ ضرْباً سيوفُكَ أمطرتْ رؤوس الأعادي فوق أرضٍ المصائبِ
بما انهلّ من كفَّيك من ذلك النّدى وما حمَلَتْهُ من قَنا وقواضبِ
أرِحْها قليلاً كي تَقَرَّ فإنها من الضرب أمستْ ناحلاتِ المضاربِ
تمُرّ بكَ الأيامُ وهيَ شَواهِدٌ بأنّكَ ما أبقيتَ عتباً لعاتبِ

ومن الشعراء الذين برعوا في مدح سيف الدولة الشاعر الببّغاء ، ولقد سلك في بعض من قصائد المدح مسلك أغلب شعراء المدرسة الحلبية من ذكر الأطلال في المقدمة ثم الإشادة بشجاعة وبطولة الأمير كقوله [3] :

---

(١) ديوان الوأواء ص (٢٢١) .
(٢) المصدر نفسه ص (٢٣) .
(٣) نشوار المحاضرة (١ / ٢٧٩) .

سقَتِ العِهادُ خليط ذاكَ المَعْهَدِ ريّاً وحيّا البرقُ برقَةَ ثَهْمَدِ
في جَحْفَلٍ كالسّيلِ أو كاللّيلِ أوْ كالقطرِ صافح موجَ بحرٍ مُزْبَدِ
فكأنّما نَقَشَتْ حوافِرُ خَيْلِهِ للناظرينَ أهلّةً في الجَلْمَدِ
وكأنَّ طرْفَ الشمس مطروقٌ وقَدْ جعلَ الغُبارَ لهُ مكانَ الإثْمِدِ

ثم ينتقل إلى وصف اللواء فيصفه وصفاً بارعاً يكاد ينفرد به ويرسم بكلماته لوحة فنية ساحرة الجمال فاللواء يناجي الرياح الرّكدّ وتجيبه أنفاسها بتصعد وهو قلق دائب الحركة وكأن الجو قد ضاق به فيقول :

ومملَّكٍ رِقّ القَنا مُسْتَخرِجٍ باللّطْفِ أسرارَ الرِّياحِ الرُّكّدِ
خُرُسٌ يناجيها فتَفْهَمُ نُطْقَهُ وتُجيبُهُ أنفاسُها بتصعُّدِ
قَلِقٌ كأنَّ الجوَّ ضاقَ به فَمَا ينفَكُّ بينَ تَوَثُّبٍ وتَهَدُّدِ

ويعود لمدح سيف الدولة كرة أخرى فيقول :

وكأنَّ هِمّةَ ربّهِ قالتْ لَهُ طُلْ وارْقَ في درَجِ المعالي واصْعد
إنَّ المحامِدَ رتبَةٌ لا يبلغُ الـ إنسانُ راحتَها إذا لمْ يُجْهَدِ
مَنْ لمْ تبلّغْهُ السّيادةَ نَفْسَهُ دُونَ الأبوّةِ لم يكُنْ بمُسَوَّدِ

والببغاء لم يبدأ كل قصائد المديح بذكر الأطلال أو الغزل إذ أنه كان في كثير من قصائد هيدخل إلى المدح دون مقدمات كقوله في مدح سيف الدولة — لفدائه الأسرى من المسلمين سنة خمس وخمسين وثلثمائة [1] .

وفدَيْتَ من أسر العدوّ معاشراً لولاك ما عرَفوا الزمانَ فِداءَ

---

(١) نشوار المحاضرة (١ / ٢٨) .

كانوا عبيدَ نداكَ ثمّ شريتهم فغَدَوْا عبيدكَ نعمةً وشراءَ
والأسرُ إحدى الميتتينِ وطالما خَلَدُوا بهِ فأعدتَهم أحياءَ

ومن شعراء بلاط سيف الدولة الذين برعوا في الشعر ونالوا شهرة به شاعر الطبيعة الصَّنَوْبَريّ الذي كان يسمّى حبيباً الأصغر بجودة شعره – كما يقول ابن رشيق [1] . والذي امتاز شعره بحسن الموسيقى والتشبيهات البارعة .

ولقد اتصلت حِبالُه بسيف الدولة قبل أن يَلي حلب وقد استحوذتْ بطولات هذا الأمير الفارس على إعجاب الشاعر فأنشأ فيه قبل استيلائه على حلب قصيدته الرائعة [2] :

بأيمَنِ طائرٍ واصَحّ فــألٍ وأسعَدِ كوكَب يغزُو الأميرُ
يؤيّدُ جَيْشَهُ بجيوش نَصْرٍ تسيرُ على الجناحِ إذا تسيرُ
فتَبْلُغُ حيثُما بلغْتَ مُناهُ ويلقانا ببُشْراهُ البَشيرُ
أميرٌ أوْسَعُ الأمَراء صَدراً إذا ضاقَتْ بما تَسَعُ الصّدُورُ

ويمدح قبيلة الأمير قائلاً :

أيا ابنَ القائمينَ بكلّ دَهْرٍ إذا قعدتْ ولم تَقُمِ الدّهورُ
متى عُدّ الكواكبُ من معَدٍّ فإنّكُمُ شُمُوسٌ لا بُدُورُ

وينتقل إلى مدح بطولة الأمير وحذاقته في الحرب وتمرسه في القتال وبلائه في الروم :

تركتَ الروم : بعضُهم قَتيلٌ يمُجُّ دماً وبعضُهم أسيرُ

(١) العمدة (١ / ٦٤) .
(٢) ديوان الصنوبري ص (٧٤) .

ولمّا طارَ بأسُكَ أمس فيهم ْ هَفَوْا جزَعاً كما تهفو الطيور ُ
فقد ماتوا وما قُبِرُوا ولكنْ كأن بيوتَهم لهُمُ قبُورُ
لسَيْفِ الدولة السيفُ الذي للْ منَايا في غِرَارَيْهِ زئير ُ
قَراهُ جَنّةٌ خضراءُ حُفّتْ بحَدَّيْهِ وحَدّاهُ السّعيرُ
ومُجْتاحٌ بيُمْناهُ الأعادي كما اجْتاحَ الكَراوينَ الصّقورُ
وفألُ الشّعْرِ ليسَ لهُ تَراخٍ تراخَتْ أو تقاربَتِ الأمورُ

ولقد أنشأ هذه القصيدة قبل استيلاء سيف الدولة على حلب بدليل تمجيده لغزواته للروم لأن سيف الدولة منذ دخوله إليها في سنة ٣٣٣ ه حتى وفاة الصنوبري ٣٣٤ ه لم يقم بأية غزوة للروم وذلك لانصرافه لتوطيد أمور الدولة .

ولقد سلك الصنوبري في مدحه مسلكاً تقليدياً وافتتح بعض قصائده بالنسيب والغزل الرقيق كقوله في مدح سيف الدولة (١) :

شَخَصوا وحشْوُ خدورهم أشخاص أشباهُها الأغصانُ والأدْعاصُ
واعْتاصَ بعدهُم العزاءُ ولم أزَلْ من قبلُ أدْعوهُ فلا يعتاصُ (٢)

إلى أن يقول :

لِمَ في عِراصِ الغانياتِ يَلُمْنَنا وقُلوبُنا للغانياتِ عِراصُ
مِنْ كلّ خالصةِ الجمال استأسرَتْ منّا نفوساً ما لهُنّ خَلاصُ
حَسْناءُ يُقْتَنَصُ حُسْنُها ألبَابَنا ما الحُسْنُ إلاّ حسنُها القنّاصُ

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٢٣٤ ــ ٢٣٨) .
(٢) اعتاص : صعب ولم يتيسر .

وينتقل إلى مدح كرم الأمير وسجاياه الحميدة انتقالاً جميلاً :

هي إنْ غَدا الحُسنُ المَصاصُ لها فلي   فَخرٌ بسيّدنا الأمير مُصاصُ [1]
غَدَتِ العُلا وأبُو العُلا أعياصَهُ   يا عزَّ ما تُعْزى به الأعياصُ [2]
واستخلصَتْ لسيوفِ سيفِ الدولة الـ   دّنْيا هنا ها ذاكَ الاستخلاصُ
أبَداً تَحيصُ الوهي كفّاهُ ومـا   أوْهَتْهُ كفّاه فليس يُحاصُ [3]
مِن رأيهِ سيفٌ يصولُ به ومِنْ   تدبيرهِ دِرْعٌ عليه دِلاصُ [4]

ولم يكن هؤلاء الشعراء هم وحدهم الذين مدحوا سيف الدولة ، فغيرهم كثيرون ممن أفاض عليهم سيف الدولة فصدحوا بأروع آيات المديح وجادوا بأروع صنوف الثناء من أمثال النّاشيء الأصغر والسّلامي والزّاهي والخالديّين وغيرهم .

ونخلص إلى القول إن فن المديح في بلاط سيف الدولة كان فنّاً تقليدياً سلك به الشعراء مسلك الأقدمين من ذكر للأطلال واستهلال بالنسيب والغزل ولكنّ الشعراء لم يلتزموا ذلك دائماً بل في كثير من القصائد قصدوا إلى المديح دون مقدمات كما أن فن المديح كان يشتمل على أغراض وفنون أخرى كالوصف والشكوى والتظلم والعتاب والفخر والاعتذار والهجاء والحكمة . كما أن معانيه كانت تدور حول الشجاعة والبطولة وشرف الأصل والجود وتمجيد العروبة .

ولقد أتحفنا شعر المديح بصوَر رائعة لحياة الحمدانيين الحربية خصوصاً ما كان بينهم وبين بيزنطة عدوة العرب والإسلام ولقد ظهرت روح العصر في فن المديح .

---

(١) مصاص الشيء : سره والخالص من كل شيء .
(٢) العيص : الاصل والمنبت والجمع أعياص .
(٣) تحيص : تخيط .
(٤)دلاص : الدرع السابغة .

الفخر

الفَخرُ من أكثر فنون الأدب دلالة على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها وحديث الشاعر عما يخصه . مُعظماً لصفاته ومُشيداً ومُظهراً ما فيها من جمال .

والفخر هو الإشادة بالصفات الحميدة وتمدّح الشاعر بفضائله الخاصة وتبيان مزاياه الكريمة ، من أصل ونسب وبطولة وشجاعة وأعمال وأقوال وما شابه ذلك .

والفخر نوعان : فخر فردي يتحدث به الشاعر عن نفسه فيجلو خباياها ويكشف خفاياها وأسرارها ويطري مزاياها وأخبارها .

وفخر جماعي يعدد به مناقب قومه أو حزبه وينوه بجهودهم وعظيم شأنهم .

ولقد رافق الفخر الشعر العربي منذ جاهليته وسار معه إلى العصر العباسي حيث كان الانقلاب العظيم في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية وجرى التمازج بين العقل العربي والعقول اليونانية والفارسية والهندية فاتسعت الآفاق وسمت المدارك وتعددت سبل الحضارة وتنوعت فنون المعرفة .
وتأثر الفخر كغيره من فنون الشعر بهذه الحضارة الزاهرة فإذا به يدور

حول العقل والرأي والحكمة ، وحول الشجاعة والحزم في الأمور والأصل العريق والشاعرية المبدعة [1] .

وبرز فن الفخر قوياً في بلاط سيف الدولة وكانت ظروف الدولة الحمدانيّة تشجع على بروزه في إمارة عربية بين مجموعة الإمارات الأعجمية العديدة ، وهي إمارة فتيّة جددت المعاني العربية الأصيلة من شجاعة وحرب وفروسية ونخوة وسخاء .

وكان قادة الدولة الحمدانية أدباء وشعراء وفرساناً وكانوا يحسنون الشعر ويتذوقون الأدب فكان لا بد أن يتحدثوا في أشعارهم عن بطولاتهم في حروبهم فيفتخروا بها ويعتزوا بشجاعتهم وقوتهم وبني قومهم .

وكان أبو فراس زعيمهم في هذا المجال ، وكان الفخر غرضاً أصيلاً في شعره واحتل مكاناً بارزاً في ديوانه وأصبح له المقام الأول بين سائر فنونه الشعرية الأخرى . ولا عجب في ذلك فقد تعددت لديه مواقف الفخر . فالشاعر أمير من أمراء آل حمدان وحاكم لثغر من أهم الثغور وقائد للجيوش هذا بالإضافة إلى عراقَة النسب ومكانة الأسرة وموهبة الشعر التي حباه الله بها . ومزج أبو فراس بين الفخر وغيره من الفنون الأخرى مثل الغزل والشكوى والأخويات .

ولقد تعددت مجالات الفخر في شعر أبي فراس فافتخر بقومه ونسبه وعلو همته وحسن بلائه في القتال كما افتخر بشعره وشاعريته . وافتخر بشجاعة قومه بني حمدان فقال :

إنّي امرؤٌ ببني حمدانَ مُفتخرٌ خَيْرِ البريّةِ أجداداً وأسلافا

---

(١) الفخر والحماسة : حنا الفاخوري ، ص (٢٣) .

إنّي لمِنْ معشر ضُرَّ جــارُهُمُ ولا رأى عندهم بؤساً ولا خافا
إنْ حالفتَنا المعالي فهي قد علِمتْ كانت لآبائنا من قبلُ أحلافا [1]

ووصف أبو فراس قومه بأنهم ملوكَ أبناء ملوكٍ ، وهم أصحاب المجد وأركانه لا يحسنون غير اصطناع العرف والإحسان ، يغنون الفقير ويفكّون الأسير من قيده فقال [2] :

وإذا فخرْتُ فخرْتُ بالشمّ الأُلى شادوا المكارمَ من بني حمدانِ
نحنُ الملوكُ بنو الملوكِ أولي العلا ومعادنُ السّادات من عدْنانِ
والمَجْدُ يعلَمُ أننا أركــانُهُ والبيتُ معتمِدٌ على الأركانِ
قَومي متى تخبرهُمُ لم يُحْسِنوا غير اصطناعِ العرْفِ والإحسانِ
كم مُعدمٍ أغْنَوْا بفضْلِ سماحهِم كرَماً وفكّوا عن أسيرٍ عاني

وأشاد أبو فراس بما حققه قومه من مجد في وقوفهم أمام الروم وصدُهم لخطرهم الداهم فقال :

لمّا برَزْنا للدّمُسْتُقِ مـرّةً ورأى بوادِرَ خيْلِنا كالأسهُمِ
طلَبَ النّجاةَ لنفسِهِ فتحكّمتْ في جيشه الأسيافُ أيَّ تحكّمِ

وتحدث عن غزو بلاد الروم والإيقاع بجيوشهم والاستيلاء على حصونهم فقال [3] :

وجُبْنَ بلادَ الرّومِ ستّينَ ليلةً تُغاورُ مَلْكَ الرّوم فيمنْ تُغاوِرُ

---

(١) الديوان (٢ / ٢٦٠) .
(٢) الديوان (٢ / ١٤٣) .
(٣) الديوان (٢ / ١١٧) .

تخِرّ لنا تلكَ المَعاقِلُ سُجّداً وتَرْمي لنا بالأهلِ تلكَ المطامرُ
وما زال منّا جارُ خرشنةَ امرُؤٌ يراوِحُها في غـارَةٍ ويُباكِـرُ
ولما ورَدْنا الدّرْبَ والروم فَوقَهُ وقدَّرَ قسطنطينُ أنْ ليسَ صادرُ
ضربْنا بها عَرْضَ الفُراتِ كأنما تسيرُ بنا تحت السروج جزائِرُ
إلى أنْ وردْنا أرقَنينَ نَسُوقُها وقد نكلَتْ أعقابُها والمخاصِرُ
ومال بها ذاتَ اليمينِ « بمرْعشٍ » مجاهيدُ يتلو الصّابرَ المتصابِرُ

ثم وصف أبو فراس هزيمة ملك الروم الذي فرَّ هارباً وترك ابنه قسطنطين أسيراً ومعه عدد من كبار القواد فقال (٢ :

وابنُ بقُسْطَنْطِينَ وهْوَ مكبَلٌ تحفّ بطاريقٌ بهِ وزَراوِرُ
وولّى على الرَّسمْ الدّمُستقُ هارباً وفي وجهه عذْرٌ من السّيف عاذِرُ
فَدى نَفْسه بابن عليْه كنفسه وللشّدّة الصّمّاء تُفْنى الذّخائرُ
وقد يقْطَعُ العُضْوَ النفيس لغـيرِهِ وتُدْفَعُ بالأمرِ الكبيرِ الكبائِرُ

وافتخر أبو فراس على القبائل الثائرة بعد إخضاعها بقوله :

ديارُهُمُ انْتَزَعْناها اقْتساراً وأرضُهُم اغتَصَبْناها اغْتصابا
ولَوْ شئنا حَمَيْناها البَوادي كما تحمي أُسودُ الغابِ غابا

وقال يفتخر ويذكر إيقاعه ببني كعب وكان قد حَسُنَ بلاؤه في تلك الوقعة وكان على مقدمة جيش سيف الدولة[٢] :

ألم تَرَنا أعزَّ النّاسِ جاراً وامنعهُمْ وامْرَعَهُمْ جنابا

---

(١) الديوان (٢ / ١٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٤١) .

لنا الجبَلُ المُطِّل على نِزارٍ حلَلْنا النّجْد منه والهِضابا
يفضّلُنا الأنامُ ولا نُحاشَى ونوصفُ بالجميلِ ولا نُحابى
وقد علِمتْ ربيعَةُ بل نِزارٌ بأنّا الرأس والناسُ الذّنابي
ولمّا أنْ طغَتْ سُفهاء كعْبٍ فتحنا بيْننا للحَرْبِ بابا
منَحْناها الحرائِبَ غيرَ أنّا إذا جارَتْ منحْناها الحِرابا
ولمّا ثار سيفُ الدّينِ ثُرْنا كما هيّجْتَ آساداً غِضابا
أسِنّتُهُ إذا لاقى طِعــاناً صوارِمُهُ إذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسِنّةَ مُشْرَعاتٌ فكُنّا عندَ دعوتِهِ الجوابا
صنائِــعُ فاقَ صانعُها ففاقتْ وغَرْسٌ طابَ غارسُه فطابا
وكنّا كالسّهامِ إذا أصابَتْ مراميها فراميها أصابــا

وكما افتخر أبو فراس بقومه وجيشه فكذلك افتخر بمآثره ومناقبه فقال[1]:

سَلي فتَياتِ هذا الحيّ عَنّي يقُلْنَ بما رأيْنَ وما سمِعْنَهْ
ألَسْتَ أمَدّهُمْ لذويَّ ظِلاً ألسْتَ أعَدّهم للقوم جفْنَهْ
وأثْبَتَهم لدى الحدَثانِ جأشاً وأسرعهُم إلى الفرسانِ طعْنَهْ

ويعدد أبو فراس خصائله الحميدة وسماته الجميلة فيقول[2]:

غيري يغَيّرُهُ الفعالُ الجافي ويحولُ عن شيم الكريم الوافي
لا أرتضي وُدّاً إذا هو لمْ يدُم عندَ الجَفاءِ وقِلّةِ الإنصافِ
تعِسَ الحريص وقلّ ما يأتي به عِوضاً من الإلحاحِ والإلحافِ

---

(١) الديوان (٣ / ٣٩٧) .
(٢) اليتيمة (١ / ٤٨) .

إنَّ الغنيُّ هو الغَنيُّ بنفْسِهِ ولو َانّهُ عاري المناكبِ حافي
ونَعافُ لي طمعَ الحريص فتوَّتي ومروءتي وقناعتي وعفافي
ما كثْرةُ الخيل العتاقِ بزائدي شرَفاً ، ولا عدد السّوام الضافي
خيلي وإن قلّتْ كثيرٌ نَفْعُها بينَ الصّوارمِ والقَنا الرّعافِ
ومكارمي عددُ النجومِ ومنزلي مأوى الكِرام ومنزِلُ الأضيافِ
لا أقتَني لصروفِ دهري عُدَّةً حتّى كأنَّ خطوبَهُ أخلافي
شيَمٌ عُرِفْتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ولقَدْ عرَفْتُ بمثلها أسلافي

وافتخر أبو فراس في شعره فقال [1] :

إذا صُلْتُ يوماً لم أجدْ لي مصاولاً وإنْ قلتُ يوماً لم أجدْ مَن يقاوِلُ

وقال كذلك [2] :

فإذا بطَشْتُ بطَشْتُ ليثاً باسِلاً وإذا نطَقْتُ نطَقْتُ عن تِبْيانِ

واتسم فخر أبي فراس بطابع الصدق وابتعد عن المبالغات إلاّ في القليل النادر ويكاد الشاعر ينفرد بهذه الميزة التي قلما توفرت لشاعر آخر .

ويقول الدكتور شوقي ضيف أن فخر أبي فراس يمتلىء بالحيوية لأنه يصوّرُ واقعاً لا وهْماً من أوهام الخيال [3] .

ويرى الدكتور سامي الدهان أن مفاخر أبي فراس ليس فيها أكثر من الحقيقة فهي سيرة الحمدانيين آبائه وما فعلوه في سبيل الخلافة . يصف كرمهم

---

(١) الديوان (٢ / ٢٩٢) .
(٢) الديوان (٣ / ٤١٥) .
(٣) الفن ومذهبه في الشعر العربي ص (٣٥٢) .

وشجاعتهم وحروبهم ضد الخوارج وانتصاراتهم على القرامطة والثائرين وغزواتهم ضد الروم وتأديبهم القبائل العربية [1] .

وسلك أبو فراس في فخرياته مسلك الأقدمين من الشعراء فاستهل قصيدته بالمقدمة التقليدية ناهجاً نهج القصيدة العربية منذ جاهليتها الا أن مقدماته اختلفت من حيث التخفف من أسماء المواضع والأشخاص والاتصاف بالرقة والسهولة.

وقد جنحت بعض فخريات أبي فراس إلى الطول فقد بلغت رائيته خمسة وعشرين ومائتي بيت وكانت من أطول قصائد الفخر في الشعر العربي ومطلعها

لعَلَّ خيَالَ العامريّةِ زائِرُ فيسعَدَ مهجُورٌ ويسعَدَ هاجِرُ

ويعلل الدكتور مصطفى الشكعة هذه السمة فيرى أنها قد اتخذت نهج الملاحم عند الروم ولا يستبعد أن يكون أبو فراس قد نهج هذا المنهج الملحمي عن قصد لأنه يرتبط بالروم بسبب قريب فهم أخواله وأمه رومية الجنس [3] .

وقد مزج أبو فراس بين الفخر وفنون شعرية أخرى من مثل الحماسة والغزل والحكمة ومما جاء في ديوانه من مزج بين الفخر والغزل قوله[4] :

أحسَنُ من قَهوَةٍ مُعتَّقَةٍ بكَفّ ظَبيٍ مقَرْطَقٍ غَنِجِ
صَوْتَ قِراعٍ في وسْطِ مَعْمَعَةٍ قد صَبَغَ الأرضَ من دمِ المُهَجِ

كذلك ظهر في فخر أبي فراس تأثره بأسلافه من الشعراء من مثل عمرو ابن كلثوم والمهلهل وعنترة والفرزدق وغيرهم ، فهو يكثر من أذكر أسماء

---

(١) مقدمة الديوان ص (١٥) .
(٢) الديوان (٢ / ١٠٣) وما بعدها .
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص (١٧٤) .
(٤) الديوان (٢ / ٥٧) .

الرجال ومواقع القتال ويجعل فخره قومياً أكثر منه ذوويا[1] .

ولفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه مسجّل لأعماله ومآثر قومه وأجداده ولعل من الخير قبل ختام القول عن مفاخر أبي فراس أن نشير إلى فخره الذي صدح به إبّان أسره فلقد كثر في شعره في تلك الفترة الجانب الفخري الذي اضطرمت به نفسه وهو بين براثن الأسر ، وظلّ الغربة .

ولقد اقتصرت مجالات الفخر عنده – بعد أسره – على الفخر بنفسه وشعره – وقلما افتخر بقومه بينما كان هذا الجانب بارزاً في شعره قبل الأسر ولعل سبب ذلك يرجع لتأخر سيف الدولة في افتدائه ومن فخره ببطولته في ميدان الوغى قبل أن يصفد بالقيود قوله[2] :

متى تُخْلِفُ الأيّامُ مثلي لكم فتىً طويلَ نِجادِ السّيفِ رَحْبَ المقلّدِ
متى تَلِدُ الأيّامُ مثلي لكم فتىً شَديداً على البَأساءِ غيرُ مُلَهّدِ

ويمتزج فخر أبي فراس بضروب من الألم والحسرة بعد أن أصبح أسيراً كما في قوله[3] :

تمرّ اللّيالي ليسَ للنّفْعِ مَوْضِعٌ لدَيَّ ولا للمُعْتَقِينَ جَنابُ
ولا شُدَّ ليَ سَرْجٌ على ظهرِ سابحٍ ولا ضربَتْ لي بالعراءَ قِبابُ
ولا بَرَقَتْ لي في اللّقاءِ قَواطِعٌ ولا لمَعَتْ لي في الحروبِ حِرابُ
ستَذْكُرُ أيّامي نُمَيْرٌ وعامِرٌ وكعبٌ على عِلاّتِها وكِلابُ

ويفتخر أبو فراس على الروم ، ويظهر أن سبب ذلك يرجع لمشادة حدثت

---

(١) الفخر والحماسة ص (٣٣) .
(٢) الديوان (٢ / ٧٩) .
(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ (١ / ٥٤ – ٥٥) .

بينه وبين الدّمستقُ ، فقال له الدمستق : إنما أنتم كُتّابَ ولا تعرفون الحرب .
فرد عليه أبو فراس قائلاً : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟
وأنشد قصيدة حقر فيها الدّمستقُ وافتخر بنفسه وقومه فقال :

أتَزْعَمُ يا ضَخْمَ اللّغاديد أنّنا ... ونحْنُ أُسودُ الحربِ لانعرفُ الحرْبا
فويلَكَ مَن للحربِ إن لم نكنْ لها ... ومَن ذا الذي يمسي ويُضحي لها تِرْبا؟
وويلَكَ مَن أردى أخاك بمرعشٍ ... وجلَّلَ ضرباً وجهَ والدكَ العَضْبا
وويلَكَ مَن خلّى ابنَ أُختك موثَقاً ... وخلاّك باللّقّان تبتدرُ الشّعبا
أتوعِدُنا بالحربِ حتّى كأنّنـا ... وإيّاك لم يُعْصَبْ بها قلبُنا عَصْبا
لقدْ جمعَتْنا الحربُ من قبلِ هذهِ ... فكُنّا بها أُسْداً وكنت بها كلبا (١)

ويستطرد أبو فراس مذكراً الامبراطور بقوله : إن العرب ليسوا أهل حرب بل أرباب قلم فيقول :

بأقْلامِنا أجْحَرْتَ أمْ بسُيوفِنا ... وأُسد الشّرى قُدنا إليكَ أمِ الكُتُبا
تركْناكَ في بَطْنِ الفَلاةِ تَجُوبُها ... كما انتفَقَ اليربوعُ يلثَمُ التُّرْبا

ومن أروع ما يمثل فخر أبي فراس الأسير ما جاء في قصيدته الرائية المشهورة والتي صب فيها حر عاطفته ومزج فيها بين الفخر والغزل كقوله :

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شيمتك الصّبرُ ... أما للهوى نَهْيٌ عليكَ ولا أمْرُ
بلى أنا مُشْتاقٌ وعندي لوْعَـةٌ ... ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ لهُ سِرّ
إذا اللّيلُ أضواني بسطْتُ يدَ الهوى ... وأذلَلْتُ دمعاً مِن خلائقِه الكِبْرُ

---

(١) الديوان (٣ / ٣٦ ـ ٣٨) .

تكادُ تضيءُ النارُ بينَ جَوانِحي إذا هيَ أذْكَتْها الصّبابةُ والفكرُ

وبعد هذا الغزل الرقيق يخاطب محبوبته خطاب المحب الواله ثم يخلص إلى الفخر فهو لا يخوض معركة إلاّ والنصر حليفها وإذا نزل إلى ساحة الوغى فإنه لا يقرب الماء إلاّ بعد أن ترتوي السيوف والرماح من دم الأعداء وتشبع الذئاب والنسور من أشلائهم [1] .

وإنّي لجَرّارٌ لكلِّ كَتيبَـــةٍ مُعَوَّدَةٍ ألاّ يُخِلَّ بها النّصرُ
وإنّي لَنَزّالٌ بكــلِّ مَخُوفَةٍ كثير إلى نُزّالها النّظَرُ الشّزرُ
فأظْمَـأُ حتّى ترْتَوي البيضُ والقنا وأسْغَبُ حتى يشبعَ الذّئبُ والنّسرُ

أما مجال فخر الشاعر بشعره وشاعريته إبّان أسره فواضح عند الشاعر فهو يعد قصائد من القلائد الغرّ التي يقلدها أهله [2] :

منَعْتُ حِمى قومي وسُدتُ عشيرتي وقلّدتُ أهلي غِرَّ هَذي القَلائِدِ

وهو يذود عن قومه وعرضهم بلسانه وحسامه [3] :

يُطاعِنُ عَنْ أعْراضِكُمْ بلسانه ويضرُبُ عنكُمْ بالحُسامِ المُهَنّدَ

ولقد اتسم أبو فراس في أسره بطابع الحنين إلى أيام العز الخوالي كما اصطبغ بالحزن والألم ، وإذا كان فخره يبتعد عن الغلو قبل أسره فإنه كان أكثر صدقاً وأقرب إلى الواقع في الأسر لأنه يعبر عما يجيش في صدره من لواعج الألم وما تحس به نفسه من مرارة الأسى .

---

(1) الديوان (٢ / ٢١٢) .
(2) المصدر نفسه (٢ / ٣٨) .
(3) المصدر نفسه (٣ / ٤٠٩) .

ولقد امتزج فخر أبي فراس بعد أسره بالفنون الشعرية الأخرى من غزل وعتاب وشكوى واستعطاف وما إلى ذلك . وانتشرت في فخرياته بعض أبيات الحكمة .

وأبو الطيب المتنبي من شعراء بلاط سيف الدولة الذين برعوا في الفخر كثرة وقوة . ولعله في فخره كان يُرضي غروره ويشفي ألم نفسه وحقدها على الزمان والناس وإنّ فخره ليكشف لنا عن نفس لازمها وسواس داخلي بضَعَةٍ موروثة تصورتْ أنها مضطهدة فإذا بها تتعالى وتتعاظم لتقهر الشامتين وتنتصر على الحاسدين الراغبين في إذلالها .

ولقد زعم المتنبي أن الناس جحدوا فضله فلم يرفعوه إلى المكانة التي يستحقها ، من مُلك ، أو ولاية ، فلذلك كان فخره يخفف الأمر على نفسه بترداد محاسنها أو بذم الزمان والناس ، أو بإظهار الصبر والاستهانة بالحوادث ولقد عبر عن ذلك بقوله :

أيَّ عَظيمٍ أتّقي ؟ أيَّ مكانٍ أرْتَقي ؟
وكلّ ما قَد خلَقَ الـ ـلهُ وما لمْ يخلُقِ
مُحْتَقِرٌ في هِمّتي كشَعرةٍ في مفرِقي[1]

ولقد آمن المتنبي بالقوة إيماناً عميقاً ورأى أنها الطريق الوحيد لتحقيق الرّغاب ونيل الطلاّب .

مَنْ أطاقَ التماسَ شيءٍ غِلابا واغْتصاباً لمْ يلتمِسهُ سُؤالا

وفي سبيل المجد تهون الأخطار وتستلذّ المشقات[2] .

---

(١) ديوان المتنبي (٢ / ٣٤١) .
(٢) الديوان (٣ / ١٧٤) وما بعدها شرح العكبرى .

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ... ولا ينالُ العلا من قدَّم الحذرا
ومن أرادَ العُلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا
لا بُدَّ للشهْدِ مِنْ نحلٍ يمنّعهُ ... لا يجتني النفعَ مَنْ لمْ يحمل الضررا

ويفتخر المتنبي بالشجاعة وخوض المعامع وضرب أعناق الرجال وقد بلغت قصائده في هذا المجال مبلغاً رائعاً[1].

أُطاعِنُ خيلاً من فوارسِها الدَّهْرُ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشْجَعُ مني كلَّ يومٍ سلامتي ... وما ثبتَتْ إلاّ وفي نفسها أمْرُ
تمرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها ... تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِر الذُّعْرُ
وأقدَمتُ إقْدامَ الأبيّ كأنَّ لي ... سوى مهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ
ذرِ النفسَ تأخذ وسْعَها قبل بينها ... فمفترقٌ جاران دارهُما العُمْرُ
ولا تحسبنَّ المجدَ زِقاً وقَيْنَةً ... فما المجْدُ إلاّ السيف والفتكةُ البكرُ
وتضريبُ أعناقَ الملوكِ وأن تُرى ... لك الهبَواتُ السُّودُ والعسكر المَجْرُ[2]
وتَرْكُكَ في الدُّنيا دوياً كأنما ... تداولَ سمع المرء أنمُلُهُ العَشْرُ

كما يفتخر بعزة نفسه وقدرته على مجابهة الصعاب وتحمل المشاق ومحافظته على السر وعدم إذعانه للغيد الحسان فيقول :

وإنّي لنجمٌ تهتدي صحبتي بـه ... إذا حالَ مِن دون النجومِ سحابُ
غنيٌّ عَنِ الأوطانِ ، لا يَستخفُّني ... إلى بلدٍ سافرتُ عنهُ إيـابُ
وعَن ذملانَ العيسِ ، إن سامحتْ به ... وإلاّ ففي أكوارهنَّ عقابُ[3]

---

(١) الديوان (٤ / ١١٩) .
(٢) الهبوات : الغبار العظيم .
(٣) الذملان : ضرب من السير ، والعيس : الابل . الاكوار : جمع كور وهي الرحل . والعقاب : الطائر المعروف .

وأصدى ، فلا أبْدِ إلى الماء حاجةً   وللشمس فوق اليعْملاتِ لُعابُ[1]
وللسّرّ منّي موضع لا ينالُه   نديمٌ ، ولا يُفضي إليه شرابُ
وللخَوْدِ منّي ساعةٌ ثمّ بيننا   فَلاةٌ إلى غير اللّقاءِ تُجابُ[2]

ولقد افتخر المتنبي بشعره وشمخ بأنفه إلى أعنان السماء ونظر إلى الشعراء باحتقار وازدراء وادعى أنهم لا يستطيعون الإنشاد أمامه فقال :

لا تجْسُرُ الفصحاءُ تنشدُها هنا   بيتاً ولكنّي الهَزبرُ الباسِلُ
ما نالَ أهلُ الجاهليّةِ كلهم   شعري ولا سامت بسحْري بابلُ

والدهر من رواة قصائد الشاعر وبه يصدح من لا يعرف الغناء :

وما الدهْرُ إلاّ مِن رُواةِ قصائدي   إذا قلتُ شعْراً أصبح الدّهرُ مُنشدا
وسارَ بهِ من لا يسيرُ مشمّرا   وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

ويخاطب الأمير طالباً منه أن يغدق عليه العطاء لأن الشعراء صدى لصوته وانعكاس لنشيده :

أجِزْني إذا أنْشِدْتَ شعراً فإنما   بشعري أتاك المادحونَ مردَّدا
ودعْ كلّ صوت غيرَ صوتي فإنني   أنا الصائحُ المحكيُّ والآخرُ الصّدَى

ولقد وصلت قيمة شعره إلى درجة لا يخفى معها إلاّ على الغبي الأعمى :

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زوحمتْ   وإذا نطقتُ فإنني الجَوْزاءُ
وإذا خَفيتُ على الغبيّ فعاذِرٌ   ألاّ تراني مُقْلَةٌ عَمْياءُ

---

(١) اليعملات : النياق النجيبة المحتملة المطبوعة على العمل .
(٢) الخود من النساء : الشابة الناعمة . تجاب : تقطع .

بل إن أدبه يراه الأعمى ويسمعه الأصم :

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعَتْ كلماتي مَن به صممُ

وهو في سماء الشعر مليكٌ وشمسٌ والدنيا فلك [1] :

إنَّ هذا الشِّعر في الشِّعْرِ ملَكْ سار فهو الشمسُ والدّنيا فلَكْ
عدل الرَّحْمَنُ فيـهِ بيننـا فقضى باللّفظ لي والحمدِ لكْ
فإذا مَرَّ بـأُذنيْ حـاسِـدٍ صار ممّنْ كانَ حيّاً فهلَكْ

وقد شرَّق شعره وغرَّب ولم يقف في سبيله عائق :

فشرَّق حتى ليس للشرْقِ مَشرِقٌ وغرَّب حتى ليس للغربِ مغرِبُ
إذا قلتُـهُ لم يمتنع من وصولِهِ جِدارٌ معلّى أو خِباءٌ مطنَّبُ

وشعره درٌّ منثور ينظمه :

لكَ الحمدُ في الدّرّ الذي لي لفظهُ فإنّك مُعطيه وإنّيَّ ناظِمُهُ

وهو يزهى بشعره ويعجب بنفسه :

إن أكنْ مُعجَباً فعُجبي عجيبٌ لم يَجِدْ فوقَ نفسه من مَزِيدِ
أنا تِرْبُ الندى وربُّ القوافي وسِمامُ العِدا وغيظُ الحسودِ

ويمكننا القول بأن الفخر يغلب على قصائد أبي الطيب ، سواء أكانت مدحاً أم رثاء أم غزلاً ، فهو لا يرى حرجاً في أن يقول خلال رثائه لوالدة سيف الدولة :

---

(١) الديوان (٢ / ٣٨٤) .

رماني الدَّهْرُ بالأرزاء حتّى فؤادي في غِشاءٍ لمن نِبالِ
فصِرْتُ إذا أصابتْني سِهامٌ تكسَّرَتِ النّصالُ على النصالِ
وهانَ فما أبالي بالرزايا لأنّي ما انتفعتُ بأن أبالي

فهو يقف متعالياً متشامخاً كأنه يشاهد المأساة مشاهدةً من الخارج وليس يعانيها معاناة من الداخل .

ويظهر هذا الجانب واضحاً في رثائه لجدته فهو يضفي على نفسه العظمة حتى ارتدّت منه إلى جدّته ، وهو لا يعظم غير نفسه ولا يخضع إلاّ للخالق[1] :

ولوْ لمْ تكوني بِنْتَ أكرَمِ والِدٍ لكان أباكِ الضّخمَ كونُكِ لي أمّا
لئِنْ لذّ يومُ الشامتينِ بيَوْمِها فقد وَلَدت منّي لأنفِهِم رغْما
تغَرَّبَ لا مُستَعظِماً غيرَ نفْسِهِ ولا قابلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْما

ولقد استطرد الشاعر في الفخر ومضى في زهوه وتفاخره حتى تحولت القصيدة إلى الفخر المباشر :

يقولونَ لي ما أنْتَ في كلّ بلدةٍ وما تبتغي ؟ ما أبتغي ، جلّ أن يُسمى
وإنّي لمنْ قَوْمٍ كأنَّ نُفُوسهُمْ بها أنَفٌ أن تسكنَ اللحْمَ والعظما
كذا أنا يا دنيا ، فإن شئتِ فاذْهَبي ويا نفسُ زيدي كرائهها قُدْما
فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزّني ولا صَحِبتْني مهجَةٌ تقبلُ الظلمَا

ولقد طرق أغلب الشعراء الحمدانيين باب الفخر ولكن أغلبه جاء أبياتاً منثورة ضمن قصائد قيلت في أغراض أخرى ومثال ذلك قول أبي العباس الناشيء يخاطب سيف الدولة مفتخراً بشعره .

---

(١) الديوان (٤ / ١٠٧ ــ ١٠٩) .

يتحيّرُ الشعراءُ إنْ سمعوا بهِ في حُسْنِ صنعتهِ وفي تأليفِه
فكأنّهُ في قُرْبَةِ مَنْ فَهْمِهم ونكولهمْ في العجزِ عن ترصيفهِ
شَجَرٌ بَدا للعينِ حُسْنَ نَباتِهِ ونأى على الأيدي جنى مقطوفِهِ
فإذا قرنْتَ أبيَّهُ بمُطيعِهِ وقرَنْتَهُ بغريبِهِ وطَريفِهِ
ألْفَيْتَ معناه يطابقُ لَفْظَهُ والنّظْمُ منهُ جَليّهُ بلَطيفِهِ
فأتاهُ مُتّسِقاً على إحْسانِهِ قد نيطَ منهُ رَزينُهُ بخَفيفِهِ
هذّبْتهُ فجعَلْتَهُ لكَ باقياً ومنعتُ صرْفَ الدّهر عن تصريفهِ[1]

ويفتخر كشاجم الشاعر الكاتب بأقلامه التي يتخذها بمثابة الرماح ومدادهن بدل دم الجراح[2] :

وإذا تَشَاجَرَتِ الرّما حِ فإنّ أقلامي رماحي
يمزُجْنَ نَفْحَ مِدادِهِ نّ بمستعاض دمِ الجِراحِ
وإذا تعلّقتَ الأمُو رُ حكمْنَ فيها بانفتاحِ

وقوافيه كأنها عقود الدّرّ المنظوم ، سارت في الآفاق[3] :

وقوافٍ كأنّهنّ عقود الدّ رِّ منظومةً على الأعناقِ
غُرَرٌ تُظْهِرُ المسامعُ تيهاً حينَ يسْمَعَنها على الأحداقِ

ويفتخر السري الرفاء بشعره الذي أفنى فيه شبابه واعتصر ذهنه :

---

(۱) زهر الآداب ص (٦٨٥) .
(۲) ديوان كشاجم المخطوط ص (۲۷) .
(۳) المصدر نفسه ص (۱۰۷ ــ ۱۰۸) .

أغربت في تحبيره فرواتــه   في نزهة منهُ وفي استغراب[1]
وقطعتْ فيهِ شبيبة لم تشتغل   عن حسنه بصبا ولا بتصابي
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه   عبق النسيم فذاك ماء شبابي

ويخاطب ابنُ نباتة سيف الدولة منوهاً بجودة شعره[2] :

ما أبتَغي غيري إليكَ وسيلةً   إني بفضلكَ والقوافي واثقُ
لا تحْسَبَنّي كالذينَ رأيتَهُم   ألعيُّ أفصحُ والتَمَهّلُ شائقُ

ويسير ابن نباتة في فخره على خطى المتنبي فيسلك طريقه وينهج نهجه فيمزج بين المدح والفخر ويشيد بشجاعته في قصيدة مدح بها سيف الدولة حيث يقول :

إذا ما هَزَزْتَ الصارم ابنُ نُباتَة   فصمّم بهِ إنّ الحُسامَ عَتيقُ
فلو شئتُ عَلّمْتُ المكارم شيمتي   ولكنّني بالمَكْرُماتِ رَقيقُ
أخافُ عليها أنْ تَجُودُ بنفسها   إذا ما أتاها في الزّمانِ مُطيقُ[3]

وهكذا يتضح لنا أن الفخر كان أحد الفنون التي ازدهرت في رحاب سيف الدولة الحمداني وكان فارساه أبا فراس وأبا الطيب المتنبي ، وأن فخر أبي فراس كان ترجمان نفسه وكان صادقاً قريباً إلى الحقيقة والواقع حيث نقل به أحاسيسه وصوّر حاله ، أما المتنبي فلقد كان فخره يدور حول أحاسيسه النفسية ويعبر عن ثورة داخلية عميقة ولقد كان شعوره النفسي بهذا قوياً عنيفاً فجاء تصويره دقيقاً صادقاً حافلاً بالصور الجميلة الممتعة والبديع الرائع والخيال الخصيب .

---

(١) نزهة : بعد .
(٢) ديوان ابن نباتة المخطوط ص (٤) .
(٣) المصدر نفسه .

الرثاء

الرثاء من الموضوعات الشعرية البارزة في رحاب سيف الدولة الحمداني وإن كان أغلب ما قيل منه لم يصدر به الشعراء عن قلوب موجعة وإنما كان أداء للواجب وإرضاء للأمير . فلذلك صدر هذا الشعر الرائي عن أفكارهم وعقولهم أكثر مما صدر عن عواطفهم وقلوبهم .

وخير ما يمثل ذلك أبو الطيب المتنبي الذي ساق الحكم في رثائه تعزية للأمير ونظم ست مراث قالها لسيف الدولة ، إذ رثى فيها أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه يماك .

ويرى الدكتور طه حسين أن هذه القصائد إن كانت لا تخلو من جيد الشعر وكانت رائعة فليست هي خير ما قال المتنبي في الرثاء ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبي قال أكثرها أداء للواجب ونهوضاً بالحق ، لا استجابة للعاطفة ، ولا إعراباً عن الضمير . ولا تكاد نستثني منها إلا القصيدة التي رثى فيها خولة أخت الأمير [1] . وإننا لنقرأ رثاءه فلا نحس تلك الحرارة التي يولدها الموت في النفوس أو يوقدها الحزن في القلوب ولا تلك اللوعة المتأججة بين الجوانح ، ولا نشعر مطلقاً بأن الألم قد عرف إلى نفسه سبيلاً [2] .

---

(١) مع المتنبي ــ الدكتور طه حسين ص (٣٠٤) .
(٢) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ــ الدكتور عبد السلام سرحان ــ رسالة مخطوطة ص (٤٩١) .

ولقد رثى المتنبي أم سيف الدولة في السنة التي اتصل بها فيه . فرثاها الشاعر بقصيدته اللامية واستهلها بمجموعة من الحكم عن الموت وكيف أنه يخطف الأحياء بسهولة ويسر دون قتال أو حرب ويتحدث عن خيانة وغدر الدنيا بالأحياء والخلاّن (١) .

نُعِدُّ المَشْرِفِيّةَ والعَوالي ... وتقتلنا المَنُونُ بلا قتالِ (٢)
ونَرْتَبِطُ السّوابقَ مُقْرَباتٍ ... وما يُنجينَ من خَبَبِ اللّيالي
ومن لم يَعْشَقِ الدّنْيا قديماً ؟ ... ولكن لا سبيل إلى الوِصالِ
نَصيبُكَ في حياتك من حبيبٍ ... نصيبُكَ في منامك من خَيالِ

ويستطرد المتنبي فيُعظم ميتة الفقيدة لجلالها :

وهذا أولَ النّاعينَ طُرّاً ... لأولِ ميتةٍ في ذا الجَلالِ
كأنّ الموتَ لم يفجَعْ بنفسٍ ... ولم يخطُرْ لمَخْلوقٍ ببالِ
صلاةُ اللهِ خالِقِنا حنوطٌ ... على الوجْهِ المكفَّنِ بالجمالِ
على المدْفونِ قبلَ التّرْبِ صَوْناً ... وقبلَ اللّحْدِ في كرمِ الخِلالِ
فإنّ لهُ ببطنِ الأرضِ شخصاً ... جديداً ذكرناهُ وهْوَ بالي
وما أحَدٌ يخلّدُ في البَرايا ... بلِ الدّنيا تؤولُ إلى زوالِ

ويرى طه حسين أن في قوله « ذكرناه » سماجة لفظية فهذا الكلام إن أقره النحو لا يقبله الشعر ولا يليق به أن يذكر البلى والانحلال لجسم الأميرة الأم وهو يعزي ابنها (٣) .

---

(١) ديوان المتنبي ــ شرح العكبرى (٣ / ٨) وما بعدها .
(٢) المشرفية : السيوف ، العوالي : الرماح ، المنون : المنية وقيل الدهر ومن ثم يؤنث ويذكر ويكون واحدا وجمعا .
(٣) مع المتنبي ص (٢٠٨) .

ويظهر الشاعر ألمه لفقدان الأميرة ويتساءل عن المجد الذي لفّه الرّدى وطواه العدم :

أسائلُ عَنْكِ كلَّ مَجْدٍ   وما عهْدي بمجدٍ منك خالي
يمُرّ بقبركَ العاني فيَبْكي   ويشغُلُهُ البُكاء عن السّؤالِ

ويفضل المتنبي الأميرة على كثير من الرجال ويحتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة فالشمس مؤنثة وهي تفضل الهلال بضوئها الذي يغمر الآفاق :

ولو كانَ النساءُ كمن فقدْنا   لفضلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشّمس عيبٌ   ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ماتت أخت سيف الدولة الصغرى فعزّاه المتنبي بقصيدة حافلة بالحكم المبثوثة والألوان الفلسفية التي فتحت لأبي العلاء باباً من أبواب الفلسفة والتفكير [1] . واصطبغ رثاؤه بألوان لم تكن معهودة للعرب فقال :

ولذيذ الحياة أنفسُ في النّفْسِ   وأشْهى من أن يملّ وأحْلى
وإذا الشيخُ قال أُفٍ فما مَلَّ   حياةَ وإنما الضّعفُ مَــلاّ
آلةِ العيشِ صحّةٌ وشبابٌ   فإذا ولّيا عن المرْءِ ولّى
أبداً تستردّ ما تهَبُ الــدّنْــيا   فيا ليت جُودها كان بُخْلا
فكَفَت كونَ فرحةٍ تورثُ الغَمّ   وخِلّ يغادرُ الوجْدَ خَلّاً [2]

---

(١) مع المتنبي ص (٢١١) .
(٢) الوجد : الحزن ، الخل ، الخليل .

وهيَ معشوقةٌ على الغدْرِ لا تحْـ ـفَظُ عهداً ولا تُتَمِّمُ وَصْلا
شِيَمُ الغانياتِ فيها فما أدْ ري لذا أنّثَ الناس اسمها أم لا

وعندما ماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التي كانت تعرف بست الناس سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة وكان المتنبي حينئذ في الكوفة رثاها الشاعر بقصيدة رائعة تعد أجمل رثاء قاله لسيف الدولة وأنفذها إليه .

ولقد اختلف النقاد اختلافاً كبيراً في الرأي حول هذه القصيدة .

وسبق لنا أن بسطنا القول حول هذا الموضوع وعرضنا لآراء مَن زعموا أن المتنبي كان محباً لأخت سيف الدولة وملنا إلى القول بأن هذا رأي باطل وأن هذه القصيدة لا تدل على صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبي والفقيدة . وكل ما يفهم منها أن الأميرة خولة كانت من المعجبين بشعر الشاعر وأنها كانت تمنحه بعض المنح والعطايا . والشاعر يتحدث عن أنها برته وأحسنت إليه عن بعد كما كانت تحسن إلى غيره من الأدباء فعبر عن شكرانه حيث قال [1] :

يا أختَ خير أخٍ يا بنْتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النّسَبِ
أُجِلّ قدركِ أنْ تُمْسي مُؤبّنَةً ومَنْ يصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَبِ
لا يملِكُ الطّرَبُ المحزونِ منطقَهُ ودمْعَهُ وهما في قبْضَةِ الطّرَبِ
غَدَرْتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عددٍ بمن أصبْتَ وكم أسكَتَّ من لجِبِ
وكم صَحبْتَ أخاها في منـازِلِهِ وكم سألتَ فلمْ يبخلُ ولم تخِبِ

وقد نزل عليه خبر موتها ، وهو بالكوفة كالصاعقة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خَبَرٌ فزعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتّى إذا لم يدعْ لي صِدقُه أمَلاً شرِقتُ بالدّمع ، حتى كاد يشرق بي

---

(١) ديوان المتنبي ـــ شرح البرقوقي ص (٢١٥ ـــ ٢٢٥) .

ثم يستطرد الشاعر فيصور اشتراكه في الحزن واللوعة بألفاظ رقيقة عذبة كما يشير إلى أخلاق الفقيدة وبرّها للناس بالهبات والعطايا فيقول :

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مذْ نُعيتْ فكيفَ ليلُ فتى الفتيانِ في حلَبِ ؟
يظُنُّ أنَّ فؤادي غيرُ ملْتَهِبٍ وأنّ دمعَ جفوني غيرُ منسكِبِ
بلى وحُرْمَةِ من كانت مراعيَةً لحُرمَةِ المَجْدِ والقُصّادِ والأدبِ
ومن مَضَت غير موروثٍ خلائقها وإن مضتْ يدُها موروثة النّشبِ[1]
وهمّها في العُلا والمُلْكِ ناشئةً وهَمّ أترابها في اللّهوِ واللّعبِ[2]

ويشيد المتنبي بمكانتها ويذكر قبيلتها ويفضلها عليها ويشبهها بالشمس الغاربة فيقول :

فإنْ تكنْ خُلِقت أنثى لقد خُلقتْ كريمةً غير أنثى العقلِ والحسَبِ
وإن تكن تغلُبُ الغَلْباء عنصرُها فإنَّ في الخَمْرِ معنىً ليس في العنبِ
فليتَ طالعَةَ الشمسينِ غائبَةٌ وليتَ غائبَةُ الشّمسينِ لم تغبِ
وليت عينَ التي آبَ النّهارُ بها فِداءَ عينِ التي زالتْ ولمْ تؤبِ

ويعزي المتنبي سيف الدولة في أخته الكبرى ويذكره بفقيدة الأعوام الماضية أخته الصغرى فيقول :

قد كان قاسمَكَ الشّخصينِ دهرهما وعاش درُّهما المفديُّ بالذّهبِ[3]
وعادَ في طلَبِ المَتروك تاركُهُ إنّا لنغْفُلُ والأيّامُ في الطّلَبِ

---

(١) الخلائق : جمع خليقة بمعنى الخلق ، والنشب : المال .
(٢) اترابها : لداتها ونظيراتها في العمر .
(٣) يريد بالشخصين ــ اختيه ــ ماتت احدهما وهي الصغرى وبقيت الكبرى ، فكانت كدر فدي ــ بذهب ــ جعل الكبرى كالدر، والصغرى كالذهب .

ما كان أقصرَ وقْتاً كان بينهما   كأنه الوقتبين الوِرْدِ والقَرَبِ[1]

ويخلص إلى الحكمة والفلسفة فيقول :

تخالَفَ الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم   إلاّ على شجَبٍ والخُلْقُ في الشّجبِ
فقيلَ تخلُصُ نفسُ المرءِ سالمَةً   وقيل تَشرُكُ جسمَ المرءِ في العَطبِ
ومن تفَكّرَ في الدّنْيا ومُهْجتَهُ   أقامه الفِكرُ بينَ العَجْزِ والتّعبِ

ومات لسيف الدولة طفل،وهو أبو الهيجاء عبد الله سيف الدولة فرثاه المتنبي في قصيدة شحّ فيها الشعور ومطلعها :

بنا منكَ فوقَ الرَّملِ ما بكَ في الرَّملِ   وهذا الذي يُضْني كذاكَ الذي يُبلي
كأنّكَ أبصرتَ الذي بي وخِفْتَه   إذا عشتَ فاخترتَ الحِمام على الثكلِ

ولم يوفق المتنبي في مطلع قصيدته إذ استهلها بذكر البلى والانحلال الذي سيصيب الابن في قبره وهذا أمر صعب على نفس والده الذي يكن له المودة والحب وإذا كان المتنبي لم يوفّق في مطلع قصيدته فإنه وفق إلى استنباط معان جديدة وعميقة كقوله :

فإنْ تكُ في قبرٍ فإنّكَ في الحَشَا   وإنْ تكُ طفلاً فالأسى ليس بالطفلِ
ومثلُكَ لا يُبكى على قَدْرِ سِنّه   ولكن على قدْرِ المَخيلة والفَضْلِ

ويمزج الشاعر الرثاء بالمدح إذ يخاطب الأمير قائلاً :

---

(١) الورد : اتيان الابل الماء ، والقرب : سير الليل لورد الغد وذلك ان القوم يرعون الابل وهم في ذلك يسيرون نحو الماء ، فاذا بقيت بينهم وبينه عشية عجلوا نحوه فتلكالليلة ليلة القرب ويقول ان اجليهما كانا متقاربين حتى أن المدة التي بينهما كانت لقصرها كأنها المدة بين الورد والقرب وهي ليلة .

عزاءكَ سيفَ الدولة المقتدى به   فإنك نصْلٌ والشدائد للنصْلِ
ولم أرَ أعصى منك للحزن عبرةً   وأثبتَ عقلاً والقلوب بلا عقلِ

ويخلص المتنبي إلى الحكمة والفلسفة كشأنه في بقية قصائد الرثاء فيتحدث عن الدهر وقسوته وعدم الأمل به فيقول :

إذا ما تأمّلْتَ الزّمانَ وصرْفَهُ   تيقّنْتَ أنّ الموتَ ضرْبٌ من القتْلِ
وما الدّهْرُ إلاّ أن تُؤمّلَ عنْـدَهُ   حياةٌ وأن يشتاق فيهِ إلى النسْلِ

ولقد رثى المتنبي جدته التي هي بمثابة الأم له إذ ماتت أمه وهو حدَثٌ فتعهدته جدته بعطفها وأظلته بحنانها وحدبت عليه حدباً أنساه أحزانه وكانت هذه الجدة تشتاق للمتنبي وتتسقط أخباره بعد أن طوّفَ بالبلاد وتقاذفته الفلوات وأرسل إليها كتاباً يستدعيها فأمعنت فيه تقبيلاً وفرحت به وغلب عليها السرور فحمّتْ لوقتها فماتَتْ فأرسل في رثائها قصيدة غلب عليها الفخر والتهديد والوعد والوعيد وليس الرثاء محلها ولا الكلام فيه موطنها . ولقد كان الموقف يقتضيه أن يتناول هذا الموضوع بشيء من العناية وبسط القول والتهويل بعظم المصيبة وإعلان الفجيعة والحسرة الممزوجة باللهفة والأسى ولكنّ أبا الطيب عزفت نفسه عن تلك الأمور .

وفي مطلع قصيدته يحمل المتنبي على الأحداث حملة شديدة وقد عنى بها الدهر – فهو لا يملك الضرّ أو النّفع – ويحنّ إلى كأس الموت الذي شربته جدّته وإلى التراب الذي ضمها ويضمها بالكرم والفضل فيقول :

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذماً   فما بطشها جهلاً ولا كفّها حلما [1]

---

(١) الاحداث : نوب الدهر ومصائبه .

إلى مثل ما كانَ الفتى مرجعُ الفتى ... يعود كما أبدى ويُكري كما أرمى[1]
لكَ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبهـا ... قتيلةَ شوقٍ غيرِ مُلحقها وصْما
أحنّ إلى الكأس التي شرِبَتْ بهـا ... وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمّا
بكيْتُ عليها خيفةً في حياتهـا ... وذاقَ كلانا ثُكل صاحبه قِدْما
ولو قتَلَ الهَجرُ المحبين كلّهم ... مضى بلدٌ باقٍ أجدّتْ له صَرْما
عرَفْتُ الليالي قبلُ ما صنعْتَ بنا ... فلمّا دهتْني لم تزدْني بها عِلْما

وينتقل المتنبي إلى تصوير قصة موت جدّته تصويراً رائعاً فيقول :

أتـاها كتابي بعد يـأسٍ وترْحةٍ ... فماتتْ سروراً بي فمُتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلْبي السرورُ فإنّني ... أعُدّ الذي ماتت به بعدها سُمّا
تعجّبُ من خطّي ولفظي كأنها ... ترى بحروفِ السّطرِ أغربةً عُصْما
وتلْثُمُه حتى أصار مـداده ... محاجِرَ عيْنَيها وأنْيابِها سُحْما
رَقا دمْعُها الجاري وجفّتْ جفونها ... وفارق حُبّي قلبها بعدما أدْمى
ولم يُسْلِها إلاّ المَنايـا وإنّمـا ... أشَدُّ من السّقمِ الذي أذهبَ السقما

ويصور المتنبي تجواله في البلاد ويطلب المغفرة لجدته ويبدي الأسى لعدم تقبيله رأسها وصدرها ولكنه يمزج بين الرثاء والفخر فيقول :

فأصبحت أستسقي الغمامَ لقبرها ... وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصّما[2]
وكنتُ قُبيَل الموت أستعظمُ النّوى ... فقد صارت الصّغرى التي كانت العظمى
وما انسدّتْ الدّنْيا على لضيقِها ... ولكنّ طَرْفاً لا أراكِ بهِ أعمى

---

(١) أكرى الشيء : نقص ، أرمى : أربى وزاد .
(٢) الغمام : السحاب ، القنا : الرماح ، الصم : الصلاب .

فواأسفاهُ ألاّ أكُبَّ مُقَبِّلاً لرأسكِ والصَّدْرِ اللذي مُلئا حزما
وألاّ ألاقي روحَكِ الطيِّبِ الذي كأنَّ ذكيَّ المسْكِ كان له جسْما

وينتقل المتنبي إلى الفخر بنفسه فيعدد مناقبه ويشيد بشجاعته ويظهر محاسنه ويستطرد في الفخر إلى نهاية القصيدة وينسى أن موضوع القصيدة رثاء .

ونحن لا نقر مثل هذا النهج الذي خرج به على قواعد الرثاء ،فقصيدته في رأينا بارعة المطلع جيدة التصوير إلاّ أنها مشوهة لهذا المزج الذي أولع به المتنبي وحرص دائماً عليه حيث يقول :

ولو لمْ تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكَ الضخمَ كونك لي أمّا
لئنْ لَذَّ يومُ الشامتينَ بيومها فقد ولَدْتَ منّي لأنفِهم رغْما [1]
تغرَّبَ لا مستعظِماً غير نَفْسهِ ولا قابِلاً إلاّ لخالقِهِ حُكْما
ولا سالكاً إلاّ فؤادَ عجاجَةٍ ولا واجداً إلاّ لمكرمةٍ طَعْما
يقولونَ لي ما أنتَ في كلّ بلدةٍ وما تبْتغي ما أبْتغي جَلَّ أن يُسمى

ومن الشعراء الذين برزوا في الرثاء أبو فراس الحمداني الذي اقتصر في رثائه على أقاربه فقط . فقد رثى أخته وابن عمه أبا وائل تَغَلّب بن داود وأبا المُرَجّى بن ناصر الدولة وأبا العشائر ولهذا يمكن القول بأن رثاءه كان صادراً عن عاطفة صادقة . فصلة المرثي القوية بالشاعر تدفعه إلى إجادة التعبير عن الحزن وتصوير اللوعة والأسى كقول أبي فراس في رثاء ابنه الذي رزىء به فكان وقع المصيبة شديداً عليه وتمنّى لو استطاع أن يفديه بنفسه وفي ذلك يقول :

أعْزِزْ عليَّ بأن يبيتَ موَسَّداً وأبيتُ أنْدُبُهُ مع الإخوانِ

---

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٤١٦) .

ولقد وددْتُ بأن أكون مكانه   تحت التراب وأنْ يكونَ مكاني

ورثى أبو فراس أخته وكان خير من رثى أختاً له إذ ندر أن نجد رثاء حاراً لأخ في أخته وتجلى الوفاء في مرثيته حين تمنى أن يموت قبل أن يأتيه أجَلُه لأن أخته قضت نحبها وذلك في قوله [1] :

عَقيلتي استُلِبَتْ من يدي   ولمّا أبِعْها ولمّا أهَبْ
وكنتُ أقيكِ إلى أن رمتْكِ   يدُ الدهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلِمَتْ مُقْلةٌ لم تسحَّ   ولا بقيتْ لِمّةٌ لم تشِبْ
يعزّون عنك وأينَ العزاء ؟   ولكنها سُنَّةٌ تُستحبْ
ولو رُدَّ بالرّزْءِ ما تستحق   لما كان لي في حياة أرَبْ

ورثى أبو فراس أبا العشائر حين مات أسيراً ببلاد للروم بمقطوعة قصيرة ظهر فيها الإخلاص والود [2] :

أأبا العشائرِ لا محلّكَ دارسٌ   بينَ الضلوعِ ولا مكانك نازحُ
إنّي لأعلَمُ بعدَ موتكَ أنّه   ما مرَّ للأمراء يومٌ صالحُ

ورثى ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود في قصيدة حزينة فقال [3] :

كأنّما دَمْعيَ من بَعْــدِهِ   صَوْبُ سحابٍ واكفٍ وابِلِ

ويتحدث عن مناقب ابن عمه وخلاله وينحو في ذلك مَنْحى أسلافه من الشعراء الجاهليين وغيرهم فيقول :

---

(١) المصدر نفسه (٢ / ٤٢) .
(٢) ديوان ابي فراس (٢ / ٦٤) .
(١) المصدر نفسه (٢ / ٢٦٧ ــ ٢٧٧) .

مـــا أنـــا أبكيه ، ولكنّما تبكيه أطرافُ القنا الذوابلِ
ذانٍ إلى سُبُلِ النّدى والعُلا ناءٍ عنِ الفحْشاء والباطلِ
أرى المعالي إن قضى نحبَهُ تبكي بُكاءَ الوالهِ الثّاكلِ
الأسَدَ الباسِلَ والعارضَ الـ هاطل عنْدَ الزّمن الماحِلِ

وكتب إلى سيف الدولة يعزيه عن أخته وذلك في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وأبو فراس أسيرٌ بالقسطنطينية وقد أتاه نَعيْها ورأى في موتها حادثاً جلَلاً أصاب سيف الدولة فمزج بين المدح والرثاء في قوله[1] :

أوصيكَ بالحُزْنِ لا أُوصيكَ بالجلدِ جَلّ المُصابُ عنِ التّعنيفِ والفنَدِ[2]
إنّي أُجِلُّكَ أن تُكفى بتَعْزِيَةٍ عن خيرِ مفتقَدٍ ،يا خيرُ مُفْتَقِدِ

ويبدو الحزن والأسى واضحاً في مرثيته هذه حيث يقول :

هي الرّزِيّةُ إن ضنّتْ بما ملَكتْ منها الجُفون فما تسخو على أحدِ
بي مثلُ ما بكَ من حزْنٍ ومن جزَعٍ وقد لجأتُ إلى صبرٍ فلم أجِدِ
لم ينقُضَنّيَ بعدي عنك من حَزَنٍ هي المُواساةُ في قُرْبٍ وفي بُعُدِ
لأشركَنّكَ في اللاواءِ إن طرقَتْ كما شركتُكَ في النّعماءِ والرّغَدِ

وتتردد مظاهر الألم العميق وتنطلق حسرات الشاعر من أعماق نفسه فيقول :

أبكي بدَمعٍ لهُ من حسرتي مَدَدٌ وأستريح إلى صبرٍ بلا مدَدِ
ولا أسوّغُ نفسي فرحَةً أبـــداً وقد عرفْتُ الذي تلقاه من كَمَدِ
وأمْنَعُ النومَ عيني أنْ يُلِمّ بهـــا عِلْماً بأنكَ موقوفٌ على السّهَدِ

(١) ديوان أبي فراس ص (٧٥) .
(٢) الفند : الخطأ في الرأي .

يا مُفْرَداً بات يبكي لا معينَ لهُ   أعانك اللهُ بالتّسليم والجَلَدِ

وورد على أبي فراس وهو في الأسر نبأ وفاة أبي المكارم بن سيف الدولة في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة فاشتد جزعه على ابن أخته وأرسل قصيدة يعزي فيها سيف الدولة واستهلها بالدعاء لسيف الدولة بطول العمر ونعته بالصبر والجلد فقال (١) :

يا عمّر اللهُ سيف الدّين مغتبطاً   فكلّ حادثة يُرْمى بها جَلَلُ
مَنْ كان عن كلّ مفقودٍ لنا بدَلاً   فليس منه على حالاتِهِ بَدَلُ
يبكي الرجالُ وسيف الدين مُبتسمٌ   حتّى عن ابنكَ تُعطى الصبرَ يا جبلُ
لم يجهَلِ القومُ منه فضلَ ما عَرَفوا   لكنْ عرفت من التّسليم ما جَهِلوا

ويظهر أبو فراس على الأمير الفقيد شتّى ضروب اللوعة والحزن والتفجع ولا غرو في ذلك فالفقيد يمت بصلة قريبة إليه كما أن أسر الشاعر وبعده عن الأهل والوطن أضفى على نفسه كآبة ووحشة وفي ذلك يقول :

هلْ تبْلُغُ القَمَرَ المدفونَ رائِعَةٌ   من المَقال عليها للأسى حُلَلُ
ما بعدَ فَقدكَ في أهل ولا ولدٍ   ولا حياةٍ ولا دُنْيا لنا أمَلُ
يا مَنْ أتتْهُ المَنايا غيرَ حافِلَةٍ   أينَ العبيدُ وأينَ الخيلُ والخَوَلُ
أين الليوثُ التي حولَيْكَ رابضَةٌ   أين الصنائعُ ؟ أين الأهل؟ ما فعلوا ؟
أين السيوفُ التي يحميكَ أقطعُها   أينَ السوابقُ أين البيضُ والأسلُ ؟

وجاء إلى أبي فراس وهو في الأسر نبأ موت أمه ، فرثاها بقصيدة فاضت لوعة وأسى ولم يصنع صنيع المتنبي في رثائه لجدته حيث خلط بين الرثاء

(١) ديوان ابي فراس ص (٢٧٥ ــ ٢٧٦) .

والفخر فالقصيدة بكليتها تعبر عن الألم العميم والحزن العميق ، ويبدو تأثره واضحاً في ترديد الدعاء بالسّقيا لجدث والدته حيث يقول :

أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ ... بِكُرْة منك ما لقيَ الأسيرُ
أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ ... تحيّر لا يُقيم ولا يَسيرُ
أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ ... إلى مَن بالفدا يأتي البشيرُ
أيا أُمَّ الأسير لمنْ تُرَبّى ... إذا متّ الذوائبُ والشعورُ

ويحرّم على نفسه أن يكون هادىء البال مرتاح النفس بعد أن لبّت أمه نداء باريها حيث يقول :

حرامٌ أن يبيتَ قَريرَ عَيْنٍ ... ولؤمٌ أن يُلِمّ به السّرورُ
وقد ذقْتِ المَنايا والرَّزايا ... ولا وَلَدٌ لَدَيْك ولا عَشيرُ
وغابَ حَبيبُ قلبِك عَنْ مكانٍ ... ملائكَةُ السّماء به حُضُورُ

ويمزج بين البكاء على أمه وبين الحديث عن مناقبها كالسلاح والتقوى والأخلاق الكريمة فيقول :

ليبْكك كلُّ يومٍ صمْتِ فيه ... مصابرةً وقد حَمِيَ الهَجيرُ
ليبكِك كلُّ يومٍ قمْت فيه ... إلى أن يبْتَدي الفجرُ المُنيرُ
ليبكِك كلّ مضطهدٍ مخُوف ... أجرتيهِ وقد قلَّ المُجيرُ[1]
ليبكِك كلّ مسكينٍ فقيرٍ ... أغثْتيهِ وما في العظْم زيرُ

---

(١) اجرتيه واغثتيه : غير سليمتين عربية ويظهر انهما من ضرورات الشعر.

ويرسل الشاعر ذوب نفسه ونفثات حشاه الجريح وصبابات قلبه الراعف بالجراح حتى يخيل إلينا أنّا نسمع نشيج بكائه حيث يقول :

أيا أمّاهُ كم همٍّ طويلٍ مضى بك لم يكنْ منهُ نَصيرُ
أيا أمّاهُ كم سرٍّ مصُونٍ بقلبك ماتَ ليس لهُ ظُهورُ
أيا أمّاه كم بشرى بقُربي أتَتْك ودونها الأجَلُ القصيرُ
إلى مَن أشتكي ولمَنْ أُناجي ؟ إذا ضاقت بما فيها الصّدُورُ ؟

ومن الشعراء الذين أكثروا القول في الرثاء كشاجم فلقد رثى أمه وأباه وغلامه ولم يقتصر على أقرب الناس إليه بل رثى آخرين ممن قويت صلات المودة بينه وبينهم كرثائه لعبد الملك بن محمد .

وقد رثى الشاعر والدته بمقطوعة زخرت على يسارة معانيها بالعاطفة الصادقة والألم ومنها قوله (١) :

أبَعْدَ مُصاب الأمّ آلفُ مَضْجَعاً وآوي إلى خفضٍ من العيش أو ظِلّ
ستُرْضِعُ عيني قبرها من دُمُوعها بما كلّفتْه من رضاعي ومن حَمْلي
فأقسمُ لو أبصرَتْني عندَ موتِها وعيني تسحّ الدمعَ سَجْلاً على سجل
رثيتَ لنصلٍ يأخذُ الموتُ جَفْنَهُ وأُعجبْتَ من فرْعٍ ينوحُ على أصْل

ولقد رثى الشاعر أباه بقصيدة تنضح بالأسى والألم ومنها (٢) .

لا تَبْعُدَنّ أبي الشّفيـ ـقَ وإنْ غدَوتَ رهينَ رمْس
وسقَى ضريحَكَ وابِلٌ يُضْحي بصَوْبَتِه ويُمْسي
ولقدْ غَدَتْ دُنْيايَ بَعْـ ـدَكَ وَحْشَةً من بعد أُنْس

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط ص (١٢٩) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط ص (٨٨) .

وعَشيتُ في ظُلَمِ الخُطُو ب وكنتَ مِصباحي وشمسي
وتَرَكْتَني غَرَضاً لنَبْ ل الحادثات وكنتَ تُرْسي
فتَمَكَنَتْ أنيابُ رَيْ ب الدَّهْر من عضّي ونهشي

ولقد عزى كشاجم صديقه الصَّنوبَريّ في ابنته بمقطوعة معانيها مألوفة مطروقة ولغتها وأفكارها قريبة إلى الحديث العادي وخالية من العاطفة الصادقة والإحساس العميق ومنها [1] .

أتَأسى يا أبا بَكْرٍ لمَوْت الحُرَّة البِكْر
وقدْ زَوَّجْتَها القَبْ ر وما كالقبرِ من صهْر
وعوّضت بها الأجْ رَ وما كالأجر من مَهْر
زفافٌ أهْديتْ فيه من الخِدر إلى القبْر
فتاةٌ أسْبَلَ اللهُ عليها أسْبَغَ السّتْر

ولقد تجاوز كشاجم الرثاء في الحدود المتعارف عليها هادفاً إلى الإطراف والتجديد فطرق موضوعاً هزلياً مزجه بالجدّ وغلفه بظلال قاتمة فتفجّع على منديل ورثى طاووساً ووصف مصابه بسكين وعزّى في عود انكسر .

ومثال ذلك رثاؤه لقُمْريّ فقال [2] :

غدَرَ الزّمانُ وجارَ في أحكامِه والدَّهرُ عين الخائن الغدّار
ورُزِئتُ أعْلاقاً عليّ كريمَةً من قبل أن تقضى بها أوطاري
لونُ الغمامَة والغَمامَةُ لونه ومناسبُ الأقلام بالمِنْقار
ومطَوّقٌ من صبْغ خلْقة ربّه طوقَيْن خِلْتُهما من النّوّار

---

(١) المصدر نفسه ص (٧٨ ـ ٧٩) .
(٢) المصدر نفسه ص (٧٨ ـ ٧٩) .

وأبدى حسرته وألمه على سيد الأطيار فقال :

لهْفاً على القُمْريّ لهْفاً دائماً   يكوي الحَشا يكوي كلدغ النّار
ولقد هجَرْتُ الصبرَ بعد فراقه   ولقد مزَجْتُ دماً بدمع جاري
ما كنتَ في الأطْيار إلاّ واحداً   هيهاتَ أودى سيّدُ الأطيار

ومن شعراء البلاط الحمداني الذين طرقوا باب الرثاء أبو بكر الصنوبري فلقد رثى أمه بقصيدة رائعة مجبولة بالمحبة والعاطفة الصادقة ومنها قوله [1] :

قدْ صَوَّحَتْ روضتي المُونقهْ   وانتزعَتْ دوحتي المورقَهْ
بابٌ إلى الجَنّة ودّعْتُـهُ   منذُ رأيت الموتَ قد أغْلَقَهْ
لا يبْعَدَنْ مَثْواكَ يا أمّ ما   أبعدَ مَثْواك وما أسحَقَهْ
قَدْ صدّقَ الموتُ الذي لم أزلْ   أحْذَرُهُ منكَ وقد حقّقَهْ

ويعبر الشاعر عن حزنه وأساه العميق فأمه التي كانت تتحاشى أن ترى الظلمة غدت في رمس ظلمة مطبقة ويصور ذلك قوله :

يا للمَنايا كيفَ أنجو بهـا   من كُربٍ وهي بها مُحْدقَهْ
من تتحامى أن ترى ظُلْمَةً   أسكنْتُها في ظُلَمٍ مُطبقِهْ
ومن تضيقُ الأرضُ في عينها   أهديْتُها للحُفْرَةَ الضيّقَهْ
مهجةٌ حُزَّتْ فضَمّنْتُها   منَ الثرى غيرَ الضَّمين الثّقَهْ
عَلامَ طابَتْ بكَ نفسي وقدْ   عهدْتُها حانيةً مُشْفِقَهْ

ولقد فجع الصنوبري بابنته ليلى فرثاها بقصائد بالغة الحزن ظاهرة اللوعة

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٤٤٢ ـ ٤٤٣) .

والأسى وملأ ديوانه بأنّات باكية منبثقة من قلب وفؤاد جريح فمن ذلك قوله [1] :

أقْصِرْ فما تملُكُ إقصاري صَبّرْتَ مَنْ ليس بصبّارِ
مالي عن الأوزار مندوحَةٌ إذ كانت الأحزانُ أوزاري
لا دَرَّ دَرُّ العيَن إنْ ساَمحَتْ عيْني بدمعٍ غير مدْرار

ونلحظ الحزن بادي العمق وظلال الأسى تخيم على نفس الشاعر إذ يقول :

يا يومَ ثكلِك لم أذُقْ مثله أمرَّ عَيشي أيَّ إمْرار
أما على يومِك مِنْ ناصِرٍ أمْ غابَ عن يومك أنصاري
أجيلُ في قبرك عيني وفي مجالِ أرواحٍ وأمْطار

ويكثر الشاعر في رثائه لابنته من ذكر القبور وتصويرها ووصفهـا بالصخور المشؤومة التي اختطفت منه ابنته الحبيبة فيقول :

أشتاقُ رؤياك فآتي فـلا أرى سوى تُرْبٍ وأحجار
وأعْمُرُ الصحراءَ في مأتمٍ عُمّارُهُ آلَفُ عُمّار
جليسُ أجداث كأنّي بها جَليسُ أنهـارٍ وأشجار
مالي بأرضٍ وطنٌ إنّمـا بباب قِنّسْرينَ أوطاري [2]
بابٌ به الآثارُ مَمْحُوَّةٌ وهُنَّ مِنْ أبْيَنِ آثاري

ويستمطر الشاعر الرحمة على جدث ابنته فيقول :

يا بابَ قِنّسرينَ لا تخلُ من سَحائبٍ عُونٍ وأبكا

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٩٩ ــ ١٠١) .
(٢) باب قنسرين : أحد ابواب حلب ويقع بعد باب العراق الى جهة الغرب ــ الديوان (١٠٠) .

من مُزْنَةٍ تهمي ومن مقلةٍ   تَبْكي بدَمْعٍ من دمٍ جاري

ويبكي الشاعر ابنته بكاءً مريراً ينبعث من أعماق قلبه وتبدو عاطفة الأبوة وكأنها تقفز خلال كل بيت من أبياتها وكل كلمة من كلماتها حتى يخيل إلينا أننا نتصور بكاءه ونسمع صوت نحيبه وذلك إذ يقول :

النّارُ من قلبي مخلوقــةٌ   أمْ هو مخلوقٌ من النار ؟
كأنَّ عرْضَ الأرضِ بيْننا   وبينَهُ خَمْسَةُ أشْبــار
يا نورَ عيني والتي لمْ تزَلْ   من نورها تقتبسُ أنواري
يا ربّةَ القبْرِ المضيء الذي   يضيءُ ضوء الكوكب الساري
قُومي إلى زَوْرك أو فاجلسي   فإنّهُمْ أكْرَمُ زُوّار
قُومي إلى دارك قد أنْكرَتْ   صبرَك عنْها أيَّ إنْكار
استوحشَتْ دارُك من أهلِها   واستوحَشَ الأهلُ من الدّار

ويبدو أن الصنوبري لم يكن له من الولد غير ليلى التي فجع فيها وهي في مَيْعَة الصبا فهو يقول :

واحدَتي أمْسَيْتِ وحيدَةً   من بَعْدِ ألافٍ وسُمّار
كنتُ القَريرَ العين إذ كنت لي   محلُو أحــاديثي وأخباري
وكانَ شِعْري يُتَغَنّى به   فاستحْسَنَتْ للنّوح أشعاري

وقال يرثيها ويخاطب العيد[1] :

يا عيدَنا أوّلَ عيدٍ أتَى   فقدتُ ليلى فيه من خِدرها

---

(١) الديوان (١٠٤) .

بوركَ للأمّة في عيـدها فليس أمري فيه من أمرِها
عادوا من العيدِ إلى دُورِهم وعُدْتَ من عيدي إلى قبرِها

وقال يرثيها ويفديها بنفسه [1] :

إن كنتِ لا تقدَمينَ من سَفَرك فإنّني راحلٌ على أثَرِكْ
يا ليتني كنتُ شاخصاً بصري وما رأيتُ الشخوصَ في بصَرِكْ

وقال يبكي ويستبكي الطيور ووحش الفلاة معه [2] :

أدورُ على جوانبِ قبرِ ليلى وأبْكي حولَهُ بدَمٍ فضيضِ
أُراعي قبرَها حَدَباً عليْهِ مُراعاةَ المُمَرّضِ للمَريضِ
أواحدتي رُددْتِ وكنتِ قرْضاً وهذا الدّهر مردودُ القُرُوضِ
أيا طيرَ الغصونِ اصغي لنَوحي ورُوضي مثلهُ إن شئْتِ رُوضي
ويا وحشَ الفلاةِ روى عِطاشاً دموعي فاكرعي فيها وخُوضِ

ويتجلى الحزن الصادق العميق في رثاء الصنوبري لابنته الوحيدة ليلى وشعره يفيض لوعة ورقة وأساليب بكائه خالية من التصنع والادعاء .

فالصنوبري يُعَدُّ في مقدمة الباكين على أبنائهم لكثرة ما بكى ليلى في شعر صادق نابعٍ من القلب .

ولم يكن هؤلاء الشعراء وحدهم الذين طرقوا ميدان الرثاء إذ طرق هذا الباب كثير من الشعراء الذين كان هدفهم مرضاة الأمير والحصول على المال

---

(1) الديوان (١٠٤) .
(2) الديوان (١٦٤) .

والزلفى إليه . ومن هؤلاء ابن نُباتة السعدي الذي عزّى سيف الدولة عن ابنه أبي المطارح محمد ويستهل قصيدته بمدح الأمير فيقول [1] :

أيا من بشرْق الأرض والغرب يمتري صَرَى الجودُ أو يطوي إليه الفيافيا
أقيموا لهُ إن كنتمُ من ثِقـاتـهِ بكاةً على أمْواتـهِ وبواكيا
فـإنَّ بميّـافارقينَ حفـيرَةً تركْنا عليها ناظرَ الجُودِ داميا

وينهج نهجاً تقليدياً في رثائه فيعدد مناقب الأمير وخصاله الحميدة :

من التّغْلَبيّين الأولى لو رأيْتَهم رأيتَ رجالاً يخلُقونَ المعاليا
فيا قَبْرَهُ جُدْ كلَّ أرضٍ بجوده ولا تنتظِرْ فيها السّحابَ الغواديا
فإنّكَ لو تدري بما فيكَ من ندىً تصدّعْتَ حتى يصبحَ الجوُّ طاميا
ويـا يـوْمَهُ عزَّ الأنامِ لفقْدِهِ فأنْتَ بمولاهُمْ تُعزّي المواليا

ويخاطب سيف الدولة واصفاً صبره وجلده بقوله :

وحاشاكَ سيفَ الدولة اليومَ أن تُرى من الصبّرِ خلواً أو إلى الحزْنِ ظاميا
فإنْ تلكُ أفنت سطوةُ الدّهر عُمْرَهَ فعمرُ عُلاه يترُكُ الدّهْرَ فانيا
وما منْهُ مفقودٌ إذا كنت حاضراً ولا منه مثكولٌ إذا كنت باقيا

ويعزي الببّغاء سيف الدولة بابنه أبي المكارم بمقطوعة قصيرة فلا يحالفه التوفيق حيث يستهلها بذكر السرور والطرب وهو أمر مجانب للذوق فيقول [2] :

سرُورُنا بكَ فوقَ الهمِّ بالنّوبِ فما يغالبُنا حزْنٌ على طَرَبِ
إذا تجاوزْتِ الأقدارُ عنكَ فهَلْ من واجبِ الشّكرِ أن يرتاع من سببِ

وينتقل الشاعر إلى ذم الدنيا لزيفها وغدرها وخداعها فيقول :

---

(١) ديوان ابن نباتة المخطوط (٥٣) .
(٢) نشوار المحاضرة (١ / ١٣٦) .

حتّامَ تخدعُنا الدّنْيا بزُخْرِفِها ولا تُحَصِّلُنا منهُ على أدَبِ
نُسَرُّ منها بما تجْني عواقِبُهُ همّاً ونهرُبُ والآجالُ في الطّلبِ

وخلاصة القول إن الصنوبري وأبا فراس يتقدمان على كافة شعراء البلاط الحمداني في شعر الرثاء من حيث الإحساس الصادق والعاطفة المتدفقة أما المتنبي فإن أغلب مراثيه كانت صناعية بحتةً لم تصدر عن عاطفة صادقة ولم يحركها ألم دفين ولعل قصيدته في رثاء خولة أخت سيف الدولة هي أروع ما قال من رثاء في تعزيته للأمير .

الهجـاء

إن المستعرض للهجاء عند شعراء سيف الدولة الحمداني يجده على نوعين : الهجاء السياسي ، وهو ما ينال من أعداء الأمير لأسباب تتصل بالسلطة أو السياسة أو السلطان والهجاء الشخصي الذي يتناول المَهْجُوّ في عرضه ونسبه وخُلُقه .

ونحن نعلم أن من أهم الدوافع التي دفعت سيف الدولة إلى تشجيع الشعراء على الالتفاف حوله راجع إلى رغبته في أن يتخذهم وسيلة لتوطيد ملكه ونشر صيته ، إذ كان الشعراء بمثابة أجهزة الإعلام والصحافة في عصرنا الحديث ولذلك كان سيف الدولة ينتظر من شعرائه بالإضافة للمدح أن يهجُوا خصومه ومنافسيه .

وإذا كان من السهل على الشاعر أن يمدح أميره بالصفات والخلال الحميدة فإنه من الصعب عليه أن يذمّ أعداء الأمير ويسلب منهم القيَم والمُثُل العليا وينسُبَ إليهم المثالب وبخاصة إذا كان هؤلاء الأمراء أقوياء ومن المحتمل أن ينتج عن هجائهم مخاطر وأزمات للأمير ودولته ناهيك بأن أهم حافز كان يحفز الشعراء للقدوم إلى حلب والعيش في رحاب الأمير إنما هو الطمع في عطائه وصلاته على أن يبقى الباب مفتوحاً إلى غيره من الملوك والحكام فيستطيعوا أن يلموا ببلادهم في أي وقت شاءوا .

كان هدف الشعراء ـــ كما اتضح لنا ـــ مدح الأمير ، أما ذم أعدائه

ومنافسيه فأمرٌ يحتاج إلى الحيطة والحذر ولذلك لا عجب أن يخْفِتَ صوت أغلب الشعراء إلى أقصى حد وأن يكون المتنبي وأبو فراس والسَّرِيّ الرفّاء فرسان هذا الميدان وحدهم في بلاط الأمير .

ولقد تنوعت مجالات الهجاء السياسي تبعاً للأحداث الخارجية والداخلية التي مرت بها الدولة الحمدانية ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث حين زحف معز الدولة البويهي من بغداد على الموصل وهزم ناصر الدولة الحمداني ، شقيق سيف الدولة الذي لجأ إلى أخيه في حلب فقال المتنبي يهدد وينذر [1] .

على الفُراتِ أعاصيرٌ وفي حَلَبٍ   تَوَحُّشٌ لملقّى النصرُ مُقْتَبِلِ
تتلو أسنّتُهُ الكتْبَ التي نفَذَتْ   ويجعلُ الخيل أبدالاً من الرسُلِ
يلقى الملوكَ فلا يلْقى سوى جزَرٍ   وما أعَدُّوا فلا يلقى سوى نفَلِ

فالمتنبي يقول بأن سيف الدولة يكتفي في البداية بحل المشكلات ودّياً ويتبادل الرسائل والكتب . فإذا أخفقت الطرق الودية فستزحف خيوله بدلاً من الرسائل . والملوك تدرك مقدار بأسه وقوته .

ويبدو أن التهديد لم يحقق نتائجه المتوَخّاة ، وكأن إذاعة الخبر بأن الأمير يريد أن يزحف لنصر أخيه لا تكفي في إنذار بغداد ودفع الضغط عن الموصل فيتظاهر سيف الدولة بالاستعداد للزحف وأنذر على لسان شاعره إنذاره الثاني وذلك سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فقال [2] :

ولهُ وإن وهَبَ المُلوكَ مواهِبٌ   دَرٌّ المُلوكِ لدَرِّها أغبْارُ
للهِ قلبُكَ ما تخافُ من الرّدى   ويخافُ أنْ يَدْنو إليكَ العارُ

---

(1) ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمن البرقوقي (٣ / ١٦٤) .
(2) ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمن البرقوقي (٢ / ١٩١) .

وتحيدُ عن طَبْعِ الخلائقِ كلِّهم ويحيدُ عنك الجحفلُ الجرّار
يا مَنْ يَعِزّ على الأعِزَّةِ جارُهُ ويذِلُّ من سطَواتِهِ الجبّارُ

يقول المتنبي : إن عطايا سيف الدولة تعد عطايا الملوك بالقياس إليها شيئاً لا يذكر وإن قلبه لا يخاف الهلاك ولكنه يتوقى أن يداني الأمير شيء فيه عارٌ ، كما أن الأميرَ يتنكّب كل شيء يدنّس الأخلاق من اللؤم وما إليه ويتنكّبه الجيش الكبير اتّقاءً لبأسه وشجاعته . وأن جاره يعز على الأعِزّة ، فلا يقدرون أن ينالوه بسوء والمتكبر العاني العظيم يصبح ذليلاً لديه إذا غضب .

ولما أتمّ سيف الدولة بناء مرعش[1] بعد قتاله مع الروم ، مدحه المتنبي وختم مدحه بأبيات يصرح فيها بذم ملوك الإسلام ويشتمهم في غير احتياط ويعرّض بالإخشيديين صراحة فيقول[2] :

كفى عجباً أن يعجبَ الناسُ أنّهُ بنى مَرْعَشاً تبّاً لآرائهِمْ تبّا
وما الفَرْقُ ما بينَ الأنامِ وبينهُ إذا حَذِرَ المحذور واستصعب الصّعبا
لأمر أعَدّتْهُ الخِلافَةُ للعِدا وسمّتْه دون العالم الصّارم العضبا
ولا تفْتَرِقْ عنهُ الأسنّةُ رحمةً ولم تتركُ الشامَ الأعادي له حُبّا
ولكن نَفاها عنهُ غيرُ كريمة كريمُ الثّنا ما سَبَّ قَطُّ ولا سُبّا
وجيشٌ يُثَنّي كلَّ طَوْدٍ كأنهُ خريقُ رياحٍ واجهَتْ غصْناً رَطبا
كأنَّ نجومَ اللّيلِ خافَتْ مُغارَه فمدَّتْ عليها من عجاجته حُجبا
فمن كان يُرْضي اللؤم والكفرَ مُلكُه فهذا الذي يُرْضي المكارِمَ والرَّبا

---

(١) مرعش : اول الثغور مما يلي جبل اللكام أخربتها الروم سنة ٣٣٧ فبناها سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٤١هـ وجاء الدمستق ليمنع من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هاربا وأتم سيف الدولة عمارتها ــ نخبة تاريخية أدبية (٩٥ ــ ٩٦) .
(٢) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (١ / ١٩٣ ــ ١٩٤) .

فهو يشتّم الذين تعجبوا من بنائه لمرعش ويصانع الخلافة ولكنه يصارح الإخشيديين بالعداء فيشير إلى أنهم لم يتركوا الشام لسيف الدولة حباً له ، وإنما أخرجهم منها بالقوة ، ثم يختم قصيدته بذم الملوك والحكام الذين يقيمون ملكهم على اللؤم والكفر على حين يقيم سيف الدولة ملكه على طاعة ومرضاة الله .

ويهجُمُ المتنبي الخليفة العباسي تصريحاً لا تلميحاً في القصيدة التي أنشدها سيف الدولة في ميدان حلب عند عرض الجيش ، وهما على فرسيهما ، مُهنئاً له بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وذلك حيث يقول [1] :

فيا عَجَباً من دائل أنتَ سَيفهُ   أما يتوقّى شفرتيْ ما تَقَلّدا
ومن يجعلِ الضرغّام بازاً لصيدهِ   تصيّدهُ الضرغامُ فيما تَصَيّدا
وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفو عنهمُ   ومَن لكَ بالحرّ الذي يحفظُ اليَدا

فالمتنبي يسخر من الخليفة الذي يتقلد سيفاً يوشك أن يقتله ، ويرسل للصيد بازاً يوشك أن يصيده .

وفي آخر قصيدة أنشدها المتنبي بحلب قال معرّضاً بحكام بغداد على الأرجح :
ألهَى الممالكَ عن فخرٍ قَفَلْتَ بهِ   شربُ المُدامة والأوتارُ والنّغمُ
مُقلّداً فوقَ شكر اللهِ ذا شُطَبٍ   لا تُستدامُ بأمضى منهما النّعَمُ

وأنفذ سيف الدولة هديةً إلى المتنبي أثناء وجوده في العراق بعد أن ترك مصر مغاضباً كافوراً الإخشيديَّ فشكره في لاميته المشهورة التي قال فيها معرضاً ومصرحاً وغير خائف لقربه من أولي الأمر في بغداد [2] :

---

(١) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٣ / ٢٧٧ — ٢٧٨) .
(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوقي (٣ / ٢٧٧ — ٢٧٨) .

ليسَ إلاّكَ يا عليّ هُمامٌ سيفُهُ دونِ عرضه مسلولُ
كيف لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ وسراياكَ دونهـــا والخيولُ
لو تحَرَّفتَ عن طريقِ الأعادي ربَطَ السّدْرَ خيلهم والنّخيلُ
ودرى من أعزَّهُ الدَّفعُ عنه فيهما أنّهُ الحقيرُ الذّليلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكونَ القفُولُ
وسوى الرّوم خلفَ ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبَيكَ تميـــلُ
قَعَدَ الناسُ كلهم عن مساعيـ ـكَ وقامتْ بها القنا والنّصولُ
ما الذي عنده تُدارُ المَنايـــا كالذي عنده تُدارُ الشَّمولُ

فالمتنبي يخاطب الأمير الحمداني قائلاً : إنك الشجاع دون الملوك فكيف لا تأمن ديار المسلمين وأنت في وجه الروم تدفعهم عنها بجيوشك وخيولك ، ولولاك لاستباح الأعداء الديار ، ولو مِلْتَ عن طريقهم لأوغلوا في ديار المسلمين دون أن يقف في طريقهم أحد حتى يربطوا خيولهم بالسدر والنخيل التي بالعراق ومصر ، ولو تحرفت عن طريق الأعادي لعلم من أعزّهُ دفعُك عنه من ملوك مصر والعراق – يعني كافوراً – وآل بُوَيْه – إنه حقير ذليل وخلف ظهرك رومٌ سوى الروم – يريد آل بويه – فليس أعداؤك الروم فحسب ، وإنما أعداؤك كثر فأيّهم تقاتل ؟ ولم يبلغ أحد من الملوك مساعيك التي قامت بها رماحُك وسيوفك وأن غيرك من الملوك لمشتغلون باللهو وشربِ الخمر . أما أنت فشغلك الشاغل الحرب والقتال مع الأعداء .

ويرجح الدكتور طه حسين [1] دافع هجاء المتنبي السياسي في رحاب الأمير الحمداني لأمرين : أحدهما أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن بلائه ، لم يكن يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين

(١) مع المتنبي : الطبعة العاشرة (٢٤٨) .

الذين ينعمون بالحياة والعيش وسعة الملك وضخامة الثروة ، في غير مشقة ولا جهد .

والآخر أن سيف الدولة نفسه كان يظهر على بعض ما يدبّر له من الكيد في العراق أو في مصر ، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه وبين بغداد أو الفسطاط : فيغري شاعره بأن يمسّ هذه الناحية من نواحي السياسة الإسلامية لينذر أو يغيظ .

وأما أبو فراس فإن صوته عالٍ في ميدان الهجاء السياسي وهجاؤه للعباسيين ينبع من عقيدة ومذهب فهو لا يكتّم تشيعه ويوازن بين بني العباس وبني هاشم موازنة مستفيضة يقول فيها :

يا للرّجالِ أما للدِّينِ مُنتصفٌ   منَ الطّغاةِ أما للدّينِ منتقِمُ
بَنُو عليٍّ رعايا في ديارِهِمُ   والأمر تملكهُ النّسْوانُ والخدَمُ

فهو يستصرخ من حوله للانتقام لدين الله ونصرة بني علي المظلومين في أرضهم على حين أمر الملك في الدولة العباسية يديره الخدم والنساء[1] :

ويستطرد الشاعر فيعرض بالعباسيين الذين يدّعون الخلافة ويسمّون أنفسهم خلفاء علماً بأنهم ليس بيدهم من أمرها شيء فالحكم بيد القادة من العجم فأي فخر لهم وغيرهم بيده الحكم ؟

وفي ذلك يقول :

أبْلِغْ لديكَ بني العبّاس مألكةً   لا تدّعوا مُلكها أملاكها العجَمُ

(١) شاعر بني حمدان (٧٩) .

أيُّ المفاخر أمسَتْ في منابرِكمْ وغيركم آمِرٌ فيهنَّ محتَكِمُ
وهلْ يزيدُكم مَن مفخرٍ عَلَمٌ وفي الخلافِ عليكم يخفقُ العَلَمُ

ويختم أبو فراس قصيدته بهذه الموازنة التي ينعى فيها على العباسيين انغماسهم في اللهو والمجون واستباحة ما حرَّم الله بينما العلويون يتمسكون بالدين والورع والتقوى فيقول :

تَبْدو التّلاوَةَ من أبياتهمْ أبَداً وفي بيوتكم الأوتارُ والنّغَمُ
منكُمْ عُليّةُ أم منهم ؟ وكان لكم شيخُ المغَنّيينَ إبراهيم أم لهُمُ [1]
إذا تَلَوا سُورةً غنّى أمامَكُمُ قِفْ بالدّيارِ التي لم يُعفها القِدَمُ
ما في ديارِهُمُ للخَمْرِ مُعْتَصرٌ ولا بيوتُهُم للسّوءِ مُعْتَصَمُ
ولا تبِيتُ لهمْ خُنْثى تُنادمُهُمْ ولا يُرى لهُمْ قِرْدٌ لهُ حَشَمُ
الرّكنُ والبيتُ والأستارُ منْزِلهُم وزمزَمٌ والصّفا والحِجرُ والحَرَمُ

ومن الشعراء الذين طرقوا باب الهجاء السياسي في رحاب الأمير الشاعر السرّيّ الرفاء الذي هجا البويهيين في قصيدة مدح بها سيف الدولة وذكر موافاة أخيه ناصر الدولة حَلَب ودخول معز الدولة الموْصل . فقال يعرّضُ بالبويهيين ويحثّ الحمدانيين على استرجاع بلادهم التي بهـا قبور الآباء والأجداد ليرحل عنها اللؤم واللئام [2] .

أرى الخائنَ المغرورَ نامَ بأرضكُمْ كأنَّ المنايا الحُمرَ عنه نِيامُ
تَسَنّمَ أعـلامَ الدّيارَ وأنْتُمُ لمن حلّ فيها غارِبٌ وسَنَامُ

---

(١) علية بنت المهدي اخت الرشيد مغنية مشهورة وابراهيم بن المهدي اخو الرشيد مغن مشهور كذلك .
(٢) ديوان السري الرفاء (٢٣٦ ــ ٢٣٧) .

فشقّ على الماضين من عظمائكمْ وهُمْ رِممٌ في تُربِها وعِظامُ
منازلُ مرفوعٌ لحاضِركم بهـا قِبابٌ وللبـادي الأغرّ خيامُ
تحنّ إلى القوْمِ الذين تَرَحّلوا وتَرْجُفُ بالقوْمِ الذينَ أقاموا
تَهَلّلَ منها الغيثُ وهيَ عوابِسٌ وأسفر منها الصّبْحُ وهي ظَلامُ
فعُودوا ليحتلّ النّدى في خلالها ويرحَلَ لُؤمٌ حلّها ولِئامُ

ويستطرد الشاعر فيتهم معز الدولة البويهي بالغدر ونكث العهد فهو لا ذمام ولا ميثاق له ويخاطب الحمدانيين ألاّ يبرموا الصّلح معه حتى يستعيدوا ديارهم عنوةً وقوةً فيقول :

ولا تُمْكِنوهُ مِن ذمامٍ سيوفكم فليسَ له عند السيوفِ ذِمامُ
فلا صُلح حتى تُستطارُ سواعِدٌ وتسقُطُ أيدٍ في اللّقاءِ وَهامُ
وحتى ترُدّ الشوقَ ذاتُ هَمَائمٍ يصرّفُها ساري الهُموم هُمامُ
وتشْرِقُ من شرقيّ دجلَةَ بالقَنا ضَحاضِحُ أنتُم سيلُها وإكامُ
وتقرُبُ من آجالِها الأسدُ عَنْوَةً فتقتحِمُ الآجامَ وهيَ كِرامُ
فحينئذٍ يصفُو السّماعُ لسامِـعٍ وينساغُ للشُّرْبِ العِطاش مُدامُ

وإذا كان بعض الشعراء يحتاطون في هجائهم لأعداء سيف الدولة ومنافسيه من أمراء وحكام الدولة الإسلامية فإن هجاءهم للروم أعداء الإسلام والمسلمين كان على النقيض من ذلك بُعْداً عن الحرج .

ولقد كان لحروب سيف الدولة المستمرة مع الروم ظروف لا هوادة فيها تركت أقوى الأثر في شعر الهجاء السياسي .

ولقد كان المتنبي فارس هذا الميدان دون منافس . وعلى الرغم من أن المتنبي قدّم لنا في رومياته شعراً من أروع ما قاله من الشعر ، إلاّ أن دورانه

المستمر حول سيف الدولة وشخصه جعل هجاءه في الروميات لا يخرج كثيراً عن طبيعة الهجاء في الشعر العربي ، وهو في هجائه يسخر من الروم وقوادهم . ومن أبلغ ما قال في هذا المجال هجاؤه لقائد الروم برداس الذي التقى بسيف الدولة قرب مرعش سنة ٣٤٢ هـ وفي هذه المعركة جرح برداس في وجهه ووقع ابنه قسطنطين أسيراً في يد سيف الدولة فضلاً عن أسرى آخرين من القواد [1] فقال المتنبي :

لعلّكَ يوماً يا دُمُستقُ عائدٌ فكم هاربٍ ممّا إليْهِ يؤولُ
نجوتَ بإحدى مُهجتَيكَ جريحَةً وخلّفْتَ إحدى مهجتَيكَ تَسيلُ
أتُسلِمُ للخطّيّةِ ابنَكَ هارباً ويسكُنَ في الدّنيا إليكَ خَليلُ
أغركمُ طولُ الجيوشِ وعَرْضُها عليٌّ شروبٌ للجيوشِ أكُولُ
إذا لمْ تكنْ للّيثِ إلاّ فَريسَةً غذاهُ ولمْ ينفعكَ أنّكَ فيلُ

فالمتنبي يسخر من قائد الروم الذي فرَّ من المعركة وترك ابنه أسيراً ، وهو لا يعلم أيُقتلُ أم يُؤسَر فقد أسلمه للرماح وفرّ هارباً قبل أن يتعرف على مصيره ، والشاعر يتهكم تهكماً لاذعاً على ضخامة القائد وكثرة عدد جيشه التي لم تُغْنِ عنهُ شيئاً أمام شجاعة علي وفروسيته .

ومن شعره الرائع في هذا الصدد قوله يهجو الدمستق أيضاً :

أفي كل يوم ذا الدّمستق مُقْدِمٌ قفاهُ على الإقدامِ للوجه لائمُ
أيُنكِرُ ريح الليثِ حتى يذُوقَهُ وقد عرفَتْ ريحَ اللّيوثِ البهائمُ
وقد فجعَتْهُ بابنهِ وابنِ صهرهِ وبالصهر حمْلاتُ الأميرِ الغواشمُ
مضى يشكرُ الأصحابَ في فَوْته الظُّبا لما شَغَلَتها هامُهُم والمعاصمُ

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٣ – ١٢٤) .

ويفْهَمُ صوتَ المشرفيّة فيهمُ على أن أصواتَ السيوفِ أعاجمُ
يُسَرّ بما أعطاكَ لا عن جَهالَةٍ ولكنَّ مغنوماً نجا منك غانمُ
ولستَ مَليكاً هازمـاً لنَظيرِهِ ولكنّكَ التوحيدُ للشركِ هازِمُ

فالشاعر يهجو هذا القائد الذي لا يتعظ من هزائمه المتلاحقة والتي تنتهي دوماً بالهزيمة والخذلان والذي فرَّ من المعركةمسروراً أن ينجو بنفسه بعد أن فُجِـع بابنه وابن صهره .

والمتنبي لا يستنكف عن ذم الجيوش المقاتلة من المسلمين إذا خذلوا أميرهم.

قُلْ للدّمُستقِ إن المسلمينَ لكم خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهُمْ نِياماً في دمائِكمُ كأنَّ قتلاكمُ أياهُمُ فَجَعوا
لا تحسبوا من أسرتم ذا رمقٍ فليسَ يأكلُ إلاّ الميّتَ الضّبُعُ
وإنما عرَضَ اللهُ الجنودَ بِكُمْ لكي يكونوا بلا فسلٍ إذا رجَعوا[1]

فالمتنبي يتحدث هذه المرة إلى الدمستق من موقع الهزيمة ، وهو يقول له لا تظن أنك انتصرت على سيف الدولة فحقيقة ما حدث غيرُ ما تظن أو تتوهم ، فقد خان الجند سيف الدولة وكان من هزمتهم أشبه بالموتى من الضعف وخور العزيمة ، لأنكم كالضباع لا تنقَضّون إلاّ على الموتى وقد اختبر الله جيش سيف الدولة بهذه الهزيمة حتى يتخلص من عناصر الضعف والخَور فيه . ولا يبقى في جيشه إلاّ الشجعان والأبطال .

أما أبو فراس فقد ذاق من أسر الروم ما ذاق ، فلم يَخَفْ بأسهم وشدّتهم فافتخر وتطرق إلى هجائهم وهجاء بطارقتهم ورؤسائهم ، ولقد وقعت بين

---

(١) الديوان : شرح العكبري (٢ / ٢٢٠) .

أبي فراس والدمستق مناظرة وصف فيها الدمستق العرب بأنهم كتاب لا فرسان فثار أبو فراس وهجا الدمستق وقومه ووصفه بالكلب [1] .

وجرت بينهما مناظرة أخرى حاول الدمستق فيها أن يعرّض بدين أبي فراس فهجاه ووصفه بالعلج وأنكر عليه محاولته تبيُّن الحلال من الحرام ووصف بطارقته بالتيوس [2] فقال :

أما من أعجب الأشياءِ عِلْجٌ يعرّفُني الحلالَ من الحرامِ
وتكنُفُه بطـارقَةٌ تُيوسٌ تُباري بالعثَانينِ الضّخامِ
لهمْ خَلْقُ الحميرِ فلستَ تلقى فتىً منهم يسير بلا حِزامِ
أناجي كل طبلٍ هَرْثَميٍّ عريضِ الذّقْنِ بصّاقِ الكلامِ

فهو يسخر من الروم سخرية مريرة ويعجب للعلوج كيف يقفون لنقاش المسلمين ، وفيهم البطارقة أصحاب اللّحى الطويلة التي رأى فيها شَبَه التيوس ، وألْبِستَهُم ذاتُ أحزمة تصوّر فيها خَلْق الحَمير . وأضحكتْه الذّقون والبصاق يتطاير من خلالها إذا ما تحدث القوم .

وفي مجال هجاء القبائل البدوية الثائرة يعلو أيضاً صوتا المتنبي وأبي فراس ولا شك أن هجاء القبائل يعيدنا إلى موضوع الحَيْطة والحذر فهذه القبائل رعية سيف الدولة وعُدّته في حربه ولا يستطيع الأمير أن يقطع كلَّ الخيوط التي تربطه بها ، كما أنه لم يكن من السهل أن يَمَسّ الشاعر هذه القبائل بأذىً من القول ثم ينجو من عدوانها وبطشها وهو يعيش قريباً منها . ولذلك سلكوا هذا المسلك بحذر وتروٍ مبتعدين في أكثر الأحيان عما لا يليق بكرامة هذه القبائل العربية ، فكان هجاء هذه القبائل مجازاً يختلط فيه الترغيب بالترهيب .

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ٣٧) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٢٧٣) .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة تجمعت قبائل من قيس وثارت على سيف الدولة فنهض لها الأمير وأخمد ثورتها . وفي ذلك يقول أبو فراس :

ولمّا أن طغَتْ سُفهاءُ كعْبٍ فتحْنا بينهم للحربِ بابا
منحناها الحَرائِبَ غيرَ أنا إذا جارَتْ منحناها الحِرابا
وأبْعَدْنا لسوء الفعل كَعباً وأدْنَيْنا لطاعتهـا كِلابا
فلما أيْقَنوا أنَّ لا غِياثٌ دعَوْهُ للمَغوثَةِ فـاستجابا
وعَادَ إلى الجميلِ لهمْ فعادوا وقد مدّوا لصارمِهِ الرِّقابا
أمَرَّ عليهم خَوفـاً وأمْناً أذاقهمُ بهِ أرْباً وصابـا

وإن المتأمل في هذه الأبيات يلحظ تردد الشاعر بين الترغيب والترهيب ، فالشاعر يقرر أن كعباً هي التي طَغَت وأن الأمير لم يحارب إلاّ رداً لطغيانها ، ثم إنّه يقصِرُ الاتهام على سفهاء القبيلة ولا يعممه على القبيلة بأسرها . ويتأرجح الشاعر بين الترغيب والترهيب فيقول : اننا منحنا العطايا لهذه القبائل حتى جارت وظلمت ، فمنحناها الرماح والحِراب ردّاً على جورها ثم يوازن بين كعب المتمردة وكلاب المطيعة ، ويقرر أنه عندما ثابت القبائل الباغية إلى رشدها واستغاثوا بالأمير خاضعين أغاثهم .

ويختم أبو فراس هذه الأبيات كاشفاً سياسة الأمير إزاء هذه القبائل تلك السياسة المتمثلة في الترغيب والترهيب فهو يذيقهم الشّهد مرة والعلقم مرةً أخرى .

ويصور المتنبي تمرد كِلاب فيقول :

ترفّقْ أيها المولى عليهمْ فإنَّ الوفقَ بالجاني عتابُ
وإنّهمُ عبادُك حيث كانوا إذا تدعو لحادثةٍ أجابوا

وعين المخطئين هُمْ وليسوا ... بأول معشر خَطِئوا فتابوا

ويعرِّضُ المتنبي بالذين حرّضوا بني كِلاب على خروجهم عن طاعة الأمير فيقول :

وجُرْمٌ جرَّه سفهاءُ قوْمٍ ... وحلَّ بغيرِ جارِمه العذابُ

ويعيب المتنبي على القبائل المتمردة عملها لتحويلها الأمير عن قتال الأعداء من الروم :

وكنتَ السيفَ قائِمُهُ إليهمْ ... وفي الأعداء حدُّكَ والغِرارُ

فأمْسَتْ بــالبديَّةِ شَفْرَتاهُ ... وأمسى خلفَ قائمه الحيارُ [1]

وأما بالنسبة للهجاء الشخصي فقد نبع أغلبه من التنافس بين الشعراء على الحظوة لدى الأمير ودارت أغلب معاني الشعراء حول تحقير شعر الآخرين واتهامهم بالسرقة للمعاني والأفكار .

والمتنبي يتحدى الحُسّاد ويهزأ بشعرهم ويلخص قضيته معهم فيقول :

أرى المتشاعرينَ قد غَرُوا بذمّي ... ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا ؟

ومَن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يجدْ مُرّاً به الماءَ الزّلالا

ويحرض سيف الدولة على الشعراء الذين لا يُبينونَ في مدحهم والذين لا يُوفّون صفات الأمير وسجاياه حقّها من المدح فيقول :

غَضِبْتُ لهُ لمّا رأيتُ صِفاتِه ... بلاواصفٍ والشعرَ تهذي طماطمه

---

(١) البداية والحيار : ماءان بأرضهم كانوا ينزلون عليهما .

ويهزأ المتنبي من شعر الشعراء فيقول لسيف الدولة :

أرى كلَّ يومٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضعيفٌ يقاومُني قصيرٌ يُطاوِلُ
لساني بنطْقي صامتٌ عنهُ عاذلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازلُ

وتَنشبُ معركةٌ أخرى بين الشاعر السريّ الرفّاء وبين الخالديّين أبي عثمان وأبي بكر يتهمهما فيها بسرقة شعره واغتصابه فيقول في هجاء أحدهما[1]

لا بُدّ من نفثةِ مَصدُورِ فحاذِرُوا صولَةَ مخْدُورِ
قد أنْسَتِ العالَمَ غاراتُهُ في الشّعرِ غاراتِ المغاويرِ
أثْكلَني غيدَ قوافٍ غدَتْ أبْهى من الغيدِ المَعاطيرِ
أطيَبُ ريحاً من نسيم الصَّبا جاءتْ بريّا الوَرْدِ من حُورِ
من بعد ما فتّحتْ أنوارها فابتسمَتْ مثْلَ الأزاهيرِ
وباتَ فكْري تَعِباً بينَهـا ينقُشُها نَقْشَ الدّنانيرِ

ونلحظ أن الشاعر يبدأ هجاءه بالتهديد والوعيد ثم ينتقل إلى الهجاء فيصف الخالديَّ بأنه سارق أغار على شعره وقوافيه التي هي أطيب ريحاً من نسيم الصَّبا وأجمل من الأزاهير . ولقد تعب فكره في نقشها وصناعتها فنقشها كما تنقش الدنانير .

وقال السريّ يتظلم إلى أبي الفوارس سلامة بن فهد ويتهم الخالديين بسرقة شعره[2] :

هل الصبرُ مجْدٍ حين أدّرعُ الصبْرا ؟ وهل ناصرٌ للشعرِ يوسِعُه نصرا ؟

---

(١) ديوان السري الرفاء (١٣٣) .
(٢) المصدر نفسه (١٢٤) .

تحيّف شعري يا ابن فهدٍ مُصالِتٌ ظلومٌ فقد أعدمتْ منه وقد أثرى
وفي كلّ يوم للغَبيّيْن غارةٌ تروّعُ الفاظي المحجّلةَ الغُرّا
إذا عنّ لي معنىً تضاحك لفظُه كما ضاحكَ النّوارُ في روضه الغُدرا
غريبٌ كشَطرِ البرقِ لما تبَسّمتْ مخائِلهُ للفِكْرِ أودعتُهُ سَطْرا
فوَجْهٌ من الفتيانِ يمسحُ وجهَهُ وصدْرٌ من الأقوامِ يُسكنه الصَّدرا

فالسريّ يبدأ الهجاء بشكوى الخالديين اللذين سرقا شعره ، ولقد أثريا من شعره بينما هو يتعذب في الفاقَة والفقر . ويتهم الخالديين بالغَباء ويشبّه شعره الرقيق بالنّوّار في روضة خلاّبة .

ثم ينتقل الشاعر فيتهجّم الخالديين اللذين أطفآ نجوم شعره بسرقتهما ودنّسا تلك المطارِفَ والأُزُر فيقول (١) :

تناولَهُ مُثْرٍ منَ الجهْلِ مُعْدِمٌ من الحِلْمِ معذورٌ متى خلعَ العُذّرا
فبعّدَ ما قرّبتُ منهُ غَباوَةً وردّدَ ما سهّلْتُ من لفظهِ وعْرا
فمهلاً أبا عثمانَ مهلاً فإنّما يغارُ على الأشعار من عشقَ الشّعْرا
لأطفأتُما تلكَ النجومَ بأسرها ودنّستُما تلكَ المطارِفَ والأزْرا
فويحكُما هلاّ بشَطْرٍ قَنعتُما وأبقَيتُما لي من محاسنها شطْرا ؟
لئِنْ وترتْ كفّي سعيدَ بن هاشم فقد نال من شعري بغارتهِ الوَتْرا

وقال يهجو الخالديين في قصيدة مدح بها الأمير أبا البركات لطفَ الله ابن ناصر الدولة ويتظلم إليه منهما (٢) .

أشكو إليكَ حليفَيْ غارةٍ شَهَرا سيفَ الشقاق على ديباجِ أشعاري

---

(١) ديوان السري (١٢٤) .
(٢) ديوان السري (١١٤) .

ذئبَين لو ظَفِرا بالشعرِ في حَرَمٍ   لمزّقاهُ بأنيابٍ وأظفارِ
سَلاّ عليهِ سيوفَ البَغْيِ مُصْلَتَةً   في جَحفَلٍ من شنيعِ الظلم جرّارِ
وأرخصاهُ فظلّ العطرُ مُنْتَهَباً   لديهما يُشْتَرى من غير عطّارِ
لطائِمُ المِسكِ والكافورِ فائِحَةٌ   منهُ ومنُتخبُ الهنديّ والغارِ

فالسريّ يشكو ويتظلم من الخالديين ثم يصفهما بالذئبين المفترسين لغُرَر شعره الذي تفوح منه رائحة المسك والكافور .

ثم يتهمهما ببيع شعره ويصوّر لصوصيتهما بقوله [1] :

باعا عرائِسَ شعري بالعراق فلا   تبْعُدْ سباياهُ من عُونٍ وأبْكارِ
مجهولَةُ القَدْرِ مظلومٌ عقائلُها   مقسومَةٌ بينَ جُهّالٍ وأعْمارِ
ما كانَ ضرّهُما والدّرُّ ذو خَطَرٍ   إن حلّياهُ ملوكاً ذاتَ أخطارِ
وما رأى الناسُ سبْياً مثلَ سبْيهما   بِيعتْ نَفيستُهُ ظلماً بدينارِ
إذا كساكَ ثيابَ المدحِ سالِبَها   يوماً فأنكَ أنتَ المكتسي العاري
واللهِ ما مَدَحا حيّاً ولا رَثيا   مَيْتاً ولا افتَخرا إلاّ بأشْعاري
إن تَوّجاكَ بدُرٍّ فهوَ من لُجَجي   أو خَتّماكَ بياقُوتٍ فأحْجاري

ويبدو أن الأدباء في الشام والعراق قد انقسموا إلى فريقين إزاء الخصومة الناشئة بين السريّ والخالديين : فريق تعصبوا للخالديين وآخرون تعصبوا عليهما ولعل هذا السبب يسوّغُ هجاء السريّ لغير الخالديين من الشعراء الذين اتهمهم بمثل ما اتهم به الخالديين من سرقة شعره .

ولقد عاب السريّ على أبي محمد الشّمشاطي [2] انحرافه عنه إلى الخالدين

(١) ديوان السري (١١٥) .
(٢) الشمشاطي : هو شاعر اديب اصله من شمشاط (من ارمينية) واتصل بآل حمدان . ديوان السري (١٧٤) .

وتفضيله إياهما وقال يحذّره منهما ويهجوهما [1] :

أبا حَسَنٍ إن المكارم جَمّةٌ وأحسنُها إنصافُ خِلٍّ مناصفِ
تناسيتَ ودّي من قديمٍ وحادثٍ وأغفلتَ شكري من تليدٍ وطارفِ

وأهملتَني حتى تحيّفَنيّ العِدا وكم ذُدْتَ عني الحيف من كل حائفِ
عصائبُ رَقّ السِّتْرُ بيني وبينْهم فمنْ ساترٍ ما في الضميرِ وكاشفِ
يدِبّونَ في ليلِ النّفاقِ كأنهم عقاربُ دَبّتْ في دُجىً متكاثفِ

يذكّر السريّ أبا حسن بالمحبة القديمة التي تربطهما مع بعض ويلومه على إهماله له ثم ينتقل إلى نعت الخالديين بالسرقة والنفاق ويشبههما بالعقارب الهائمة التي تعبث في دجى الظلام الكثيف .

ويبدو أن محاولة تحذير الشمشاطي قد باءت بالفشل إذ انتصر للخالديين ووقف ضد السريّ فلذلك هجاه السريّ واتهمه أنه قد ادّعى شعره [2] :

رمَى اللهُ رِئْبالَ القَريضِ برئبالِ ومُغتالَ ما حَبّرتُ منه بمغتالِ [3]
حجَبْتُ عن الأسماعِ منهُ بقيّةً مقيّدةً عن كلّ حلّ وترْحالِ
وأطبقْتُ إشْفاقـاً عليهِ حقاقه فصار وما أرخَصْت من حلْيه غالي
وحذرني أن يُستباحَ حريمـــهُ تذكر بيت يقطع الأرض جوّالِ
ألا يحبِسُ الشيخُ الغَيُورُ بَنـاتَهُ مخافةَ جنيّ الشمائلِ بَطـالِ

يصف السريّ أبا حسن الشمشاطي بأنه ذئب مختلس للشعر ولذلك فإنه

---

(1) ديوان السري (١٧٥) .
(2) ديوان السري (٢٢٩) .
(3) الرئبال : الذئب .

يحجب عن أسماعه بقية أشعاره خوفاً من أن يسطو عليهـا وهو يحبس شعره ويتوجس عليه منه كما يحبس الشيخ الغيور بناتـه خوفاً من الفاسق الغدار .

وهجا السريّ كذلك أبا العباس النامي الذي كان جزاراً واتهمه أيضاً بسرقة شعره فقال [1] :

أجزّارَ بابَ الشامِ كيف وجدتَني ... وأنتَ جزُورٌ بينَ نابي ومِخْلَبي ؟
أراكَ انتهبْتَ الشعرَ ثمّ خبَأتَهُ ... على الناس فعل الخائفِ المترقبِ
تباعَدْتَ عن باقورة الشّعر بالمَدى ... إليهِ فلمْ تَخرج ولمْ تتحوبِ
ولمّا جرى الحذاق في ضوء صبحه ... تعثّرت منهُ في ضبابَةِ غيهبِ

فالسريّ يهدّد النامي في مطلع قصيدته ثم يتهمه بالسرقة والتعثر في نظم القريض والشعر حيث يقول [2] :

وكيفَ تنالُ عارفَتي وعفْوي ... ولم تمْحُ اعترافِكَ باعترافِ
أرى الجزّارَ هيّجَني وولّى ... وكاشَفَني وأسرع في انكشافي
ورقّعَ شِعرَهُ بعيونِ شِعري ... فشابَ الشُّهدَ بالسّمّ الزّعافِ

ويتخذ السريّ من مهنة النامي مجالاً للسخرية ، ويصفه بأنه لا يحسن قول الشعر ونظمه :

لقد شقيتْ بمهنتكَ الأضاحي ... كما شقيَتْ بغارتك القوافي
توعّر نهجُها بك وهو سَهْلٌ ... وكَدَّر وردُها بكَ وهو صافي

---

(1) ديوان السري (٤٥) .
(2) ديوان السري (١٧٧) .

فتَكْتَ بها مُشَقَّقَةَ النَّواحي   على فكرٍ أشَدَّ من الثِّقافِ

وللخالديين أيضاً هجاء مرّ ساخر ومثاله قول أبي بكر بن هاشم الخالدي في هجاء شاعر [1] :

لو أنَّ في فمه جَمراً وأنْشدها   شعراً لما ضَرَّهُ من بَرْدَ إنشادهْ

وقال في هجاء شاعر آخر أيضاً [2] :

لما تبدّى الكوفيُّ يُنْشِدُنا   قُلنا له : طعنَةً وطاعونا
تجمَعُ يا أحمَقَ العِبادِ لنـا   شعرَكَ في بَرْدِهِ وكانونا

وقال أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي في هجاء أحد الشعراء [3] :

شعرُ عبدِ السّلامِ فيه رديء   ومحالٌ وساقِطٌ وبديعُ
فهو مثلُ الزّمانِ فيه مصيف   وخريف وشَتْوَةٌ وربيعُ

فانظر إلى البراعة في تشبيه الشعر بالزمان واختيار الأقسام من الفصول بما يقابل الأقسام من ألوان القول .

وقال يهجو رجلاً حلق سباله بعد أن أطاله [4] :

حَلَقْتَ سِبالَكَ جهلاً بما   يُواري من النّكرات القِباحْ
فعَذَّبْتَ صحبكَ حتى المساء   وعذّبتَ عرسكَ حتى الصباحْ
فلا أبعدَ اللهُ ذاكَ السّبالَ   فقد كان سِتراً على مُستَراحْ

---

(١) ديوان الخالديين (٥٢) .
(٢) المصدر نفسه (٩٧) .
(٣) المصدر نفسه (١٣٩) .
(٤) المصدر نفسه (١٥٨) .

ولقد طرق كُشاجم ميدان الهجاء الشخصي فكان هجاؤه رسماً ساخراً هازلاً اعتمد به على التصوير وبراعة الرسم وحذا في ذلك حذوَ أبي تمام ومثاله هجاؤه لإحدى الجواري بقوله [1] :

لِصديقٍ لنـــا صديقةُ سوءٍ رحم اللهُ من لحَاهُ عليها
يَقبلُ الليلُ حين تقبلُ لولا وضَحٌ في سَوادِ سالِفَيها
رُبَّ فأر وخُنْفساءَ أثـــيرا من خلالِ الشقوقِ من قدَميها
إنهـــا مثلُ لونها فإذا مـــا زَفرَتْ خِلتَ ساقَها بيدَيها
وإذا حان أن تُودّعَ وارتْ نابها في اليسارِ من منخرَيها
وصحيحٍ مُسَلّمٍ صَرَعَتْهُ نَفَحاتُ الصّنانِ من إبْطَيها

فالشاعر يصور هذه الجارية تصويراً ساخراً لاذعاً فهي سوداء تحاكي الليل وقدماها مشقوقتان وتنبعث منها رائحة كريهة تعافها النفس .

وقال كشاجم يهجو ويسخر من عامل بريد [2] :

صِرْتَ يا عامل البريدِ مَقيتاً وقديماً إليَّ كنتَ حبيبـــا
كنتَ تستثقِلُ الرقيبَ فقد صِرْ تَ علينا بما وليتَ رقيبا
شَنَشَنْتُكَ النفوسُ وانحرفتْ عنـ ـكَ قلوبٌ وكنتَ تسبي القلوبا
أفلا يعجَبُ الأنامُ لشخصٍ صارَ قِرْداً وكان ظبياً ربيبا

فعبارات التقريع والاستهزاء بعامل البريد واضحة سافرة صاغِها كشاجم ببراعة وحذق فصديق الأمس أصبح مقيتاً تعافه النفوس والظبي الجميل أصبح قرداً كريه المنظر .

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (١٦٢) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) .

وللشاعر الصنوبري أيضاً هجاء هزليّ ساخر ومثال ذلك قوله [1] :

في أبي جعفر وفي وسْوَاسِهْ عبْرَةٌ للّبيبِ من جُلاّسِهْ
لاحِنٌ في اسمه على ما ادَّعى في عِلَلِ النحو من لطيف قياسِهْ
عارفٌ عند نفسه وهو لا يعـْ رِفُ يا قومُ رِجْله من راسِهْ
لبسَ القَبْعَ كي يموّه بالقَبْـ عِ علينا ولم يكُنْ من لِباسِهْ
مثلُ من يختم القراطيسَ من غَيْـ رِ كتابٍ يكونُ في قِرْطاسِهْ

فالصنوبري يصمُ أبا جعفر بالادعاء والجهل فهو يدَّعي العِلم في عِلَل النحو ويلحَن في اسمه ولا يعرف من النحو شيئاً كما أنه يعتمد على التضليل والتمويه والخداع كي يوهم جلاّسه بالعلم والمعرفة .

وقال في هجاء أحول :

تبّاً لـذا الأحولِ ما أرقعَهْ كم تَرَكَ الحزمَ وكمْ ضيَّعه
وأيُّ رأيٍ لأمرىءٍ إنْ رَأى شخصينِ من قرْب يقلْ : أربعه
قد أفْزَعَتْ حولتُكَ الحُولَ يا من لم تزلْ حولَتُهُ مُفزِعَهْ
أفٍّ لهذا الوَجْهَ وَجْهاً فَما أقبحَ ذا الوَجْهَ وما أشْنَعَهْ
قد لَبِسَ المَقْتَ رِداءً وقد أزَّرَهُ الخِزْيُ وقد قنّعَهْ

ومجمل القول أن الهجاء في رحاب سيف الدولة الحمداني اختلف باختلاف المهجو فالأمراء والحكام من المسلمين الذين نابذوا سيف الدولة العداء كان التعريض بهم بوصفهم بالانغماس في المجون واللهو أما هجاء الروم فكان

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٠٤) .

بنعتهم بالجبن والخسة والهزيمة وهجاء القبائل بعدم تقديرهم للأمور وشغلهم لسيف الدولة عن الروم عدو الإسلام والمسلمين .

وكان الهجاء الشخصي ينصب على الاتهام بالسرقة الشعرية والانتحال والادعاء وسبب ذلك كما وضحنا سابقاً يرجع للتنافس الأدبي في الحصول على حظوة الأمير والقربى منه .

وابتعد الهجاء بنوعيه عن تقليد القديم من حيث التعرض للأنساب وغلبت عليه خفّة الروح والنكتة . كما أنه كان يميل إلى العفة ويبتعد عن الإغراق في الفحش واستعمال الألفاظ البذيئة وذكر العورات في غير ما تحَرّج أو استحياء كما كان الحال عند شعراء العراق كالحجّاج وابن سُكّرة . وإن كان بعض الشعراء يُسِفّ أحياناً فيلجأ إلى المجون السافر في هجائه كقول الصنوبري [1] :

يا مَنْ أحَلّ به الرّزيّهْ وأعاد نعمتَهُ بليّهْ
حَظِيَ الرّدى بكَ إذْ غدَتْ لكَ بنت عمار حظيّهْ
قُلْ لي وكَيْفَ .... مع دلّ قامتكَ القَميّهْ
أنْتَ البَعوضةُ قِلّةً وكأنّها جَمَلُ الضّحيّهْ

ولعل بيئة حلب في ظل سيف الدولة وهي المطبوعة بالفروسية والأنفة والمعتزة بالإسلام والعروبة – كان لها أكبر الأثر في هذا الطابع الذي غلب على شعر الشعراء .

ونرى أن الهجاء يعد ركناً أساسياً في دراسة تاريخ حلب السياسي والأدبي في عهد سيف الدولة وذلك لكونه يدل دلالة واضحة على السياسة التي انتهجها الأمير وعلى الصراع والمشاحنات الأدبية التي كانت تستعر نيرانها في بلاطه .

---

(١) اليتيمة (٢ / ٢٠٦) .

الغزل

الغزل من أقدم الفنون الشعرية في الأدب العربي وأكثرها شيوعاً لاتصاله الوثيق بالطبيعة الإنسانية . فالحب لغة عالمية وميل فطري في كل بيئة ووصف المحبوبة والتغني بجمالها إحساس تلقائي . والغزل لغة الأفئدة الناطقة وحركة القلوب الخافقة وإشارة العيون المحدقة .

وشعراء الغزل في بلاط سيف الدولة الحمداني كُثْرٌ من كاثر وما من شاعر منهم إلاّ وله في الغزل قصائد ومقطوعات كثيرة وصور ممتعة وشيقة جميلة . ويمكننا أن نحصر أنواع الغزل في رحاب سيف الدولة في نوعين : ١ — الغزل التقليدي ، ٢ — والغزل الحسي بنوعيه الفاحش الصريح وغير الفاحش العفيف .

والغزل التقليدي غزل صناعي بحت لا أثر فيه للروح ولا صلة بينه وبين المعاني وهذا النوع من الغزل لم يصدر عن عاطفة الحب الصادقة ولذلك كان معظمه ضعيفاً متكلّفاً .

ويتجلى هذا النوع من الغزل في مطلع قصائد المدح والفخر والتشويق للأصدقاء ومن الشعراء الذين نهجوا هذا النهج المتنبي وأبو فراس والسريّ

الرفاء والصنوبري والوأواء الدمشقي ومن ذلك قول المتنبي في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة [١] .

لعَيْنَيْكِ ما يَلقى الفؤادُ وما لَقي ⁂ وللحبّ ما لم يبقَ منّي وما بقي
وما كنتُ ممن يدخُل العشقُ قَلْبَه ⁂ ولكنّ من يبصر جفونكِ يعشَقِ
وبين الرضا والسّخط والقرْبِ والنّوى ⁂ مجالٌ لدمع المُقلَةِ المترقرقِ
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربّه ⁂ وفي الهَجْر فهو الدّهر يرجو ويتّقي

فالشاعر يتكلف الحب ويدعي العشق وغزله صناعي يخلو من حرارة الجوى والهيام .

وقال المتنبي أيضاً في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة عندما استنقذ أبا وائل تغلب بن داود من أسر الخارجي [٢] :

إلامَ طَماعيّةُ العاذِلِ ⁂ ولا أرى في الحبّ للعاقلِ
يُراد من القلب نسيانكم ⁂ وتأبى الطّباعُ على الناقلِ
وإنّي لأعشقُ من عشقكمْ ⁂ نحولي وكلَّ امرىءٍ ناحلِ
ولو زُلتُمُ ثم لم أبْكِكُمْ ⁂ بكيتُ على حبّي الزائلِ

ونلحظ من أبيات المتنبي أنه لم يكن غزلاً وإنما كان متكلفاً وهو ليس بالرقيق الذي يأسره الهوى ويخفق له قلبه ويسيل دمعه ويغني لسانه .

ويظهر أن المتنبي قال الغزَل جرْياً على سُنّة الشعراء في افتتاح قصائدهم ولكنّ نفسَه لم تطرب لهذا النسق فثار عليه وانتقد ابتداء الشعر بالنسيب .

---

(١) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٣ / ٤٨ – ٤٩) .
(٢) المرجع نفسه (١٥٢) .

إذا كانَ مدْحٌ فالنّسيبُ المُقَدَّمُ أكلُّ فصيح قالَ شعراً متيّمُ

وذكر ابنُ رشيق أن من الشعراء من لا يقدّم لقصيدته بالنسيب وهذا ما يعرّفُ بالوثب أو البتر والقطع والكسح والاقتضاب ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال تُعَدّ بتراء كالخطبة البتراء التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل[1] أو باسمه .

أما أبو فراس فقد استهل حوالى ثلاثين قصيدة من شعره بالمقدمات التقليدية واقتصر من ذلك على فنون بعينها كالفخر والأخويّات . ولقد قلد أبو فراس الأقدمين من الشعراء فوقف على الأطلال وأزجى إليها تحياته بعد أن خلت من الأحبة وأضحت فناء للهموم وتحدث في مقدمته هذه عن اللائمين في الحب وحضّ على عدم الإصغاء إليهم فقال[2] :

أيها العاذلات في الحبّ إنّ الـ ـعَذْلَ في الحبّ ينتهي أغْراءَ
وإذا ما هَجَرْتَ بالعذلِ حُبّاً كنت والعاذلات فيه سَواءَ
كمْ وِدادٍ حَرَمْته أُم عَمرٍو ووِدادٍ مُنحَتْــهُ أسْماءَ

وقد مزج أبو فراس في بعض مقدماته بين الغزل والفروسية فجعل للحب جيشاً مغيراً خيله ورماحه الكتب وسهامه الألفاظ وسيوفه الرسائل والألحاظ[3] :

هوانـا غريبٌ شَزَّبَ الخيل والقنا لنا كتبٌ والباتِراتُ رسائلُ[4]
أغَرْنَ على قلبي بخيلٍ من الهوى فطاردَ عنهنّ الغَزالَ المُغازِلُ
بأسْهُم لفْظ لم تركّب نِصالُها وأسياف لحْظٍ ما جَلَتها الصّيَاملُ

---

(١) العمدة : ابن رشيق (١ / ٢٣٢) .
(٢) ديوان ابي فراس (٢ / ٤٤٣) .
(٣) الديوان (٢ / ٢٩٠) .
(٤) شزب : الشازب الضامر من اليابس والناس وغيرهم واكثر ما يستعمل في الخيل . اللسان : مادة شزب .

وقائعَ قَتلى الحبّ فيهــا كثيرةٌ ... ولم يشتهر سيفٌ ولا هزَّ ذابِلُ

واستهل أبو فراس بعضَ رومياته في الأسر بالنسيب ، وأشار فيها إلى حب الديار والربوع التي كانت مراحاً وملعباً للمحبوبة فقال [1] :

أبيت كأني للصبــابَةِ صاحبٌ ... وللنوم مذْ بانَ الخَليطُ مجانِبُ
وما هــذه في الحبّ أوّلُ مرَّةٍ ... أساءتْ إلى قلبي الظنونُ الكواذبُ
عليّ لربْعِ العــامريّةِ وقفَــةٌ ... يملّي عليَّ الشوقُ والدمعُ كاتِبُ
فلا وأبي العُشّاق مـــا أنا عاشقٌ ... إذا هي لم تلعَبْ بصبري الملاعِبُ

ونلحظ أن أبا فراس استهل قصيدته بغزل يلائم الحالة التي يعيشها والتي يظللها الحزن فهو يشكو الفراق ورحيل الأحبّة وبعدهم عنه وذلك بأسلوب رقيق سهل بعيد عن غريب اللفظ والمعنى .

والسري الرفّاء من الشعراء الذين اتّبعوا الأقدمين وذكروا الغزل والنسيب في مطلع قصائدهم . ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة وذكر بعض وقائعه [2] :

أجانِبَها حَذاراً لا اجتْنِابا ... وأعْتَبُ كي تنازعني العتابا
وأبعَدُ خيفَةَ الواشينَ عَنْها ... لكي ازداد في الحبّ اقترابا
وتأبى عَــبرَتي إلاّ انسكابا ... وتأبى لوعَتي إلاّ التهابا
مررْنــا بالعقيقِ فكم عقيقٍ ... ترَقْرَقَ في محاجرنا فذابا

ولعل الشاعر قد كشف عن مذهبه الشعري في وضوح من حيث انتقاء الألفاظ واللفظ الموسيقي والمعنى الرقيق .

---

(۱) الديوان (٢ / ٣٠) .
(٢) ديوان السري (١٤) .

وقال السري أيضاً [1] :

كَمِلنَ فأطْلَعْنَ البدور كواملاً ومِلْنَ فأبدَينَ الغُصونَ موائلا
غدَونَ لنا بالوصل إنْساً نَواضِراً وكنّ من الهجرانِ وحْشاً خواذلا
يُحَرّكْنَ أعطافَ العليلِ صبابة إذا حرّكتْ أعطافُهُنَّ الغلائلا
وسلت ظُبا أسيافها مُقَلُ الظبّا فلستَ ترى إلاّ قَتيلاً وقاتلا

وشحن الشاعر أبياته بالتشبيهات الكثيرة التي اشتهر بها كما أنه اهتم بالصناعة اللفظية التي كانت مذهباً سائداً بين الشعراء مازجاً بين الصناعة والخيال .

وقد استهلّ الصنوبري أغلب قصائد المدح بالنسيب والغزل التقليدي ومثال ذلك قوله في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة [2] :

ما للّوائمِ في العِراصِ وما لنا عاصَوْا بنا لَوْمَ اللّوائمِ عاصُوا [3]
لِمَ في عِراصِ الغانياتِ يلُمْنَنَا وقلوبُنا للغانياتِ عِراصُ
من كلّ خالصة الجَمالِ استأسرتْ منّا نفوساً ما لهنَّ خَلاصُ
جَرَحتْ لحاظي وجْنتيها مثلَ ما جرحت فؤادي ، والجروحُ قصاصُ

كما أنه بدأ بعض قصائد الفخر بالغزل والنسيب . فقال في قصيدة يفتخر فيها [4] :

أجرَتْ على مجرى الخَلوقِ خَلوقاً وأتتْكَ تَلطمُ بالشّقيق شَقيقا

---

(١) المصدر نفسه (٢١٥) .
(٢) ديوان الصنوبري (٢٣٤) .
(٣) اعتاص : صعب ولم يتيسر .
(٤) ديوان الصنوبري (٤٠٣) .

لما أريقَ الدمعُ في وجناتِها ... أيقنتُ أنَّ دَمي هناكَ أُريقا
قالتْ أتُشْفِقُ من بكائي ثمّ لا ... تُلقي عليَّ منَ الفُراقِ شَقيقا
لا تَسقَمي حزَناً لعلَّ الدَّهرَ أنْ ... يصفو فيجمعَ شائقاً ومَشوقا

ومنهجُ الصنوبري في الغزل ـ كما يتضح من أبياته ـ التلاعب بالألفاظ والصور في حبكة وفنّ وحِذقٍ ، ولا شك أن اختيار الألفاظ ووصفها كان من الميزات الّتي اتّسَمَ بها شعر الصنوبري .

وسلك الوأواء الدمشقي مسلك بعض شعراء عصره فنهج نهج الأقدمين واستهل بعض مطالع قصائد المدح بالغزل ومن ذلك قوله [1] :

بَدْرُ ليلٍ أولاً فشمسُ نهارٍ ... طلَعَتْ من سحائِبِ الأزرارِ
فوقَ غصنٍ تميلُهُ نشَواتُ الدَّ ... لِّ سُكْراً من غير شرْبِ عُقارِ
يفْعَلُ الرِّيقُ منهُ ما تَفْعَلُ الخَمْرُ ... ولكن بلا تأذّي خِمارِ
رشأ كلّما سَرى اللحْظُ فيهِ ... جرحَتْه خناجرُ الأبْصارِ
كُلّما كرّ ناظِرٌ فيهِ أبْدى ... لُؤلؤاً مُطْبِقاً على جُلّنارِ

فالشاعر الوأواء يتغزل بجمال محبوبته الفتان ، فهي كالبدر لا بل كالشمس وريقها يبعث النشوة في النفس كما تبعثها الخمرة ودون ضررها . وهي ناعمة يجرحها اللمس وعيونها تقوم مقام المِبْضَعِ .

والغزلُ الحسي بنوعيه الفاحش وغير الفاحش كان أكثر اتجاهات الغزل شيوعاً وكمّاً .

أما النوع الأول فالمقصود به ذلك الغزل الذي يرتبط بالنوازع الحسية

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي ـ مخطوط في دار الكتب المصرية (٤٤٣) .

المادية فحسب ويشعر الإنسان بنهم صاحبه . أما الغزل الحسي غير الفاحش فمداره شعور الحب نفسه وتأثيره في نفس المحب ومدى ارتباطه واندماجه معه . وموقف الحبيبة من صاحبها في الصد والوصال إلى ما سوى ذلك من النواحي المعنوية التي لا تتعرض لمواضع حسية في المحبوبة [١] .

والمرأة العربية الحرة لم تعد موضوعاً لهذا الغزل في ذلك العصر إلاّ في القليل النادر وذلك لكثرة الإماء والجواري والقيان وغزوهنّ المجتمع غزواً كبيراً فقد كثرن على اختلافهنّ منذ أن اتصل العرب بغيرهم من الأمم ، أما بالنسبة لحلب فقد أدت حروب سيف الدولة مع الروم إلى زيادة الجواري الروميات في الشام في عصر الحمدانيين وكان لذلك أثره في انتشار الخلاعة والمجون والتغزل بالجواري .

وأغلب الظن أن حروب سيف الدولة مع الروم قد شغلت حلب إلى حد كبير عن الإفراط في هذه الملاهي التي أفرطت فيها بغداد إلى حد عظيم ويقول الثعالبي : « وكان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب » [٢] .

وينبغي أن نذكر أن المرأة التي هي مدار شعر الغزل في القرن الرابع الهجري كانت أمة إمّا فارسية أو رومية أو هندية أو غير ذلك من أجناس أولئك الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي . وهي تخالطُ الرجال وتجلس إليهم وتغدو وتروح في غير تحرج .

ولقد وصف كشاجم حياةَ القِيان من غناء ولهو ورقص وعبث فقال [٣] :

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – الدكتور محمد مصطفى هداره (٥٠٣) .
(٢) الامتاع والمؤانسة (١ / ١٥١) .
(٣) ديوان كشاجم المخطوط (١٣) .

ومنزلُ قَينــةٍ سهلِ الجنابِ تضمَّن كلَّ آنسةٍ كعابِ
غَذَتها نعمةٌ ولذيذُ عيشٍ فأنبتَ صدرُها ثمرَ الشبّابِ
فمِنْ عوّادةٍ تشدوُ وأُخْرى بمِعزَفَةٍ وأُخْرى بالرّبابِ
ومُحْسِنَةٍ مُوقّعَةٍ بطَبْلٍ كصوتِ الرّعد من خللِ السحابِ
وشافعَـــةٍ صواحبها بنــاي أحنَّ من الخليع إلى التصابي
وراقصَةٍ على كُرَةٍ وحبْلٍ كخطف البرق أو لمْع السّرابِ

ويبدو أن الشاعر زار منزل قينة قد اجتمع إليها كل آنسة كعاب فوصف العُودَ ورسم مجموعة الآلات الموسيقية معاً فهناك عَوّادةٌ تشدو وأخرى لها مِعْزَفَة ، وثالثة لها ربابٌ ورابعة محسنة توقع بطبْلٍ كصوت الرعد من خلَلِ السحاب .

ويستطرد الشاعر فيصف مجونه وعبثه في بيت القِيان [١] :

رَكبْتُ بهِ مطايا اللّهو حتى حطَطْتُ به مطلّحَةً ركابي
فما بقيتْ بهِ عــذراءُ إلاّ صَبَتْ نحوي وهام فؤادها بي
أُواصِلُ هذهِ فتغارُ هذي وتعْتِبُ أو تَعَرَّض للعتابِ
وأخرى بيننا بالكُتبِ تسعى مُكاتمةً وتَرجعُ بالجوابِ
فما إنْ رمتُهُ حتى تَوَلّى بذاتِ يدي وأودى باكتسابي

وقال كشاجم يصف غناء مغنية شغلتْ عقول السامعين بحسن صوتها [٢] :

ولها من الأوتارِ حينَ تجُسّها أذنٌ على حجُبِ القلوب لطيفُ

(١) المصدر والمكان نفساهما .
(٢) اليتيمة : ط ١٩٣٤ (٢ / ٣١) .

شغَلَتْ عقولَ السامعينَ فكلّهم مُصغٍ إلى نغَماتِها مصروفُ
تردُ الجوانحَ والعقول شواخصٌ فيها فتقعدُ والقلوبُ وقُوفُ

وكشاجم يصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة ، وفي قصائد عديدة وهذا يدل على أنه كان منغمساً في حياة الغناء والعشق والطرب ، يقضي وقته منصرفاً إليهما في شغف ولذة .

ويرسم كشاجم العازفة وهي تضرب بيمناها وتطوّق العُود بيسراها ، فتتحدث إليه ويتحدث إليها ويشتبكان في نغم جميل وغناء عذب فيقول :

ومُسْمِعَةٍ تَحْنُو على مُتَرَنِّمٍ له زَجَلٌ عالٍ وليس له سحْرُ
إذا طرّقتْهُ بالأناملِ والتَقَى على جسمه منجسمِها الصدرُ والنحرُ
بكى طرباً فاستضحكَ اللّهوُ نحوهُ وفُضَّتْ عُرا الألباب واستلب الصّدر

وقال أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي يصف قينة فاتنة الجمال تحن على عودها [1] :

وبنتِ خِدْرٍ تُريكَ صورتها بدْرَ الدّجى في ردائها العَطِرِ
حنّتْ على عُودها وقد بُزِلتْ مُدامُنا جَمْــرَةً بلا ضرَرِ
يا تاركاً طِيبَ يومهِ لِغَــدٍ تبيعُ عينَ السرورِ بالأثَرِ
إنْ وتَرَتْ قلبكَ الهموم فما مثلُ انتصارٍ بالنّاي والوَتَرِ

ولقد طرق كثير من شعراء سيف الدولة الغزل الحسي الماجن وكان للجواري والأديرة التي كان يطرقها الشعراء للهو والعبث والمتعة في مجالسها

---

(١) ديوان الخالديين (٦٠) .

أثر في منهجهم الأدبي . هذا بالإضافة إلى تأثرهم بالتراث الشعري الماجن في العصر العباسي الأول .

ومن شعراء الغزل الذين سَلُسَ غزلهم وجاشت عواطفهم الوأواء الدمشقي الذي يعد إمام الغزليين في بلاط سيف الدولة وكان بارعاً في تصوير تباريح العشق واللوعة .

ولقد اهتم في غزله بالزخارف اللفظية من تشبيهات واستعارات وغلب على شعره الرقة والسلاسة والعذوبة . وديوانه أغلبه غزلٌ لأنه كان حياته كلها فيما نعتقد . وأغلبه مقطوعات قصيرة تتراوح بين ثلاثة وستة أبيات وهو يعلن في شعره الحب الفاجر والعفيف وهو في الحالتين عبد طائع للمحبوب ذليل شقي في عشقه وحبه . ومن جميل غزله قوله [1] :

وزائرٍ راعَ قلبَ الناسِ منظرُهُ ... أحلى من الأمنِ عندَ الخائفِ الوجلِ
ألقى على الليل ليلاً من ذوائبِه ... فهابه الصُّبْحُ أن يبدو من الخجَلِ
أرادَ بالهجرِ قتْلي فاستجرْتُ بهِ ... فاستلَّ بالوصل روحي من يديْ أجلي
وصرتُ فيهِ أميرَ العاشقِينَ فقدْ ... صارتْ إمارةَ أهل العشقِ من قِبَلي

ومن غزله الجميل الذي يفيض رقة وعذوبة قوله :

قالتْ وقد فتَكَتْ فينــا لواحظها ... لِمْ ذا ؟ أما لقتيل الحبّ من قَوَدِ ؟
وأسبلَتْ لؤلؤاً من نرجس وسقَتْ ... ورْداً وعضَّتْ على العُنّابِ بالبرَدِ
إنسانَةٌ لو بدتْ للشمس ما طلعَتْ ... من بعدِ رؤيتها يوماً على أحَدِ

وإلى جوار الغزل الحسّي الماجن وجِد غزلٌ عفيف يميل إلى العفة ويبتعد

---

(١) ديوان الوأواء (١٠٣) .

عن الإغراق في العبث واللهو والمجون ، ولعل معاني الفروسية التي كانت تسودُ في مجتمع الأمير كان لها أثر في هذا اللون من الشعر كالذي يجده الباحث في غزل أبي فراس فغزله فيه اتجاه حسي ولكنه لا يتسم بالفحش والخلاعة .

تغزل أبو فراس بالمرأة ووصف مفاتنها وشبّهها بصور محسوسة استمد بعضها من أسلافه الشعراء واستمد بعضها الآخر من واقع مجتمعه وبيئته وعصره فهو يعجب بالمقل النجلاوات التي تشبه عيون الظّباء وسهامها كظُبا الصوارم القاطعة وأنه ليقول [1] :

كيفَ اتقاءُ لحاظهِ وعيونُنا ... طُرُقٌ لأسهمها إلى الأحشاءِ
كيف اتقاءُ جآذر يرميننَـا ... بظُبا الصوارِم من عيون ظباءِ
يا ربّ تلك المقلة النجلاء ... حاشاكَ مما ضُمّنت أحشائي

ومحبوبته ظبي نافر وقمر دون حسنه الأقمار [2] .

قَمَرٌ دُونَ حُسْنهِ الأقمارُ ... وقضيبٌ من النقا مستعارُ
وغزالٌ فيهِ نفارٌ ولا بـِـدْ ... عَ فمن شيمةِ الظِّباء النّفارُ
قد حذرْتُ المِلاح دهْراً ولكنْ ... ساقني نحو حُبّه المِقْدارُ

ويوازن أبو فراس بين الحبيبة التي تبتعد عن الوفاء وتنسى الحبيب وبين الحبيب الذي يفي بعهده ويهب نفسه للمحبوبة [3] فيقول :

أنَسيتَ ذِكْرُ أحبّـــةٍ ... ينسَوْنَ ذِكْراً غيرَ ذكركْ
وصبرتَ عنـــدَ فِراقِهم ... ما كان عُذركَ عند صبركْ

(١) الديوان (٢ / ٧ ــ ٨) .
(٢) الديوان (٢ / ١٩٤) .
(٣) الديوان (٢ / ٢٧١) .

ووفَوْا بعهدكَ في الهَــوى فجزَيْتهـُمْ ظُلْماً بهَجْرَكْ
وعَصَيْتَهُــمْ ولطـــالما كانوا خلافَكَ طوعَ أمرِكْ

والملاحظ على غزل أبي فراس كثرة المقطوعات وتأثره فيه بفروسيته فمزج بين الغزل والفروسية ومثال ذلك قوله[1] :

لم أنْسَ قولتَهنَّ يومَ لقينَني أزرى السّنان بوجه هذا البائسِ
قالتْ لهنّ ، وأنكرتْ ما قُلنه أجميعكنَّ على هواهُ منافسي ؟
اني ليُعجبني ، إذا عـــاينتُه أثَرُ السّنانِ بصحن خدّ الفارس

ومن الشعراء الذين طرقوا الغزل العفيف أبو الطيب المتنبي وغزله تغلب عليه الصنعة ولا صلة بينه وبين العاطفة ومن المتفق عليه أنه ضعيف المعاني الخيالية قصير النّفَس في غزله[2] :

وصرف المتنبي حبه الحق إلى السيوف والقَنا وتمجيد البطولة فقال :

تقولينَ ما في النّاسِ مثلكَ عاشقٌ جدي مثل مَن أحببته تجدي مثْلي
محبٌّ كَنَى بالبيضِ عن مُرهَفاته وبالحسن في أجسامهنّ عن الصَّقْلِ
وبالسّحرِ من حُمرِ القَنا غيرَ أنّني جناها أحِبّائي وأطرافِها رُسلي

فغزل المتنبي لا ينسيه الكلف بالحرب وذكرها فهو يصف منعة الحبيب وما يحيط به من شدائد وأهوال فيقول :

دِيارَ اللّواتي دارهُنَّ عَزِيــزَةٌ بطولِ القَنا يحفظنَ لا بالتمائمِ

---

(١) الديوان (١ / ١٧٤) .
(٢) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر — الدكتور عبد السلام سرحان (٥١٣) .

فالمتنبي ليس في طبعه ونزوعه من أهل الغزل ولكنه حينما أراد أن يتغزل تأسياً بالشعراء استطاع أن يجيد [1] . وظهر في غزله الاتجاه الشعري الذي عرف به من الاحتفال بالمعـــاني والمبالغات والتعمق في الألفاظ اللغوية ولكنه أبان عن مقدرة تامة وبراعة مدهشة وإحاطة غريبة بالمعاني الغزلية . ومن جيد ذلك قوله [2] :

قَبَّلْتُها ودموعي مزج أدْمُعِها وقبَّلْتَني على خوفٍ فماً لِفَمِ
فذُقْتُ ماءَ حياةٍ من مُقَبَّلِها لو صاب تِرْباً لأحيا سالفَ الأممِ
تَرْنُو إليَّ بعينِ الظَّبْيِ مجْهِشَةً وتمسَحُ الطلَّ فوقَ الورْدِ بالعنمِ [3]
رويد حكمكِ فينا غَيْرَ مُنصِفَةٍ بالنّاسِ كلهم أفديكِ من حكمِ

وذوق المتنبي في الجمال ذوق بدوي ، فهو يكره الحضريات ذوات الجمال المكتسب بالمساحيق ويحب البدويات البعيدات عن كل تصنع :

فنشرتَ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها في ليلةٍ فأرَتْ ليـــالي أربَعا
واستقْبَلَتْ قمَرَ السّماء بوجهها فأرَتْنِيَ القمَرينِ في وقتٍ معَا

وكقوله :

لَبِسْنَ الوَشْيَ لا متجَمّلاتٍ ولكنْ كي يَصُنَّ به الجَمالا
وضَفّرْنَ الغَدائرَ لا لحسْنٍ ولكن خِفْنَ في الشَّعْرِ الضَّلالا

وظهر اتجاه الحكمة في غزل المتنبي وحلل الحب وبين غايته ومداه بأسلوب منطقي :

(١) ذكرى أبي الطيب : عبد الوهاب عزام (٣٣٢) .
(٢) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٤ / ١٥٤) .
(٣) العنم : قيل هو ضرب من الشجر له نور احمر تشبه بـه الاصابـع المخضوبة .

إنَّ القَتيلَ مضَرَّجاً بدموعِــهِ مثلُ القَتيلِ مضرَّجاً بدِمائِهِ
والعشْقُ كالمعشوقِ يعذُبُ قربُهُ للمُبْتلي وينالَ مِنْ حَوبائِهِ

ومن شعراء الغزل العفيف الشاعر أبو الفرج الببغاء ومن شعره في هذا اللون قوله يفدّي محبوبته بروحه[1] :

يا سادَتي هذهِ روحي تودّعُكم إذ كان لا الصَّبرُ يُسليها ولا الجزَعُ
قد كنتُ أطْمَعُ في روحي الحياةَ لها والآن إذ بِنْتُمُ لم يبقَ لي طَمَعُ
لا عذَّبَ اللهُ روحي بالبقاءِ فما أظُنّها بعدكم بالعيشِ تنتفعُ

ويتحدث الببغاء عن حبّه العفيف الشريف فيقول :

جاورتُ بالحبّ قلبْاً لم تذُرْ فِكَرِي للحُبِّ مستمتعاً فيهِ ولم تدَعِ
يَصْبو ولكن يكُفّ الحِلمُ صَبْوَته وأشْرَفُ الحبّ أثناهُ منَ الورَعِ
وبي أمسّ غرامٍ لو أنِستُ إلى الشـ ـكوى ولكن أُعِدّ الصّبرَ للجزَعِ

وللوأواء غزل عفيف بديع امتاز بسلاسة اللفظ ورقة المعنى وقوة العاطفة . ومن ذلك قوله في صد المحبوبة وهجرها[2] :

يا مَنْ رضاهُ حياتي في تَعتّبِهِ ومَن مماتي جَفاهُ في تَغَضّبِهِ
هجرتني ظالماً مِنْ غيرَ ما سَبَبٍ ففاضَ دُمْعُ عُذولي من تعَجّبهِ
ما خانَكَ الطّرْفُ منّي قَطّ في نظرٍ ولا سَلا عنكَ قَلْبي في تقَلّبهِ
وأنتَ واللهِ يا سُؤْلي ويا أمَلي أعزّ في مُهجتي ممّا أراكَ بهِ

ويبالغ الوأواء في وصف تباريح الشوق والمحبة حتى إن جسمه لا يبينُ

---

(١) شذرات الذهب ، ج ٣ (١٥٢) .
(٢) ديوان الوأواء المخطوط (٢٥ ــ ٢٦) .

للناظرينَ من السّقْم والهُزال الذي اعتراه من شدة الحب والوجد[1] فيقول :

أَلِفَ السّقْمُ جسْمَهُ والحَنينُ وبَراهُ الهَوى فلَيْسَ يَبينُ
قدْ سَمِعْنا أنينَهُ مِنْ قَريبٍ فاطْلُبوا الجسْمَ حيثُ كان الأنينُ

وطرق بعض الشعراء الحمدانيين مجال الغزل بالمذكر . ولم يعرف عن شعراء العرب الميل إلى هذا اللون من الشعر قبل القرن الثاني الهجري وكل الدلائل تشير إلى شيوع هذه العادة السيئة وانتشارها في العصر العباسي منذ منتصف القرن الثاني للهجرة عن طريق الفرس وفي القرن الرابع الهجري شاعت تلك العادة لدى شعراء العراق ومنها انتقلت إلى بلاد الشام في عصر سيف الدولة وهناك عوامل عدة ساعدت على انتشار هذه الروح في عصر سيف الدولة .

أولاً : وفرة الجواري في هذا العصر وشيوع التهتك والخلاعة والمجون بينهن مما أدى للأسف إلى وجود تيار ماجن شجع بعض الشعراء على الإيغال في المجون والعبث وطرق مجال الغزل الفاحش بالمؤنث والمذكر .

ثانياً : شيوع مجالس الخمرة ووصف مجالسها والتي كان سقاتها من فتيان الروم والفرس وكانوا على جانب من الملاحة والخلاعة مما دفع بعض الشعراء إلى التغزل بأولئك السقاة .

ثالثاً : كثرة الرقيق من الغلمان من مختلف الأجناس الذين كانوا على حظ وافر من الجمـــال وكان منهم من يعمل في خمارات الأديرة ومنهم من كان يخدُم في قصور الأغنياء والموسرين ومنهم من عمل في خدمة الشعراء في مجالسهم وبيوتهم ينادمونهم ويقومون بقضاء حوائجهم .

---

(١) ديوان الواواء المخطوط (٢٩) .

ولم ينقطع شعراء الغزل في المذكر انقطاعاً تاماً إليه ، إنما طرقوه كما طرقوا الغزل في المؤنث ومن الشعراء الذين أكثروا القول في المذكر أبو بكر الصنوبري ، الذي كان شاعراً رقيق الحس عذب اللفظ بارع الخيال والتصوير ومن قوله في وصف حبه لغلام اسمه جعفر [1] :

أأطيلُ في وصفِ الهوى أم أقصِرُ وأذيعُ مكتومَ الأسى أم أستُرُ
يا جعفَرُ العالي على بدْر الدُّجَى بلكَ نالَ بهجَتَه وجهِه يا جعفرُ
تمّتْ خلالُ الحُسْنِ فيكَ فكلُّها تُثْني عليك إذا تَعُدّ الخنصرُ

والجدير بالذكر أن تيار الشعر الماجن في بيئة حلب كان تياراً محدوداً لأن السمة الغالبة على تلك البيئة آنذاك هي سمة الجد والاستقامة والارتباط بالقيم والمثل والتصدي للخطر الرومي .

ومجمل القول أن شعراء الغزل اهتموا باللفظ الرشيق والتعبير الرقيق والمعنى الدقيق والحركة والموسيقى الراقصة وأبدوا اهتماماً بتأوّدِ الأعطاف وتثني القُدود الممشوقة وجددوا في الأوصاف الجسمية وأسبغوا عليها من أصباغ الحضارة وأضواء الثقافة عناصر طريفة إلاّ أن غزلهم خال من العاطفة الصادقة والأحاسيس الجياشة ومنبع العاطفة عندهم في الأغلب هو العقل لا القلب ، وقد كثرت التشبيهات والمحسنات اللفظية والمبالغة في قصائدهم مما أضعف من قوة العاطفة وفيض الشعور .

ومزج بعض شعراء هذا الفن كأبي فراس والمتنبي بين الغزل والفروسية والحماسة الحربية .

---

(١) ديوان الصنوبري (٦٥ ـ ٦٦) .

الخمر

وجد فن الشعر الخمري في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي إذ أن الشعراء أغرموا بوصفها لما تضفيه على نفوسهم من متعة وسرور ولما تبعثه في قلوبهم من نشوة وحبور فهم يغرقون بها آلامهم وهمومهم ويطمسون فيها أحزانهم وأتراحهم .

ولقد كان شعر الخمريات منتشراً في الشعر الجاهلي في أبيات قليلة لم يقصد فيها أصحابها إلى وصف الخمر ، ولكنهم ذكروها لبعض المناسبات ومروا بها مروراً سريعاً فقالوا إنها حساء وإن ريحها طيبة فواحة كالمساك وإنها معتّقة ، وشبّهوا بها رُضاب صواحبهم ووصفوا الساقي الذي يحملها في بعض الأحيان [1] :

كذلك تحدثوا في أبيات قليلة عن آثر الخمر في نفوسهم ، وعرضوا لآنية الشراب فلم يزيدوا على وصف الأدوات بأنها مقيدة ووصفوا الإبريق بأنه من الفضة فحسب . وكذلك وصفوا الخمر بالصفاء وبأنها كالدم أو كدم الغزال بالذات [2] . ويضيف أحد الباحثين أننا نقع في إحدى القصائد الجاهلية على وصف شعاع الخمرة وفي سواها على وصف تأثيرها ، كما نعثر في قصائد

---

(١) اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الاعشى والجاهليين : محمد محمد حسين (٧) .
(٢) تطور الخمريات في الشعر العربي : الدكتور جميل سعيد (٣٤) .

أخرى على وصف مجلسها وآنيتها ، دون أن تجتمع هذه المعاني في قصيدة واحدة ، موصولة كما سنشهد في العصر العباسي [1] .

والخمر في صورة عامة عند الشعراء الجاهليين لا يختلف وصفها بين شاعر وآخر والأوصاف الجاهلية للخمر لا تخرج عن تشبيه المحسوس بالمحسوس وتعد أغلب هذه الأوصاف أولية ساذجة إذا قيست بما بلغه الفن الخمري في العصر العباسي .

وفي القرن الأول لم يطرأ تغيير كبير على شعر الخمرة ، وأبرز الشعراء الذين اهتموا بها في ذلك القرن هو الأخطل الذي قلّد الجاهليين وكان شعره الخمري على الأغلب مثبتاً في قصائد المدح كما كان الأمر في الشعر الجاهلي . وعلى الرغم من أنه أدمن الخمر ، فإنه لم يعرض لها بقصيدة مستقلة ، إلاّ في فلتات نادرة ، والذي أنجاه من العقوبة على القول فيها هو مناصرته للأمويين ومدحه البالغ لعبد الملك بن مروان .

أما في القرن الثاني فلقد تبدل الشعر الخمري تبدلاً كبيراً في الشكل والمحتوى على السواء فتخصص بعض الشعراء المتحللين في هذا الفن وكادوا أن يقصروا عليه حياتهم وشعرهم واتخذوا من القصيدة الخمرية مجالاً للتعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم نحو أم الكبائر ، وظهرت اتجاهات جديدة في شعر الخمرة لم تكن موجودة من قبل . ولعل أبا نواس يعد رائد هؤلاء الشعراء الماجنين الفاسقين في عصره . فقد وقف حياته أو كاد على وصف الخمر والتغني بها فهي مذهبه الشعري وما عداها من أغراض خاض فيها اضطراراً لكسب العيش أو شفاء لما في نفسه من حب وشوق أو لغير ذلك من أسباب طارئة أو ثابتة .

---

(١) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب : ايليا حاوي (١٥) .

ولقد أصبح القول في الخمر مذهباً لأبي نواس يصبه في قوالب صناعية متقنة وتشبيهات رائعة ومعان مبتكرة ويكاد بشعره يكون معجماً للخمريات يضم أشتات أسمائها وأدواتها وأوقات مزاولتها ويتحدث عن الساقي والساقية والنديم فيها والمغني لها وغير هذا وذاك من مستلزماتها .

وقد سار شعراء الخمر على نهج أبي نواس فردّدوا معانيه وعرضوها في صيغ متجددة وأساليب متعددة ومعان مبتكرة . وأفكار مفترعة لم يدركها أحد من السابقين .

وفي عصر سيف الدولة أكثر الشعراء من التغني بها وتسابقوا إلى وصفها وذكر مجالسها فأتوا بالطريف المبتكر والبديع الحسن والجديد المستحدث الجميل الرواء .

ولعل من أشهر شعراء الخمرة في رحاب سيف الدولة الخالديين والسريّ الرفاء والوأواء الدمشقيّ والخليع الشاميّ وأبا الفرج الببغاء وكشاجم والصنوبريّ، الذين تأثروا جميعاً بأبي نواس فساروا على نهجه وثاروا على الأطلال التي عَفَتْ صورها وزالت معالمها واندرست رسومها .

فهذا أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي يقول [1] :

لا وجُفُون تنُوسُ في العُقَدِ ... وحسْنِ ثغرٍ يلوحُ كالبرَدِ [2]

لا كنتُ ممّن يُضيعُ أدمعَهُ ... بينَ الأثافي والنّوي والوَتَدِ

أحسَنُ من وقْفَةٍ على طلَلٍ ... قَفْرٍ وزَجْرٍ العيرانةِ الأجُدِ [3]

(١) ديوان الخالديين (٥٠) .

(٢) ناس الشيء نوسا ونوسانا : تذبذب متدليا وتحرك .

(٣) العيرانة من الابل : التي تشبه بالعير في سرعتها ونشاطها . وقيل الناجية في نشاط . وناقة اجد : قوية موثقة الخلق ، ولا يقال للبعير أجد .

كأسُ مُدامٍ جلَا المُديرُ بها   أمّ الليالي وجِـدّةِ الأبَدِ

فأنت ترى أن الشاعر يعرّض بمن يذرِفُ دموعه على الأطلال ولا يقبلُ أن يقفَ عليها ويفضل على ذلك كأس الخمْر التي تبعث النشوةَ والمسرّة والتي هي أمّ الليالي .

وقال كُشاجم يدعو إلى عدم الوقوف على الأطلال ويشجبُ البكاءَ على النّؤي والطنُبِ ووصْفَ الجِمالِ فأبى من ذلك وأجمَلُ معاقرةُ بنت الحانِ والكرمة (١) .

لا تُطنِبنْ في بكاء النّؤيِ والطُّنُبِ   ولا تحيّي كثيبَ الحيّ من كثبِ (٢)
ولا تَجُدْ بغمامٍ للغَميمِ ولا   تسمحْ لسرْبِ المَها بالواكفِ السرِبِ (٣)
رَبْعٌ تَعفى فأعفى من جوًى وأسى   قلبي وكان إلى اللذّات مُنقلبي
سيّانَ بانَ خليطٌ أو أقامَ بـه   فإنما عامرُ البَيْداء كالخَرِبَ
أبى وأجملُ من وصفِ الجِمال ومن   إدمانِ ذكْرِ هوًى يُهوي على قتبِ (٤)
مَدٌّ البنانِ إلى كأسٍ على سَكَرٍ   ورفعُ صوتٍ بتطريبٍ على طَرَبِ

ويصرح الصنوبري انه ليس من مذهبه الوقوفُ على الأطلال ووصف ركوب الإبل إلى الممدوح والسّرى قاطعاً المهامه فيقول (٥) :

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) ، ونسبت هذه القصيدة الى ابي بكر الخالدي .
(٢) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت او الوتد ، جمعها أطناب وطنبة .
(٣) الغميم : لبن يسخن حتى يغلظ . سرب المها : القطيع من الظباء والنساء وغيرها . والسرب : الماء السائل ، ويقصد به هنا الدمع ، ووكف الدمع سال قليلا قليلا .
(٤) القتب : قيل هو أكاف صغير على قدر سنام البعير .
(٥) ديوان الصنوبري (٧٩) .

لم أُعَرِّجْ على طُول بتيما ءَ ولم أسرْ في الدّجى بالعيرِ
إنما عيرُنا الكؤوسُ نَراهـا سائرات تُحدى بناءِ وزيرِ[1]

ويدعو الصنوبري أيضاً إلى عدم البكاء على الأطلال والدّمن وينادي باصطباح الصَّهباء الصافية التي تبعث النشوة والسعادة في النفس وتذهب بالحزن والألم فيقول[2] :

لا تبكِيَنَّ على الأطلالِ والدِّمَنِ ولا على منزلٍ أقوى من الزَّمَنِ
وقُمْ بنا نصطبحْ صهباءَ صافيةً تنفي الهمومَ ولا تُبقي من الحَزَنِ
بِكْراً معتّقةً عذراء واضحةً تبدو فتخبرُنا عن سالفِ الزَّمنِ

وقال الصنوبري أيضاً[3] :

لا تبْكِ ربعاً عفا ولا طَلَلا ولا تصِفْ ناقةً ولا جملا
وعاطني قهوةً إذا مُزِجَتْ أرَتْكَ منها في كأسها شُعَلا

ويصرح السري الرفاء شاعر الخمر الرقيق الإحساس بإعجابه بأبي نواس فيقول[4] :

ألا عُدْ لي بباطيةٍ وكاسٍ وُرْع همّي بإبريقٍ وطاسِ
وذكّرْني بشعْرِ أبي نواسٍ على روض كشعر أبي نواسِ

وقال أيضاً معبّراً عن إعجابه بأبي نواس[5] :

---

(١) النناء : الناي . الزير : من أوتار العود .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٩٦) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٨٥) .
(٤) ديوان السري (١٥٢) .
(٥) ديوان السري (١٤٩) .

سأتركُ مَن أهوى بما هو أهلُهُ ولو كان من أهوى يُشاكله البدرُ
وأصْبو إلى قول الذي قد عرفتُما (ألا فاسقني خمرْاً وقل لي هي الخمرُ)

ولقد فُتِنَ شعراء عهد سيف الدولة بالخمر وأكثروا من ذكرها في أشعارهم فوصفوها وصفاً رائعاً وذكروا أسماءها ووصفوا مجالسها وآلات تقديمها وأدوات شربها فتحدّثوا عن الزّقّ والدّنّ والكأس والإبريق ووصفوا حَبابَ الكؤوس والساقي والساقية والنديم . كما ذكروا أماكن شربها فتحدثوا عن الحانات التي في الأديرة وسواها .

ولقد عالج كثير من شعراء الأمير الحمداني وصف الخمرة وأدوات شربها وتفننوا في ذلك وممن طرقوا هذا الباب وبرَعوا فيه الوأواء الدمشقي — الذي يعد من أرق الشعراء الحمدانيين شعراً — ومن قوله يصف الخمر ويشبّه لونها الأصفر بلون العاشق المدْنف شديد الحبّ والوجد [1] :

وهَيْفاءَ من نُدَماءِ الملوكِ صفراءَ كالعاشقِ المدنفِ
تكيدُ الظلامَ إذا كادَهـا فتفْنى وتُفنيهِ في موقفِ

ويعشق الوأواء الخمرة عشقاً بالغاً — ويفنى في حبها ويخاطب غلامه أن يسارع بها إليه قبل أن يدركه الموت فيقول :

قُمْ يا غُلامُ إلى المُدامِ قُمْ داوني منهـا بجامِ
فالصبْحُ ينتهِبُ الدُّجـى والبدرُ يضحكُ في الظّلامِ
قُمْ فاسْقِني بَرْقَ الثّغْو رِ فقد مضى بَرْقُ الغَمامِ
بادِرْ إلى صِرْفِ الحميّـا سابقـاً صَرْفَ الحِمَـامِ

(١) ديوان الوأواء المخطوط (٩) .

وتَغْتَنِمِ الغَفَلاتِ مِنْ دَهْرٍ يَجُورُ على الكِرامِ

ووصف كشاجم عشق الخمرة وقدمها فشبهها تشبيهات جميلة فهي كالعقيق وكالضياء الذي ينسل من الظلام[1] :

فاسقنيها حتى ترى الشمس في الغرْ ب علَيْها غِلالَةٌ صفراءُ
قَهْوَةٌ بابليّةٌ كدَمِ الشّا دِنِ بِكْرٌ لكنّها شَمْطاءُ
قَد كستْها الدّهور أردية الرّقّ ةِ حتى جَفا عليها الهَواءُ
عَجَباً ما رأيتُ من أعْجَبِ الأشْ ياءِ تَقْديرَ مَنْ لَهُ الأشياءُ
سيح يستَحيلُ منْهُ عقيقٌ وظلامٌ يَنْسَلّ منهُ ضِياء

وكُشاجم الذي عرف بلطائفه واشتهر بها كلِفَ بالخمرة وفُتن بها ورثى قَدَحاً انكسر وتفجّع عليه وكأنه يتفجع على عزيزٍ فقَدَه أو حبيبٍ ثكله فقال وهو من بديع لطائفه[2] :

عَراني الزّمانُ بأحْداثِهِ فبَعْضاً أطقْتُ وبعضٌ فدَحْ
وعندي فجائعُ للحادثاتِ وليسَ كفَجْعتِنا بالقَدَحْ
وعاءُ المُدامِ وتاجُ البَنانِ ومُدْني السرورِ ومُقضي التّرَحْ

وقد ولع أبو الفرج الببغاء بالخمر ووصفها وصفاً بارعاً فهي في الدّنّ الأسود كالصباح المقارن للمساء فهي نار تذكي بالماء وشمس في الظلماء وشعاع ممازح للهواء[3] :

ومُدامٍ كأنها في حشا الدّ نّ صباحٌ مقارنٌ بمساءِ

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٤) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٦٢) .

فهي نفسٌ لها من الطينِ جسمٌ ... لم تُمتَّعْ فيه بطولِ البقاءِ
ما توهمْتُ قبلَها أن في العا ... لَمِ نارًا تذكى بقرْعِ الماءِ

وتحدث الببغاء عن عِتْق الخمرة وهو من أبرع ما قيل في هذا المجال إذ أضفى عليها من أوصاف القِدَم كلّ جديد طريف ، ورجع بها إلى الأزل قبل الشمس والنور والظلام واشتقّ اسمها من سالف الأمم [1] :

وعريقةِ الأنسابِ والشِّيَمِ ... موجودةٌ والخلْقُ في العدَمِ
قَدُمَتْ فلا تُعزى إلى حدَث ... إلاّ إذا عُزِيَتْ إلى الهرَمِ
هي آدمُ الكرْمِ المولَّدِ في الدّ ... نْيا وحوّا الخمر في القِدَمِ

ويولد الببغاء المعاني الطريفة في وصفه للكأس فيصفه بالهواء وزرقة الحدَق [2] بعد أن ذكر أنها في صفوها تشبه خلقه ، وفي عنقها تمثل كرمه :

فعاطنيها بكراً مُشَعْشَعَةً ... كأنها في صفائِها خُلُقي
في أرزقٍ كالهواء يخرقه الـ ... لحظُ وإن كانَ غيرُ منْخَرِقِ
كأنَّ أجـزاءهُ مُركّبَةً ... حُسْناً ولطفاً من زُرقةِ الحدَقِ
ما زلتُ منه منادماً لَعِبـاً ... مُذْ أسكرتْها السقّاةُ لم تُفِقِ
تختالُ قبلَ المِزاجِ في أزرقِ الـ ... فجرِ وبعدَ المِزاجِ في الشّفقِ

وكما وصف الببغاء الخمر وحبَب الكؤوس وصف كذلك المعصرة وصفاً دقيقاً جميلاً وتحدّث عن الخمرة وقصتها وتعجّب كيف يعيشُ العاصر وهو يخوضُ في بحرٍ من الذّهب فقال [3] :

---

(١) المصدر السابق (٢٦٢) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٦٣) .
(٣) المصدر نفسه (٢٦١) .

ومَعْصَرَةٍ أنَخْتُ بهَا وقَرْنُ الشمسِ لم يَغِبِ
فخِلتُ قِزازهــا بــالرّا حِ بعض معادنِ الذّهبِ[1]
وقد ذرَفَتْ لفقْدِ الكَرْ مِ فيها أعيُنُ العِنَـبِ
وجاشَ عُبــابُ واديهـا بمُنْهَلٍّ ومُنْسَكِـبِ
وياقوتُ العَصــيرِ بهـا يلاعِبُ لؤلؤ الحَبَبِ
فيــا عَجَبــاً لعاصرِهــا ومــا يُغْني به عَجَبي
وكيف يَعيشُ وهْوَ يخُو ضُ في بَحْرٍ من اللّهبِ ؟

وقد وصف السري الرفاء الخمرة وصفاً بارعاً وأكثر من التشبيهات الجميلة[2] :

ألا فاسْقِني الخمْرَ مشمولةً تصُبُّ على الليلِ صُبحاً مُنيرا
مُوَرّدَةُ اللونِ مِسْكِينَةً تعِزّ الذّليلَ وتُغني الفَقيرا
كأنّ العَقيقَ بكاساتِهـــا نفضَ السقاةُ عليها العبيرا

وشبّه السريّ لون الخمرة الأحمر بالياقوت وشبّه صورَ كسرى وقيصر التي تزين الكأس بالحَصَب التي تُسعر النار وما النار إلاّ الخمرة[3] :

حمراءُ كالياقوتِ صافيَةً ومعظَمُ الياقوتِ أحْمَرُهُ
فهيَ التي عصرَتْ لقــاطِفِها عُنقودُها من قبلِ يعصرُهُ
في كأسِهِ كسرى يُقــابلُهُ من خلفِ سترِ الرّاحِ قيصرُهُ
فكأنّما ناراهمــا حَصَبٌ لحريقِها العــالي يُسَعّرُهُ

(١) القزاز : جمع قازوزة وهي القدح والقازوزة الصغيرة .
(٢) ديوان السري نفسه (١٣٤) .
(٣) المصدر نفسه (١٢٦) .

ووصف الدّنان والكؤوس [1] :

ودنانٍ أقمنَ صفّاً كما قا　　مَ غداةَ اللّقاء رجْلٌ حروبِ
وبَواطٍ كأنهُنّ وِهــادٌ　　أترعتْها سجالُ غيثٍ سكوبِ
فكأنّ الكؤوس فيها جُنوحاً　　أنجُمُ اللّيل صوبت للمغيبِ [2]

ورسم صورةً بارعةً للفرسان شاكي السلاح الذين تزين صورهم الكأس [3].

وموسُومَةٍ كــأساتها بفَوارِسٍ　　من الفُرس تطفو في المُدامِ وتغرقُ
أقبَلُ منهم كلّ شاكٍ سِلاحَهُ　　وفي يدِه سهمٌ إليَّ مفَوَّقُ

ومن الشعراء الذين فُتِنوا بالخمر الخالديّان أبو بكر وأبو عثمان فلقد انصرفا إليها كلّيّة حتّى كادت تكون أغلب شعرهما ، وقد أبدعا في وصفها ووصف أدواتها ومن ذلك قول أبي بكر الخالديّ في وصف عتق الخمر وقدمها ولونها الأحمر أو الأصفر [4] :

وعندنا عاتِقانِ حمراءَ كالشمـ　　ـسِ وأخرى صفراءُ كالقمَرِ
بِكرانِ هذي تُعابُ بالكبر الـ　　بادي وهذي تُعاب بالصِّغَرِ

وقال أبو عثمان الخالدي يشبّه رائحة الخمر بالعنبر وحبَب الكأس بالدّرّ [5] :

فهاتِها كالعروسِ محمَرّةَ الخَدَّيْـ　　ـنِ في مَعْجَرٍ مِـنَ الحَبَبِ

---

(1) المصدر السابق (٦٣) .
(2) جنوحا ـ هنا ـ تمييز ـ اي : من جهة جنوحها .
(3) المصدر نفسه (١٢٦) .
(4) ديوان الخالديين (٥٩) .
(5) المصدر نفسه (١١١) .

كادتْ تكون الهواء في أرجِ العَنْـ بَرِ لو لم تَكنْ من العِنَبِ
فلَوْ تَرى الكأسَ حين يمزُجُها رأيتَ شيئاً من أعجبِ العَجَبِ
نارٌ حَواها الزّجاجُ يُلْهِبها الـ ماءُ ودُرٌّ يدُورُ في لَهَبِ

ووصفَ الصنوبريّ عتقَ الخمر وقدمها ولونها الأصفر فقال [1] :

بِكْراً معتّقةٌ عَذْراءَ واضحةٌ تبدو فتُخبرُنا عن سالفِ الزّمَنِ
خَمْراً مُرَوَّقَةٌ فاقِعَةٌ كأنما مزجت من طرفكَ الوَسِنِ

وكما تحدث شعراء سيف الدولة عن الخمر وأوصافها وأدواتها وحببِ كؤوسها تحدثوا عن الساقي والساقية ووصفوا جمالهما ودلّهما .

ويبدو أنه كان للساقي شروطٌ وعادات مرعية إذ لا بد أن يكون بديع الجَمال زائداً في الظرف والدّلال . ومن أدبه أن يستأذن جُلساءه وندماءه في المزْج أو عدَمه ، فإن منهم من لا تناسبه الراحُ صرفاً ، ومنهم من يختار الممزوج قليلاً ، ومنهم من يختار الممزوج كثيراً ، فإن كان الساقي عارفاً بأخلاق الجماعة ، عامل كلاً منهم بما يلائم طباعه من غير سؤال [2] .

ومن الشعراء الذين وصفوا الساقي وتغزلوا في جماله ومزجوا بين صفاته وصفات الخمرة الوأواء الدمشقي حيث قال [3] :

ومُهَفْهَفٍ كالغُصنِ هزّتهُ الصبا فصَبا إليهِ من السّكونِ هوائي
يوهيهِ حملُ وشاحِهِ فتراهُ مِنْ تَرَفِ النّعيمِ يئنّ في إخْفاءِ
تَدْمى سَوالِفُهُ إذا لاحَظْتَهُ بخَفِيّ كَرّ اللّحْظِ والإيحاءِ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٣٤) .
(٢) اتجاهات الشعر العربي : الدكتور محمد مصطفى هدارة (٤٩١) .
(٣) ديوان الوأواء (١٩) .

ويُديرُ عيناً في حديقَةِ نَرْجِسٍ كسوادِ يأسٍ في بياضِ رجاءِ

وقال الصنوبري يصف الساقي [1] :

يا صاحِبَيَّ اسْقِيـاني لا عدمتكما جزاكما اللهُ بالإحْسانِ إحْسانا
وعـاطِياني كُمَيتَ الرَّاحِ صافيةً مما تخيّره كِسرى بنُ ساسانا
بكُفّ ساقٍ رخيمِ الدّلّ تحسبه لمّا هوى من فُتورِ الطّرفِ وسَنانا
إذا رأتْ مُقْلَتي بُستانَ وجْنَتيه فحَسْبُها أن ترى ما عشت بُستانا
لا تُسْكِراني مِنَ الصّهْباءِ هاأنذا من لوعةِ الحُبّ قد أصبحتُ سكرانا

وتغزل أبو بكر الخالدي في جمال الفتاة السّاقية فذكر أن مقلتها حوراء ، وحسنها فتّان يسْبي الناظرين لأنها تحكي الشمس في جمالها [2] : وذلك حيث يقول :

شرِبْتُها من يدي حوراء مُقْلَتُها تُغني القلوبَ بتبعيدٍ وتقريبِ
شَمْسٌ إذا طلعتْ قالتْ محاسِنُها ها قد طلعتُ فيا شمس الضّحى غيبي

ووصف كذلك شعراء الندوة السيفية منازل الخمر ومجالسها وأماكن شربها وتحدّثوا عن الندمان وظرفهم والسقاة وحسنهم وجمالهم .

وتنوعت مجالسهم فارتادوا الأديرة للعبث والمجون ومعاقرة الخمر وهيئوا مجالس الخمر في الحدائق الغُنّ والبساتين الوارفة الظلال وجمال الطبيعة الخلاّب وحسن الرياض الفتّان .

ولقد كانت الأديرة غنيةً بكرومها وخمورها وكانت مفتحة الأبواب

---

(١) ديوان الصنوبري (٥٠٠) .
(٢) المرجع نفسه (٢٢) .

للشعراء طوال العام فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متواليات . فلذلك أكثر هؤلاء الشعراء من القول فيها والحديث عنها وكان شعرهم يدور حول وصف الخمر والغزل بغلمان الأديرة وفتيانها ووصف الطبيعة الباسمة حولها .

ومن قصائد الديارات الخمرية قصيدة أبي بكر الخالدي التي وصف فيها مجلساً له مع ندمائه [1] في دير عُمَر الزعفران [2] فقال [3] :

عَطّلْتُ دارِسَةَ المَغاني وعَمَرْتُ عُمْرَ الزَّعْفرانِ
وأقَمْتُ في غُرَفٍ لَدَيْـ ـهِ كأنها غُرَفُ الجِنانِ
وتَرى قَنانيناً مُفَدّ مَةً بآسٍ خُسْرَواني
والرّاحُ أحْصَنُ جُنّةٍ لكَ في مُقارعَةِ الزّمانِ
لا تأمَنَنَّ صرُوفَهُ فالدّهرُ ليسَ بذي أمانِ

وكان الشعراء كثيراً ما يمزجون بين الخمر ووصف الطبيعة الجميلة التي تحيط بالدّير ومن ذلك قول الصنوبري في دير زكي [4] :

حبّذا الكرخُ ، حبّذا العمرُ لا بلْ حبّذا الدّير ، حبّذا السّرْوَتانِ
قد تَجَلّى الربيعُ في حُلَلِ الزّهْ رِ وصاغَ الحَمام حلي الأغاني
ألبَستْهــا يَدُ الربيع منَ الألْ وانِ بُرُداً كالأتحمي اليماني [5]

---

(١) قال في القاموس : وقد يكون الندمان جمعا .
(٢) وهو على راس جبل مطل على نصيبين وديار ربيعة من جانب ، وعلى طور عبدين وبعض ديار بكر من جانب آخر ، وبه كثير من الزعفران وهو عجيب البناء كثير الرهبان . مسالك الابصار (١ / ٣٠٦) .
(٣) ديوان الخالديين (١٠) .
(٤) دير مار زكي : من أديار السريان الكبرى المشهورة كان بظاهر مدينة الرقةوشيد على الارجح في السنة الخامسةللميلاد ـ الديارات (٣٨٤) .
(٥) الاتحمي : من البرود هو الاحمر وهو نسيج فاخر موشى ينسج ببلاد العرب .

ويستطرد الشاعر فيخاطب خليليه أن يبادرا إليه بالخمر وأن يُبعدا عنه الماء :

يــا خليليَّ هــاتُما علّــلاني عاطياني الصَّهْبــاءَ لا تدرآني
أبْعِدا الماء ، أبعِدا الماء ، قُومــا أدْنيا ، أدنيا بناتِ الدّنــانِ
أسْقِيــاني من كلّ لونٍ من الرّا حِ على كلّ هذهِ الألــوانِ

وكما وصف الشعراء الأديار منازل لهوهم وسرورهم وصفوا أيضاً الرياضَ التي كانوا يحتسون الخمرة بين ظلالها الوارفة وأزهارها الجميلة وجداولها الرقراقة ومن ذلك قول الصنوبري [1] :

قُم فاغتنِمْ شرْخَ الشّباب وعاطني بِكْراً ترى لشُعاعِهــا إيماضا
تَرَكَ المِزاجُ على تورّدِ خدّها من مستديراتِ الحَباب عِراضا [2]
ولها دَبيبٌ ما جرى في مِفْصَلٍ إلا شفى الأسقــامَ والأمْراضا
في روْضَةٍ كَسَتِ السّماءُ ربُوعِها حُلَلاً من النّبت البهي عِراضا [3]
ألِفَتْ مآلفها فأحْدَقَ حولَها ورَقُ الرَّبيعِ حَــدائقاً ورِياضا
وسَرَتْ سَواري المُزْنِ في جنباتها فسقَتْ بقاعاً حَولهــا وغِياضا

وقال السري الرفاء يصف روضة اعتاد أن يشرب فيها الخمر حتى أن حمامها ألِفَهُ لكثرة تردده عليها [4] :

تُصافِــحُ الكأسَ يَــدي ما أرتَدّ خَطْبُ أو صَفَحْ
في روضَةٍ قــد لَبِسَتْ من لؤلؤِ الطّلّ سُبَحْ

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٥٤) .
(٢) العراض : المسّم في صورة خط .
(٣) عراض : جمع عريض : من العرض المقابل للطول .
(٤) ديوان السري (٧٤) .

يـاْلَفُني حَمـامُهـا مُغْتَبِقاً ومُصطبِحْ
أوقِظُـهُ بالعَزْفِ أوْ يـُوقِظُـني إذا صَدَحْ
والجَـوُّ في مُمسَّـكٍ طِرازُهُ قَـوْسُ قُزَحْ
يَبْكي بـلا حُزْنٍ كما يضحكُ مِنْ غَيرِ فَرَحْ

وقد وصف كشاجم روضةً شرب بها الخمر في يوم مَطير فذكر غيثها الباكي وبرقها الضاحك ووردها الفاتن [١] :

يا طَيبَ يَوْمِ خَـلاعَةٍ وبطالة قصَّرْتُه بتَمَتّعٍ ولَذاذَةٍ
في روضَةٍ جُلِيَتْ على أبْصارِنا فيما كستْهُ من الحُليّ النّابتِ
والغَيْثُ يَبْكي في خـلالِ نباتها والبرقُ يضحكُ منه ضحكَ الشامتِ

وكما تحدث الشعراء عن أماكن شرب الخمر ووصفوها تحدثوا كذلك عن مجالسها التي كانت تحفل بالندامى والقيان ووصفوا حالة السكر وفقْدِ العقل والرُّشد فقال الصنوبري [٢] :

أشتهي أن أرى قُدوري تفورُ وكؤوسي على النّدامى تدُورُ
وأرى مجلسي وقد حَجزَ الرَّيْـ حانُ ما بينَ أهلهِ والبَخورُ
وتداعَتْ فيهِ القِيانُ كما قد يتداعى على الغصون الطيّورُ
وخَلَصْنا فما نُفكّرُ إلاّ في حبيبٍ نُزورِهِ أو يزورُ

ولم يكتف الشعراء بوصف أماكن الخمر التي كانوا يتناشدون فيها الأشعار ويجالسون النّدامى والقِيان ويستمعون إلى العزف والألحان وإنما

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٢٠) .
(٢) ديوان الصنوبري (٣٨ ــ ٣٩) .

دعَوْا أصدقاءهم وخلاّنهم للمشاركة في هذه المجالس وذكروا لهم ما بها من خمر وصهباء وخلاّن ظرفاء . وقال السري يدعو صديقاً له (١) :

لنا روضَةٌ في الدّارِ صيغَ لزهرها قلائِدُ من حَلْيِ النَّدى وشُنوفُ
يُطيفُ بِنا منها إذا ما تنفّسَتْ نَسيمٌ كعقل الخالديّ ضَعيفُ
ونَدْمانِ صِدْقٍ نثْرُهُ ونظامُهُ ربيعٌ إذا فاوضتَهُ وخَريفُ
وماءٌ حكى أشعارَ حَمْدٍ بِبَرْدِهِ ولكنّهُ مَحْياً وتلكَ حُتُوفُ
وقد رَقَّ ثوبُ الغيمِ حتى كأنما تَنَشّرُ دونَ الأفقِ منه سجوفُ
فزُرْ مجلِساً قد فضّلَ اللهُ أهلَهُ وشرّفَهُمْ أنَّ الأديبَ شَريفُ

وإذا كان شعراء الخمريات قد أطنبوا في وصف الخمر ودعوة الأصدقاء لمجالسها فإنهم كثيراً ما لجأوا إلى أصدقائهم يستهدونهم بنت الحان وذلك إذا شَحّتَ ونضُبَ معينها ومن ذلك قول الصنوبري يستهدي خمراً من صديق له يسمى أبا القاسم في لغة رقيقة لطيفة ويعتب عليه عتباً خفيفاً لرده له في مرة سابقة (٢) :

بأبي يا ابنَ الفروعِ الناضرهْ والنّجومِ المشرقاتِ الزّاهرَهْ
لي أخٌ لما رأى نفسيَ مِنْ وَجْدِها بالرّاحِ شِبْهَ الطائرهْ
قال : شِمْ كَفّ أبي قاسِمَنا فبحارُ الرّاحِ فيها زاخرَهْ
قلْتُ : إنّا قدْ رُدِدْنا مرّةً وعلى اللهِ تمامُ العاشِرَهْ

ونحن نلاحظ فيما تقدم أن الخمريات قد تصوبت وتصعدت في شعر شعراء سيف الدولة وأنهم مزجوا بين الخمر والروضيات وبينها وبين الغزل

(١) ديوان السري (١٧٢) .
(٢) ديوان الصنوبري (٧٧) .

وأن معانيها قد دقّت وصورها قد تعددت وتشعبت بالإضافة إلى قوة التشخيص والقدرة الهائلة على التشبيه والرسم والتصوير . وإنهم وصفوا مجالس الخمرة فأبدعوا وطرقوا أبواب الديارات فأجادوا وبرعوا . وأن طبيعة العصر وحضارته ظهرت آثارها في شعرهم فرقت ألفاظهم وكثرت الأوزان الرشيقة الراقصة في قصائدهم . كما أن بعضهم ترك الحشمة ولجَّ في المعصية وطرق معاني العبث والمجون .

وقد استهل بعض الشعراء قصائد المدح بذكر الخمر كما صنع السري في مديحه . ومن المؤسف جداً أن ينزلق هؤلاء الماجنون إلى هذا الحضيض الأوهد . وأن يستعملوا ذلك الفن الشعري الجميل في غير جميل .

التشيع

صوّر الشعر في رحاب الأمير جانب العفة والمبدأ ، فتحدث الشعراء في شعرهم عن آل البيت وحبهم ومجدوا مآثرهم ومناقبهم وبكَوا ورثَوا شهدائهم وهجَوا أعداءهم من بني أمية وبني العباس لما أنزلوه بآل البيت من اضطهاد وظلم وتعذيب وتشريد وتقربوا إلى الله وتشفعوا إليه بحبهم لهم .

وقد اتّسم هذا اللون من الشعر بالجدّ واتشح بالحسرة والألم العميق وقبل أن نخوض في غُمارِ هذا الضرب من الشعر نودّ أن نشير إلى أنه من الثابت أن بني حمدان كانوا من الشيعة وأن تشيعهم كان سمحاً لا تعصب فيه كما كان الحال عند الفاطميين في شمال إفريقية ومصر ، ولم يكن تشيعهم تشيعاً غالباً بغيضاً كما كان شأن البويهيين . وقال القرماني في تاريخه : كان بنو حمدان شيعةً ولكن تشيعهم كان خفيفاً ولم يكونوا كبني بُويه في غاية القباحة سبابين [1] . وذهب ابن العديم إلى أن أهل حلب كان أكثّرهم على مذهب السنّة حتى هجم الروم حلَب سنة ٣٥١ هـ وقُتل أكثر أهلها فنقل سيف الدولة إلى حلب جماعة من الشيعة من حرّان وكان سيف الدولة نفسه يتشيع فغلب على أهلها التشيع ، وذكر آدم متز أن العلويين هم الذين كانوا يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات في بيوت الشيعة بين بني حمدان وبني بويه وأكد أن ملوك الشرق — ويقصد بذلك الحمدانيين — كانوا على

(١) اعلام النبلاء (١ / ٢٧٩) .

مذهب الشيعة [1] . ولا نود أن نخوض أكثر من ذلك في سَوْقِ الأدلة والشواهد على تشيع الحمدانيين ولكن نود أن نشير إلى أن الحمدانيين كانوا اثني عشرية وأن أبا فراس سيد شعراء أمراء بني حمدان قد أوضح هذا بجلاء في مقطوعة قالها متوسلاً إلى بارئه أن يشفع له بآل الرسول عليهم السلام فعدَّد الأئمة الاثني عشر واحداً بعد الآخر [2] : وذلك حيث يقول :

لستُ أرجو النجاة من كل ما أخـْ	شاهُ إلاّ بأحمدٍ وعليٍّ
وابن بنت الرسول فاطمة الطّهـ	ـرِ وسبطهِ والإمامِ عَـلـيّ
والتّقيّ النقيّ باقرِ علمِ الـ	ـلّهِ فينـا محمّدِ بنِ عليّ
وابنهِ جعفرٍ وموسى ومَوْلا	نا عليّ أكرَمَ به من عليّ
وأبي جعفرٍ سميّ رسول الـ	ـلّهِ ثمّ ابنهِ الزّكيّ عليّ
وابنهِ العسكريّ والقائم المُظْـ	ـهرِ حقّي محمّدِ بنِ عليّ
فبهمْ أرتجي بلوغَ الأماني	يومَ عرضٍ على مليك عليّ

فهذه الأبيات فيها دلالة على أن أبا فراس ينتمي إلى المذهب الاثني عشري لأن الأئمة الذين ذكرهم في أبياته وتشفع بهم هم أنفسهم الأئمة الاثنا عشر الذين ورد ذكرهم في كتب الشيعة .

والمذهب الاثنا عشْري أحد مذاهب الفرقة الإمامية التي تعد من أعدل فرق الشيعة وهم يرون أن الإمامة في علي أولاً ثم في أبنائه على التعيين واحداً بعد واحد . وأن الإيمان بالإمام ومعرفته أصلٌ من أصول الدين وسُمّيت فرقة الاثني عشرية بهذا الاسم لأنها تقول باثني عشر إماماً [3] .

---

(1) الحضارة الاسلامية (١ / ٢٥٨ ـ ٢٥٩) .
(2) الديوان (٣ / ٤٢٩) .
(3) ظهر الاسلام : احمد امين (٤ / ١٠٩ ـ ١١١) .

وما دام من الثابت أن أبا فراس كان من الشيعة الإمامية وأن ديوانه يثبت هذا الرأي فمن نافلة الحديث القول بأن الحمدانيين وسيف الدولة كانوا يدينون بهذا المذهب .

وما دام سيف الدولة شيعي المذهب فليس عجباً أن تكون تلك الباقة من شعراء الندوة السيفية في حلب عُلويّة الهوى شيعية المذهب .

ولقد طرق الشعراء في شعرهم الشيعي ألواناً متعددة منها هجاء الأمويين والعباسيين والتنديد بهم لما ألحقوا من حيف وعنَت بآل البيت . ولقد هجم أبو فراس العباسيين ووصفهم بالطغيان ورأى أن العلويين هم أحق الناس بالخلافة .

ومن المروي عن ابن خالويه أن محمد بن سكرة الهاشمي عمل قصيدة يفاخر فيها ولد أبي طالب وينتقص ولد علي ويذكر فيها التحامل عليهم ومطلعها [1] :

بَني عـــليٍّ دَعُوا مقَـــالَتَكُمْ لا ينقَصُ الدرّ رضْعُ مَن رضَعَه

فأنشأ أبو فراس قصيدةً عبر فيها عن معتقده ، وهجم العباسيين ورأى في حكمهم الظلم والفساد . وأولها :

الدّينُ مخترَمٌ والحقّ مهتضمٌ وفَيْءُ آل رسولِ اللهِ مقتسمُ

ويصف العباسيين بالطغاة ويدعو للانتصاف للدين بالانتقام [2] :

يا للرّجالِ أما للهِ منْتَصِفٌ من الطغاة ، أما للدّينِ منتقمُ ؟

---

(١) الديوان (٣ / ٣٤٧) .
(٢) الديوان (٣ / ٣٤٩) .

بَنو عليٍّ رعايا في ديارِهِمُ والأمرُ تملكهُ النسوان والخَدَمُ

ويندد أبو فراس بالعباسيين ويستنكر أن يفتخروا على بني علي وهم لا يجارونهم نسباً ولا شرفاً :

لا يُطْغِيَنَّ بني العباس ملكهمُ بنو عليٍّ مواليهم وإن رعموا
أتفخرونَ عليهم لا أبا لكمُ حتى كأنَّ رسولَ اللهِ جدُّكمُ
وما توازَنَ يوماً بينكم شرفٌ ولا تساوتْ بكم في موطنٍ قدمُ
ولا لكم مثلهم في المجدِ متصلٌ ولا لجدِّكم مِعشارُ جَدِّهِمُ

ويذكر أبو فراس أنواع الظلم وألوان الاضطهاد التي ألحقها العباسيون بالعلويين من تآمر عليهم وغدر بهم حتى إن طغيانهم وظلمهم فاقَ ظلم بني أمية فيقول :

ما نالَ منهم بنو حربٍ وإن عظمَتْ تلكَ الجرائرُ إلاَّ دونَ نيلكمُ
كمْ غدرة لكم في الدِّينِ واضحةٍ وكم دمٍ لرسول اللهِ عندكُمُ
أأنتمُ آلُــــهُ فيما ترون وفي أظفاركم من بنيهِ الطّاهرينَ دَمُ ؟

ويندد بالعباسيين الذين لم يعد بيدهم من أمر الملك شيء :

أبْلِـغْ لديك بني العبّاسَ مألكة لا تدَّعوا ملْكها أملاكها العجَمُ
أيُّ المَفاخِرِ أمْسَتْ في منابركمْ وغيرُكُم آمِرٌ فيهِنَّ محْتَكِمُ

وأبو فراس بهذا يستوي مع شعراء الشيعة في المطالبة بحق العلويين وفي نقد العباسيين وكان جادّاً في ذلك كلَّ الجِدّ يطلب الانتقام والثأر [1] :

---

(١) قدماء ومعاصرون : سامي الدهان (١٩) .

وكما ندد أبو فراس بالعباسيين لظلمهم العلويين ندد أيضاً بالأمويين الذين كانوا سبباً في مصرع الحسين فأنكر فعلهم وتعجب من أمرهم . ولقد بدأ قصيدته بالغزل ومزج بينه وبين التشيع ثم انتقل إلى رثاء الحسين وقد جاد التخلص حيث قال [1] :

إنْ لم أكُن أهواهُ أو أهوى الرّدى ... في العالمين لكلّ ما يَهْواهُ
فحُرِمْتُ قُرْبَ الوصلِ منه مثلما ... حُرِمَ الحُسينُ الماء وهْوَ يراهُ

ثم انتقل إلى ذم الأمويين فقال [2] :

تَبّاً لقومٍ تابعوا أهواءهم ... فيما يسوءُهمُ غداً عُقْباهُ
أتَراهُمُ لمْ يَسْمَعوا ما خَصَّهُ ... منهُ النبيّ من المَقالِ أباهُ ؟
إذْ قالَ يومَ غدير خُمّ مُعْلِناً ... مَنْ كُنتَ مَوْلاهُ فَذا مَوْلاهُ
إقرُوا من القرآنِ ما في فَضْلِهِ ... وتأمّلوهُ وافْهَمُوا فَحَواهُ
لو لمْ تُنَزَّلْ فيه إلاّ هل أتَى ... من دونِ كلّ مُنَزَّلٍ لَكَفاهُ
مَنْ كان أولَ مَن جنى القرآنَ من ... لَفْظِ النّبيّ ونُطْقِهِ وتَلاهُ ؟

وهجا كشاجم بني أمية في قصيدة ذكر فيها مأساة كَرْبلاء ومصرع الحسين ونَعَتهم بالضلال والغي والخديعة والغش . فقال [3] :

ضَلَلْتُمُ القصْدَ للسبيلِ إلى الـ ... ـلّهِ فتاهَتْ بكمْ صُبحاً صَبائحُهُ
يا شيعَ الغيِّ والضلال ومَنْ ... كلُّهُمْ جَمّةٌ فَضائحُهُ
غَشَشْتُمُ اللهَ في أذيّة مَنْ ... إليهمِ أوتيتْ نصائحُهُ
عفّرْتُمُ بالثّرى جَبينَ فَتىً ... جِبريلُ قَبّلَ النّبيّ ماسحُهُ

(۱) الديوان (۲ / ٤٢٢) .
(۲) نفس المصدر (۳ / ٤٢٤) .
(۳) ديوان كشاجم المخطوط (٣٦ — ٣٨) .

على الــذي فــاتهُم بحقّهــم لعنٌ يغــاديه أو يُراوحُه

وينذرهم بوعيد الله ويهددهم بعقابه فيقول :

وفي غدٍ يعرفُ المخالفُ من خاسرُ دينٍ لهُم ورابحُهُ
وبينَ أيديكمُ حريقُ لظىً يلفحُ تلكَ الوجوهَ لافحُهُ
إذْ عبتُموهم بجهلكُمْ ولما يضُرّ بدرَ السّماء نابحُهُ
أو تكتموا فالقرآنُ مُشكِلُهُ بفضلهِ نــاطقٌ وواضحُهُ

ومن الشعراء الذين أكثروا في شعر التشيع الشاعر الصنوبري الذي فخر بالعلويين ورثى الحسين وغيره وذكر كربلاء ومصائب الشهداء ، وتصدّى لحقّ عليٍّ وقومه ، وكأنه إمام أو زعيم من زعماء الشيعة ، يؤيد هذا الحق ويرمي الجاحدين له بسهام النقد .

والجدير بالذكر هنا أن الصنوبري على الرغم من قصائده الكُثُر في آل البيت ودفاعه القوي عنهم وتعريضه بالأمويين لم يتعرض للعباسيين كغيره من شعراء سيف الدولة ولعل تعليل ذلك أن الصنوبري قضى جُلّ حياته في حلب أيام الإخشيديين الذين كانوا يتبعون الخلافة العباسية ولذلك لم يكن من السهل أن يعرّض بالعباسيين دون أن يلحقه الأذى . وقد عاجله الموت مع بدء قيام دولة الحمدانيين الشيعية في حلب إذ توفي في عام ٣٣٤ هـ أي في السنة الأولى لنشوئها ، فلذا لم يعش في كنف سيف الدولة مدة طويلة تسمح له أن يشعر بالأمن وعدم الوجل من عقاب العباسيين فيما إذا تعرض لهم ودافع عن حق العلويين بالحكم والرياسة . كما صنع غيره من شعراء الندوة السيفية فيما بعد .

ورثى الصنوبري النبي وآله عليهم السلام وتعرض لفاجعة كربلاء فبكى

الحسين وصحبه ثم ندد بالأمويين ونعتهم بالظلم والغدر وقرّعهم وذمّهم [1]:

يا عُصْبَةً لمْ تخَفْ مِنْ إلهِها أنْ تَجُورا
يا عصْبَةً لمْ تُراقِبْ قُرآنَهُ المَسْطُورا
ألمْ يكُنْ حَمْلُ رأسِ الـ حُسَيْنِ خَطْباً كَبيرا
ألمْ يَكُنْ مَنْعَهُ الما ءَ كان شَيْئاً نَكيرا
يا مَنْ يَذُودَ حُسَيْناً عَنِ الفُراتِ فُجُورا
تُذودُ عَنْهُ حُسَيْناً بَغْياً وتَسْقي البَعِيرا
غَداً تطُورُ بِعَوضِ النَّبِيِّ لا أنْ تَطُورا [2]

ويعرّض الصنوبري في قصيدة أخرى بالأمويين وينعتهم بالضلال وعدم ثبات الإيمان ويقول إنهم انتقموا في كربلاء لبدرٍ ويهجم يزيد ويذمّه [3]:

يا صُدوراً كانتْ قبُورَ تُرابٍ فأصابَتْ منهُ لها نَبَاشا
تلْكَ أضْغانُ بدْرٍ انتُبِشَتْ من بعدِ ما لمْ تكنْ تُطيقُ انتباشا
في يزيدَ يا سادتي عجَبٌ يَنْـ جُشُ فكْري فيما يبني نجاشا [4]
حملت فروش ملككم منه من يصْـ غُرُ عن أن يدَّعي لكم فرّاشا

ويهدد يزيد ويلعنه وينعته بالجَور والظلم فيقول [5]:

يزيدُ مهما اقترضْتَ اليوم من تِرَةٍ فالمرءُ مسترجعٌ منه الذي اقترضا
ربَضْتَ ما يلي الدّنْيا لتَحْمِيَها كالكلب من حيث لاقى جيفه ربَضا

---

(١) ديوان الصنوبري (٩٥) .
(٢) يطور : يحوم حول الشيء ويدنو منه .
(٣) ديوان الصنوبري (٢٢٣) .
(٤) ينجش : يستثير .
(٥) ديوان الصنوبري (٢٧٠) .

فمَلّ منكَ غريضُ المُلكِ مُعتدِياً ما مَلّ من لعنِهِ يوماً ولا غَرِضا [1]

وكما ذمّ يزيد ولعنه ذمّ ولعَن عبيد الله قائد الأمويين في كربلاء [2] :

وابنُ اللّعينِ عبيدُ اللهِ قد قرض الـ ـمُختارُ مدّتَهُ بالسيفِ فانْقَرَضا
بعدَ اعتراضِ عُبيدِ اللهِ سادتَنا بالخيلِ وهْوَ يراها للرّدى غَرَضا
بخيلِ إبليسِ هاتيكَ التي رَكَضَتْ لمّا ترامَى لها إبليسُ قَد رَكَضا

وكما ندد شعراء سيف الدولة بالعباسيين والأمويين برز في شعرهم البكاء على آل البيت والتفجع على ما أصابهم من ظلم كما مجّدوا العترة الطاهرة عموماً وأشادوا بمناقبهم ومواقفهم المجيدة في الإسلام واحتجّوا لهم بأنهم أحق من غيرهم بالخلافة . واتخذ هؤلاء الشعراء من التشيع وسيلة للشفاعة وتوسلوا بآل البيت إلى الله جلّ شأنه .

قال الصنوبري يشيد بالعلويين ويعدد مآثرهم في الإسلام [3] :

يا عينُ فيضي رواحــاً لهُمْ وفيضي بُكُورا
فيضي لحَمْزَةَ أو لِلْـ عبّاسِ فَيْضــاً غَزيرا
عَمّيْهِ زادَهُمــا مَنْ كساهُما النّورُ نُورا
المُطْفِئيْنِ لَظَى الحَرْ بِ دُونَهُ والسّعِيرا
ولمْ أزَلْ مُنْذُ خاضَتْ بيَ الأمــورُ أُمورا
يَهيجُني ذكرُ يومِ الطّيا رِ حَتّى أطِيــرا [4]

---

(١) غرض : مل وضجر .
(٢) ديوان الصنوبري (٢٧٢) .
(٣) ديوان الصنوبري (٩٤) .
(٤) الطيار : هو جعفر بن ابي طالب استشهد في مؤتة .

ويستطرد الصنوبري فيعدد صفات العلويين وخصالهم الحميدة فهم الصائمون والمنطوون بطوناً والذين يطعمون اليتيم ويساعدون المحتاج[1] فيقول :

مُلّيتُ للفـــاطِميّينَ لَـــوعَـــةً وزَفـــيرا
الافْضَلـــينَ جِـهاداً والأفْضَلِينَ نَصيرا
الصَّائِمِينَ المُصَلْلّـ ينَ طُهِّروا تطْهيرا
والمُنْطَوِينَ بُطُـــو ناً والمُنحنينَ ظُهورا
والمُطْعِمِينَ يَتيماً والمُطْعِمِينَ أسيرا
أهْلِ الكِساءِ الأجلّيـ نَ مِنْبَراً وسَريرا

ويصور الشاعر واقعة الحسين ويبكي وينتحب ويذكر مصرعه في كربلاء :

يَوْمُ الحُسينِ على الدّ يْنِ كنتَ يوماً عَسيرا
مَلأتِ واللهِ كَرْبـــاً يا كَرْبَلاءُ الصّدورا
كأنّني بِرَحى الحَـــرْ بِ أوشَكَتْ أنْ تدورا
والفـــاطِميّونَ تَقْري بِهِمُ السّيوفُ الطّيورا[2]
والفـــاطِميّات ينحرْ نَ بالدّموعِ النّحورا

وله من قصيدة أخرى في الغرض نفسه، صوّر بها يوم كربلاء تصويراً مؤلماً وذكر مصرع الحسين وبكاء أم كُلثُوم وذرّيّة الرسول عليه السلام من النساء فقال[3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٩٥) .
(٢) يقصد بالفاطميين العلويين عامة .
(٣) ديوان الصنوبري (١٢٩) ، ونسبت الى كشاجم في ديوانه المخطوط ص (٧٥) .

أذْكُرُ شَجْوي بِبَني هاشمٍ شَجْوي الذي يشجى به الذّاكرُ
أذكرُهم ما ضَحِكَ الروضُ أو ما ناحَ فيه وبكى الطّائرُ
مُساهري وجْدي بما نابهُمْ لا نامَ عنهمْ وجْديَ السّاهِرُ
يومُ الحُسينِ ابتزَّ صبري فما مني لا الصبرُ ولا الصابرُ [1]
ظمآن والمُهْرُ بهِ ما بِـــهِ لا يَبْعَدُ المُهرُ ولا الماهِرُ
حتّى إذا دارَ بِما ساءنـــا على الحسينِ القَدَرُ الدّائِرُ
خرَّ يضاهي قَمَراً زاهِراً وأينَ مِنْهُ القَمَرُ الزّاهرُ
وأمُّ كُلْثُومٍ ونِسْوانُهـــا بمَنْظَرٍ يُكْبِرُهُ النّاظِرُ
يُسابِقُ الطَرْفَ إليها وقَدْ أنْحى على مَنْحَرِهِ الناحرُ

وقال في قصيدة رثى بها الحسين وبكى مصرعه يتوسل إلى آل البيت ويرجو شفاعتهم به [2] :

لا تُطمِعَنَّ النّفسَ في إعطائها شيئاً فتطلُبُ فوقَ ما تُعطيها
حُبُّ النّبيّ محمّدٍ ووصيّهِ معْ حُبّ فاطِمةٍ وحبٍّ بنيها
أهلُ الكِساءِ الخمسةُ الغرر التّي يبني العُلا بعُلاهُمُ بانِيها
هم صفوة الكرَم الذي أصفيتهمْ وُدّي وأصفيت الذي يُصْفيها
أرجو شفاعَتَكُمْ فتلك شَفاعَةٌ يلتذّ بَرْدَ رجائِها راجيها
صَلّوا على بنتِ النّبيّ محمّدٍ بعدَ الصلاةِ على النبيّ أبيها

ويبكي الشاعر على آل البيت ويرثيهم رثاء حاراً فيقول :

وابْكوا دِماءً لو تشاهدُ سفكها في كربلاءَ لما ونَتْ تبكيها

(١) في الديوان « لا صبر ولا الصابر » والفن يوجب ما فعلناه أو تكون العبارة « لا صبر ولا صابر » .
(٢) ديوان الصنوبري (٥١٠) .

يا هَوْلها بينَ العَمائمِ واللّحى | تجري وأسْيافُ العِدا تُجريها
تلكَ الدماءُ لو انها تُفدى إذا | كُنّا بِنا وبغيرِنا نَفْديهــا
لو أنَّ منها قَطرةً توقي إذا | كانتْ دماءُ العالَمينَ تَقيها
إنَّ الّذينَ بَغَوا إراقتَها بغَوا | مشْئومةَ العُقبى على باغيها
قتلُ ابنُ من أوصى إليه خيرُ منْ | أوصى الوصايا قطُّ أو يوصيها

إلى أن يقول :

نبكي قبوراً إن بكَينا غيرَها | بعضُ البُكاءِ فإنما نَعْنيها
نَفِدَتْ حياتي في شجيً وكآبَةً | للهِ مُكْتَسَبُ الحياةَ شَجِيها

ويختم الصنوبري قصيدته معلناً كلَفه بالرثاء وكثْرة شعره فيه ، ولعل ذلك بسبب الفواجع التي رزىء بها والتي ظلّلَتْ نفسه بظلالِ الحُزن والأسى فلذلك كان حرَّ العاطفة صادق القول في رثائه . وذلك حيث يقول :

وأنــا المُدَلّهُ بالمراثي كلّما | زادَتْ أزيدُ بقولها تَدْليها
يرْثي نفوساً لوْ تُطيقُ إبانَةً | لرَثَتْ لهُ مِن طولِ ما يرْثيها

وقال كشاجم يشيد بمآثر ومناقب آل البيت ويعدّد محامدهم من بلاغة وعلُوّ وتضحية في سبيل الله ورفض للدّنيا وشراء للآخرة (١) :

آلَ الرَّسُولِ فَضَلْتُمُ | فَضْلُ النّجومِ الزّاهِرَهْ
وبَهَرْتُمُ أعْداءَكُمْ | بالمــأثِراتِ السّائرَهْ
ولكمْ معَ الشّرَفِ البَلا | غَةُ والحُلُومُ الوافِرَهْ

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٧٥) .

فإذا تُفُوخِرَ بالعُلا فيكُمْ علاكُمْ فاخِرَهْ
هذا وكَمْ أطْفَأتُمُ عنْ أحمدٍ من ثائِرَهْ
بالسُّمْرِ تخْضَبُ بالنّجيع وبالسيوفِ الباتِرَهْ
تُشْفَى بها أكبادُكمْ منْ كلّ نَفْسٍ كافِرَهْ

وقال السريّ الرفاء الشاعر المبدع في قصيدة طويلة يمدح آل البيت (١) :

ورُبّ غَرّاءَ لم تُنْظَم قلائدَها إلاّ ليُحمدَ فيها الفاطميونا
الوارثونَ كتاب الله يمنحُهم إرثَ النبيّ على رغمٍ المعادينا
والسابقونَ إلى الخيراتِ ينجدهم عِتقُ النجار إذا كلّ المجارونا

وقد عرض الشاعر بأعداء العلويين الذين لا يضاهونهم حسباً ونسباً فهم ذوائب قريشٍ وعرانينُها فقال :

قومٌ نصلّي عليهم حينَ نذكرُهم حُبّاً ونطعَنُ أقواماً ملاعينا
إذا عَدَدْنا قريْشاً في أباطِحِها كانوا الذوائبَ منها والعرانينا
أغْنَتْهمُ عن صفات المادِحينَ لهُم مَدائحُ اللهِ في طَهَ وياسينا
فلَسْتُ أمدَحُهم إلاّ لأرغم في مديحِهمْ أنْفَ شانِيهمْ وشانينا

ويتحدث الشاعر عن مصرع الحسين فيذكره بحسرة وألم وأسى فيقول :

أقامَ رَوْحٌ وريحانٌ على جدَثٍ ثوَى الحسين به ظمآن أمينا
كأنّ أحْشاءنا من ذكرِهِ أبداً تُطوى على الجمر أو تُحشى السكاكينا

ويذكر الشاعر حبه لآل البيت كرّة أخرى ويبين كلفه وتعلّقه بهم فيقول (٢) :

---

(١) ديوان السري الرفاء (٢٧٣) .
(٢) المصدر نفسه .

آلَ النبيّ وجدْنا حُبّكم سبَباً يرضى الإلهُ به عنّا ويُرضينا
فما نُخاطِبُكُمْ إلاّ بِسادَتِنا ولا نُناديكُمُ إلاّ مَوالينا
وكمْ لنا مِن فَخارٍ في مودّتكم يزيدها في سَوادِ القلْبِ تمكينا
إن أجْرِ في حبكم جريَ الجوادِ فقدْ أضحَتْ رِحابُ مساعيكُمْ ميادينا

ويجدر بالذكر أن سمات التشيع ظهرت بجلاء في الشّعر السّيفي ولم تقتصر على التشيع وحده من حيث هو لون من ألوان الشعر بل تأثرت بها بعض الأغراض الأخرى كالمديح والفخر والغزَل .

ومن ذلك قول أبي فراس مفتخراً :

نَفَى النّوْمَ عَنّي همّةٌ علَويّةٌ وقَلْبٌ على ما شئتَ منه مظاهرُ

وقد مزج أبو فراس الغزل بالتشيع فقال [1] :

إنْ لم أكنْ أهواهُ أأهْوى الرَّدى في العالمينَ لكلّ مـا يهْواهُ
فحُرِمْتُ قرْبَ الوصْلِ منهُ مثلما حُرِمَ الحسينُ المـاءَ وهو يراهُ

كما مزج الخبّاز البلديّ بين الغزل والتشيع كذلك فقال [2] :

أنا إنْ رُمْتَ سُلُوّاً عنْكَ يا قُرَّةَ عيني
كنتُ في الإثم كمن شا رَكَ في قَتْل الحُسينِ
لك صولاتٌ على قلْـ ـبي بقَدٍّ كـالرّديني
مثلُ صَوْلاتِ عليٍّ يومَ بَدْرٍ وحُنَيْنِ

ونحن نلاحظ أن شعر التشيع قد اتسم بالصدق والإخلاص إلى جانب

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ٤٢٢) والبيتان تقدما من قبل .
(٢) اليتيمة (٢ / ٢١٠) .

الانفعال والحماس وأن شعراء التشيع قد تأثروا بالقرآن الكريم فاقتبسوا منه أكثر مما اقتبسوه في أشعارهم الأخرى . وأن لهذا الشعر قيمة تاريخية كبرى لأنه يعنى بالاستدلال والوقائع والأسس والنظريات . كما أن هذا النوع من الشعر ابتعد عن الصنعة والتكلف وهجر الزخرف والتأنق ولا غرابة في ذلك فهو ذوب العاطفة الحرة الصادقة والعين الباكية الشاكية .

الاخويات

يصور هذا اللون من الشعر الاجتماعي الصلات والروابط التي كانت تربط الأصدقاء من الشعراء . ويتحدث هذا الشعر بين سطوره عن الصداقة والأخوة والمودة . والتهنئة والاعتذار والعتاب والشكوى والتعزية والاستعطاف.

ولقد ساعدت المساجلات والمراسلات الشعرية واستخدامها استخدام النثر على انتشار هذا اللون من الشعر .

وقد كثُر الشعر الأخويّ الذي كان يدور بين الشعراء وشاع وانتشر ونحن نختلف مع الدكتور درويش الجندي الذي ذهب إلى القول بأن هذا اللون من الشعر « كان يدور بين الحمدانيين ورجالهم وبعض ، ولم يجارهم في الإكثار من هذا الشعر الشعراء الشعبيون الذين كانوا يتخذون الشعر حرفة لاكتساب المال ، فهم مشغولون عن العواطف الأخوية بعواطفهم الرسمية ، أو بعبارة أخرى بعواطفهم المادية تجاه الأمير الذي يمنح الذهب ويغدق العطاء »[1].

ونحن نرى هذا القول مجانفاً للواقع وبعيداً عن الحقيقة إذ أن دواوين الشعراء الحمدانيين حافلة بالشعر الأخوي الذي عبروا به عن عواطفهم وصوروا علاقاتهم ولعل من يعود إلى دواوين هؤلاء الشعراء ككشاجم والصنوبري والسري الرفاء يذهب إلى الرأي الذي ذهبنا إليه ويأخذ بالقول الذي قلنا به .

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة : للدكتور درويش الجندي (٢٥١) .

فأخويات شعراء بني حمدان يمكن أن تعد من حيث كثرتها وموضوعاتها مدرسة خلقية في ذلك العصر . ولا شك أن هذا اللون من الشعر قد حظي بنصيب الأسد في شعر شعراء الندوة السيفية ولا شك أيضاً أنه حسنة من حسنات البيئة الحلبية ودرةٌ في عِقْدِ جيدها النضيد .

ومن أرق الأخويات لفظاً وأحرها عاطفة أخويات الشاعر الأمير أبي فراس الحمداني خاصة تلك التي أنَّ بها في الأسر وعبر فيها عن آلامه وأحزانه وصوّر عنت جسمه ومرارة سجنه .

ويمكننا أن نقسم أخويات أبي فراس إلى قسمين ما قاله قبل الأسر وما نفثه شَجَناً بعده . ونحن نلاحظ أن أخويات أبي فراس قبل أسره بالإضافة إلى الغرض المقصود من الأخوية ذاتها شملت أيضاً كثيراً من شعر الفخر والمديح.

ومن أخوياته في هذا المجال الرسائل الشعرية التي تبادلها مع بعض إخوته أمثال أبي الهيجاء وأبي الفضل وأبناء عمومته مثل سيف الدولة وأبي زهير المهلهل وأبي العشائر الحسين وأبي المُرَجّى بن ناصر الدولة وبعض أقاربه وشخصيات مجتمعه مثل أبي الحصين قاضي حلب وغيره .

ولقد بعث أبو زهير برسالة شعرية إلى أبي فراس ، فأجابه أبو فراس بقصيدة تحدث فيها عن مناقب أبي زهير ووصفه بالتقى والعلا فقال [1] :

تجَلّلْتَ بالتّقوى وأُفردْتَ بالعُلا ... وأهْلَلْتَ للجُلّى وحلّيتُ بالفخرِ

وقلّدتَني لمّا ابتدَأتَ بمِدحتي ... يَداً لا أُوَفّي شكرها أبدَ الدّهرِ

فإن أنا لم أمنحكَ صِدْقَ مودّتي ... فما لي في المجْدِ المؤمّل من عُذْرِ

(١) الديوان (٢ / ٢١٩) .

ويشيد أبو فراس بشعر ابن عمه ويصفه بأنه منعدم المثيل والشبيه فيقول :

وإنّكَ في عَذْبِ الكلامِ وجزْله لتغرفَ من بحرٍ وتنحت منْ صَخْرِ
ومثلكَ معدوم النظيرِ منْ الورى وشعرُك معدوم الشّبيهِ من الشعرِ

وكتب أبو فراس إلى القاضي أبي حصين علي بن عبد الملك وقد عزم على المضي إلى الرقّة وأبان فيها عن مودته وحبه لأبي الحصين فيقول [١] :

ياطول شوقيَ إن قالوا: الرّحيل غداً لا فرّقَ اللهُ فيما بينَنا أبدا
يا مَن أصافيهِ في قربٍ وفي بُعد ومَن أُخالصُهُ إن غابَ أو شَهدا
لا يُبْعِد اللهُ شخصاً لاً أرى أنساً ولا تطيبُ لي الدّنْيا إذا بعُدا
راعَ الفِراقُ فؤاداً كنتَ تؤنِسُهُ وذَرّ بَينَ الجفون الدمعَ والسّهدا

وبعث إلى أبي الحصين كتاباً آخر يعاتبه فيه لتأخره عليه بالمكاتبة قال فيه [٢] :

إنّي عليكَ أبا حصينٍ عاتبٌ والحُرّ يحتملُ الصديقَ ويصبرُ
وإذا وجدْتَ على الصديقِ شكوْته سرّاً إليهِ وفي المَحافِلِ أشكرُ
ما بالُ شِعري لا تَرُدّ جوابَهُ سحبان عندك باقِلٌ لا أعذُرُ [٣]

وأرسل القاضي أبو حُصين كتاباً إلى أبي فراس فردّ غليه مخبراً عن وصول الكتاب ومتحدثاً عن حبه له وشوقه إليه بقوله :

أتَى كتابُكَ والأنفاسُ خافِتَةٌ والجسْمُ مُستسلِمٌ والسّقم قاهرُهُ

(١) المصدر السابق (٩٨) .
(٢) ديوان ابي فراس (١٧٢) .
(٣) سحبان وائل الذي ضرب المثل بفصاحته كما ضرب المثل بعي باقل .

والطّرْفُ منكسرٌ والشّوْقُ طارِقه والوَجْدُ باطنه والصبرُ ظاهرُهُ
فانْتَاشَني وأعادَ الرّوحَ في بَدَني وشّدَّ صدْعاً وكسراً أنت جابرُهُ

ونلحظ أن أخويات أبي فراس امتزجت بالفخر والمديح والشكوى والعتاب والحكم واتسمت بالصدق وتبينت فيها عواطفه المتقدة نحو من يبادلهم مساجلاته الشعرية .

أما بالنسبة لأخويات أبي فراس في الأسر ، فمن أهمها رسائله الشعرية التي بعث بها إلى سيف الدولة يحثه فيها على الفداء ويمزج ذلك بالمديح والعتاب والاستعطاف والشكوى والفخر .

ومما بعثه إلى سيف الدولة قصيدة أخبره فيها بخروج الدّمستق وحثّه على الاستعداد ورجاه أن يقدم الفداء المطلوب وأشاد بسيف الدولة الذي من شيمته الوفاء [1] .

لكنَّ سيفَ الدولةِ المولى الــذي لم أنْسَهُ ولا يَرى يَنْساني
أيُضيعُني من لم يزلْ لي حـــافظاً كرَمــاً ويخفضني الذي أعْلاني
خِدْنُ الوفاء ، ولا وفيٌّ غــيرُهُ يَرْضى أعاني ضيقَ حالةِ عاني

ومن أخوياته قصيدة بعث بها إلى سيف الدولة يعتب عليه فيها عتباً شديداً وذلك لامتناع الأمير عن الفداء إلاّ أنّ يكون عاماً ولهذا شكا منه أبو فراس ورآه مشاركاً للدهر في الوزر وعدّه خطباً نزل به مع خطوب الدهر [2] :

زماني كلّهُ غَضَبٌ وعَتْبُ وأنتَ عليَّ والأيّامُ إلْبُ
وعَيشُ العالَمينَ لديك سهلٌ وعَيشي وحدَهُ بفنائكَ صَعْبُ

---

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٤١٠ – ٤١١) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٢٦) .

وأنتَ وأنت دافِـعُ كلّ خطْبٍ   مع الخطْبِ الملمّ عليَّ خطْبُ
إلى كمْ ذا العقابُ وليس جرْمٌ   وكم ذا الاعتذارُ وليس ذنْبُ؟

ويتحدث الشاعر عن عذل الحاسدين والوشاة الذين كانوا السبب في تغير قلب الأمير عليه فيقول :

أمِثلي تُقبلُ الأقوالُ فيهِ ؟   ومثلكَ يستمرُّ عليهِ كِذبُ ؟

وينتقل كعادته إلى الفخر بنفسه برقة ولين ويمزج عتابه بالفخر فيقول :

جنـاني ما علِمتَ ولي لسانٌ   يقُدّ الدّرْعَ والإنسانُ عَضْبُ
وزنْدي وهو زندك ليس يكْبُو   وناري وهيَ ناركَ ليس تَخْبُو
وفَرْعي فَرْعُكَ السّامي المُعلّى   وأصْلي أصلُكَ الزّاكي وحسْبُ

وكأن أبا فراس خشي أن يثير غضب الأمير عليه بهذا العتاب العنيف فرق في آخر القصيدة ومدحه وأظهر محبته وطاعته له فقال :

فدَتْ نفسي الأمير كأنَّ حظّي   وقُربي عندهُ ما دامَ قُرُبُ
فقُلْ ما شئت فيّ فلي لسانٌ   مليٌّ بالثّناء عليكَ رَطْبُ
وعامِلْني بإنصافٍ وظُلمٍ   تجدْني في الجميع كما تحِبّ

ومن أخويات أبي فراس قصيدة كتبها إلى أخيه أبي الهيجاء يعذله فيها على عظيم ما لحقه عند أسره من الجزع ويتحدث فيها عن أحزان أخيه بسبب أسره فيقول :

سقَى اللهُ أرضَ الموصل المزنَ إنها   لمنْ حلّها فرْضٌ لهُ الحبّ واجبُ
بنفْسي وإنْ لمْ أرضَ نفسي لراكبٍ   يُسائلُ عنّي كلّما لاحَ راكِبُ

قَريحُ مجاري الدَّمع مستَلَبُ الكَرى   يقَلقِلُه هَمٌ من الشَّوْقِ ناصِبُ

وكأنه كان يخشى على أخيه من شدة هذا الهم فيفديه بنفسه ويتمنى أن يحمل همه وهم أخيه فيقول :

ألا ليتَني حُمّلتُ همّي وهَمّهُ   وأنّ أخي ناءٍ عن الهمّ عازبُ
فمنْ لمْ يجدْ بالنفس من دون حُبّهِ   فما هو إلاّ مارِقُ الوَدّ كاذِبُ

وبعد أن طال أسر أبي فراس ولَجّ به البعد امتزجت قصائده الأخوية بالشكوى والحكمة والعتاب بدلاً من الفخر وسادت شعره فلا نكاد نجد قصيدة له إلاّ فيها ملامح من ذلك ولعل قصائده التي أرسلها إلى أمه التي حزنت حزناً عظيماً لما حاق بوحيدها من مرارة الأسر خير مثال على ذلك .

بعث إلى أمه قصيدة شاكية من ثقل الجراح ويبدو فيها ألمه الشديد إلاّ أنه يحاول الجلد ويدعو أمه إلى التأسي والصبر . فقال[1] :

مَصابي جليل والعَزاءُ جميلُ   وظَنّي بأنّ اللهَ سوفَ يُديلُ
جِراحٌ وأسرٌ واشتياقٌ وغربةٌ   أحمَّلُ إنّي بعدها لحَمولُ
وإنّي في هذا الصباحِ لصالحٌ   ولكنّ خطبي في الظّلام جَليلُ
جِراحٌ تحاماها الأساةُ مخوفَةٌ   وسُقمان بادٍ منهما ودَخيلُ
وأسرٌ أقاسيهِ وليلٌ نجومُهُ   أرى كلّ شيءٍ غيرهنّ يزولُ

ويدعو أمه إلى الصبر قائلاً :

فيا أُمّتَا لا تعدلي الصبر إنّهُ   إلى الخيرِ والنُّجح القريبِ رسولُ

---

(١) المصدر السابق (٢ / ٢١٣ ـ ٢١٤) .

ويختم قصيدته هذه التي تعد من أروع أشعاره الشاكية بالحكمة الآتية :

ومَنْ لم يُوقَّ اللهُ فهو ممزّقٌ ومنْ لم يعزّ اللهُ فهوَ ذَليـــلُ
وما لمْ يـُردْه الله في الأمر كله فليسَ لمخْلوقٍ إليـــهِ سبيلُ

ولقد اتسمت أخويات أبي فراس بالصدق التام والإخلاص في القول والانفعال ، كما أنه مزجها بالشكوى والفخر وبعض الحكم أحياناً وبالمديح والاستعطاف أحياناً أخرى ، كما رأيناه يفعل مع سيف الدولة .

ولقد أجاد أبو فراس وأبدع في هذا الفن إذ عبر به عن واقع مؤلم وصوَّر فيه مرارة الأسر ورسفه في أغلال القيد .

وإذا كان الشعراء الأمراء من بني حمدان قد طرقوا الأخويات ونظموا فيها غرر القصائد والمساجلات فكذلك كان لبقية شعراء الندوة السيفية مليح الشعر ورائع النظم في هذا اللون من الشعر .

ولقد حظي غرض الأخويات بنصيب الأسد من شعر أبي الفتح كشاجم الذي اتسمت أخوياته بالإطالة والشمول وهذا أمر غير مألوف في شعر من عاش عصره إلاّ عند أبي فراس لطول مكوثه في الأسر . ومن خير أخوياته قصيدة بعث بها إلى بعض أبناء الرؤساء يعاتبه فيها على عدم استقباله لرسوله الذي أرسله إليه حاملاً كتاباً ، وذلك حيث يقول :

ها قدْ كتبْتُ فما ردَدْتَ جوابي ورجعْتُ مختومـــاً عليَّ كتابي
وأتَى رسُولي مُسْتَكيناً يَشْتَكي ذُلَّ الحجابِ ونَخْوَةَ البوّابِ
وكأنّني بكَ قد كتبتُ مُعَذّراً وظَلَمْتَني بمـــلامَةٍ وعِتابِ

ثم يرجو الشاعر صديقه أن يعود إلى المودة والصفاء وأن يرجع إلى الإنصاف فيقول :

فارجع إلى الإنصافِ وأعلم أنه أولى بذي الآداب والأحسابِ
يا رحمةَ اللهِ التي قد أصبحتْ دونَ الأنامِ عليَّ سوطَ عذابِ
بأبي وأمّي وأنت من مستجمعٍ تيه القِيانِ ورِقّةَ الكُتّابِ

وكان كشاجم يتشبث بأصدقائه ويكن الولاء لهم ويبكي الراحلين منهم ، كما كان يحرص على صداقتهم وعدم مجاهرتهم بالعداوة لأتفه الأسباب ، ومن هذا القبيل قصيدته التي قالها في قوم من إخوانه رحلوا عن بلاد الساحل حيث قال مخاطباً الدهر مستغرباً أمره :

نُوَبٌ تُبْتَلى بهـا الأحرارُ وخطوبٌ صغارُهُنّ كبارُ
أيها الدّهر ناذرٌ أنت نَـذراً في أذانا ، أعِنْدنا لكَ ثارُ ؟
كل يوم تثقف الأسلَ السّمرَ لنا منكَ أو تَحُدُّ الشّفارُ

ويلتفت إلى صديقه فيصور ألمه وحزنه لفراقه :

يا أبا القاسمِ المؤمّلِ أسْما عُ البرايا تقيكَ والأبصارُ
أصبحتَ إذ رحلت عن مدن السا حلِ مفجوعَةٌ بكَ الأقطارُ
فالهواءُ الذي عهدت منها غليظٌ والدّيارُ التي عرفت فيها قفارُ

ولقد كان كشاجم صديقاً وفياً وأخاً ودوداً للصنوبري وتوثقت صلة المودة والأخوة بينهما وقد عبر كشاجم عن صداقته للصنوبري بقوله :

أتَنْسى زمَنـاً كُنّا بهِ كالماءِ والخمرِ
أليفَيْنِ حَليفَيْنِ على الإيسارِ والعُسْرِ
نُرى في فلكِ الآدا بِ كالشمس وكالبدرِ
كما ألّفتِ الحكمة ُ بينَ العُودِ والزَّهرِ

ومن روائع شعر الأخويات لكشاجم قصيدته التي أرسلها إلى صديقه أبي بكر الصنوبري يعاتبه فيها برقة ولين ويذكره بأيام المحبة الصادقة والوداد الصافي حيث يقول :

أخٌ لِيَ كنتُ أُغبطُ باعتقادهِ ... ولا أخشى التنكّر من ودادهْ
هلالٌ في إضاءتهِ حياً في ... سماحته شهابٌ في اتّقادهْ
أُهاديهِ القَوافي مُسرعاتٍ ... إليهِ فليتَ أنّي لم أُهادهْ
وأقبسُهُ فيوري مِنْ زِنادي ... ويقبسُني فأُوري من زِنادهْ
وأعضُدُه برأيٍ منْ سَدادي ... ويعضدُني برأيٍ مِنْ سدادهْ

وينتقل الشاعر إلى تصوير جفاء صديقه في سعة من الخيال ووفرة من العواطف الصادقة فيقول :

وكانَ قِيادُهُ بيدي ذَليلاً ... فصعّبَتِ الحَوادِثُ مِنْ قيادهْ
فأصبحَ قَدْ تبرّأَ مِنْ وَدادي ... كما بَرِىء المتيّمُ من فؤادهْ
وعانَدني ولمْ أعْلَمْ بأنّي ... سأنْقُلُ من هواهُ إلى عنادهْ
ومعتدٌّ عليّ ولَسْتُ مِمّنْ ... يُكدّر صفْوَ وُدّ باعْتِدادهْ
مُعنّى بانتقادِ حُليّ شِعْري ... وفضلُ الحلي يظهرُ في انتقادهْ
ولو حاولْتُ أنْ يُزْري ببَدْرٍ ... طلبْتُ لهُ المعايبَ من سوادهْ
وما كلّ الكَواكبِ مُسْتَنيرٌ ... فيفْنى بالإضاءةِ في انْفرادهْ
جفَا وأبانَ عنْ طَرْفي لذيذَ الـ ... كَرى وأذال خدّي عن وسادهْ

ويصف الشاعر مودته لصديقه وحبه له بصورة بليغة مؤثرة فيقول :

ولو سفكَتْ يداه دمَ ابنِ عمّي ... أو ابني لم أتِرهُ ولم أُعادهْ
ولو قَتَلْي أراد قتلتُ نَفْسي ... لهُ عمْداً ليبلغَ من مُرادهْ

أُواصل إنْ جفا وأُغضّ إمّا هفا وألينُ في وقتِ حدّاده

ويختم الشاعر قصيدته بمدح صديقه الصنوبري في مهارة وحذق وحرارة وصدق فيقول :

ونظمكَ درّ لفظٍ في قريضٍ كنظم العِقد يُزهى بانعقاده
أقلْني إن عثرتُ وخذْ بكفّيْ أخيكَ وفُكّ طرفي من سهاده
فما كتبتْ يدي الأبياتَ حتّى جرى قلمي بدمع في مِداده
وإن أكُ مذْنباً وعفوتَ عني فإنّ الله يعفو عنْ عباده

ولقد أجابه الصنوبري بقصيدة تفيض صدقاً ومودة وقد نسبها الدكتور الشكعة خطأ إلى كشاجم [١] . فقال أبو بكر الصنوبري [٢] :

أخٌ لي عاد من بعدِ اجتنابِهْ وفرّقَ بينَ قلْبي واكتئابهْ
حباني بالعتابِ وكان ظنّي بهِ ألاّ سبيلَ إلى عتابِهْ
وخاطبني فخلتُ بأنّ زهْر الرّ با الموشّى يجنى من خطابِهْ
بلفْظ لو بدا لحليف شيبٍ لفارقَهُ وعاد إلى شبابِهْ
فقرّبَ بينَ أجفاني وغمضي وباعدَ بينَ دَمْعي وانسكابهْ
ورد البرءُ في جسم ثوى مِنْ سقامِ الصّدّ حين ثوى لما بِهْ
إذا انتسبَ الثّقاتُ إلى وفاءٍ فحسبُكَ بانتسابي وانتسابِهْ

ويستطرد الصنوبري عارضاً صور المحبة والمودة التي تربطه بصديقه في خيال واسع وعاطفة جياشة حيث يقول :

---

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين (٢٨٦) .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٥٧ ــ ٤٥٨) .

أبا الفتح افتتحتَ الفصل لمّا فككتَ معذّباً بك من عذابِهْ
أعيذك أنْ يكونَ رضاكَ يعدُو فتىً ما كان سُخطٌ في حسابهْ
فقد سكّنْتَ قلباً كادَ ممّا حشدْتَ عليه يخرج من إهابِهْ
وأطفأ بَرْدُ وصلِكَ حرّ هجرٍ تلهّبتِ الجوانحُ بالتِهابِهْ
بنفْسي شيمَةٌ لكَ لو أُتيحتْ لذي ظمأ لكانت من شَرابهْ

ويبدو لنا أن السبب في تعكير الصفاء والمودة بين كشاجم والصنوبري يرجع إلى معارضة الصنوبري لأرجوزة كشاجم التي مطلعها :

شطّتْ لليْلى بـــاللّوى دارٌ وكانَتْ لا تشط

إذ عارضها الصنوبري بقصيدة مطلعها [1] :

سُؤالُكَ الرَّبْعَ شطَطْ دَنا العَزاء أو شحَطْ

ولقد أشار إلى ذلك الصنوبري في قصيدة استعطف بها صديقه كشاجم لما عتب عليه في معارضة أرجوزته فقال :

فيمَ عادَ الرّضى أبا الفتح سُخْطا والدّنوُّ الذي عهِدناهُ شَحْطا
أمْ لماذا نقضتَ شرْطَ أخٍ لا ينقضُ الدّهْرُ للأخُوّةِ شَرْطا
تتخَطّى إلى التَجنّي وما عُذْ رُ خليلٍ إلى التّجنّي تَخَطّى
إنْ يكُنْ لي تذكّري الطّاء جرمٌ لا تراني من بعدها أذكرُ الطّـــا

ومن أخويات الصنوبري الرقيقة البارعة الموسيقى واللفظ ما كتبه يتشوق إلى قريب له رحل ونأت به الديار حيث يقول :

يا قَريبَ الدّارِ مِنْ قلْبي وإنْ شَطَّ المزَارْ

(١) ديوان السري (٢٨٣) .

نائيـــاً منّي وإنْ لَمْ تُدْنِني منْكَ الدّيارْ
مثلَتَلْكَ النّفسُ لي إذْ لمْ يكنْ عنكَ اصطبارْ
وأرانيكَ عــلى مـــا بِكَ شَوْقٌ وادّكارْ
نحنُ إن نستشعرِ القُرْ بى فقُرْبـــانا شِعارْ
رَحِمٌ يعطِفها الودّ ويثنيهـــــــــا الجوارْ
وامتِزاجٌ مثْلما يُمْـ زَجُ بالمـــاءِ العُقارْ
وصفاءٌ لمْ يكنْ يَخْـ فى وهلْ يخفى النّهارْ

ونلاحظ أن الشاعر عبّر عن عاطفته نحو قريبه بانفعال وصدق ودون تكلف وتصنع ولقد ظهر تأثر الشاعر بالخمر التي كانت مظهراً واضحاً من مظاهر حياته إذ أنه شبه علاقة المودة ووشائج الأخوة التي تربطه بقريبه بالعقار الذي يمزج بالماء .

ولقد خاض السريّ الرفّاء بأخوياته موضوعاً فريداً إذ أنه عتب على صديق له وقد أسر إليه حديثاً فأذاعه فقال [1] :

رأيتُكَ تُسدي للصديق نوافذاً عدوّك من أوصابها الدهر آمنُ
وتكشفُ أسرارَ الإخلاّء مازحاً ويا رُبّ مزْح عاد وهو ضغائنُ
سأحفَظُ ما بيني وبينكَ صائناً عهودكَ إنّ الحرَّ للعهدِ صائنُ
وألقاكَ بالبشرِ الجميلَ مداهِناً فلي منك حليٌ ما علمت مداهنُ
أنِمّ بما أستودعته من زجاجةٍ ترى الشيء فيها ظاهراً وهو باطنُ

وله في الموضوع نفسه قصيدة حوت التشبيهات البديعة والمعاني المبتكرة اللطيفة :

---

(١) ديوان السري الرفاء (٢٦٧) .

أرومُ منكَ ثماراً لستُ أُجْنيها   وأرتجي الحالَ قدْ حلّتْ أواخيها
أستودعُ اللهَ خلاًّ منكَ أُوسعُهُ   وُداً ويُوسعُني غشّاً وتمويها
كأنَّ سرّي في أحشائهِ لهَبٌ   فما تُطيقُ لهُ طيّاً حواشيها
قد كان صدرُكَ للأسرارِ جندلَةً   ضنينةً بالّذي تُخفى نواحيها
فصار من بثٍّ ما استودعْتَ جوهرةً   رقيقةً تستشفّ العينُ ما فيها

ونلاحظ أن السريّ قد عمد إلى التحليل والتعليل والمقابلة والتشبيهات الرائعة فهو يوسع خلّه ودّاً وخله يقابله بالغش والتمويه. وشبّه السر بالنار القاتلة والصدر بعد إفشائه للسر بالجوهرة الشفافة الرقيقة التي تكشف العين ما فيها بيسر وسهولة.

ويعاتب أبو بكر الخالدي أحد أصدقائه ويشتد في عتابه ويصفه باللّوم ويسير على نهج السري من حيث التعليل والتصوير والاهتمام بالتشبيه فيقول [1]:

وأخٍ جفَا ظلماً وملَّ، وطالما   فقْنا الأنامَ مَوَدَّةً ونَداما
فسلَوْتُ عنهُ وقلتُ ليس بمُنكرٍ   للدَّهرِ أن جعل الكِرامَ لِئاما
فالخمْرُ، وهيَ الرَّاحُ، ربّما غدتْ   خلاًّ وكانتْ قبلَ ذاكَ مُداما

وواضح تأثر الخالدي بالخمر التي ملكت عليه نفسه حتى كادت يكون فيها أغلب شعره إذ أنه يصور صديقه الذي عقه بعد ودّ بالخمر التي فسدت فأصبحت خلاّ.

وقبل أن نختم هذا الموضوع نود أن نشير إلى أن المساجلات الشعرية عدت بين شعراء هذا العصر وسيلة للتعبير في حين كان النثر هو وسيلة التعبير الأولى.

وكان الشعراء يحرصون في المساجلات التي جرت بينهم على أن يتفق كل منهم مع صاحبه في البحر والقافية والرّويّ. ومن هذا القبيل المساجلات

---

(١) ديوان الخالديين (٩٣).

والتي جرت بين يحيى بن فهد الأزدي وأبي الفرج الببغاء ، إذ كانت بينهما مودة فكتب يحيى بن فهد الأزدي إلى أبي الفرج بعد خروجه من بغداد يتشوق ويقول [1] :

ظَعَنْتَ فما لأنسي مِنْ ثَوَاءٍ   وبِنْتَ فَبَانَ عَنْ قلبي السّرورُ
ولو أنّي قضيتُ حقوقَ نَفْسي   تبِعْتُكَ كيفَما جرتِ الأمورُ
ووُدّي لَيْسَ يَنْقُصُهُ مَغيبٌ   كما لا يَسْتَزِيدُ لهُ حُضورُ
فإنْ تَبْعُدْ فإنّكَ ملء صدري   ووُدّكَ جُلَّ ما تحوي الصّدورُ

فأجابه أبو الفرج بقصيدة ملأى بالعاطفة والمودة وعلى البحر نفسه والقافية والروي [2] :

بقُرْبِكَ من بِعادِكَ أستَجيرُ   وهلْ في الدَّهْرِ غيرُكَ من يُجيرُ
نأيْتَ فما السّلْوى دُنُـــوٌّ   وغِبْتَ فما للـذّاتي حضُورُ
وقَدْ صاحَبْتُ إخْوانـاً ولكن   متى تُغني عن الشّمس البُدُورُ
فَيا مَن رُعْتَ منه الدَّهر قِدْماً   بِمَنْ تسمُو بِخِدْمَتِهِ الأُمُورُ
ومَنْ قـدّرتَ أنَّ لهُ نَظـيراً   فحينَ طَلَبْتُ أعـوزني النظيرُ
إذا كنتَ السرورَ وغِبْتَ عَنّي   فكيفَ يتمّ بعدَكَ لي سرُورُ

ونحن نميل إلى القول بأن هذا اللون من الشعر قد زخر بالعاطفة الصادقة وبعد عن الغلو والمبالغة والمغالاة التي كانت سمة بارزة من سمات الشعر في هذا العصر .

كما لا يفوتنا أن نذكر أن الأخويات قد مالت إلى الرقة والليونة والسهولة

---

(١) نشوار المحاضرة (٢ / ٥٢) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٥٢) .

واليسر في التعبير كما أنها حفلت بالتصوير والجدّة والابتكار في المعاني والصور .

والذي نراه أن الأخويات تعد صورة حية ناطقة معبرة عن الروابط الاجتماعية التي كانت تربط بين الشعراء الذين اتخذوا من الشعر مجالاً لتصوير عواطفهم وانفعالاتهم وأحاسيسهم كما يفعل الكتّاب في النثر .

ولا تتأتى أهمية هذه الأشعار من كونها تسجل انطباعات أصحابها الوجدانية وخلجاتهم النفسية فقط وإنما تنطوي أيضاً على دلالات اجتماعية كبيرة

الطرد

عرف شعر الطرد الذي يقال في الصيد منذ الجاهلية فلقد كان الشاعر الجاهلي يتحدث في جزء من قصيدته التي يكتبها في المدح أو النسيب أو الهجاء أو الفخر أو غيرها من الموضوعات التي يخوض فيها عن الطرد فيصف تتبعه للظبي أو حمار الوحش أو الطائر . وكان ألمع شعرائهم في هذا اللون من الشعر امرؤ القيس بن حجر الذي قيل انه أفضل الشعراء إذا ركب .

وفي صدر الإسلام وعهد بني أمية استمر الطرد ولكنه لم يكن غرضاً مستقلاً إذ كان الشعراء يخوضون في هذا الموضوع في بعض قصائدهم التي ينظمونها لأغراض أخرى .

أما في العصر العباسي فلقد بلغ الاهتمام بالطرد حداً كبيراً بعيد المدى حتى أننا نجد أغلب خلفاء بني العباس يُقبلون على هذه الهواية التي أصبحت في عصرهم جزءاً من مظاهر الحضارة .

ولم يقتصر أمر هواية الصيد على الخلفاء وحدهم ولكنها انتشرت بين أبناء الطبقة المترفة الغنية الذين زاولوا هذه الهواية وأغرموا بها .

ويبدو أن الشعراء كانوا يشتركون في رحلات الصيد. ولهذا كان من البدهي أن يصفوها ويصوروا ما كان فيها يحدث من صيد الحيوان والطير ووصف أنواع الطير والحيوانات المدربة وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها .

ولعل الشاعر أبا نواس كان أكثر شعراء بني العباس كلفاً بالطرد وهو أكثرهم شعراً وأبرعهم وصفاً وأدقهم تصويراً لهذا اللون من الشعر

ولقد صدق كاتب دائرة المعارف الإسلامية حين قال : إن ديوان أبي نواس هو أول ديوان في الأدب العربي يضم باباً في الطرد [1] .

وإذا كان الطرد قد وجد اهتماماً من خلفاء بني العباس فإن اهتمام بني حمدان به لا يقلّ عن ذلك إذا لم يكن أكثر . فلقد شغف الأمراء الحمدانيون بهذه الهواية وأقبلوا على مزاولتها ونظم بعض شعرائهم كأبي فراس شعراً رائعاً في تصوير الصيد والطرد .

ولأبي فراس أرجوزة في وصف الصيد تفردت بطولها فقد بلغت سبعة وثلاثين ومائة بيت وهي تميل إلى الأسلوب القصصي الممتع وفيها الحديث عن الصيد وأدواته . ويستهل أبو فراس قصيدته بالحكمة ومطلعها :

ما العُمرُ ما طالَتْ به الدّهورُ   العُمْرُ ما تمَّ بهِ السّرورُ

وقد وصف أبو فراس الاستعداد للرحلة ودعوة الصياد والفهّاد والبازيارين لاختيار الجوارح الحاذقة في الصيد :

دعَوْتُ بالصَّغّارِ ذاتَ يومٍ   عنْدَ انْتباهي سحراً من نَوْمي
قلتُ له اخْتَرْ سبعَةَ كِباراً   كلّ نجيبٍ يَرِدُ الغُبَارا
يكونُ للأرنَبِ مِنْها اثْنانِ   وخمَسَةٌ تُفْرَدُ للغُزْلانِ
واجعَلْ كلابَ الصيْدِ نوْبَتَينِ   يُرْسل منها اثنان بعد اثنينِ
ثمَّ تَقَدّمْتُ إلى الفَهّادِ   والبازيارِينَ بالاستعدادِ

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية « مادة ابو نواس » .

ويختار الشاعر مجموعة من الرفاق الذين يعهد بهم الفضل والنجابة ويصف صحبه في الرحلة فهم عشرون من الأصدقاء أو ما يزيد وكلهم يتصفون بخفة الروح والطيب والفضل :

بالله لا تستصحبوا الثّقيلا واجتَنِبوا الكثرةَ والفضولا
رُدّوا فلاناً وخُذُوا فلانا وضمّنوني صيدكم ضمانا
فأخترتُ لمّا وقفوا طَويلا عشرينَ أو فويقها قليلا
عِصابةٌ أكرِمْ بها عصابهْ معروفةٌ بالفضلِ والنجابهْ

ويستطرد أبو فراس فيصور عملية الصيد تصويراً بارعاً ويصف مطاردة شاهينين أرسلهما لمطاردة الطير المنتصر بأعداد كبيرة [1] :

دارا علَيْنا دورَةً وحلّقا كلاهما أختٌ إذا تَعلّقا
تَوازَيا وطَرَدا إطّرادا كالفارسَيْنِ التقَيا أو كادا
ثُمّتَ شَدّاً فأصابا أرْبَعا ثلاثَةً خُضْراً وطيراً تبِعا

ويختم الشاعر قصيدته فيصف المحصول الوافر من الصيد الذي جنوه من هذه الرحلة والشراب الكثير الذي أقبل عليه رفاقه :

ثمَّ انصرَفْنا والبِغالُ موقَرَهْ في لَيْلَةٍ مِثْلَ الصَّباحِ مسفِرَهْ
حتّى أتَيْنا رحلَنا بِلَيْلِ وقدْ سبَقْنا بجِيادِ الخيلِ
ثم نَزِلْنا وطَرَحْنا الصَّيدا حتى عَدَدْنا مائَةً وزَيْدا
فلم نزَل نشوي ونَقلي ونصُبْ حتى طَلَبْنا صاحباً فلمْ نُصِبْ
شُرْباً كما عنّ منَ الرّفاقِ بغيرِ ترتيبٍ وغيرِ ساقي

---

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٤٤٧) .

ولم نزَلْ سبْعَ ليالٍ عَدَدا   أسعدَ من راحَ وأحظى من غدا

ونلاحظ أن أبا فراس مزج بين الوصف واللهو من ناحية والوصف والفروسية من ناحية أخرى كما أن معظم أوصافه حسية لا تتغلغل في الوصف إلى الأعماق إلاّ في القليل النادر .

وبالإضافة لأبي فراس أكثر شعراء الندوة السيفية القول في الطرد فوصفوا صيد البر كما وصفوا صيد البحر ، وكان من أكثرهم قولاً في هذا الغرض من الشعر كشاجم والسري الرفاء والصنوبري والمتنبي والببغاء .

وكان كشاجم أكثر شعراء سيف الدولة قولاً في الطرد وأبرعهم وصفاً للطير . ويجب ألاّ ننسى أنه ألف في الصيد كتاب « المصايد والمطارد » تحدث فيه عن الطيور الجارحة وصفاتها وأخلاقها وسبل تدريبها كما تحدث عن كلاب الصيد ووحوشه [1] .

ولقد تعددت الصور التي جيء بها في صيد البر فمنها ما جاء في وصف الصيد بجوارح الطير أو ما جاء يصفه بضواري الحيوان أو بالقوس والبندق .
ومما جاء في وصف الطرد بجوارح الطير قول كشاجم في وصف صقر أحمر [2] :

غَدَوْنا وطرْفُ اللّيل وسنانُ غائِرٌ   وقد نزلَ الإصباحُ واللّيلُ ساترُ
بأجدَلَ مِن حرّ الصّقورِ مُؤدّبٍ   وأكرَمَ ما جرّبتُ منها الأحامرُ
جرَيءٍ على قَتْلِ الظّباءِ وإنّهُ   ليُعْجِبُني أن يقتلَ الوحش طائرُ
قصيرُ الذّنابَى والقُدامى كأنهـا   قوادِمُ نسْرٍ أو سيوفٌ بواتِرُ

---

(١) المصايد والمطارد : تحقيق د. محمد اسعد طلس (٨٥) .
(٢) المصدر نفسه (٨٧ ــ ٨٨) .

ورقش منه جؤجؤٌ فكأنما أعارته إعجامَ الحروفِ الدفاترُ

وينتقل كشاجم فيصف عملية الصيد وكيف تحفز الصقر عندما رأى الربْرَب فأخذ يضرب جناحيه متهيئاً للانقضاض ثم أطلق قيده فانقض عليها فهوت صرعى بين مخالبه :

وتحمِلُهُ مِنّا أكُفٌّ كريمةٌ كما زُهيتْ بالخاطبينَ المنابرُ
فعَنَّ لنا من جانب السّفحِ ربربٌ على سَنَنٍ تستنّ فيه الجآذرُ
تجلّى وحلّت عقدةُ السيرِ فانتحى لأوّلها إذْ مكّنتْه الأواخرُ
يحُثّ جناحيْهِ على حُرّ وجْهِه كما فعلتْ فوقَ الخدودِ المغافرُ
فما تمّ غمض الطّرْف حتى رأيتُها مصرّعةً تهوي إليها الخناجرُ
كذلكَ لَذّاتي وما نالَ لَذّةً كطالبِ صيدٍ ينكفي وهوَ ظافرُ

ووصف كشاجم البازي في قصيدة كتبها إلى أحد أصدقائه من الكتّاب وكان قد حضر الصيد معه [1] :

لَسْتُ أنسى منكَ ما شاهدته يومَ للصّيدِ غدَوْنا من أمَمْ
وعلى يُسراكَ بازٌ كُرّزٌ شاكَلَتْ همّتهُ منكَ الهِمَمْ
كلَّ ما أدركَهُ ناظِرُهُ فهو بالمخلَبِ منه يصطلمْ
مَلِكٌ نيطِ بيُسرى مَلِكٍ يدْفَعُ الظُّلمَ وإن شاء ظَلَمْ

وكشاجم يمزج بين المدح والطرد ويصف مخالب الباز الحادة وينعته بسيد الصقور ثم يصف الشاعر فتك الباز بالطيور وكيف ينقضّ عليها بشراسة وعنف ويصفه بالقوة والحذق والمهارة :

فَهِمَ التّأويبَ حتى لاكتفى بالإشاراتِ له دونَ النّغَمْ

---

(1) المصايد والمطارد (٧١ ـ ٧٢) .

تتعرّى ضِفّةُ النهرِ بهِ حينَ همَّ الحَينُ أو كاد يهِمْ
ساعةً حتى إذا أطلقتهُ مرَّ في آثارها مرَّ الزّلمْ
فانتحى أبعدَها ثمَّ هوى وعلى المنسر منهُ نضحُ دَمْ
وهْوَ مُوفٍ فوقَها مُلتزِمٌ ظهرَها يا بئسَ ذاكَ المُلتزَمْ

وللشاعر الصنوبري طرديات مختلفة منها قوله في وصف الباز[1] :

ذو مِنسرٍ أقنى ورُسغٍ كَزٍّ ومخلبٍ لمْ يعْدُ إشفا الخرزِ[2]
مُسربلٌ مثل حَبيك القَـزّ أو مثلَ جزْعِ اليمَنِ الأرزيّ[3]
جَمّ المهاميز شديدُ الهمْزِ لمّا لَزَزْنا الطّيرَ بعضَ اللزّ[4]
أبَ لنا بالقبجِ والإوزّ من جبَلٍ صلْدٍ ومرْجٍ نزّ[5]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي ينقض بها على الطير فلا تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنه الجزْع أو الخَرَزُ اليماني الذي تغنّى به أمرؤ القيس والطير منتشرة في القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوزّ ووصف الصنوبري الصقر فقال[6] :

أشْغى ترى في رائهِ تقويسا له مخاليبُ بُرينَ شُوسا[7]
مطْرُورَةً قد مُلّستَ تمليسا أُلبِسَ بُرْداً لم يكن ملبوسا[8]

---

(١) ديوان الصنوبري (١٣٣) .
(٢) الاشفا : المخرز .
(٣) حبيك : محبوك ، يعني انه يلبس ريشا ، كالقز المنسوج ، الجزع : الخرز .
(٤) الهمز : الضغط والدفع والحفز . بعض : في الاصل « بعد » ولا معنى لها .
(٥) القبج : الواحدة قبجة ، مرج نز : مرج ذو ثر ، اي يتحلب منه الماء .
(٦) ديوان الصنوبري (١٩٣) .
(٧) أشغى : احجن .
(٨) مطرورة : مشحوذة مسنونة .

لا منهجَ النّسْجِ ولا لَبَّيسا   بسْطَ الذّنابي يخجلُ الطاووسا
له جنَاحــانِ إذا ما قيسا   يُباشرانِ الأرض ان قيسا

فالشاعر يصف مخالب الصقر الحادة المشحوذة المسنونة كما يصف جمال ذنبه الذي يزري بجمال ذنب الطاووس وجناحيه الطويلين الجميلين . فهو آية في الحسن والجمال .

ويستطرد الصنوبري فيصور فتك الصقر بالحُبارى فيقول [1] :

آنَسَ شَيْئاً لم يكُنْ أنيسا   حُبارياتٍ تُشبهُ القُسوسا [2]
فعاثَ فيها يطْمُسُ الرّؤوسا   فلو تراها أجفلَتْ كرْدوسا [3]
نكّسها في حَوْمَــةٍ تنكيسا   فعلُ الخميسِ فضفض الخميسا

وواضح تأثر الصنوبري في أحداث عصره إذ أنه يستمد تشبيهاته وصوره من واقع مجتمعه فيشبّه بطش الصقر بالحُبارى ، بمعركة ضارية نشبت بين جيشين فتك فيها أحدهما بالآخر .

ووصف شعراء الندوة السيفية الصيد بضواري الحيوان ومنها قول الصنوبري في وصف كلابه وما صادت من وحش [4] :

يا روضَةً صاغَ لهـا   حُلِيّهـا الأشراطُ [5]
الوَحْشُ في أرْجـائِها   قبـائلٌ أخْلاطُ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٩٣) .
(٢) يريد انها كالقسوس في زيها .
(٣) الكردوس : الجماعة .
(٤) ديوان الصنوبري (٢٨٧) .
(٥) الاشراط : كواكب ينسب اليها المطر ، فكأنها هي التي أنبتت ازهار الروضة .

غادَيْتُها ولمْ يُقِمْ أعْلامَهُ الفُسْطاطُ (١)
بأكْلُبٍ لوْ لمْ تَطِرْ أطارَها القطَاطُ
في ساعَةٍ لأدمعِ الـ حُزْنِ بها انحِطاطُ
فجِئْنَ والطّلُّ على آذانِها أقْراطُ
قَدْ نَحِفَتْ أوساطُها فمَا لها أوساطُ
فطَفِقَتْ والوحشُ في مخالِبِها بِساطُ
صَرْعَى تَشِقّ قُمْصُها عَنْها ولا تخاطُ

فالصنوبري يبدأ حديثه عن الروضة التي هي مكان الصيد ويصف ما انتشر عليها من حلل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القطا وغيره من الطير مرسلاً عليها كلابه القوية النشيطة التي تكاد تسبق الريح ، غير آبهة ببرودة الطقس وما قرّط به آذانها من الندى وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع الوحش وتشق عنه جلده وتفري أديمه وتمزقه تمزيقاً لا رتق له .

وللسريّ الرفاء طرديات عدة وصف فيها الصيد بالكلاب ومنها قوله (٢) :

قُمنا بها نهتِكُ أستارَ الظُّلَمْ وبيْننا ذاتُ ضجيجٍ تختصمْ
إنْ نامَ غزْلانُ الصّريمِ لمْ تنمْ نقرَعُها بينَ الوِهادِ والأكَمْ
أبيضُ مسْوَدُّ الخِلالِ والشّيَمْ لهُ على الصَّحبِ أيادٍ وكرَمْ
ونعَمٌ هُنَّ على الوَحْشِ نِقَمْ أسرَعُ قبلَ الشدّ من سيل العَرَمْ
يقدمُنا إلى الكِناسِ المكتتمْ مسائلاً عنهُ الصَّبا وهي تَنَمْ
حتى إذا السّرْبُ تراءى من أمَمْ حيرانَ قد ألبسَهُ الذّعرُ لمَمْ

---

(١) الفسطاط : القطا ، يعني باكر تلك الروضة قبل ان تستيقظ الطيور.
(٢) ديوان السري (٢٤٩ ــ ٢٥٠) .

صَدٌّ قوافي ثمَّ ألقى للسّلَم ْ وظلَّ نهْباً بالأكُفِّ مقتسَمْ
لم يشكُ من نابٍ ولا ظفرٍ ألَمْ فما اعتلى في الشرقِ للصّبحِ علَمْ

فالشاعر يصف الكلب بالنشاط والقوة والفضل والكرم على الأصحاب ، والنقمة والبأس على الأعداء من الوحش . وهو يعتمد على حاسة الشم القوية التي تمكنه من العثور على مخابىء الحيوانات حتى إذا عثر على أحدها انقض عليه وظل يمزق أديمه ، بأنيابه تمزيقاً عنيفاً .

والسري يضفي دائماً على شعره الإشراق ويختار الألفاظ اللطيفة والمعاني الرقيقة والتشبيهات البديعة ويقول في وصف كلاب صيد أخرى [1] :

غَدَوْتُ بها مجْنُونَةً في اعتِدائِها تُلاقي الوحوشُ الحينَ عندَ لقائها
لهُنَّ شِياتٌ كالذراريحِ أصبحَتْ مؤلّفَةً ظَلْماؤهـا بضيائِها
وأيدٍ إذا سُلّتْ صَوالِجُ فِضَّةٍ على الوحشِ يوماً أذْهَبَتْ بدمائها

ووصف كلابه الضامرة الظامئة إلى دماء الوحش والقوية النشيطة فقال [2] :

وأكْلُبٌ تَسْتَغْرِقُ الصّفاتِ ضوامِرُ الأحشاءِ مخطَفاتِ
إلى دِماءِ الصَّيْدِ صادياتٌ باسطَةُ الآذانِ سابِغاتِ
سواقِطُ الأرْجاءِ ساكِناتِ بلؤلؤ الطّلّ مُقَرّطـاتِ

وكما صادوا بجوارح الطير وضواري الحيوان صادوا بالقوس والبندق . والقسي تتخذ من أعواد شجر النّبع ونحوه لصلابتها ، والبندق مدمّلق مدوّر يستخدم في قذف الطريدة ويسمى أيضاً الجُلاهِق . وطريقة إعداد الجُلاهق

---

(١) ديوان السري (٦٥) .
(٢) نهاية الارب (١ / ٣٤٨ – ٣٤٩) .

أو قسي البندق أنها تتخذ من القنا ويلف عليها الحرير وتُقوى وفي وسط وترها قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي [1] . ويقول الببغاء في وصفها [2] :

ومَرْسان معبّسَة ضَحوك ... مهَذَّبَة الطّبائعِ والكيانِ
مَغالبَةٌ وليسَ بها حَراكٌ ... وباطِنَةٌ وليس لها يدانِ
وتُدرِكُ ما تشاءُ بغيرِ رِجْلٍ ... ولا باعٍ يطولُ ولا بَنانِ
وتلْحَظُ ما يكلّ الطّرفُ عنه ... بلا نظَرٍ يصحّ ولا عِيانِ
لها عُضْوانِ من عصبٍ ولحمٍ ... وسائرُ جسمها مِن خيزرانِ
يخاطبُ في الهَواءِ الطّيْرُ منها ... بلَفْظٍ ليس يصدرُ عن لسانِ
فإن لم تُصْغِ أردفها بطَعْنٍ ... ينوبُ الطّينُ فيهِ عن السّنانِ

ويصف كشاجم أيضاً الطرد بقوس البندق [3] :

وفي يساري مِنَ الخطّيّ محكَمَةٌ ... متى طلبْتُ بها أدرَكْتُ مطلوبي
للوَعْلِ باطنُ شطريها ومعظمها ... من عُودِ شجراء ظمْياء الأنابيبِ
في وسْطِها مقلةٌ منها تبيّنُ ما ... يُرْمى فما مقْتَلٌ منها بمحجوبِ
فقُمْتُ والطّيرُ قد حُمّ الحِمامُ لها ... على سبيليَ في عَدوي وتَجْويبي
حتى إذا اكتَمَلَتْ بالطينِ مُقْلَتُها ... صبّتْ عليهنّ حَتفاً جدّ مصبوبِ
فرُحت جذلان لم تكدر مشارب لذّاتي ... ولم تُلْقَ آمالي بتَخييبِ

وهو يصور قوسه المشرعة وتسديده البندق للطير ويذكر أن القوس

---

(1) نهاية الارب (١ / ٣٤٨ ــ ٣٤٩) .
(2) المصدر نفسه (١ « ٣٥٠) .
(3) المصدر نفسه (١ / ٣٤٨ ــ ٣٤٩) .

متخذ من عود شجرة صلبة وفي وسطه مكان لإطلاق البندق القاتل الذي يفتك بما يرمي .

ويصف عملية الصيد نفسها وفتكه بسرب من الطيور وعودته بالصيد الموفور والفرح الكبير .

والسري الرفاء في طردية له يصور قوس البندق تصويراً جميلاً حافلاً بالتشبيهات [1] :

مصفَّرَةٌ ما شانها اصْفِرارُها	أحسنُ من منظرِها أخبارُها
تُزجي حِساناً قبحتْ آثارُها	أفتَكُ من كبارها صغارُها [2]
فلستُ أدري أيهـا خِيارُها	تلفحُ مجتارَ الهواء نـارُها
ما طارَ في آثارِها شرارُها	طاعتُهُ لفتيَــة تَختارُها
يَقتَعْنَ فيما وقعَتْ أبصارُها	حتى إذا الشمس خَبا استعارُها [3]
واصْفَرَّ من مَغْرِبِها إزارُها	وحانَ منْ واردَةٍ إصدارُها
حُمرٌ . على أيـديهم بَوارُها	فصُرِّعَتْ مَوْشِيَّةٌ أطمارُها
في حُلَلٍ قد شُدِّدتْ أزرارُها	يضحكُ في لُجَينها نُضارُها

والطرديات عند شعراء الندوة السيفية لم تقتصر على وصف صيد الحيوان والطير وإنما وصفوا أيضاً صيد البحر وهو لون جديد طرقه شعراء سيف الدولة ، فوصفوا أدوات الصيد من شِباكٍ وأشراكٍ وشصّ كما وصفوا الصيد من حيتان وأسماك .

---

(١) ديوان السري (١٤٢ ـ ١٤٥) .
(٢) تزجي : في الاصل ترجي ، وهو تصحفي .
(٣) خبا : في الاصل ضبا وهو تحريف .

ولقد وصف الصنوبري صنانير صيد البحر الشبيهة بالأظفار والشبكة وعيونها الكثيرة وفي ذلك يقول [1] :

أفضلُ ما أعددْتُهُ منَ العُدَدْ   وما حوى صحبي به غنى الأبَدْ
بناتُ قَينٍ حازَ في الحِذْقِ الأمَدْ   على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَدْ [2]
لهـــا رؤوسٌ أعاديهـــا أوَدْ   كمِثْلِ أنيابِ الأفاعي وأحَدْ [3]
عُجْنـــا بها من حيث ما عاج أحَدْ   في ظلّ صفصاف علينا قدْ بَرَدْ [4]
شاطىء نهْرٍ لابسٍ درْع زَبَدْ   ولم تزَلْ تُرْسَلُ طوراً وتُمَدْ
ثُمَّ بعَثْنا ألفَ عينٍ في جسَدْ   فجِئْنَنا بمِثْلِهِنّ في العَدَدْ
ألفٍ منَ الحيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صور الصنانير ثم الشبكة وما أفاء الله عليهم من صيد موفور .
ويصف السري الرفاء الشبكة فيقول [5] :

وجَدْوَلٍ بيْنَ حَدِيقتَينِ   مطّردٍ مثلِ حُسامِ القَيْنِ
كَسَوْتُهُ واسِعَةَ القُطْرَينِ   تنظُرُ في الماءِ بغيرِ عَينِ
راصِدَةً كلَّ قريبِ الحَينِ   تُبرزُهُ مجنّحَ الجَنْبَينِ
كمُدْيَةٍ مصقُولَةِ الحدّينِ   كأنّما صيغَتْ منَ اللّجَينِ
رِزْقاً هنيئاً يملأُ اليَدَيْنِ   بغيرِ كَدٍّ وبغَيْرِ أيْنِ

---

(1) ديوان الصنوبري (٤٧٥) .
(2) القين : الحداد . الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح يصطاد به .
(3) الاود : الاعوجاج والانحناء .
(4) عجنا : عرجنا وانعطفنا .
(5) ديوان السري (٢٦٧) .

وهو يصور الشبكة تصويراً رائعاً ويجعلها مدية مصقولة الحدين مصاغة من اللّجين . ومن رائع وصفه في الغرض نفسه قوله :

يا رُبَّ جسْمٍ كلُّهُ نواظِرُ بآمُقٍ ليسَتْ له محاجِرُ
تَسترُ عنكَ الشيءَ وهو ظاهرُ محبوبَةٌ خــلالها الغَوادِرُ
إذا ارتدتْها اللُّجَجُ الزّواخِرُ وضمّها مثلُ المِراةِ سائِرُ
جاءتْ منَ الرزقِ بها جواهرُ صغائِراً تومضُ أو كبائِرُ
كأنّها إذا انتحاها النّــاظِرُ مخازنُ الفضّةِ أو خناجِرُ

ويصف كشاجم أنواعاً عديدة من أصناف السمك فيقول [1] :

يا رُبَّ نهْرٍ مُتأقٍ مَــلآنِ من كلّ مختارٍ منَ الحيتانِ [2]
الزَّجْرُ والشّبّوطُ والبَنــاني كالطّلْحِ مجْنيّاً من الجنانِ [3]
أو كقدودِ أذرُعِ الغَــواني مكْسُوّةً من صفَةِ الرحمنِ
مِثْلُ درُوعِ السّادةِ الفُرسانِ كأنّما ينظُرنَ من عِقبانِ

وواضح أنه يصف نهراً مليئاً بشتى أنواع السمك ، وأتى بالصور الفريدة المبتكرة التي امتاز بها في وصفه عامة إذ يشبه السمك بأذرع الغيد الحسان اللواتي حباهن الله بالحسن والجمال . وبدروع الفرسان الأقوياء .

ووصف كشاجم الشص فقال [4] :

من كان يحوي صَيدهُ الفضاءُ وللبُزَاةِ عِنْدَهُ شِواءُ

---

(١) المصايد والمطارد (٢٣٦) .
(٢) متأق : ملآن .
(٣) الزجر والشبوط والبناني : من انواع السمك .
(٤) المصايد والمطارد (٢٣٤) .

وطالَ بالكَلْبِ لهُ العَنَاءُ فإنَّ صَيْدي ما حَواهُ الماءُ
بمخْلَبٍ ساعِدُهُ رِشاءُ يَظَلّ والماءُ لهُ غِطاءُ
كما طَوَتْ هلالَها السَّماءُ كأنه من الحروف راء
هو ونصف خاتم سواءُ يحملُ سُمّاً اسمهُ غِذاءُ
وعَطَباً فيهِ لنا اجْتِناءُ تَدْمى به القلوب والأحشاءُ

ونرى أن شعراء الندوة السيفية قد اهتموا اهتماماً كبيراً بشعر الطرد حتى فاقوا غيرهم من الشعراء في هذا اللون من الشعر . وكثر النظم فيه على بحر الرجز والسبب في ذلك كما يراه نلينو « أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدوياً ، ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر عنه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضر »[1] . وتفسيره معقول يؤكده ما لاحظناه على لغة الطرديات نفسها من جنوح إلى الغريب وكأن الشاعر يرتد إلى العصر الجاهلي فيصطنع هذه اللغة الجاهلية في طردياته اصطناعاً .

ولقد تأثرت الطرديات كغيرها من فنون الشعر الحمداني بطبيعة المجتمع فكثرت فيها التشبيهات المستمدة من واقع الحياة والبيئة المحيطة بالشاعر . كما أن شعراء الندرة السيفية جددوا في فن الطرد وأكثروا من الحديث عن صيد البحر وبرعوا في ذلك وكان لهم قصب السبق وعلم التجديد في هذا المضمار .

(١) تاريخ الآداب العربية (١٩٢) .

الفصل الثاني

الأغراض الحديثة

١ – شعر الجهاد

٢ – وصف الطبيعة

٣ – وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

شعر الجهاد

خاض سيف الدولة حرباً ضروساً ضد الدولة البيزنطيّة استمر لظاها أكثر من عشرين عاماً ، ولقي الروم فيما يزيد على أربعين معركة كُتب له النصر في معظمها وذاد عن ذِمار الإسلام وحرمته ونافح عن بلاد العرب ودنياهم . ووقف سدّاً منيعاً أمام الخطر البيزنطي الداهم ففلّ جيوشهم وألحق الهزيمة بصفوفهم وجاس خلال ديارهم ووصل إلى بُعدِ سبعة أميال من عاصمتهم .

كان سيف الدولة رجل عزم وقوة ، وصاحب مبدأ وعقيدة ، وشعَر شعوراً قوياً أن الجهاد في سبيل الله فرضٌ من الفروض المقدّسة وأن دفع طغيان الأجنبي واجب سام فكرس جهده ووقف حياته وعمل بكل طاقته على إعداد الجيوش وتهيئتها لمجابهة الخطر الداهم من الروم ، الذين شعروا أن الفرصة سانحة وأن الوقت مناسب لتحقيق آمالهم وشفاء أحقاد نفوسهم القديمة منذ الفتح الإسلامي وقد شجعهم ضعف الدولة العباسية في القرن الرابع وتفككها إلى إمارات صغيرة متطاحنة على أن يسعَوْا لتحقيق أطماعهم المبيتة ولكن أمير حلب الفتيّ الأبي تصدّى لمقارعتهم طوال حكمه ووقف عقبة كئوداً في طريق خططهم المرسومة التي كانت تهدف — كما أشرنا سابقاً — للاستيلاء على بيت المقدس وديار الإسلام .

ولقد أشرع الروم على سيف الدولة حرباً صليبية قبل أن تظهر الحروب

الصليبية المعروفة وكانوا يسمّون سيف الدولة (الكافر الحمداني) كما كان رجال سياستهم يعدّونه « المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على النصرانيّة »[1] ويقول شلبرجة — أحد مؤرخي الغرب عن حرب سيف الدولة مع الروم : « إن المتصفح لمقتطفات التاريخ البيزنطي في منتصف القرن العاشر ولأكثر من عشرين عاماً يجد اسماً وحيداً يطفو على كل صفحة من صفحات ذلك التاريخ كإنسان شجاع لا يملّ ولا يكلّ ولا يتعب ، وذلك هو أمير حلب سيف الدولة بن حمدان الذي كان عدواً لدوداً للامبراطورية البيزنطية[2] .

وكان من الطبيعيّ أن تترك هذه الحروب الطاحنة والمعارك المتأججة أثرها في شعر الندوة السيفية ، فصوّر الشعراء ولا سيما المتنبي وأبي فراس اللذين خاضا غمار المعارك في هذه الحروب خير تصوير ، ووصفوا المواقع والتحام الجيوش واجتياز السهول وتخريب المدن وأسر السبايا وغير هذا وذاك مما يرافق الحرب من أهوال وويلات . وأخرجوا لنا شعراً جديداً رائعاً هو شعر الجهاد .

ومن دراستنا لهذا الشعر واستجلاء ملامحه نرى أن الشعراء قد عدّوا هذه الحروب صراعاً دينياً فصوروها حرباً بين الإسلام والكفر وانتصاراً لدين الله القويم على أعداء الإسلام من المشركين . والإلماعات إلى ذلك في شعرهم كثيرة فالمتنبي يقول حين يمدح سيف الدولة — في إحدى معاركه — بأنه لا يقاتل الروم قتال فرد لقرينه وإنما يقاتلهم قتال مبدأ وعقيدة ، يقاتل مدافعاً عن دين الإسلام ومنتصراً له على الشرك[3] :

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب : زكي المحاسني (٢٥٩) .
(٢) سيف الدولة الحمداني : د. الشكعة (١١٩) .
(٣) ديوان المتنبي (٣ / ٣٩١) .

ولَسْتَ مَليكاً هـــازِماً لنَظيرِهِ ولكنّكَ التوحيدُ للشركِ هازِمُ

والسريّ الرفاء يقول في وصفه لإحدى هذه المعارك : ان المسلمين حين انتصروا على الروم كان انتصارهم قضاء على الكفار [1] :

أفْنَتْ ظُباكَ الرومُ حتى إنّها لمْ تُبقِ منها ظبْيةً أو رِيما
ومَحَوْتَ آثارَ الصليبِ فلمْ تدَعْ للعينِ منها معلماً معلوما

ويتحدث الشاعر في قصيدة أخرى عن انتصار الأمير الحمداني على الروم فيُعدّه عزةً للإسلام وعظمة فيقول :

فتْحٌ أعزَّ بهِ الإسلام صاحبُهُ وردّ ثاقبَ نورِ المُلكِ ثاقبهُ

وفي الموضوع نفسه قال [2] :

رمَى الصَّليبَ وأبناءَ الصَّليبِ فلمْ تُغمَدْ صوارمُهُ إلاّ وهم رِمَمُ
بالبيضِ تُنكرها الأغمادُ مُغْمَدَةً والجُرْدُ تعرفُها الغيطانُ والأكمُ

ولقد كثرت معارك سيف الدولة مع الروم وكثيراً ما كان ينتصر وأحياناً كان ينهزم والشعر في كل هذه الحالات يصف لنا فرحة النصر أو لوعة الهزيمة ، واعتمد الشعراء في وصفهم لهذه الحروب على إبراز الخطط وتنسيق الجيوش ووصف القادة ، بل إنهم أيضاً وصفوا مشاعر وأحاسيس المتحاربين [3] .

وكان المتنبي أبرع شعراء الندوة السيفية في وصف حروب الأمير مع الروم إذ سجل في سيفياته كل حوادث هذه الحروب فوصف ظَفَرَ الأمير

---

(١) ديوان السري (٢٥٠) .
(٢) المصدر نفسه (٢٤٦) .
(٣) مع المتنبي : د. طه حسين (٢٣٠) .

الصاعق وانخذال الروم الساحق وفرار ملكهم وقوّادهم وتشتيت جيوشهم واندحارها .

ولقد كان هذا الفن أصيلاً لديه ينبع من نفسه إذ كان فارساً مقداماً وشاعراً بارعاً رافق سيف الدولة في أكثر حروبه ، وشهدها معه وحارب فيها إلى جانبه . ولقد أكثر من وصف حروب الأمير الحمداني وأجاد حتى قال ابن الأثير « إذا خاض المتنبي في معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظنّ الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » . وإن قصائد المتنبي هذه فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة فإنها تجمع في أبياتها قيمة تاريخية وجغرافية غالية القدر وتُعدّ وثائق في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة (١) .

وكانت أول معركة شهدها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ففيها تقدم الأمير الحمداني في الأرض البيزنطية فاتحاً مكتسحاً حتى وصل إلى صارخة (٢) وهي غير بعيدة عن القسطنطينية وظفر سيف الدولة وغنم غنيمة كبرى ولكنه عندما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه الدّرب فقُتل خلق كثير من جيش سيف الدولة وكان سيف الدولة نفسه يهلك فسميت تلك الغزاة غزاة المصيبة (٣) فأنشد المتنبي قصيدته بالحديث عن الناس الذين لا يمكن الحكم عليهم إلاّ بعد التجربة والذين يجبنون عند القتال ويشجعون عند الحديث (٤) :

غَيري بأكثرِ هذا النّاس ينخدعُ ⠀⠀ إن قاتَلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

---

(١) شعر الحروب في أدب العرب : الدكتور زكي المحاسني (٢٧٤) .
(٢) صارخة : في أرض البقلاء بناحية خرشنة .
(٣) تجارب الامم (٢ / ١٢٥) .
(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٢٣٠) .

أهلِ الحفيظَةِ إلاّ أنْ تُجرِّبَهُمْ وفي التجارِبِ بعْدَ الغيّ ما يزَعُ[1]
وما الحياةُ ونفسي بعْدَ ما علمتْ أنَّ الحياةَ كما لا تشتهي طبَعُ[2]
ليسَ الجمالُ لوجهِ صحّ مــارنُهُ أنفُ العزيز بقطعِ العزّ يجتدعُ[3]

ونلاحظ رنة الأسى والألم في حديث المتنبي وتعريضه بالجبناء الذين يجْبُنون وقت الواقعة ويُظهرون الحمية والإقدام وهم بعيدون عنها ولعله بمخاطبة نفسه أراد التعريض بأصحاب سيف الدولة .

ثم يمتدح الشاعر بطولة الأمير وشجاعته ويصف ما كان عليه من الجِدّ والعزيمة في لقاء العدو ونزوله على خَرْشَنَةَ وشقاء الروم وبِيَعِهم وصُلبانهم[4] :

بالجيشِ تمتَنِـعُ السّاداتُ كلّهمُ والجيشُ بابنِ أبي الهيجاءِ يمتنعُ
قادَ المقانب أقصى شرْبَها نَهَلٌ على الشّكيمِ وأدنى سيرها سَرَعُ[5]
لا يعتفي بلَدٌ مسْراهُ عَنْ بلَدِ كالموتِ ليس لهُ ريٌّ ولا شِبَعُ[6]
حتى أقامَ على أرباضِ خَرْشَنَةٍ تَشْقى به الرومُ والصُّلبانُ والبِيَعُ

وينساب الشاعر واصفاً ما حاق بالروم من تدمير وقتل وسبي فيقول :

للسَبْيِ ما نكحوا والقَتْلِ ما وَلَدوا والنّهبِ ما جمعوا والنّارِ ما زرعوا
مخلّىً له المرج منصوباً بصارخَةٍ لهُ المنابر مشهوداً بها الجُمَعُ[7]

---

(١) الحفيظة : الحمية والانفة . ما يزع : يكف ويردع .
(٢) الطبع : الدنس .
(٣) المارن : ما لان من الانف .
(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٣٣٣) .
(٥) المقانب : جمع مقنب ، جماعة الخيل زهاء الثلاثمائة . النهل : الشرب الاول . الشكيم : جمع شكيمة ، الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام .
(٦) لا يعتفي : اي لا يعتاق .
(٧) المرج : موضع ببلاد الروم . صارخة : مدينة من مدائنهم .

يطـمـّحُ الطـّيـْرَ فيهمْ طولُ أكلهمِ   حتى تكادَ على أحيائِهم تَقَعِ

ويستطردُ المتنبي فيصف الخيل وسرعة جريها ومواصلتها السير والغبار الذي يملأ مناخرها لركضها السريع وهي تختلس الماء اختلاساً لتواصل عدوها. وكأن الفرُسان الذين يمتطونها يشقّون لها طريقها بين صفوف الروم فتدوسهم بحوافرها. وإذا أظلمت ساحة الحرب بالغبار هدَتْ عيونَ الخيل فيها نارُ الأسنّة :

يذْري اللّقانُ غُباراً في مناخِرِها   وفي حناجرها من آلسِ جُرَعُ (١)
كأنها تتلقّـاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ   فالطّعْنُ يفتَحُ في الأجوافِ ما تسعُ
تَهدي نواظرها والحربُ مُظْلِمَةٌ   منَ الأسنّةِ نارٌ والقَنا شَمَعُ
دونَ السّهامِ ودونَ القرّ طافحةً   على نفوسهمِ المقوّرَةُ المُزُعُ (٢)

ويمضي المتنبي واصفاً هزيمة الروم وصفاً رائعاً حقاً فيصف هزيمة قائد الجيش الرومي وقتل وأسر جنده وفرار من نجا وفي قلبه فزع يقتله ولو بعد حين :

إذا دعا العلْجُ عِلجاً حال بينهما   أظمى تفارقُ منهُ أختها الضِّلَعُ (٣)
أجَلٌ منْ ولَدِ الفقّاسِ منكتِفٌ   إذ فاتهنّ وأمضى منهُ منصرعُ (٤)
وما نجا منْ شِفار البيض مُنْفَلِتٌ   نجا ومنهنّ في أحشائه فزَعُ (٥)

---

(١) اللقان : موضع في بلاد الروم : آلس : نهر في بلاد الروم .
(٢) يقال لوهج الصيف وغبراته : سهام ـ بفتح السين ـ والسهام : حر السموم .
(٣) العلج : الرجل الغليظ من كفار العجم . اظمى : يعني رمحا اسمر .
(٤) الفقاس : جد الدمستق . وقال ابن جني : هو الدمستق كأنه لقبه .
(٥) شفار : جمع شفرة : حد السيف .

يُباشرُ الأمنَ دهْراً وهو مختَبَلٌ   ويشربُ الخمر حَوْلاً وهو ممتقعُ

وينتقل المتنبي إلى وصف البطارقة المقيّدين بالأغلال وأنّ أرواحهم في ضمان القَيد للسيوف.وأن القيد يعوقهم عن الخطو إنأرادوا السير ويمنعهم النوم عند الاضطجاع :

كمْ من حشاشَةِ بطريقٍ تَضَمّنها   للباتِراتِ أمــينٌ ما لهُ وَرَعُ
يقاتِلُ الخطْوَ منهُ حينَ يطلُبُهُ   ويطرُدُ النّوم عنه حينَ يضْطَجعُ
تغدُو المنايا فلا تنفكّ واقِفَــةً   حتّى يقولَ لها عُودي فتندفعُ

ويتحدث الشاعر عن هزيمة سيف الدولة وهو أمر خطير ودقيق ولكن الشاعر يجيد التعليل ويحسن التفسير فهو لم يصرّح كيف تحوّل النصر إلى هزيمة ولكنه قال أن سبب الهزيمة مَنْ لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء وأن الأسرى الذين وقعوا في يد الروم جازاهم الله على تقاعسهم وخذلانهم للأمير . وهم كالاموات لا يأكلهم إلاّ الضباع . ثم يهدّد الروم بأن كل معركة بعد هذه سيكون النصرُ فيها للأمير لأن جنده قد نقيت من الجبناء ولم يعد فيها إلاّ الأبطال :

قلْ للدّمستق إنّ المُسْلمينَ لَكُمْ   خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
وجدْتموهُمْ نِيامــاً في دمائكُمُ   كأنّ قَتلاكُمُ إيّاهمُ فَجَعوا
ضَعْفَى تَعِفّ الأيادي عَنْ مثالهمُ   مِنَ الأعادي وإنهمّوا بهم نزعوا[1]
لا تحسبوا مَن أسرتم كان ذا رَمَقٍ   فليسَ يأكُلُ إلاّ المَيّتَ الضَّبُعُ
وإنما عرّض اللهُ الجُنودَ لَكُمْ   لكي يكونوا بلا فَسْلٍإذا رجعوا[2]
فكلّ غزْوٍ إليكم بعْدَ ذا فَلَــهُ   وكلّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التّبَعُ

(١) ضعفى : جمع ضعيف .
(٢) الفسل : الرذل الدنيء العاجز .

ويعد هذا التعليل الرائع للهزيمة يعزّي المتنبي سيف الدولة ويهوّن الأمر عليه فيجعله في مكان فوق الشمس والسيف يأتمر بأمره وأرض الروم مصطاف ومرتبع لجنده :

وهلْ يشينُكَ وقتٌ كنتَ فارسَهُ　　وكان غيرك فيهِ العاجزُ الضَّرَعُ[1]
مَن كان فوق محلّ الشمسَ موضعه　　فليس يرفعه شيءٌ ولا يَضَعُ
الدَّهرُ معتذِرٌ والسّيفُ مُنْتَظِرٌ　　وأرضهم لكَ مُصطافُ ومرتبعُ[2]

ولعلك تتفق معي على أن هذه القصيدة تعد من عيون شعر الجهاد التي برع فيها المتنبي ووُفّق إلى حد كبير .

وقد أخذ الدمستق بعد هذه المعركة يحوم حول الثغور الإسلامية حتى وصل إلى مَرْعش واستعدّ سيف الدولة لقتاله وأوقع به وفرّ الدمستق هارباً ولكن بعد أن هدم سُور المدينة فأعاد الأمير بناءه[3] :

وتحدث المتنبي عن هذه المعركة ووصف هزيمة الدمستق وهربه . فقال[4] :
سراياكَ تترى والدّمستق هاربٌ　　وأصحابهُ قَتلى وأمواله نُهبى[5]
أتى مرْعَشاً يستقربُ البُعْدَ مقبلاً　　وأدبَرَ إذا أقبلْتَ يستبعدُ القُرْبا[6]

ووصف السري الرفاء هذه المعركة وتحدث عن خيل سيف الدولة وقد تقدمت إلى أرض الروم تثير العِثّيرَ لسرعتها ويغطي الغبار وجوهها فكأنها

---

(١) الضارع : الضعيف .
(٢) مصطاف ومرتبع : المنزل في الصيف والربيع .
(٣) زبدة الحلب (١ / ١٢٢) .
(٤) ديوان المتنبي (١ / ١٨٨) .
(٥) السرايا : جمع سرية وهي الجماعة من الجيش .
(٦) مرعش:مدينة من اعمال حلب ولها مياه وزروع وأشجار ولها سور منيع وهي قريبة من الحدث (بغية الطلب) ورقة (٣٠٧) .

مقنّعة ببراقع . وقد انتهت المعركة بعد أن دُكّتْ حصون الروم وأصبحت البلاد خراباً[1] :

خَطَا الدربَ الأصمّ إلى سهند وقعقعةُ الحديدِ لها حَديدُ
وقادَ الخيْلَ قُبّاً يقتضيها ذخيرةَ جُهْدِها أو يستزيدُ
وزارَتْ أرضَ خَرشَنَةَ رِعالاً فكادَتْ أرضُ خرشَنَة تميدُ
وجُزْنَ على الصَّعيدِ مُبَرْقَعَاتٍ براقِعهُنّ ما نَسَجَ الصَّعيدُ
وباتَتْ تُوقَدُ النيرانُ فيها وسيّانَ الكَواكِبُ والوَقُودُ
وسُحْنَ بجانبيْ سَيْحانَ حتّى رَجَعْنَ وفَجّهُ المعمور بِيدُ

وعلى أثر هذه المعركة أرسل ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء والهدنة ، فدخل المتنبي على الأمير وعنده رسول ملك الروم ولبوءة مقتولة بين يديه ومعها ثلاثة أشبال حيّة فقال مرتجلاً[2] :

لَقيتَ العُفاةَ بآمالها وزُرْتَ العُداةَ بآجالها
وأقبَلَتِ الرّوم تمشي إليْ ـكَ بينَ اللّيوث وأشبالها
إذا رأتْ الأسْدَ مسبيّةً فأينَ تَفِرّ بأطفالِها

ويبدو أن أمور الهدنة والفداء كانت تأخذ شكلاً رسمياً فابن خالويه يقول : قال أبو فراس وفد رسول ملك الروم لطلب الهدنة فأمر سيف الدولة بالركوب والسلاح فركب من داره ألفُ غلام مملوك بألف جوشنٍ مذهّبٍ على ألف فرّس عتيق بألف تجفاف[3] وركب الناس والقواد حتى طبّق الجيش جبَل الجوشَن فقال أبو فراس[4] :

---

(١) ديوان السري الرفاه (٧٦) .
(٢) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٥) .
(٣) التجفاف : آلة الحرب يلبسه الفرس والحصان وتشبه الدرع .
(٤) ديوان ابي فراس (١ / ٦٥) .

عَلَوْنا جوشناً بأشدَّ منهُ وأثبتَ عندَ مشتجر الرّماحِ
بجيشٍ جاش بالفرسان حتّى ظنَنتُ البرّ بحراً من سِلاحِ
وألسنَةٍ من العَذباتِ حمْرٍ تخاطِبُنا بأفواهِ الرّماحِ

وفي سنة ٣٤٢ هـ خرج سيف الدولة لقتال الروم واكتسح كثيراً من المواقع ، فانتهز العدو الفرصة وأغار على بعض الأطراف الإسلامية ، فبلغ الخبر سيف الدولة فانطلق إثر العدوّ وأدركه عند نهر جيحان فأنشد المتنبي قصيدته اللامية التي تعد من روائع شعر الجهاد في الأدب العربي إذا لم تكن أروعه ، ولقد بدأ قصيدته بغزل حزين فيه رقة وعذوبة ووصف عدم تغير حاله بعد الأحبة وبقاءه على الحب والشوق وتصبره على بعدهم (١) :

ليالِيَّ بعدَ الظاعنينَ شكُولُ طِوالٌ وليلُ العاشقينَ طويلُ (٢)
يُبِنَّ ليَ البدْرَ الذي لا أُريدُهُ ويخفِينَ بَدْراً ما إليهِ سبيلُ
وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً ولكنّني للنّائباتِ حَمولُ

وينتقل الشاعر إلى وصف المعركة فيصف هجوم الخيل على أرض العدو ويتحدث عن انطلاقها السريع ويشبهها بانطلاق السهام ، ويذكر أن أصواتها تنم عن النشاط والقوة وهي تُغذّ الرّكض رافعة أذنابها في مرَح وصهيل . وهي لا تقف في بلد نهاراً حتى تغادره إلى غيره ليلاً حتى فاجأت الروم وأخذتهم على غرّة وصُبَّ عليهم الموتُ من هذا العارض الذي أمطرهم حديداً :

رمَى الدَّربَ بالجرد الجيادِ إلى العِدا وما علموا أنَّ السهام خيُولُ (٣)

---

(١) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٧) .
(٢) الظاعنين : جمع ظاعن : المرتحل . شكول : جمع شكل : اي شبيه .
(٣) الجرد : الخيل القصيرة شعر الجلد .

شوائِلُ تشوال العقاربِ بالقَنا لها مرَحٌ منْ تحته وصهيلُ[1]
وخيلٍ براها الركض في كلّ بلدَة إذا عرَّست فيها فلَيس تَقيلُ[2]
فما شعَرُوا حتى رأوها مُغيرَةً قباحاً وأمّا خَلقُها فجَميلُ
سحائِبُ يمطِرْنَ الحَديدَ علَيهمِ فكلٌّ مكانٍ بالسّيوفِ غَسيلُ

ويستطرد الشاعر فيصف ما حاق بالروم من تدمير وقتل ويتحدّث عن تنقل الخيل السريع من مكان إلى آخر منزلة الهزيمة الساحقة بالروم وجندهم بقوله :

وعادَتَ فظَنّوها بمَوْزَارَ قُفّلاً وليس لها إلاّ الدّخول قفولُ[3]
فخاضَتْ نجيعُ الجمع خوضاً كأنّهُ بكلّ نجيع لم تخُضْهُ كفيلُ[4]
تُسايرُها النّيرانُ في كلّ مسلكٍ به القوم صرعى والدّيارُ طُلُولُ
وكرّتْ فَمَرَّتْ في دماءِ ملَطيةً ملَطيةُ أُمٌّ للبنينِ ثَكُولُ[5]
ورعْنَ بنا قَلْبَ الفراتِ كأنّما تخرّ عليهِ بالرّجالِ سُيولُ
ودونَ سميساطُ المطاميرُ والملا وأوديَةٌ مجْهُولَةٌ وهَجولُ[6]

ويصور المتنبي الموقعة تصويراً رائعاً حتى نظن أننا نشاهد أحداثها ونسمع

---

(١) شوائل : شالت العقرب ذنبها : رفعته . المرح : لعب يتبعه النشاط.
(٢) التعريس : نزول الركب آخر الليل للاستراحة .
(٣) موزار : حصن ببلاد الروم . قفول : رجوع .
(٤) نجيع : دم الجوف خاصة .
(٥) ملطية : مدينة كبيرة حصينة تعد من اكثر الثغور وحولها جبال كثيرة الاثمار ومياهها كثيرة من العيون ومن الفرات : بغية الطلب ورقة (٣١٩) .
(٦) سميساط : مدينة صغيرة على الفرات ولها قلعة حصينة : بغية الطلب ورقة (٣٣٠) . المطامير : جمع مطمورة وهي الحفرة الفائرة في الارض يخبأ فيها الطعام والشراب . والملا : جمع ملاة وهي الفلاة ذات الحر والسراب . الهجول جمع هجل : المطمئن من الارض .

صليل سيوفها وقرع رماحها ، ويصف فرار برداس ووقوع ابنه في الأسر ويتوعد الدمستق ويتهكم عليه في سخرية شديدة فيقول :

فلمّا رأوْهُ وحْدَهُ قبْلَ جيشِه ... دروْا أنَّ كلَّ العالمينَ فُضُولُ
وأنَّ رماحَ الخَطِّ عنْهُ قَصيرَةٌ ... وأنَّ حديدَ الهِندِ عنهُ كليلُ
فأوردهُمْ صدرَ الحِصانِ وسَيْفَهُ ... فتىً بأسُهُ مثلُ العَطاءِ جزيلُ
جَوادٌ على العِلاّتِ بالمالِ كُلِّه ... ولكنّهُ بالدّارعينِ بَخيلُ
فوَدَّعَ قَتْلاهمْ وشيّعَ فَلّهُمْ ... بضربٍ حُزونُ البِيضِ[1] فيه سهولُ
على قلبِ قُسطنطين منْهُ تَعَجّبٌ ... وإنْ كان في ساقيهِ منه كبولُ[2]
لعلّكَ يوماً يا دمُستقُ عائدٌ ... فكَمْ هاربٍ ممّا إليهِ يئولُ[3]
نجَوْتَ بإحدى مهْجَتَيكَ جريحَةً ... وخلّفْتَ إحدى مُهجَتيكَ تسيلُ[4]
أتُسْلِمُ للخَطيّةِ ابْنكِ هارِباً ... ويسْكُنُ في الدّنيا إليكَ خليلُ[5]

ويلتفت المتنبي بعد ذلك إلى أعداء الأمير الحمداني من ملوك المسلمين ويعرض بهم قائلاً :

فَدَتْكَ ملوكٌ لم تُسمّ مَواضِياً ... فإنّكَ ماضي الشّفْرَتينِ صَقيلُ
إذا كانَ بعضُ الناس سيْفاً لدولةٍ ... ففي النّاسِ بوقاتٌ لها وطُبول

ويبدو أن المتنبي قد قصد بهجائه معزّ الدولة البويهي لتقصيره في حرب الروم أعداء الإسلام والمسلمين واكتفائه بالطبول والأبواق .

---

(١) الفل : المنهزمون . الحزن : جمع حزن : ما غلظ من الارض .
(٢) كبول : جمع كبل : القيد الضخم .
(٣) المهجة : الروح .
(٤) الخطية : الرماح .
(٥) ديوان المتنبي (٣ / ٥) .

ولقد تحدث المتنبي عن هذه المعركة في قصيدة ثانية مدح بها سيف الدولة وهنأه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وأنشده إياها بحَلَب وهما على فرسيهما ، وذكر في قصيدته أسر ابن الدمستق ـ الذي مات في أسره بعلة اعتلّها ـ وفرار أبيه المشينَ وأشار إلى ترهّب الدمستق ودخوله الدّير حُزْناً على ولده (١) .

ومعركة كهذه المعركة التي خاضها سيف الدولة لا بد أن تترك أثرها الكبير في نفوس الشعراء ولذلك تسابق شعراء الندوة السيفية للحديث عنها فقال أبو فراس يصف قسطنطين ابن الدمستق في أصفاده تحف به البطاريق وكأنه في موكب ولكن أي موكب أنه موكب الهزيمة (٢) :

فلمّا رأتْ جيشَ الدّمستقِ راجعَتْ عزائمها واستنهضتها البصائرُ
وما زلنَ يحملنَ النفوس على الوجى إلى أنْ خضبنَ بالدّماءِ الأشاعِرُ
وأبنَ بقسطَنطينَ وهْوَ مُكَبَّلٌ تحفّ بطاريقُ به وزراورُ
وولّى على الرسمِ الدّمستق هارِباً وفي وجهه عذرٌ من السيفِ عاذِرُ

وقال النامي مشيراً إلى ترهب الدمستق ودخوله الدّير (٣) :

لكنّهُ طَلَبَ الترَهّبَ خِيفَـةً ممّنْ لهُ تتَقاصرُ الأعمْارُ
فمكانُ قائمِ سيفِهِ عُكّـازُهُ ومكانُ ما يتَمَنْطَقُ الزنّارُ

ويتحدث السري الرفاء عن هذه الموقعة واصفاً شجاعة الأمير وبأسه وحسن بلائه بالروم فيقول (٤) :

---

(١) ديوان المتنبي (٢ / ٥) .
(٢) ديوان ابي فراس (١ / ١١٨) .
(٣) شعر النامي (٥٧) .
(٤) ديوان السري الرفاء (٢٠٧) .

هيَ الصَّوارِمُ والخَطيّةُ الذبّلُ والحَرْبُ كاشرَةٌ أنْيابُها عُصُلُ
واللّيْثُ أصحَرَ حتى لا حصونَ لهُ ولا معاقلَ إلاّ البيضُ والأسَلُ
والرّومُ تبذُلُ ما رامتْ أسِنّتُهُ وهلْ لها بالمنايا أقبلتْ قِبَلُ

ويصف السري الرفاء جياد الأمير النشيطة السريعة العدوِ ، ويتحدث عمّا حاق ببلاد الروم من تدمير وخراب فيقول :

قادَ الجيادَ له من وطئِها صَخَبٌ على الصّخورِ ومنْ أرْهاجِها ظُلَل
يؤمّ خرشَنَةَ العُلْيا فيُصْحِبُها بالخيْلِ تصهلُ والراياتُ ترتجلُ
وحكّم السّيفَ فيها عادِلاً فغدتْ وأهْلُها جزَرٌ للسّيفِ أو نَفَلُ
محمّرَةٌ من دماءِ القومِ مُشْعَلَةٌ سِيّانِ فيها المنايا الحمْرُ والشُّعلُ

ويصف ابن نُباتة السعدي هذه الموقعة بقصيدة رائعة تحدث فيها عن اقتحام الأمير لبلاد الروم وتطوافه في ديارهم فاتحاً للحصون ومنكلاً بالأعداء وذلك حيث يقول :

فطوّفَ في بلادِ الرّومِ حتّى توهّمْناه قد ضلّ السّبيلا
وكيفَ يَضِلّ في سُبُلِ المعالي فتىً جعَلَ الحسامَ له دليلا
كأنّ حصونَهُم نادتْ نداه أوِ اختارتْ بساكنها بَديلا
كأنّ بلادَهُم ضمّتْ عليهِ جوانحَها مخافَةَ أنْ يزُولا

وينتقل ابن نباتة فيصف خيل سيف الدولة النشيطة السريعة الجري والتي تقتحم المياه وتخوض الأنهار بقوله :

كأنّ الخيلَ من مرَحٍ ولهْوٍ تُنازعُهُ إذا نزَلَ الرّحيلا
دِقاق كالأهِلّةِ في الأعادي تعلّمُ من ذوابِلِهُ النّحولا

يخوضُ بها الفُراتَ فتىً يُلاقي بوجْهِ المرتِ في الغمراتِ سُولا
ولو أنَّ الفُراتَ عصى عليهِ لردَّ السيْلَ منهُ أن يسيلا

ويشير الشاعر إلى هجوم الروم على بعض ثغور المسلمين وعودة سيف الدولة السريعة للانقضاض عليهم بقوله :

فما ضحِكَتْ بحصْنِ الرّانِ حتّى بَكَتْ حلَبٌ ورَجّعَتِ العَويلا
فكَرَّتْ نحوَ عَوْلتها رُجُوعــاً ككَرّاتِ اللّيوثِ حمَتْ شبُولا
إلى بحرٍ بمَرْعَشٍ من حَديــدٍ فأوردَها شرائِعَهُ سُيــولا

ويتحدث عن أسر قسطنطين حديثاً سريعاً وموجزاً فيقول :

فقالوا هاكَ قسطنطينَ خُذْهُ ونَهْنِهْ منْ أعِنّتها قَليلا

وواضح أن المتنبي كان يفوق شعراء الندوة السيفية كافة في هذا اللون من الشعر فهو لا يُضاهى ولا يجارى لأنه شاعر الحرب وصاحب الكلمة النابعة من القلب والمليئة بالإحساس والتصوير الرائع للمعارك والحروب .

وتتوالى الحروب وتستمر بين سيف الدولة والروم ويحـاول الأمير الحمداني في سنة ٣٤٣ هـ بناء قلعة الحدَث [١] التي خرّبها الروم في عام ٣٣٧ هـ حيث خرج إليها بجيشه وأخذ يعيد بناء سورها المتهدم وشارك في ذلك بنفسه لكي يتمكن من إنهاء عملية التحصين في أسرع وقت ممكن . ولكن ما أن تناهى خبر استرداد هذا الحصن إلى سمع قائد الروم برداس حتى سارع إلى لقاء سيف الدولة في جيش لجبٍ وكثيف يبلغ عددُ جنوده خمسين ألفاً من روم وروس وأرمن وصقلب وبلغار [٢] .

---

(١) الحدث : قلعة حصينة بين ملطية وسميساط وهي في الشمال الشرقي من مرعش : معجم البلدان (٢ / ٢١٠) .
(٢) نخبة تاريخية : كانار (١٠٨) .

وقد وقعت المعركة وانتصر المسلمون على الرغم من تفوق العدوّ في العدد والعُدّة . وقتل في هذه الحرب نحو ثلاثة آلاف من جنود الروم فضلاً عن الأسرى من بطارقة وجند ، وفي مقدمتهم تودس الأعور بطريق سَمَنْدو وصهر فوكاس كما أُسر أيضاً ابنُ ابنة الدمستق [1] .

ولقد وصف المتنبي هذه المعركة في قصيدته الميمية وصفاً حماسياً رائعاً فقال [2] :

على قَدْرِ أهلِ العزْمِ تأتي العَزائمُ — وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارِمُ
وتعظُمُ في عينِ الصَّغيرِ صِغارُها — وتصْغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ
يكلّفُ سيفُ الدولةِ الجيشَ همّه — وقد عجزتْ عنه الجيوش الخضارمُ [3]

وينتقل المتنبي فيصف معركة الحَدَث الحمراء لكثرة دمائها وصفاً بارعاً ويذكر جماجم الروم الكثيرة التي بترتها سيوف الحمدانيين ويتحدث عن بنائها وقد اصطرعت السيوف واشتجرت الرماح فيقول :

هَلِ الحدَثُ الحَمراءُ تعرفُ لونَها — وتعلمُ أيّ السّاقيَيْنِ الغمائمُ [4]
سقَتْها الغَمامُ الغُرّ قبْلَ نزُولِه — فلمّا دنا منْها سقَتْها الجماجمُ
بَناها فأعلى والقَنا تقرَعُ القَنا — وموج المَنايا حَوْلَها مُتلاطِمُ

وينتقل الشاعر إلى وصف بطولة الأمير الذي ذاد عن المدينة وحماها من غدر الروم وحلفائهم فيقول :

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٦) ، ابن الاثير (٨ / ١٨٣) .
(٢) ديوان المتنبي (٤ / ٩٦) .
(٣) الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شيء .
(٤) الحدث : قلعة حصينة ويقال لها الحمراء لانها تربتها حمراء وقلعتها على جبل يقال له الاحيدب : معجم البلدان (٢ / ١١٨ ـ ١١٠) . بغية الطلب ورقة (٣١١) .

وكيف تُرجّي الرّوم والرّوس هدمها   وذا الطّعنُ أساسٌ لها ودعائمُ
وقد حاكموها والمَنايا حواكمٌ   فما مات مظلومٌ ولا عاشَ ظالمُ

ويستطرد الشاعر فيصف جيش الروم اللّجب الذي أتى مدجّجاً بالسلاح وجمع أجناس عديدة تباينت لغاتها واختلفت لهجاتها فيقول :

أتَوْكَ يجرّونَ الحديدَ كأنّهمْ   سرَوْا بجيادٍ ما لهنَّ قَوائِمُ
إذا برَقوا لم تُعرف البيض منهُمُ   ثيابهُم مِنْ مثلِها والعمائمُ[1]
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه   وفي أذُن الجوزاء منهُ زمازمُ[2]

تجَمّعَ فيهِ كلُّ لسْنٍ وأمّــةٍ   فما تفهمُ الحدّاثَ إلاّ التراجِمُ

ويصف المتنبي المعركة التي احتدمت والتي هزم فيها العدو هزيمة نكراء ويتحدث عن تداخل صفوف الأعداء بعضها في بعض نتيجة للفوضى التي دبت بينهم واختلال نظامهم كما يشبه هاماتهم المتناثرة على سفوح الجبل بالدراهم التي تنثر فوق رأس العروس :

ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمّةً   تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ[3]
بضرْبٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ   وصارَ إلى اللّباتِ والنصرُ قادمُ[4]
نثرْتَهُمُ فوقَ الأحَيدبِ كُلّه   كما نثرتْ فوقَ العروس الدراهم[5]

---

(١) البيض : السيوف .
(٢) الخميس : الجيش العظيم . الجوزاء : نجمان معترضان في جوز السماء : اي وسطها .
(٣) يريد بالجناحين : ميمنة الجيش وميسرته : وهما جانبا العسكر . القوادم : هي الريش فوق الخوافي ، قيل انها عشر ريشات في مقدم جناح الطائر . الخوافي : ما تحت القوادم .
(٤) الهامات : الرؤوس . اللبات : النحور .
(٥) الاحيدب : جبل الحدث .

ويستطرد المتنبي فيصف خيول سيف الدولة التي كانت تتبع المنهزمين من الأعداء في تلك الذُّرى فتدوس وكُورَ العقبان التي فَرِحتْ بكثرة عدد جثث القتلى من الروم وظنت فِراخُ العقبان أن خيل الأمير أمهاتها لسرعة عدوها وأن هذه الخيل كانت إذا زلقت في صعودها الجبال تمْشي على بطونها مشي الحيات وفي ذلك يقول :

تدُوسُ بِكَ الخيلُ الوكورَ على الذّرا ... وقد كثُرتَ حولَ الوكورِ المطاعمُ[1]
تَظُنّ فراخُ الفتخِ أنّكَ زُرْتَهـا ... بأُماتِها وهي العِتاقُ الصلادِمُ[2]

ويسخر المتنبي من الدمستق سخرية لاذعة لأنه يقدم كل يوم ثم يفِرّ ، وهو أجهل من الحيوانات التي إذا شمّتْ ريح الأسد وقفت ولم تتقدم ، بينما هو لا يرعوي ولا يرتدع بأسر ابنه وأصهاره ، ويمضي منهزماً وهو يشكر أصحابه لأن السيوف اشتغلت بهم عنه ويسرّ الدمستق لأنه نجا بنفسه :

أفي كلّ يومٍ ذا الدّمستق مقدِمٌ ... قَفاهُ على الإقدامِ للوجْهِ لائِمُ
أيُنْكِرُ ريحَ اللّيثِ حتى يَذُوقَـهُ ... وقدْ عرفَتْ ريحَ اللّيوثِ البَهائِمُ
وقدْ فجَعَتْهُ بابنِهِ وابنِ صِهرِهِ ... وبالصِّهْرِ حملاتُ الأميرِ الغواشمُ
مَضى يشكُرُ الأصحابَ في فوته الظبى ... بما شغلتها هامُهُمْ والمعاصمُ[3]
يُسرّ بما أعطاكَ لا عَنْ جَهالَةٍ ... ولكنّ مغنوماً نجا منكَ غانِمُ

ويصرح المتنبي بأن هذه الحرب ليست حرباً بين مَلِكين ولكنها حرب دينية بين الإسلام والشرك : فيقول :

---

(١) الوكور : موضع مبيت الطيور . الذرى : اعالي الجبال .
(٢) الفتخ : جمع فتخاء : اناث العقبان . والفتخ : لين المفاصل . العتاق : كرام الخيل . الصلادم : جمع صلدم : وهي الفرس الشديدة الصلبة.
(٣) الظبى : جمع ظبة : حد السيف . الهام : الرؤوس . المعاصم : جمع معصم : أطراف السواعد .

ولستَ مَليكاً هازماً لنصيرهِ ولكنّك التّوحيد للشّركِ هازِمُ

وكان لهذه الموقعة العظيمة التي انتصر بها سيف الدولة على الروم انتصاراً ساحقاً صدى كبير في العالم الإسلامي آنذاك وتسابق شعراء الندوة السيفية في وصفها وتغنّى بها أبو فراس في رائيته [1] :

وحسْبي بها يومَ الأحَيدِبِ وقْعَةٌ على مثلِها في العزّ تثنى الخَناصرُ
عدَلْنا بها في قِسمةِ الموتِ بينهم وللسيفِ حكم في الكتيبةِ جائِرُ
إذِ الشيخُ لا يَلْوي ونقفورُ مُجحِرٌ وفي القيدِ ألفٌ كالليوثِ قساوِرُ
ولمْ يبقَ إلاّ صهره وابنُ صِهرهِ وثَوَّرَ بالباقينَ مَنْ هو ثائِرُ

ووصف السري الرفاء هذا الانتصار العظيم وسماه الفتح الذي أعز الله به الإسلام وتحدث عن الفرحة الكبرى التي عمت ديار المسلمين لهذا النصر الكبير [2] :

فَتْحٌ أعزَّ به الإسلامَ صاحبهُ ورَدَّ ثاقِبَ نورِ المُلْكِ ثاقبهُ
سارت به البُرد منشوراً صحائفه على المنابِرِ محموداً عواقِبهُ
فكلّ ثَغْرٍ له ثغْرٌ يضاحكُهُ وكلّ أرضٍ بها ركبٌ يصاحبُهُ
عاد الأميرُ به خُضراً مكارمُهُ حُمراً صوارمهُ بيضاً مناقِبُهُ

ويصف ابن نباتة السعدي بطولة الأمير الحمداني في الحدث ويخاطب ملك الروم قائلاً [3] :

ويُنْكِرُ يوماً بالأحَيدبِ كَذَّبَتْ به البيضُ حَدَّ البيضِ وهو صدوق

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١٤٥) .
(٢) ديوان السري (١٧ ـ ١٨) .
(٣) ديوان ابن نباتة المخطوط (٣) .

به شرِقَتْ من خشيةِ الموتِ بالحصى　　صُدورٌ وفارَتْ بالقلوبِ حلُوقُ

وفي قصيدة ثانية يتحدث عن هذه المعركة العظيمة فيقول :

وفي ظهْرِ الأحَيدِبِ حمّلَتهمْ　　خِفافُ سيوفه عِبئاً ثَقيلا
تألّفَتِ الجماجمُ والهوادي　　كما تتألّفُ الغُرُرُ الحُجولا

وكانت آخر معركة وصفها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم هي المعركة التي نشبت بينه وبين الروم في سنة ٣٤٥ هـ وكان سيف الدولة قد غزا بلاد الروم ووصل إلى بطن هِنزِيطَ[١] وأخذ معه سفناً مخلعة وأطوافاً عبَرَ عليها نهر « أرْسَناس »[٢] وقصد مدينة« تل بطريق »[٣] فأحرقها وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل[٤] . وأسر عدداً من بطارقتهم وقادتهم وجنودهم وغنم غنيمة كبيرة تفوق الإحصاء .

وأنشد أبو الطيب في ذلك قصيدته[٥] التي أولها :

الرّأيُ قبلَ شجاعةِ الشجْعانِ　　هوَ أوّلٌ وهيَ المحلُّ الثّاني
فإذا هُما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ　　بلَغتْ من العلياءِ كلَّ مكانِ
ولرُبّما طعَنَ الفتى أقرانَهُ　　بالرّأيِ قبلَ تطاعُنِ الأقْرانِ
لولا العقولُ لكان أدنى ضيغمٍ　　أدنى إلى شرَفٍ منَ الإنسانِ

---

(١) بوزن قنديل وبالزاي كما في معجم البلدان ، وذكر القاموس انها هنريط بالراء ... منصوصا عليها .
(٢) ارسناس : بالفتح ثم السكون وفتح السين المهملة ونون والف وسين أخرى : اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه : معجم البلدان (١ / ٢٠٧) .
(٣) تل بطريق : يقع على الضفة الغربية للفرات وذكره ياقوت فقال : بلد كان بأرض الروم في الثغور خربه سيف الدولة وبينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ : معجم البلدان ٢ : ٤٠ .
(٤) نخبة تاريخية وأدبية (١١٨ / ١١٥) .
(٥) ديوان المتنبي (٤ / ٣٠٦) .

ونلاحظ أن الشاعر استهل قصيدتـــه بالحكمة وفضّل العقل على شجاعة الأبطال والرأي على القوة أما إذا اجتمع العقل والشجاعة لنفس تأبى الذل والضيم ولا تلين قناتها للأعداء فإنها تبلغ من العلا أعلى المبالغ . ويفضل الشاعر العقل الذي لولاه لفضلت بعض الحيوانات على الإنسان .

ويصف المتنبي خيل الأمير – وهو كلف بوصفها كما لاحظنا من خلال دراسة شعره – فيحدث بأنها خيل كريمة أصيلة مؤدبة بآداب الحرب إذا خُلِّيَتْ لم تبرح مكانها فكأنها مربوطة . ولشدة النقع المتطاير لا تبصر هذه الخيل بعيونها وإنما إذا سمعت شيئاً أرهفت آذانها فكأنها تبصر بها وفي هذه المعاني يقول :

قادَ الجِيادَ إلى الطّعانِ ولم يقُدْ ... إلاّ إلى العادات والأوطانِ
كلّ ابنِ سابقةٍ يغيرُ بحُسْنِهِ ... في قلْبِ صاحبه على الأحْزانِ
إن خلّيت رُبطتْ بآداب الوغى ... فدَعاؤها يُغْني عن الأرسانِ
في جَحْفلٍ سترَ العُيونَ غُبارُه ... فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذانِ

ويصف المتنبي براعة الخيول في خوض مياه النهر وعلى متنها الكماة الأبطال من جند سيف الدولة وعمائمهم منتشرة في الهواء كما يصف وثب الخيل في نهر « أرْسَناس » البارد الماء ولقد عبرت هذه الخيول النهر وهو كالفضة فلما نشبت المعركة وكثر القتلى من الروم جرت فيه دماءهم فعادت الخيل ووقد أصبح النهر أحمر كالذهب فيقول :

حتّى عَبَرْنَ بأرْسناسَ سَوابِحاً ... ينْشُرْنَ فيهِ عمائِمَ الفرسانِ
يقمُصْنَ في مثلِ المَدى منْ باردٍ ... يَذَرُ الفحولَ وهُنَّ كالخصيانِ [1]

(١) يقمصن : يثبن .

والماءُ بينَ عَجاجتَيْنِ مخلِّصٍ تتفرّقانِ بهِ وتلتقيانِ
ركَضَ الأميرُ وكاللّجينِ حَبابُهُ وثنى الأعنّةَ وهو كالعقيانِ (١)

ويفيض المتنبي من درر شعره فيصف السفن التي اجتاز بها جيش سيف الدولة النهر والتي ملأته وهي عقم لا تلد وألوانها سُودٌ مطليّة بالقار وشبّهها بالخيول العادية وهي تحمل النساء التي سبتها الفوارس وكأنهن غزلان والسفن مرابض لها فيقول :

فَتَلَ الحِبال من الغدائرِ فَوْقَهُ وبنى السَّفينَ لهُ منَ الصّلْبانِ
وحَشاهُ عاديةً بغيرِ قَوائمٍ عُقْمُ البطونِ حوالِكَ الألوانِ
تأتي بما سَبَتِ الخيولُ كأنّها تحتَ الحِسانِ مرابِضُ الغزلانِ

ويصف المتنبي هول المعركة التي نشبت والتي هُزِمَ فيها الروم شر هزيمة ويشيد بجند الأمير الذين تراهم فوق خيولهم فتحسبهم عقْباناً لخفتهم وسرعتهم وهم مجاهدون في سبيل الله ومَن استُشْهِد منهم بالقتل صار حياً مرزوقاً عند الله . ويتحدث عن الروم الذين فرّوا منهزمين وهم يضربون بالرماح والسيوف حتى إن من هرب ونجا منهم عَدَّ نفسه مدركاً أمله . وفي ذلك يقول :

نَظَرُوا إلى زُبَرِ الحَديدِ كأنّما يصْعَدْنَ بينَ مناكِبِ العِقبانِ (٢)
وفَوارِسٍ يُحيي الحِمامُ نفوسُها فكأنّها ليستْ مِنَ الحَيوانِ
ما زِلْتَ تضربُهُم دِراكاً في الذُّرى ضرْباً كأنَّ السيفَ فيهِ اثْنانِ (٣)
خصَّ الجَماجمَ والوجوهُ كأنّما جاءتْ إليكَ جسومُهُم بأمانِ

---

(١) اللجين : الفضة. الحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء. العقيان : الذهب.
(٢) الزبر : جمع زبرة : وهي القطعة من الحديد والمراد : السيوف . العقبان : جمع عقاب الطائر المعروف .
(٣) الدراك : المتتابعة . الذرى : جمع ذروة وهي اعلى كل شيء .

فرمَوْا بما يرمونَ عنهُ وأدْبَروا يطئُونَ كلَّ حنيّةٍ مِرْنانِ [1]
يغشاهُمُ مطَرُ السّحابِ مفَصّلاً بمثقّفٍ ومُهنّدٍ وسِنانِ [2]
وإذا الرّماحُ شغَلْنَ مُهجةَ ثائرٍ شغَلَتْهُ مهجته عنِ الإخْوانِ [3]

ويعود المتنبي فيذكر هذه الموقعة في قصيدة ثانية له وهي آخر قصيدة قالها في بلاط سيف الدولة قبل رحيله من حلب صوب مصر وأولها :

عُقْبى اليمينِ على عُقْبى الوغى ندَمُ ماذا يزيدُكَ في إقدامكَ القسَمُ

وهي قصيدة رائعة لا تقل جودةً وحسناً عن قصيدته التي عرضنا لها بالتحليل .

ولقد تحدث أبو فراس عن هذه الواقعة بقصيدته الرائية فقال [4] :

وشَقَّ إلى ثَغْرِ الدّمستق جيشُهُ بأرضِ سلامٍ والقَنا مُتَشاجِرُ
سَقَى أرْسناسا مثلَهُ منْ دمائهمْ عَشيّةَ غصَّتْ بالقُلوبِ الحناجِرُ
وباتَ يُديرُ الرأيَ من كلّ وجهةٍ وذُو الحَزْمِ ناهيهِ وذو العزم آمرُ

ويصف السري الرفاء هذه المعركة العظيمة ويتحدث عن بطولة الأمير وهزيمته للروم ويصف خيله الأصيلة السريعة النشيطة التي دهَمَت الروم وألمّت بارْسناس فحطمتهم وألحقت الخزي والعار بهم [5] فيقول :

وأبْرَقَ ما بينَ الدروبِ سَحابُهُ فصابَ ولكنْ صوْبَ بارقَةِ الدَّمُ

---

(١) الحنية : القوس . المرنان : التي يسمع لها رنين .
(٢) مفصلا : من تفصيل القلادة وهو ان يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة . السنان : الزج الذي أسفل الرمح .
(٣) المهجة : الروح . الثائر : طالب الدم .
(٤) ديوان ابي فراس (١١٣) .
(٥) ديوان السري (٢٥٣) .

وإنْ ضُربَتْ دونَ الخَليجِ خيامُهُ   فمِنْ خَلْقِهِ للرّعبِ جيش مخيّمُ
ومُعتَصِمٍ بالمشرفيّةِ لمْ يكُنْ   ليسْلَمَ منهُ في ذُرا الطودِ أعصمُ
سنابِكُها من تحتِها تقرَعُ الصّفا   وراياتُها مِنْ فوقِها تترنّمُ
تُغِيرُ على الأعداءِ والنجمُ غائرٌ   وتَسْري به والليلُ أسودُ مظلِمُ
ألمّتْ بشَطّيْ أرْسَناسَ وللْقَنا   شِطاطٌ فآبَتْ عنهُ وهوَ محَطَّمُ

وهكذا نلاحظ أن شعر الجهاد قد ترعرع ونما في عهد سيف الدولة وأن مجاهدة الأمير الحمداني المتواصلة للروم ألهمت الشعراء غُرَر القصائد وأوحت إليهم دُرَر المعاني ولقد كان في طليعة هؤلاء المتنبي الذي خاض الحروب المقدسة مع سيف الدولة فاقتحم نيرانها وكابد أهوالها ورأى ببصره وبصيرته وسائلها ودخائلها وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه إلاّ الخبير المدرك. فلذلك كان شعره الحربي أقوى في عباراته ومعانيه وأخيلته وبدائع فنونه. وشعر الجهاد له أصول وجذور في العربية قبل المتنبي كما هو الحال عند أبي تمام والبحتري. ولكنّ المتنبي هو الذي جعل هذا اللون من الشعر فنّاً قائماً بذاته فلقد وقف عيونَ شعره على سيف الدولة وجعل روائع حديثه رهينةً بوصف الحروب العربية البيزنطية التي نهض بها سيف الدولة طوال حكمه على خير الصور وأروع الرسوم.

وصف الطبيعة

يُعَدّ الوصف أشملَ الأغراض الشعرية التي عُرفت في الأدب وهو ليس بالفن الشعري المستقل فحسب بل هو عماد أكثر الألوان الشعرية من هجاء ورثاء وغزل وفخر . ولذلك صدق ابن رشيق حين قال « الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف » [1] وأصل الوصف في اللغة الكشف والإظهار يقال وصَفَ الثّوبُ الجسم إذا تجلى عليه ولم يستره [2] .

ولهذا يمكن القول بأن كلّ ما يقع تحت الحواسّ يمكن وصفه . بل إن الأفكار غير المحسوسة وأحوال النفس يمكن الإنسان أن يصفها .

والمراد بالوصف حين يعد غرضاً شعرياً هو الوصف المجرد لما يشاهده الشاعر أو يحسه من الظواهر الطبيعية والموجودات والمعاني الكونية النفسية .

وما دام للوصف هذه الدائرة المتسعة الشاملة فإن من الطبيعي أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة . ولكن من الطبيعي أيضاً أن يتغير تبعاً لتغير البيئات والمجتمعات والمحسوسات وغير المحسوسات من عصر لعصر .

والوصف عند شعراء الندوة السيفية له آفاق رحبة ومذاهب متعددة ومن

---

(١) العمدة (٢ / ٢٩٤) .
(٢) لسان العرب : مادة وصف .

أهمها وصف الطبيعة فلقد وصفوا الطبيعة وأبدعوا فيها حتى أصبحوا أساتذة في هذا الفن .

ولقد فتنوا بجمال الطبيعة فصوروها أكمل تصوير ، صوّروا الرياض والبساتين والأزهار والأثمار والجداول الرّقراقة ووصفوا لأول مرة في تاريخ الشعر العربي تساقُط الثلج .

كذلك استطاعوا بقصائدهم أن يجمّلوا الطبيعة فوق جمالها ، وأن يصوروها في صورة بديعة مشرقة ، وأن ينطلقوا على سجيتهم إلى أقصى الآماد ، ولهذا أتوا بالمعنى البارع والصورة الفاتنة وبعثوا في موجودات الطبيعة حياة قوية ونشاطاً عظيماً .

والموضوعات التي سنطرقها في هذا البحث هي الموضوعات الجديدة المستحدثة في شعر الطبيعة والتي عنى بها شعراء سيف الدولة وأكثروا من ذكرها في أشعارهم كالروضيات والأنهار والمياه والثلوج والفصول .

ولقد نهض شعر وصف الطبيعة في رحاب سيف الدولة نهضة عظيمة وتبدو العناية بهذا اللون من الشعر في شعر شعراء العصر جميعاً ولكن أشهر هؤلاء الشعراء هم الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والببغاء . ويعد الصنوبري إمام هذه المدرسة وأول شاعر للطبيعة في العربية[٢] . ولقد مضى شعراء عصره ممن كانوا حوله ومَن خلَفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده بل أيضاً في المغرب والأندلس يسيرون على هديه حتى ضرب المثل بروضياته ومن الحق أن ابن الرومي كان مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرعُ فيه الوردَ والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري[٢] الذي صدق حين قال :

(١) الحضارة الاسلامية : آدم متز (٤٣٠) .
(٢) العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف (٣٦٣) .

أنا الذي شِعرُهُ وشْيُ الرياضِ فَلي   في كلّ أرض عدتْ من وشيه لمَعُ[1]

الروضيات :

الشاعر فنّان يتملأ من الجمال حيث كان وتنفذُ بصيرته إلى أعماق الكائنات لتلمح مواطن الحسن فيها وقد تغفل العين العادية عن إدراك ما تدركه عيناه فقد يقف مبهوتاً أمام نبْتة في صحراء أو جدول ماء أو سروةٍ باسقة أو نرجسة ناعسة أو روضة ساحرة . والديار التي عاش فيها شعراءُ الندوة السيفية ذوات طبيعة خيّرة جميلة حباها الله بالحسن والجمال ومنحها المناظر الخلاّبة ونفحها بالألوان الفاتنة والرسوم الحالمة ، والبهجة الباسمة . فهام الشعراء بهذه الطبيعة التي اختصها الله بالرونق والرواء وكلفوا بحدائقها الغُنّ ورياضها الفيح ومحضوها أرق مشاعرهم وصادق أحاسيسهم وانفعالهم .

وهذا شاعرنا الصنوبري يغتلي افتتانه بالروض إلى درجة يحيطه فيها بهالةٍ من القداسة والتبجيل ويعتده معها حرَماً موقوفاً على الكِرام ؛ ولو استطاعَ أن يكون قيّماً عليه لمنع أن تدنسه أقدام اللئام[2] . . . فيقول :

يا رِيمُ قومي الآنَ ويحَكِ فانْظُري   ما للرّبا قدْ أظهرَتْ إعجابَها[3]
كانَتْ محاسنُ وجهها محجُوبَةً   فالآنَ قد كشَفَ الرَّبيعُ حِجابها
وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ   يحكي العُيونَ إذا رأتْ أحبابها
وكأنَّ خُرَّمه البديعَ وقد بَدا   روسُ الطواوسِ إذ تُديرُ رقابها[4]
والسَرْوُ تحسَبهُ العُيونُ غوانِياً   قد شَمّرَتْ عن سُوقها أثوابها[5]

---

(١) ديوان الصنوبري (٣١٧) .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٥٤) .
(٣) اعجابها : جمع عجب .
(٤) الخرم : زهر بنفسجي زاه .
(٥) السوق : جمع ساق .

لو كنتُ أملِكُ للرّياضِ صيانةً يوماً لمَا وطِىءَ اللئّامُ تُرابَها

فهو يوقظ صاحبته لترى الروضة الخلاّبة وقد حسر الربيع نقابها فهبت خدودُها وعيونها الرّانية ورؤوسها الزاهية ، وكأنما السروُ غانياتٌ أقبلتْ مشمّرَةً عن سيقانها تُريد الرّقص كذلك يعد الروض مقدّساً ولو كان قادراً لمنع اللئام من أن تطأ ترابه أقدامُهم .

وليست الرياضُ في نظر الصنوبري مخلوقات جامدةً فهو يضفي عليها من خياله ما يجسّمها ويشخّصها ويغدقُ عليها الحياة فيجعلها تمور بالحركة والانفعالات والعواطف ، وفي ذلك يقول :

مَعَاهِدُ بل مآلِفُ باقِياتٌ بأكرَمِ معهدَينِ ومألفَينِ
يُضاحكُها الفُرات بكلّ فَجٍّ فتضحكُ عن نُضارٍ أو لجَينِ
كأنَّ الأرض من حُمرٍ وصُفرٍ عرُوسٌ تُجتلى في حُلّتَينِ
كأنَّ عِناقَ نهريْ ديْرِ زكّى إذا اعتَنَقَا عناقُ متيّمَينِ

ونود أن نقف هنا لكي نناقش رأي الدكتور درويش الجندي الذي يقول : إن وصف الطبيعة في الشعر السيفي نهض ولكنه مع ذلك بقي سائراً في اتجاه الوصف الطبعي للشعر العربي حسيّاً خالياً — غالباً — من الروح والاندماج في الطبيعة ذلك الاندماج الذي نلحظه في الشعر الغربي . فالطبيعة في أدبنا — على حد رأيي— لَذّةُ الحِسّ لا لذّة الروح كما هي عند أدباء الفرَنجَة الذين اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم ومنحوها من الحب ما يمنحون الأحبّة والأصدقاء[1] . ولعلنا نجد في الأبيات السابقة الرّدَّ المفحم على هذا التجني على شعر الطبيعة لدى شعراء الندوة السيفية . فواضح في الأبيات صلةُ

(١) الشعر في ظل سيف الدولة (٢٢٦ — ٢٢٧) .

الشاعر بالروض وما أثاره في نفسه من استجابة ذووية بعيدة عن النمط التقليدي، ولائح بروزُ التجاوب الوجداني بين الشاعر ومظاهر الروض الخلاّبة .

ولنستمع معاً إلى حديث الصنوبري عن الوَرد الذي وهَبَه نفسه ووجدانه ووصله بقلبه وإحساسه ففي ذلك الردّ المقنع والدليلُ القاطع على اندماج الشاعر في الطبيعة وغلبة لذة الروح على شعره بالإضافة للذة الحس [1] فقال :

وهَبْتُ للوردِ نفسي فطِبْتُ بالنّفس نَفَسا
من أبيضٍ فاقَ نَوْعاً وأحمَرَ راقَ جِنسا
كأنّما غَمَسَتْهُ في العُصْفُرِ اليدُ غمسا
ما كان لمّا تبَدّى إلاّ عَرُوساً وعِرْسا
وصَلْتُهُ وصْلَ مثلي لحْظاً وشَمّاً ولمسا
ولو يُمَسُّ بقَلْبٍ أفْناهُ قلبي مَسّا

ونحن نرى أن شعر وصف الطبيعة عند الشعراء الحمدانيين كان مليئاً بالروح وأن الشعراء اتصلوا بالطبيعة بروحهم ووجدانهم وتفاعلوا معها وامتزجوا بها وأبدعوا شعراً وجدانياً عظيماً .

ولقد تعلق الصنوبري بالروض وهام به ونظر إليه من خلال عواطفه ففي الرياض شبه من الأحبّاء ولهذا كان يرى في كل صورة من صور الروض لمحة من حبيب تشده إليه وتزيد تعلقه به فالغصن والشقيق والأقحوان والنرجس يراها قدوداً تتصف باللين والتأود أو خدوداً يجمّل حُمْرَتَها سوادُ الخال . وفي ذلك يقول :

شَبَهُ الرّوضِ بالحبائبِ قدْ زادَ المُحِبّينَ في محبّتِها

(1) ديوان الصنوبري (٢٠٠) .

كم من قدودٍ هناك من قُضُبٍ تسيل من لينِها ونِعْمتِها
كم وجْنةٍ خالُها يلُوحُ لنـا سَوادُهُ في صفاءِ حمرتِها
وكم ثنايا تَسْبي بنكهتِها وكم عيونٍ تُصبي بلحظتِها
تُسارِقُ الغَمْزَ غمزَ خائفةٍ رقيبَها من خَفاءِ نَظْرتِها

وكان الصنوبري يتعلق بحلب تعلقاً عظيماً وارتباطه بها وثيق الصلة بحبه للطبيعة ورياضها فأحب جبلها « جوشَن » ورياضه :

وللزَّهْرِ من حلَبٍ منزلٌ تُثابُ العيونُ على حجِّهِ
أعِدْ نحوَ جوشَنِهِ نظرةً إلى سمته وإلى بُرجِهِ
لترتاض نفسك من روضه ويمرح طرفك في مرحهِ

ولا يقل عن هذه الأبيات براعةً وفتنةً وصفه لرياض نهرها قُويق حيث يقول :

رياضُ قُوَيْقٍ لا تزالُ مَرُوضَةً يجاورُ فيها أحمَرَ اللّونِ أبيضَهْ
يُعارِضُنا كافُورُه كلّ شارقٍ إذا ما انصبا مرّتْ به متعَرّضَهْ
إذا ما طفا النّيلوفرِ الغضّ فوْقَهُ مفتّحَةً أجْفانَهُ أو مغمّضَهْ
حَسِبتَ نجُوماً فوقَهُنّ تتابَعَتْ فُرادى ومَثنى في سماءٍ مفضّضه[1]

وكشاجم ـ صديق الصنوبري الذي سار في طريقه وكلف بالزهو وهام به . وتغنّى بالرياض غناءً ينطق بالحب العميق والشعور الصادق . يتغزل برياض نهر قويق وما حوته من شقيق أحمر وأقحوان كاللؤلؤ ونرجس غض وبهار منضد ونيلوفر متوقّد[2] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٥٦) .
(٢) ديوان كشاجم (٤٨ ـ ٤٩) .

للنَّهْرِ نَهْرِ قُويقٍ عندي يدٌ ليس تُجحَدْ
والأرضُ تُكسى بزهر الرّ ياض وشْياً مُعَمّدْ
كأنَّ خُرّدُ عَينٍ بها يضاحكنَ خُرّدْ
وحُمْرَةٌ في شَقِيقٍ وخُضْرَةٌ في زَبَرْجَدْ
وأقحُوانٌ كَعِقْدٍ من لؤلؤ قَدْ تبَدَّدْ
والنّرجِسُ الغَضّ يرْنو إلى البَهارِ المنضّدْ
كما أشارَ حَبِيبٌ إلى حَبِيبٍ بمَوعِدْ

ونلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر قد جعل اهتمامه في الصنعة والتشبيهات حتى إنه بعُدَ بنا عن الشّذى والعبير ودفعنا عن الصبا والرحيق إلى مجرد ذكر الشقيق والأقحوان والنرجس والبهار ذكراً سريعاً فعني بالتشبيهات عن جوهر الموضوع نفسه .

على أن الشاعر إذا قصر في ناحية أو شابت فنّه فيها شائبة ، فليس معنى هذا أنه متخلف أو مقصّر في شعره كله .

فكشاجم له من الصور الطبيعية ما يتتبع فيه الموصوف ويجلّيه تجليةً إنسانية ويصوّره ذا عواطف وأحاسيس :

ولقد وصف رياض حلب أروع وصف وأحفله بالصور والرسوم [1] حين قال :

أرَتْكَ يَدُ الغَيثِ آثارَها وأعلَنَتِ الأرْضُ أسرارَها
فما تَقَعُ العَينُ إلا على رِياضٍ تصنّفَ نُوارَها

---

(١) المصدر نفسه (٤٨) . الاعلاق الخطيرة : ابن شداد (١/١٥٧-١٥٨).

يُفَتِّحُ فيهـا نَسيمُ الصَّبا جنّاها فيَهْتِكُ أستارَهـا
ويُدْني إلى بعضها بعضها كضمّ الأحبّةِ زُوّارَهـا
تَغُضّ لنرجسِها أعيُناً وطَوْراً تُحَدِّقُ أبصارَها
إذا مُزْنَةٌ سَكَبَتْ مَاءها على بُقْعَةٍ أشعلتْ نارَها
وما أمْتَعَتْ جارَها بَلْـدَةٌ كما أمْتَعَتْ حلَبٌ جارَها
هيَ الخلدُ تجمعُ ما تَشْتَهي فزُرْها فطوبى لمَنْ زارَها

إنه يذكر الغيث الهاطل الذي يكسُوها بالأزهار المتعانقة والتي يقبّل بعضها بعضاً . وليس هُناك من مدينة تَحْظى بجمالٍ كجمال حلَب فهي الخُلْدُ تجمعُ الحسْنَ والجَمال .

وسار الشاعر السري الرفاء في طريق كشاجم ونَهَجَ منهجهُ وأجاد في الوصف إجـادةً بارعة جعلته يعَدّ من أكبر الوصّافين في عصره وهو أحسن شعره وألطفه فهو وصّاف بارع يسجّل في شعره ما يشاهده من مناظر تؤثّر فيه ورسّامٌ فنّان يصوّر بريشته ما يحسّه في أعماق نفسه [1] وهو خِلّ الشرْبِ وصديقُ الرّوض يعوده دائماً ويتغنى بمحاسنه ويطرب للقائه :

وبِساطِ ريحانٍ كمَاءِ زَبَرْجَدٍ عبِثَتْ بصفحته الجَنوبُ فأرْعَدا
يَشتاقُهُ الشَّرْبُ الكِرامُ فكلّما مَرِضَ النّسيم سعَوْا إليه عُوَّدا

ومن بديع وصفه للروض قوله [2] :

أعادَ الحَيا سُكْرَ الشّباب وقد صحا وجدَّدَ من عَهدِ الرَّبيعِ الذي انمحى
وباتَ زِنادُ البرقِ يقدحُ نـارَهُ على الآس حتى اهتزّ فيهِ وقدّحا

(١) الحضارة الاسلامية : آدم متز (٤٧٠) .
(٢) ديوان السري الرفاء (٧٣) .

كأن حمامَ الروض نشوان كلّما ترنّمَ في أغصانِهِ وترَجّحا
ولاذَ نسيمُ الرّوضِ من طول سيره حَسيراً بأطرافِ الغُصونِ مطلّحا
فباشَرَ وردَ الأقحُوانِ مُشَرّفاً وصافَحَ وردَ الباقلاءِ مجنّحا
وحلّلَ منْ أزرارِهِ النّور فاغتدى كلَفْظِ حبيبٍ همّ أنْ يتَفَصّحا
وشَقّ على لونِ الخدودِ شَقائقاً رأتْهُ عيُونُ السّرْب أبهى وأصلحا

وهو يصف الغيث الذي أعاد الشباب للروض وجدّد عهد الربيع به والبرق اللامع على وجنات الآس والحَمام النشوان المغرّد ونسيم الرّوض العليل الذي يقبّل الأقحوان ويعانق الباقلاء والأزهار ، وهو لا ريب قد استخدم الفن البديعي أتم استخدام ، لكنّ هذا الفن لا يثقل بل يخفّ حتى لا يشعر القارىء إلاّ بأن الشاعر دقيق الحس حسن البيان .

الزهْرِيّاتُ :

تعشق شعراء الندوة السيفية الأزهار وهاموا بها وأنشدوا القصائد الرائعة الشاملة لأصنافها وألوانها ، وأتوا بالعجَب العُجاب ، وخصّوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعَوا في تصويرها .

ولعل أعظم الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض والزهر وديوانه روض تتمايل أغصانه بالثمر وتهتز نباتاته بالنور والزهر .

ولقد فُتِنَ الصنوبري بالطبيعة وأولِـع بالروض وتعشق الأزهار . فقال[1] :

زَهْرُ الرّياضِ إذا هيَ ابتَسَمَتْ تدعو فيُسرعُ نحْوَها الخلْقُ

(١) الحضارة الاسلامية (١ / ٤٧٣) .

فتَظَلّ تَنْطُقُ وهْيَ ساكِتَةٌ إنَّ الرِّياضَ سُكُوتُها نُطْقُ

ووصف النّرجِس والورد وأقام بينهما معارك على نحوٍ يزيد في تصوير فتنتها [1] فقال :

زعَمَ الوَرْدُ أنّهُ هوَ أبهى منْ جميعِ الأنْوارِ والرّيحانِ
أيّما أحسنُ : التوَدّدُ أم مُقْ لَةُ رِيمٍ مَرِيضَةِ الأجفانِ [2]
أم فماذا يرجو بحمرته الوَرْ دُ إذا لم تَكُنْ عيْنانِ
فزَها الوَرْدُ ثمَّ قالَ مجيباً بقِياسٍ مُستحسنٍ وبيَانِ
إنَّ ورْد الخدودِ أحسنُ منْ عَ ينٍ بها صُفْرَةٌ منَ اليرَقانِ [3]

ونلاحظ أن الشاعر كان يفضّل الورد ضمناً وإن بَدا في موقف الحكَم المحايد . وأقام الشاعر معركة أخرى جمع فيها شتى أنواع الأزهار وحاول فيها أن ينتصر للنرجس وفيها يقول [4] :

خجِلَ الوَرْدُ حين لاحظَه النّرْ جسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ [5]
فَعَلَتْ ذاكَ حُمْرَةٌ وعلَتْ ذا حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصْفِرارُ
وغَدا الأقحُوانُ يضحكُ عجبْاً عنْ ثنايا لثاتُهُنَّ نُضارُ [6]
عِنْدَها أبْرَزُ الشّقيقُ خدوداً صارَ فيها منْ لطمَةٍ آثارُ [7]

---

(١) فوات الوفيات ج ١ (١١١) .
(٢) الرئم والريم : الظبي الخالص البياض .
(٣) اليرقان : آفة من آفات الزرع ، وقيل دود يكون في الزرع وهو ايضا مرض يصيب الناس .
(٤) ديوان الصنوبري (٧٨) .
(٥) البهار : نبت اصفر طيبه الرائحة .
(٦) الاقحوان : زهر ابيض في وسطه اصفرار واوراقه مفلجة ولذلك يشبهونه بالاسنان .
(٧) الشقيق : ورد كبير احمر .

وأضَرَّ السّقـامُ بـالياسمينَ الـ غَضّ حتّى أذابَـهُ الإضرارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة.

ويعد الصنوبري النرجس ملِكاً للأزهار يقول في ذلك (١) :

أرأيتَ أحسنَ من عيونِ النّرجسِ أمْ من تُلاحظُهنّ وسْطَ المجلسِ
دُرَرٌ تَشَقّقُ عن يواقيتٍ على قُضُبِ الزّمرّدِ فوقَ بُسطِ السندسَ
أجفانُ كافورٍ حَفَفْنَ بـأعْيُنٍ من زعْفرانٍ نـاعماتِ الملْمسِ
فكأنهـا أقمارُ ليلٍ أحْدَقَتْ بشموسِ أفق فوْقَ غصن أملسِ

وترنّم الوأواء الدمشقي بجمال النرجس وقوامه المعتدل ومآقيه الناعسة فقال (٢) :

ونَرْجِسٍ للنسيمِ مُعتنِقٍ يسْهَرُ طَبْعاً وما بهِ أرَقُ
كأنّه والقَوامُ مُعْتَدِلٌ وفي المآقي من عقده عَبَقُ
أجْفانُ دُرٍّ على ذُرى قضُبٍ تَقْطِرُ مسكاً وما بها عَرَقُ

ومحمد بن هاشم الخالدي من الشعراء الذين فُتِنوا بشقائق النعمان وشبّهها بالياقوت والخدود الأرجوانية (٣) .

وصُنْعُ شقائقِ النّعمانِ يحيي يواقِيتاً نُظِمْنَ على اقترانِ
وأحياناً تشبّهها خـدوداً كستْها الريحُ ثوباً أرجواني

(١) فوات الوفيات : الكتبي (١ / ٦١) ، طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.
(٢) ديوان الوأواء المخطوط (٥٥) .
(٣) فوات الوفيات : الكتبي (٢ / ٢٧١) .

شقائِقُ مثلُ أقداحٍ مِــلاءٍ وخشخاشٍ كفارِغةِ القناني
ولما غــازَلَتْها الريح خِلْنا بها جيشيْ وغىً يتقاتلانِ
تَخالُ بـه ثُغُوراً باسماتٍ إذا مـا افترّ نَوْرُ الأقحوانِ

وصوّر كشاجم شقائق النعمان تصويراً جميلاً وشبّهها بشعلة نار متقدة أو مطرفٍ أحمر لأمير في محفل كبير [1] فقال :

وإذا ما بدا الشّقائقُ فيهــا خالَهُ النّاظرون شُعلةَ نارِ
أو كما نُشّرَتْ مطارفُ حمْرٌ لأميرٍ في مَحفِلٍ جرّارِ

ومن أزهار حلب الرائعة الجمال زهرةُ البنَفسج التي كلف بها شعراء حلب في عصر سيف الدولة فوصفها الزاهي فقال [2] :

ولازَوَرْدِيّةٍ أوْفَتْ بزرقتها بينَ الرّياضِ على حمرِ اليواقيتِ
كأنها فوقَ قاماتٍ ضعفنْ بها أوائلَ النّارِ في أطرافِ كبريتِ

ويصف الوأواء البنفسج فيشبّهه بالنار عند إيقادها فيقول [3] :

وبَدا البنَفْسَجُ لي فقلْتُ لخاطري في وصفِه كالنّارِ في إيقادِها
حكَتِ الشّكُوكُ بخدّها أورَاقَهُ وحكى لذي التّشبيهِ صِبْغَ حدادها
وبدَتْ بزرْقَةٍ بعضِهِ خَمْرِيَّةً فكأنّها في اللّونِ لونُ فؤادِها

وكما وصفوا الأزهار وصفوا الثمار التي هي من نتاج الزهر والشجر

(١) ديوان كشاجم (١٤٩) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٣٧٢) .
(٣) ديوان الوأواء المخطوط (٥٧) .

وحظيت الثمار في جمال منظرها وبديع مشهدها وطيب رائتحها بمكانة مرموقة في الشعر السيفي ولدى شعرائه .

وكان الصنوبري والسري وكشاجم أكثرهم وصفاً لها وتصويراً لروعتها .

والصنوبري يصف الثمار على نحو ما يصف الزهر مجلّياً لمعاني الحسن الطّبَعي ، غير متأثّر بنداء المعدة كما صنع ابن الرومي . . . قال يصف التفاح وينعته بصديق الأرواح ويشبه لونه الأحمر بلون خدود الغيد الحسان [1] :

فتَنَــــاوَلْـتُ منه صادقةَ الرّيـ ـحِ تسمّى صديقَـةَ الأرواحِ
وشّحـتْها يداهُ من خالص التّبْـ ـرِ بسطرٍ يجولُ حولَ الوِشاحِ
كُسـِيَتْ صبغةَ الملاحَةِ لمّا صُبغَتْ صِبغَةَ الخدود المِلاحِ

ويصف السّفَرْجل ويشبّهه بالحبيب حسناً وجمالاً ويشبه لونه بلون الذهب الصافي فيقول [2] :

لكَ في السّفَرْجَلِ منظرٌ تحظى بهِ وتفوزُ منهُ بشمّهِ ومَذاقِهِ
هو كالحبيبِ سعِدْتَ منهُ لحسْنه متأمّلاً وبِلَثْمِهِ وعِنَــــاقِهِ
يحكي لنا الذّهَبَ المصفّى لونُهُ وتزيدُ بهجَتُهُ على إشراقِهِ
فالشّطْرُ من أعلاهُ يحكي شكلُهُ ثَدْيَ الكَعابِ إلى مَدارِ نطاقِهِ

وقال يصف الموز ويشبّهه وهو بين أحضان أوراقه الخضر بمخازن من ذهب أصفر لُفّت بأردية خضر [3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٦٨) .
(٢) المصدر نفسه (٤٨٣) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٩) .

كأنّما الموْزُ الذي قد بَـدا للعَينِ في أوراقِـهِ النّضْرِ
مخازِنٌ مِنْ ذهبٍ أصْفَرٍ لُفِفْنَ في أرْدِيَةٍ خُضْرِ

ووصف السري الرفاء العنب وشبّهه بالذهب وشبه أوراق الكرْمة الخضراء بأثواب من سندس [1] فقال :

والكرْمُ مشتبكُ الأفنانِ توسعُنا أجناسُه في تساوي شربها عَجبا
فكَرْمَةٌ قَطَرَتْ أغصانُها سبجاً وكرمةٌ قطَرَتْ أغصانها ذهبا [2]
كأنما الوَرَقُ المخضرّ دونهما غيران يكسوهما من سندس حجبا

وكما وصف السري العنب وصف أيضاً شجر النّخل الباسق وشبّه شماريخه بالعقيان [3] :

فالنخلُ من باسقٍ فيه وباسقةٍ يُضاحكُ الطّلع في قنواته الرّطَبا
أضحَتْ شماريخُه في النّحرِ مطلِعةً إما ثُرَيا وإمّا مُعْظماً خُضُبا
تُريكَ في الطلّ عقياناً فإنْ نظرتْ شمسُ النّهارِ إليها خِلتها لهَبا

ووصف الليمون وشبهه بالنجوم في سماء الغصون وبالأكر المصاغة من الفضّة والمشابة بالذهب [4] فقال :

واصْطَبَحْناها علـى نَهْـرٍ بصَفْوِ الماءِ يجَري
ظَلّلَتْـهُ شَجَرات عِطْرُها أطْيَبُ عِطْرِ
فَلَكٌ أنْجَمَـهُ اللّيْـمُونُ من بِيضٍ وخضرِ

---

(١) ديوان السري (٣٥) .
(٢) السبح : خرز اسود .
(٣) ديوان السري (٣٥) .
(٤) المصدر نفسه (١٣٣) .

أكَرٌ من فِضّـةٍ قَـدْ شابَهـا تَلْويحُ تِبْرِ

ووصف أبو فراس الرمان وشبهه بقراضة ذهب مغطاة بثياب عصفرية اللون : فقال [1] :

وجُلَّنـارٍ بمَشْرِقٍ على أعـالي شجَرَهْ
كـأنَّ في رؤوسِهِ أصْفَرَهُ وأحْمَرَهْ
قُراضَـةٌ من ذَهَبٍ في خِرَقٍ مُعَصْفَرَهْ

ووصف كشاجم النّارنجَةَ وشبهها بنجمة من التبر تدلّتْ في سماء من الزّمرّدِ وشبهه شذاها بالمسك فقال [2] :

كـأنّما النّارنْجُ لما بَدَتْ أغصانُه في الوَرَقِ الخُضْرِ
زُمُرُّدٌ أبْدى لنا أنجُمـاً معجونَةً من خالص التّبرِ
إذا تهيّأنـا بها خِلْتَنَـا نستَنْشِقُ المسْكَ من الخمْرِ

وهكذا نلحظ افتتان شعراء الندوة السيفية بالأزهار والثمار وبراعتهم في وصفها وتأسيسهم مدرسة فنية في هذا اللون من الشعر ولقد انعكست آثار هذه المدرسة في الشرق والغرب وتأثر بها أدباء بغداد وشعراء الأندلس وبلغ من إعجاب الأندلسيين بها أن سموا شاعرهم المبدع ابن خفاجة بصنوبري المغرب تأسياً بالشاعر المشرقي الكبير .

الأنهار والمياه :

برع الشعراء الحمدانيون في هذا اللون من الشعر وأكثروا من وصف

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١٩٤) .
(٢) ديوان كشاجم (٨٥) .

الأنهار وبرعوا في وصف المياه وما يتصل بها من سواقٍ وبرك وغدران وغيرها . وكان أبرعهم وأكثرهم خوضاً في هذا المضمار كلّ من الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء .

ولقد تغنّى الصنوبري بنهر قُوَيقٍ ملء الفم والقلب وفتن النـاس بغنائه فقال [1] :

قُوَيْقُ لَــهُ عهدٌ لديْنا وميثاقُ وهذي العُهودُ والمَواثيقُ أطواقُ
نفى الخَوْفَ إنّا لا غريقَ حِياله فنحنُ على أمن وذا الأمنُ أرزاق
ونَزّهُهُ إلاّ سفينَــــةَ تمتَطي مطاهُ لها وخَدٌ علَيْهِ وأعناقُ
وإنْ ليس تعْتاقُ التّماسيحُ شربه إذا اعتاقَ شربَ النّيل منهن مُعتاقُ
أقامَ بهِ التمساح سوقاً ولم تزَلْ تُقامُ على شطّيهِ للطّيرِ أسْواقُ

وقد مثّل النهر في جو السلام والأمن فلا تمساح ولاغرق ولا اصطخاب .

ويستطرد الصنوبري فيصف جماله الطبعيّ الهادىء ويتمثل فيه صفاء البلّور وبياض اللؤلؤ وألوان النبت والزّهر ويزيد جماله طيبُ الرائحة وشفاؤه للشارب .

وفاضَتْ عيونٌ من نواحيهِ ذُرّفٌ ولمّا تُعاونها جفُونٌ وامــاقُ
هوَ الماءُ إن يوصَفْ بكنْهِ صِفاتـه فللماءِ إصغاءٌ لدَيْهِ وإطراقُ
ففي اللّوْنِ بلّوْرٌ وفي اللّمع لؤلؤٌ وفي الطيب قنديد، وفي النفع درياقُ [2]
إذا عبثَتْ أيدي النسيمِ بوجْهِـهِ وقد لاحَ وجهٌ منه أبيضُ برّاقُ

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٣ ــ ٤٢٤) .
(٢) القنديد : عسل قصب السكر اذا تجمد .

فطَوْراً عليهِ منهُ درْعٌ خَفيفَةٌ وطَوْراً عليه جوشنٌ منه رقراقُ

وهو عاشق لقُويقٍ بل الناس جميعاً عاشقون له على حدّ رأيه وفي ذلك يقول :

وقدْ عابَهُ قَوْمٌ وكلّهُمُ لَـهُ على ما تعاطَوْهُ من العيب عُشّاقُ
وقالوا : أليس الصيفُ يُبلي ثيابَهُ فقلتُ : الفتى في الصّيف يقنعه طاقُ

ووصف نقص مائه في الصيف فقال : إنه ينحل وينمو في الشتاء شأن أصحاب الأمزجة الصفراوية الذين تنحل أجسامهم في الصيف ويوافقهم الشتاء [1] :

قُوَيْقٌ على الصّفْراء رُكِّبَ جسمه رُباهُ بهـذا شُهَّدٌ وحدائقُهْ
إذا جَدّ جِدّ الصَّيفِ غادرَ جسمَهُ ضئيلاً ولكن الشّتاء يُوافقُهْ

ويداعب الصنوبري النّهر الذي أحبّه حباً عظيماً ويصف حاله في الصيف فيقول [2] :

قُوَيْقٌ إذا شمّ ريحَ الشّتا ءِ أظْهرَ تِيهاً وكِبْراً عجيبا
وإنْ أقبلَ الصيفُ أبصرْتَـهُ ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
إذا ما الضّفادعُ نادَيْنَـهُ قُويقُ قويقُ أبي أن يُجيبا
تمشي الجَرادَةُ فيـهِ فلا تكادُ قَوائِمُها أنْ تَغيبا

وكما وصف الصنوبري نهر قويق وتغنّى بحسنه وصف نهر الفرات وترنّم بجماله ورياضه في قوله [3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٥) .
(٢) الروضيات (٤٣) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٧٠) .

ولَقَدْ ظَمِئتَ إلى الفُرا ت بكلّ ذي كَرَمٍ ومجْدِ
والشّمسُ عندَ غروبها صفراءُ مذَهَبَةُ الفرنْدِ
والماءُ حاشيتاهُ خضْ راوانِ من آسٍ ورنْدِ
تحبوهُ أيدي الرّيحِ إنْ ولّتْ على قُرْبٍ وبُعْدِ
بطَرائفٍ مِنْ فِضّةٍ وطَرائِفٍ مِنْ لازَوَرْدِ

وهو يعبر عن شوقه إلى الفرات ويصف لحظة الغروب والرياض الغُنّ المحيطة بضفّتيه ثم ينتقل إلى وصف السفن التي تمخر عبابه ويشبّهها بالطير ويشبّه مدّ النهر وجزره بتململ المحب الذي تندلع في قلبه النيران لصدّ محبوبته فيقول :

والسُّفْنُ كالطّيْرِ انبَرَتْ في الجوّ من مَثْنى وفَرْدِ
حتّى إذا جَزَرَ الفُرا تُ مضى وأعقَبَهُ بمَدّ
ألفَيْتَهُ وكأنّهُ مُلْقىً عَلَيهِ رِداءُ وَرْدِ
مُتَمَلْمِلاً كالصَّبّ أوْ ذِنَ مِنْ أحِبّتِهِ بِصَدّ
وكأنّما بحَشاهُ ما بحشايَ من قلقٍ ووَجْدِ

ووصف الأنهار والمياه صفة بارزة في شعر السري الرفاء ولقد قال يصف دولاباً يرفع الماء من النهر إلى الأرض ليرويها واتخذ من حركاته وأصواته وكيزانه مراتع للوصف وهو يشبّه صوت الدّولاب في حالتي الرفع والخفض بندب أطفال زنج رضع ويشبّه كيزانه بالكواكب التي تطلع ثم لا تلبث أن تختفي وذلك حيث يقول [1] :

الماءُ يلعبُ بالأراقِمِ موجُهُ والسفن بالأذناب فيهِ عقاربُ

---

(1) ديوان السري الرفاء (٤٠) .

والصَّوتُ من دولابِ كلِّ متوّجٍ ... أطفالُ زُنْجٍ للرّضاعِ نوادبُ
فانظرْ إليهِ وكأنّهُ وكـأنّما ... كيزانه والماءُ منها ساكِبُ
فلَكٌ يدورُ بأنجمٍ جُعلتْ لهُ ... كالعِقد فهي شوارقٌ وغواربُ

ووصف غديراً صافي الماء رقراقاً أحاطت به الرياض والأزهار فقال [1] :

رُبَّ صافٍ رقرَقتْهُ الرّ ... يحُ في مَتْنِ صِفاتِ
عَبِقٌ منْ جرِّ أذيا ... لِ رِيـاحٍ عَبِقاتِ
صافحَ الرّكبانُ مِنهُ ... صَفْحتيْ عَذْبٍ فُراتِ
أودعتْهُ الرّيحُ ما استوْ ... دَعها زَهرُ النّباتِ
فـانثَنوا عَنهُ بأيدٍ ... خَصِراتٍ عَطِراتِ

وقال يصف الجسر ويشبهه بالطّراز الذي يلوحُ في الرداء وبالخيل الدهماء [2] :

كأنّما الجسرُ فُويقَ الماءِ ... وسُفْنُهُ جانحةُ الأفياءِ
شِبهُ الطّرازِ لاحَ في الرّداءِ ... كأنّهُ في خِلَعِ الظّلماءِ
دُهْمٌ من الخيلِ على رِداءِ

ولقد وصف الصنوبري البركة وتأثّر بوصف البحتري لبركة المتوكل إلاّ أن وصْفَه لها لا يقل روعة وجمالاً عنه :

سقَى حلَباً سافِكٌ دمعَهُ ... بطيءُ الرُّقوءِ إذا ما سفَكْ
ميادينُهُ بُسطَهنَّ الرّياضُ ... وساحاتُهُ بينَهُنَّ البِرَكْ

---

(١) المصدر نفسه (٦٥) .
(٢) ديوان السري (١٤) .

ترى الريحَ تنسجُ من مائهِ دُروعاً مضاعَفةً أو شبكْ
كأنَّ الزّجاجَ عليها أُذيبَ وماءَ اللّجينِ بها قد سُبِكْ
هي الجوّ من رقةٍ غيرَ أنّ مكانَ الطّيورِ يطيرُ السّمكْ
وقد نُظم الزّهرُ نظْمَ النجومِ فمفترقُ النّظْمِ أو مشْتبكْ
كما دَرّجَ الماءَ مرُّ الصَّبا ودَبّجَ وجهَ السماء الحبُكْ

ونلاحظ أن الشاعر جعل الريح تنسجُ من ماء هذه البحيرة درْعاً وشبَّه ماءها باللّجين وزهرها بالنجوم الساطعة في السماء .

وهكذا يمكن القول بأن شعراء الندوة السيفية قد استحدثوا فنّاً جديداً في الوصف وتناولوا الصور المائيّة التي حفلَتْ بها بيئتهم فوصفوا الأنهار والجسور والبرك والغُدران والدواليب وبرعوا في الوصف وأحسنوا وأجادوا .

الثلجيات :

لم يعرف أدبُنا القديم الثّلجيات لأن البيئة العربية لم تألف الثلج وحين اتسعت هذه البيئة وشملت مواطن تألفُ سقوطه كبلاد الشام وشماليّ العراق وفارس بقي الثلج بعيداً عن متناول الشعراء على الرغم من أنهم تأثروا بالبيئة الجديدة في كثير من أغراضهم الشعرية ومعانيهم الأدبية وصورهم الفكرية .

ويُعَدّ الصنوبري أول من تغنّى بالثلج وبدائعه في الأدب العربي فقد كانت حلب تشهد في كثير من فصول الشتاء أياماً للثلج بهجة . ولم تكن ثلجياتُ الصنوبري تقليداً لأحد بل كانت من وحي البيئة التي تأثر بها تأثراً كبيراً . ومن شعره في وصف الثلج قوله (١) :

ألمْ ترَ كيفَ قد لبسَتْ رُباها منَ الثّلجِ المضاعف أي لُبسِ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

ثيابٌ لا تزالُ تذوبُ لِيناً إذا الأيدي عرَضْنَ لها بلمسِ
كأنَّ الغَيْمَ مِمّـــا بُثَّ منه على أرجائِها أنداف برْسِ

وهو يفرح بالثلج الذي توّج الرّبا ثياباً ليّنةً الملمس وجعل قطع الجليد المتناثرة في الفضاء قُطناً مندوفاً .

وقد تغنّى الصنوبري في الثلج أيضاً فقال [1] :

ذَهّبْ كئوسَكَ يا غُلا مُ فإنَّ ذا يومٌ مفَضَّضْ
والجوّ يُجْلى في البَيا ض وفي حلي الدّرّ يُعرَضْ
أظَنَنْتَ ذا ثَلْجاً وذَا وَرْداً من الأغصان يُنفضْ
وَرْدُ الرَّبيعِ مُلَــوَّنٌ والوَرْدُ في كانون أبيضْ

ولقد تأثر كثير من الشعراء بوصف الصنوبري للثلج فنسجوا على منواله ومن هؤلاء كشاجم الذي كان حظّه من الثلجيات أعظم ، وفتنه بها أبهَرَ من كل فتنةٍ ، إذ يقول :

ثَلْجٌ وشمس وصوب غادية والأرض من كل جانب غُرّهْ
بــاتَتْ وقيعــانها زَبَرجدَةٌ فأصبحَتْ قدْ تحوَّلَتْ دُرَّهْ
كــأنّهــا والثَلْجُ يضحكُها تغارُ مِمّن أحبّهُ غَيْرَهْ

هو في ثلجيته يجعل الأرض ضاحكة فرحة بثوبها الذي كساها به الثلج ، أما القيعان فلقد أصبحت درة ساحرة الجمال وخلعت ثوبها الأخضر وارتدت بدلاً منه ثوباً أبيض .

---

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

وعُني السري الرفاء بالثلج ووصفه وتغنّى به على طريقة الصنوبري وكشاجم فقال [1] :

تلألأت الرّبا لمّا علاها ... كأنّ على الرّبا أثوابَ آلِ
كأنّ ذُرا الغُصون لبسنَ منه ... حلِى الكافورِ ربّاتُ الحجالِ
تجولُ العينُ فيهِ وهوَ فيها ... كشهْبِ الخيل رُحن بلا جِلالِ

وقد جعل الرّبا مكسوّةً بثوب أبيض وشبّه الثلج بالكافور ومن تشبيهاته البديعة في الثلج قوله :

أما ترى الثّلجَ قد خاطتْ أناملُه ... ثوباً يزرّ على الدّنْيا بأزْرارِ
نارٌ ولكنّها لَيسَتْ بمُبْدِيَةٍ ... نوراً وماءٌ ولكن ليس بالجاري

ونلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في هذا الفن الجديد من الشعر وتأثر الشعراء بطريقتهم ونسجوا في بغداد على منوالهم . وسلك المهلّبي والصاحبُ بنَ عبّاد طريق الصنوبري في وصف الثلج وهو يعد إمام هذا المذهب [2] .

الفصليات :

تأثر شعراء سيف الدولة في وصفهم لفصول السنة بجو حلب الخلاّب الجميل الذي تتمثل فيه الفصول تمثلاً حقيقياً ولا يطغى فيه فصل على فصل .

ولقد سبق للشعراء أن تغنوا بالربيع وأنشدوا أعذب الشعر وأرقه في خمائله وخضرته وطيوره ومائه وثماره . وقصائد أبي تمام والبحتري وابن الرومي في هذا الشأن شائعة ذائعة وجميلة ساحرة .

(١) ديوان الرسي الرفاء (٢٣٠) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١٠٩) .

وقد أكثر شعراء الندوة السيفية من وصف الفصول وأبدعوا في هذا اللون أيّما إبداع . ومعانيه عندهم كثيرة تتصل بالسماء كما تتصل بالأرض ويتأثر بها الحس كما تتأثر النفس .

وكان الصنوبري – وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي – وُلوعاً بالسماء والضياء والهواء وهو يقول في إحدى أغاني الربيع [1] :

إن كانَ في الصيفِ ريحانٌ وفاكِهةٌ   والأرضُ مستوقِدٌ والجوّ تنّورُ
وإنْ يكن في الخريفِ النخل مخترقاً   فالأرض عُريانَةٌ والجوّ مقْرُورُ
وإن يكنْ في الشّتاء الغَيثُ متصلاً   فالأرض محصورَةٌ والجوّ مأسورُ
ما الدّهْرُ إلاّ الرّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا   جاء الرّبيعُ أتاكَ النّوْرُ والنُّورُ

ونلحظ أن الشاعر يعقد موازنة لطيفة بديعة بين فصول السنة ويفضل الربيع عليها جميعاً .

وينساب الشاعر فيصف جمال الربيع برياضه الغَنّ وأزهاره الشذيّة ومياهه الرّقراقة فيقول :

الأرضُ ياقُوتَةٌ والجوّ لـؤلؤةٌ   والنبتُ فيروزَجٌ والماءُ بَلّورُ
تباركَ اللهُ ما أحلى الربيع : فلا   تُغْرَر فقايِسُهُ بالصّيفِ مغْرُورُ
مَنْ شمّ طِيبَ جَنيّاتِ الرّبيع يقُلْ   لا المسك مسكٌ ولا الكافورُ كافورُ

وفي قصيدة أخرى يصف الصنوبري الشتاء ويتغنى به ويقول [2] :

طَيّبَ داري ليَ الشتاءُ وهلْ   شيء كشيء يُطيّبُ الدّورا

(1) الوافي في الوفيات (١ / ٦١) .
(2) ديوان الصنوبري (٢٧) .

بالصحن والسطح والمجالس والرّ واقِ ما إنْ أزال مسرورا
وبالحياض التي تتيهُ علـى مُخبِّراتِ الرّياضِ تحبيرا
للهِ يومٌ هناكَ قد ضربَ الـ غيمُ لنا دونَ شمسه سورا
والسّحْبُ مشغولةٌ ببِركَتِنا تصُوغُ منْ مائِها قوارِيرا

فهو يصف مياه الشتاء المتدفقة وغيومه التي حجبت الشمس وجعلت دونها سوراً وسحبه التي شُغِلت بمناجاة البرك وصاغت من مائها قواريرا .

ويفتن السري الرفاء بالربيع ويحتفل به ويبتهج لقدومه ويصوّر جمال السحب في أفق السماء وبهاء الرياض التي تفتحت أنوارها وجرت أنهارها (١) :

هَفا طَرَباً في أوانِ الطَّرَبْ فأنخبَ أقداحَهُ كالنّخبْ
وغَنّى ارتياجاً إلى عارِضٍ يغَنّي وعَبْرَتُه تنسكِبْ
غُيومٌ تمَسّكُ أفْقَ السّماءِ وبرقٌ يكَتِّبُهُ بالذّهَبْ
وخَضْراءُ ينثُرُ فيها النّدى فريدُ ندى ما له من ثُقَبْ
فأنْوارُها مثلُ نظْمِ الحُليّ وأنهارُها مثلُ بِيضِ القضُبْ
وأحسَنُ شيءٍ ربيعُ الحَياةِ أُضيفَ إليهِ ربيعُ الأدَبْ

فالشاعر يعبّر عن ابتهاجه في ذلك اليوم البارد الذي صَبا فيه إلى الصَّبا فصوّر هواءه البارد وغيمه الصافي وسماءه السخية التي تذْرِفُ الدموع وبرقه الذي يحاكي النار .

ونلاحظ أن شعراء الندوة السيفية اهتموا بالفصول جميعها فوصفوها وصفاً بارعاً وعقدوا بينها موازنات طريفة . وأتوا بالصور الجديدة المبتكرة والمعاني اللطيفة الدقيقة .

---

(١) اليتيمة طبعة ١٩٤٧ (٢ / ١٦٩) .

وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

بلغ المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري قمة التقدم الحضاري ، وتعددت مظاهر الترف وألوان النعيم .

وشاركت إمارة سيف الدولة في مظاهر هذا التقدم الحضاري حيث انفعل الشعراء بهذه الحياة وتأثروا بها ويمكننا أن نقول إن شعراء الندوة السيفية لم يدَعوا مظهراً من مظاهر الحضارة إلاّ وصفوه في دقة وتفصيل ، فوصفوا أدوات الكتابة والأدوات العلمية كما وصفوا آلات الموسيقى وقوارير العطرِ ومواقد الفحم في الشتاء والحمّامات وغيرها من سُبُل الحضارة . وحلّقوا في الوصف وبلغوا ذروة الفن وطرقوا كل الموضوعات في عمق وشمول ورسموا الحياة في كثير من الإبداع والفن.وسنعرض في هذا الفصل الحديث عن الشعر وتصويره لهذه الألوان من الحياة الحضارية .

أدوات الكتابة :

اهتم سيف الدولة بالكتابة وأولاها الكثير من عنايته ورعايته وبرز في رحابه شعراء كتاب ومن هؤلاء كشاجم . ولا غرو أن يهتم بالكتابة ويُعنى بها ويصف أدواتها في الكثير من شعره . ولقد قال في وصف القَلَم :

نحيفُ العُرا ، يعدو على أم رأسِهِ ويحفى ، فيقوى عدوه حين يقطَعُ

يمجّ ظلاماً في نهارِ لسانهِ ويفهمُ عمّنْ قال ما ليس يسمعُ
فصيحٌ ، متى ينطِقْ تجدْ كلَّ لفظةٍ أُصولَ البراعاتِ التي تتفرّعُ

ولقد وصف كشاجم أيضاً محبرةً وأقلاماً ومقلمةً وسكيناً واستعاض بأدواته هذه ومجالس الأدب عوضاً عن اللهو وآلات الطرب فهو يقول :

حَسْبي من اللهْوِ وآلاتِ الطرَبْ ومِنْ ثَراءٍ وعتادٍ ونَشَبْ
مجالسٌ مَصونةٌ عَنِ الرِّيَبْ معمورةٌ من كلِّ عِلمٍ يُطّلَبْ
تكادُ من حَرِّ الحديثِ تَلْتَهِبْ شعراً وأخباراً ونحواً يُقْتَضَبْ
ولغَةً تجمَعُ ألفَاظَ العرَبْ وفِقَراً كالوعدِ في قلبِ المحبْ

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة اللطيفة إلى وصف المحبرة والأقلام فيقول :

مَثْقُوبَةٌ آذانُها وفي الثّقَبْ مِنْ مثلِ شَوْقِ الخردِ البيضِ العرَبْ
تضمن قطراً للكتاب عَنْ كَثَبْ أسوَد يجْري بمَعانٍ كالشّهبْ
لا تنضُبُ الحكمةُ إلاّ إن نضَبْ نيطَتْ إلى يُسرى يدَيَّ بسبَبْ
كالقُرْطِ في الجيدِ تدلّى واضطرَبْ يصحبُها والأخَواتُ تَصْطَحِبْ

وهو يصف المحبرة وصفاً دقيقاً فهي مثقوبة وتحتوي على حبر أسود يجري بالمعاني اللطيفة والأفكار العميقة والقلَمُ كالقُرط في الجيد يصحبها في كل وقت وآن والأخوات تصطحب .

ويمضي الشاعر على رسله فيصف المقلمة والسكّين فيشبه المقلمة بالكنانة- والأوراق لا تضحك إلاّ إذا بكت أقلام تلك الكنانة ثم يصف جمال السكين وقَوامَها الأهيَف ويصوّرُ تقويمها للأقلام وبريها إياها فيقول :

كِنانَةٌ تُودَعُ نَبْلاً مِنْ قصَبْ لمْ تعلُها ريشٌ ولمْ تُكْسَ عَقَبْ

لا تضحكُ الأوراقُ حتّى تنتحبْ ترمي بها يمناي أغراضَ الكُتُبْ
رَمْياً متى أقصدْ به السّمتَ أُصِبْ ومُنيَةٌ كالعضبِ مائلٌ قَضَبْ
غضْبي على الأقلام مَن غيرِ سَبَبْ تسْطو بها كل حينٍ وتَثِبْ
وإنّما ترضيك في ذاكَ الغَضَبْ والظَّرْفُ في الآلاتِ شيءٌ يُستحبْ

وكشاجم الذي عُرف بلطائفه واشتهر بها رثى سكّيناً فقدَها وبكى عليها وتفجع وكأنه يبكي على عزيز فقده فقال :

يا قاتَلَ اللهُ كُتّابَ الدّواوينِ ما يستحلّون من سَرْقِ السكاكينِ
لقد دهاني لطيفٌ منهمُ خَتِلٌ في ذاتِ حدّ كحَدّ السّيف مسنونِ
فابتَزّنيها ولمْ أشعُرْ بهِ عَبَثاً ولستُ لو ساعني ظَنٌّ بمغبونِ
وأقفرَتْ بعدَ عُمرانٍ بموقِعِها منها دواةُ فتىً بالكُتبِ مفتونِ
يبكي على مُديةٍ أودى الزّمانُ بها كانت على جائرِ الأقلامِ تُعديني
كانتْ تقوِّمُ أقلامي وتُنْحِفُها بَرْياً وتَسخَطُها قَطّاً فترضيني

ونحن نلاحظ أنه يتهم أحد كتّاب الدواوين بسرقة سكّينته ويصفها بأنها حادة كحد السيف وأنها أثيرة حبيبة لنفسه ثم يتفجع عليها ويتحسر على فقدها .

ووصف السري الرفاء القلَم وصفاً بارعاً فشبهه بالأخرس الفصيح والعاشق المخفي هواهُ الذي تفضحه عبراته وهو عُريان يكسو الناس وأسيرٌ طالما أطلق أقواماً من الأسر . فقال [1] :

أخرسُ يُنْبيكَ بإطْراقِــهِ عن كلّ ما شئتَ من الأمْرِ
يُذري على قِرطاسه دمعَةً تُبْدي لنا السرّ وما تَدري

(١) ديوان السري الرفاء (١٤١) .

كعاشقٍ أخفى هواهُ وقدْ نمّتْ عليه عبرَةٌ تجْري
تُبصرُه في كلّ أحْوالـــهِ عُريانَ يكسو الناسَ أويُعري
يرى أسيراً في دَواةٍ وقدْ أطلَقَ أقواماً مِنَ الأسرِ

ومن وصفه البديع للقلم قوله :

لهُ قَلَمٌ تَجْري النّجومُ بجَرْيه يُطيعُ لهُ حتْمُ القضاءِ ويسمعُ
يُديرُ سُعوداً أو نُحُوساً وإنّـــهُ من الفَلَكِ الدوّارِ في الجوّ أسرَعُ
إذا ما امتطى منهُ ثلاثَ أنامِلٍ بدا ساجِداً من تحتِها وهيَ رُكّعُ

وهو يصف القلم بأنه أسرع من النجم والفلك في جريانه وبأنه يدير السعد والنحس بكونه والأصابع تمسك به ساجداً وهي رُكّعُ .

ووصف أبو بكر الخالدي القَلَم وبدا تأثره واضحاً بالسري الرفاء في وصفه فهو يتشابه معه في الأسلوب والمعنى [1] إذ يقول :

لهُ قَلَمٌ كقَضاءِ الإلَـ ـهِ فبالسعد طوراً وبالنحس ماضِ
وما فارَقَ الأسْدَ في حالَتَيْهِ يَبيساً وذا وَرَقــاتٍ غضاضِ

وهكذا نلحظُ أن هذا اللون من الشعر يعدّ فنّاً انتشرت ألوانه وتعددت صوره ونمت رسومه في رحاب سيف الدولة وعلى يد شاعره كشاجم وإن كان أساسه وأصوله موجودة في شعر أبي تمام غير أن كشاجم قد أكثر من هذا اللون الشعري وجدد في مبانيه ومعانيه وابتكر في صوره ورسومه حتى يمكن القول أنه أصبح أشهر زعماء هذه المدرسة وأبرز روادها في الأدب

---

(١) ديوان الخالديين (٦٧) .

العربي وعلى طريقه سار السري الرفاء وبه تأثر كما تأثر غيره من الشعراء به فيما بعد .

تنوعت أدوات الحضارة في المجتمع الحمداني وتعددت سبلها وألوانها وكان من الطبيعي أن يتأثر الشعراء بها وأن يعرضوا لها بالوصف في أشعارهم وأن يتحدثوا عنها في قصائدهم .

ولقد وصف كشاجم المذبّة التي هي من أدوات الصيف فقال [1] :

مِـــذَبّـــةٌ تُهدى إلى سيّدٍ ما زال من كلّ وليّ يَذُبْ
طريفَـــةٌ لم يخلُ من مثلِها مجلسُ ذي ظرْفٍ ولا ذي أدبْ
لطيفَةٌ تجمَعُهـــا حِلْيَةٌ مذَهّبَةٌ في قائمٍ منتخبْ
كأنّها في ظَهْرِ مَجدُولَةٍ ذؤابَةٌ أنبوبُها من ذَهَبْ
قليلةُ المِقْـــدارِ لكنّهـــا أكثرُ منْها أنّها من مُحِبْ

وهو يصف المذبة بأنها زينة كل مجلس ظرف وأدب وبأن قائمها من الذهب . وهي قليلة المقدار ولكن أهميتها العظيمة كونها هديةً من محب .

ووصف أبو بكر الخالدي المروحة التي أهداها إلى أحد الكتّاب فقال [2] :

بعَثْتُ إليكَ أطالَ الإلَـ ـهُ عُمرك ما طالَ عمرُ الحقَبْ
بمِرْوَحَةٍ راحَـــةٍ للقُلوبِ لهـــا نسبَتانِ إذا تنْتَسِبْ
ففي سعَفِ النّخلِ نَخلُ النبيطِ وفي الخيزرانِ غياضُ العرَبْ
عليها الحِـــدادُ كمهجورَةٍ رمتْها عَشيقَتها بالغَضَبْ

---

(1) ديوان كشاجم (٩) .
(2) ديوان الخالديين (٢٧) .

وهو يصف المِرْوحَة بأنها راحة للقلوب وتنتسب إلى سعف النّخل والخيزران وأنها مصبوغة باللون الأسود ثم يستطرد الشاعر فيذكر منافعها الجمّة فهي تردّ حَرّ التشارين وتُجعل ستراً وقت الحديث كما أن صوتها موسيقى وتصلح كذلك لضرب الدّلال ويومأ بها خلال الكلام فيقول :

منافعُها أبداً جَمّةٌ ... لمالِكِها غير قَوْلِ كَذِبْ
تَرُدّ التشارينَ في حمّة ... من القَيظِ نيرانُها تَلْتَهِبْ
وتُجْعَلُ سِتراً إذا ما أرادّ ... تَ سيراً إلى صاحب في سبَبْ
وإن شئت كانت قضيبَ الأقاحِ ... فأدّت إليكَ فنونَ الطّرَبْ
وتصْلحُ للضربِ ضربَ الدلالِ ... دلالَ الحبيبِ إذا ما عَتَبْ
وتومي بها في عروضِ الكلام ... إذا ما أجبْتَ لنثرِ الخطَبْ

واهتم الشعراء بأدوات الترف والحضارة فوصفوا الشمعة وأكثروا من الحديث عنها في شعرهم ومن ذلك قول الوأواء في وصفها [1] :

ومخطوفَةِ الخَصْرِ لمّا بدَتْ ... لدى الليلِ عاينتَ صُبحاً يُضي
تعاقِبُ من نفْسِها نَفْسَها ... فتُقضى الأمورُ كما تَنْقضي
وتمرَضُ إنْ تركوا رأسَها ... وإنْ قصدوا الرأس لم تمرَضِ

وهو يصفها بأنها رقيقة الخصر هيفاء وهي عدوّة الظلام وتمرض إذا لم يقطعوا رأسها ووصفها السري الرفاء [2] بقوله :

وشمعةٍ في يد الظّلام حكتْ ... عُنقَ ظَليمٍ بغيرِ مِنْقارِ
تبكي إذا نار شوقُها اضطربتْ ... بدَمْعِ تبرٍ من الأسى جاري

---

(1) ديوان الوأواء (١٣٧) .
(2) ديوان السري (٣٨٤) .

كأنّها نَخْلَةٌ بـلا سَعَفٍ   تحملُ أُتْرُجَّةً منَ النّارِ

وواضح أنه يشبّهها بعنق ذكر النعام طولاً ويشبّه قطرانها بدمعٍ من التبر كما يشبهها بنخلة بلا سعف تحمل أترجّةً من نار .

وكما وصف الشعراء الشمعةورسموها بشتّى الصور البديعة نراهم كذلك وصفوا المجمرة وأكثروا من الحديث عنها فلقد قال الصنوبري [1] :

وبِبِركَةِ نـارٍ تستَقِلُّ بمِقْبَضٍ   لها من نواحيها قوائمُ أرْبَعُ
إذا الأعينُ اشتاقت إليها بدتْ لهـا   وفي وسطِها عينٌ من الطّيب تنبعُ

وهو يصف المجمرة ويشبهها ببركةٍ متقدة من النار ويشبّه وسطها بالعين التي تنبع طيباً .

ويشبهها في قصيدة ثانية بفوّارة في بركة جميلة ماؤها الدّخان بدل الماء وحصباؤها النيران [2] فيقول :

مجمَرَةٌ طافَ بها الغِلْمانُ   أبْدَعَ في صنعتها الزّمانُ
كأنهـا فيما حَكَى العِيانُ   فوّارَةٌ ومـاؤها دُخانُ
في بِركَةٍ حصباؤها نـيرانُ   إذا تبدّتْ حَزِنَ الرّيحـانُ

وقد وصف السري الرفاء المجمرة وصفاً جميلاً رائعاً فشبه دُخانها بالعجاج وجمرها بالياقوت كما أنها لا تكتم سرّاً تستودعه لأنّ أنفاسها في كل مجلس وذلك في قوله [2] :

ومَبْنِيَّةٍ من خيزرانٍ مفَضَّضٍ   يقدّمُها خشفٌ من الإنسِ أروَعُ

---

(١) ديوان الصنوبري (٣٢٢) .
(٢) المصدر نفسه (٥٠٣) .

عجاجتُها دكناءُ في كلّ مجلسٍ ويا قوتُها الجمْرُ الذي يتضوعُ
إذا استودعتْ سرّاً أذاعتْ بسرّها تشتّتُ أنفاساً بها العيشُ يجمعُ

ووصفوا الفحم وكانون النّار بصور ملونة زاهية وتشبيهات مترفة ومن ذلك قول الببغاء في وصف كانون بمجلس [1] :

ومجلسٍ حلّ مَنْ يحلّ بهِ منَ المَعالي أرفعَ الدّرجِ
أمسى ندام الكانون فيه لَنــا أكثرُ أنس النّفوسِ والمُهَجِ
يُبْدي لنا ألسُناً كالسنةِ الحَيّا تِ من ثابتٍ ومختلِـجِ
لمّا بدا الفحم فيهِ أسودَ كالـْ ـلّيلِ وبَثَّ الشّرارَ كالسرجِ
ودَبَّ صِبْغُ اللّهيبِ فيهِ بتضْـ ـريجِ خدودٍ والشقائقِ الضُّرُجِ
ظننت شمس الضّحى به انكشفتْ للخلقِ في قُبّةٍ من السّبَجِ

وهو يشبه ألسنة اللهب المتموجة بألسنة الحيّات في اهتزازها وثباتها والفحم يشبهه بالليل الأسود . والكانون المصطبغ بلون اللهيب يشبهه بخدود متضرجة بلون الشقائق الحُمْر .

ويتحدث السري الرفاء عن كانون النار ويذكر أرجله الأربع التي ترفض السير وتنتهي بقطع من الحديد كالحوافر وهي تحمل فحماً بين مورد زاهٍ بلهب النار وبين أسود كالظلام لم تمسّه النار بعد . ويشير إلى أن للكانون أيامَ وصاله في البرد وهجرانه في الصيف [2] :

وأزهرَ وضّاح يَروقُ عيونَنا إذا ما رميناه بلحظِ النّواظِرِ
له أربع تأبى السرى غير أنها تصافح وجهَ الأرض مثل الحوافرِ

(١) زهر الآداب (١ / ٢٢١) .
(٢) ديوان السري الرفاء (١٤٣) .

يقُل جسوماً بعضُها من مُوَرَّدٍ وسائرِها في مثل صبغِ الدياجرِ
نواصلُهُ أيام للقرِّ سطوَةٌ ونهجرهُ أيّام لفحِ الهَواجرِ

ووصف أبو بكر الخالدي كانون النار وصفاً طريفاً حياً ناطقاً فقال [1] :

ومُقْعَدٍ لا حَراكَ ينهضُهُ وهو على أربع قد انتصبا
مصْفَرٌ محْرِقٌ تَنَفَّسُهُ تخالهُ العينُ عاشِقاً وصِبا
إذا نَظَمْنا في جِيدِه سَبَجاً صيّرَهُ بعد ساعة ذهَبا [2]

وهو يتحدث عن الكانون المقعد الذي لا يتحرك ويقوم على قوائم أربع ويشبه لون لهب ناره الأصفر بلون العاشق المحب وهو يحول الفحم الأسود الذي يحاكي السّبج إلى ذهب صاف .

ومن الأدوات التي كانت تُستخدم المرآة ، ولقد وصفها كشاجم وصفاً رائعاً حقاً فقال :

أختُ شمس الضحاء في الحسن والأشـ راقِ غيرِ الإعشاءِ للأجْفانِ
ذاتُ طوْقٍ مُشرَّفٍ من لُجَيْنٍ أُجْرِيَت فيهِ صُفْرَةُ العقيانِ
فهو كالهالَةُ المُحيطَةُ بالبَدْ رِ لستٌّ مَضينَ بعْدَ ثمانِ

وهو يقرنها بالشمس في الحسن والإشراق كما يصف طوقها الذي صيغ من لجين ومُزج بصفرة العقيان ويشبهه وهو يحيط بها بالهالة التي تحيط بالبدر في وقت انتصافه .

وينساب كشاجم إلى وصف الصور الجميلة التي تزين ظهرها ويشبّه المرآة بالشمس فيقول :

---

(١) ديوان الخالديين (١٨) .
(٢) السبج : الخرز الاسود والواحدة سبجة .

وعلى ظَهرِها فوارِسُ تَلْهو ببزاةٍ تَعْدو على غِزْلانِ
عدَلَتْ عكسها الشّعاع مَبْدا هُ إليها ورجعةٌ سِيّانِ
وهيَ شمسٌ وإنْ مثالكَ يوماً لاحَ فيها فإنها شمْسانِ

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الصيف والشتاء وصفوا أدوات الموسيقى والغناء والطرب التي كانت تُستخدم في عصرهم ، ولقد برع في هذا اللون من الشعر كشاجم حتى ليعد الشاعر الأول فيه — ولقد افتن في وصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة وفي قصائد متعددة ومن ذلك قوله في وصفه العود (١) :

مخطَفُ الخَصْرِ أجْوَفٌ جيدُهُ ضَعْفُ سائِرِهْ
لفْظَهُ لَفْظُ عاشِقٍ يَشْتَكي هَجْرَ هاجِرِهْ
ذو لسانَيْنِ فَوْقَهُ عَدْلا مِنْ مَقادِرِهْ
فحَكَى عَنْ ضَميرِهِ ما جَرى في خَواطِرِهْ

وهو يصف العود بأن خصره ضامر أجوف وجيده ضعف سائره ولفظه عذبٌ كلفظ عاشق يشتكي ألم الهجر ويصف أوتاره بأنها ألسنة تنطق بما يجري من خواطر في ضميره . ولقد وصف المعزفة فقال (٢) :

مُعْلِنَةٌ الأوتارِ صخابةٌ لها حَنينٌ كحنينِ الغريبْ
زادَتْ على المزهر طيباً وقَدْ تاهَتْ على النّاي بخلقٍ عجيبْ
مكسوةٌ أحشاؤها حُلّةً من جلدِ أحشاءِ غزالٍ ربيبْ

---

(١) ديوان كشاجم (٧٧) .
(٢) المصدر نفسه (٩) .

كأنما تسعَتُـــةُ أوتارِهـــا نُصبتْ شراكاتٍ لصيدِ القلوبْ

ونلاحظ أن كشاجم يعقد موازنة بين المعزفة والزهر والناي ويفضلها عليهما وأحشاؤها مكسوة بحلة من جلد أحشاء غزال ربيب وأوتارها كأنها شرك نصب ولكن لصيد القلوب .

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الترف والحضارة وصفوا مرافق الحياة العامة ولم يتركوا ظاهرة من ظواهر المجتمع إلا وأمعنوا الوصف فيها ، ومثال ذلك وصف السري الرفاء للحمام[1] :

لمّا رأينا خمّارِ الكأس يعلقُنا عُجنا إلى بيت عاجٍ أرضه سبجُ
ببيتٌ لهُ داخلٌ حلَّ النعيمُ به وخارجٌ فيهِ للقلبِ الشجي فرَجُ
ذو قبّةٍ كسماءٍ والبُدورُ بهـا جاماتُها في ذراهُ الجوُّ ينفرِجُ
حرٌّ وبَرْدٌ والهـواءُ بــه معدّلٌ قِسمَةً ما شانها عِوَجُ

ويصف السري الحمّام بأنه بيت من عاج وأرضه سوداء كالسبج وأن الداخل إليه يحل النعيم في قلبه والخارج منه تزول همومه وأحزانه وقبته كالسماء وبدورها الجامات ، والهواء فيه معتدل دون عوج إلى حر أو برد .

وكتب إلى سعيد الخالدي يدعوه لزيارة الحمّام وذلك قبل نشوب الخلاف بينه وبين الخالديين والذي أشرنا إليه سابقاً[2] .

أسعيدُ هل لكَ في زيارة منزلٍ تُثنى عليـهِ جوانِـحُ الزوّارِ
رَحْبٌ تُلاقي الجدْرَ منه ينـابعاً وترى السّماءَ عليْهِ كالأقمارِ

---

(١) ديوان السري (٦٩) .
(٢) ديوان السري (١٤٣) .

يَنْضُو الحَيِيُّ الوجه ثوبَ حَيَائِهِ   فيهِ فيخطُرُ كالحسام العاري
متقلّباً في نِعْمَةٍ فَضْفاضَةٍ   جُعِلَتْ له عِوَضاً مِنَ الأطْمارَ

وهو يصف الحمّام بأنه رحب ، ينبع الماء من جدرانه وقد سُقّف بقطع من الزّجاج تراها كالأقمار في السماء ، وروادها يخلع الحييّ منهم ثوب حيائه حين يدخل إليه ويخطر كالحُسام العاري ويتقلّب في النعمة الفضفاضة التي جُعِلت له بدل الأطمار .

ويستطرد السريّ فيصف الصور المرسومة على جدرانه وصفاً جميلاً ساحراً فهي صور معركة بين جيشين متقاتلين ، وخيول الفرسان تخطرُ بين القنا والسيوف الممشوقة بغير بوارق والجياد تجري بغير غُبار وهذه المعركة ليس فيها عزيز منتصر ولا ذليل منهزم وذلك لأنها رسمٌ وزينة على الجدران :

وتَرى على جُدْرانِهِ بُهُمَ الوَغى   يخطِرْنَ ما بينَ القَنا الخطّارِ
سُلّتْ سيوفُهُمُ بغَيرِ بَوارِقٍ   وجرَتْ جِيادُهُمُ بغيرِ غُبارِ
زَحْفانِ لم يحْظَ العَزيزُ برِتْبَةٍ   منهم ولا آبَ الذليلُ بعارِ

وكما وصف السري الحمّام وصف أيضاً المزمّلة وهي : صخرة كبيرة مثقوبة في وسطها من الأعلى والأسفل ويوضع فيها الماء لتصفيتهوتبريده وقت الصيف . فقال [1] :

بَديعَةٌ جِسْمُها زَبَرْجَدَةٌ   خضراء يخفي جمالها الحجُبُ
مجروحَةُ الخَصْرِ غيرُ دامِيَةٍ   كما تكونُ الجروحُ والنُّدَبُ
كأنها من جَفَاءِ لِبْسَتِها   مقرورةٌ والهَجيرُ يلتَهِبُ

---

(١) ديوان السري (٦٠) .

كأنّما المـــاءُ حينَ تَبْعَثُهُ ذوبُ لجينٍ ميزابُهُ ذَهَبُ

ولعلك تتفق معنا على أن هذا التصوير رائع حقاً فهو يشبّه المزمّلـة بالزبرجدةَ الخضراء وثقبها غير دامٍ كالجروح والنُدب وهي مقرورة والهجير يلتهب والماء حين ينبعث منها كأنه فضة وميزابه الذهب .

وهكذا نلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية في عصرهم وأنهم لم يتركوا شيئاً إلا تحدثوا عنه في دقة وبراعة.وأن مظاهر الحضارة قد انعكست بأجلى صورها وأدق جزئياتها في شعرهم .

وهكذا يمكن القول إن هذا الضرب من الشعر يُعد فنـاً مستحدثاً جادت به قرائح شعراء الأمير الحمداني . ولقد اتسعت دائرته بحيث شمل جميع ما يتصل بحياة مجتمعهم فوصفوا أدوات الكتابة والشموع والفحم والنار والكانون والمجمرة والمزمّلة والمعزفة وأدوات الغناء والطرب ، كما وصفوا الحمّام إلى غير ذلك مما كان له صلة بحياة المجتمع آنذاك .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية

اتسم الشعر في حلب في عهد سيف الدولة بخصائص معينة وانفرد بصفات متميزة وإننا لندرك ونحن نقرر هذاالقول أن بعض هذه الخصائص التي اتسم بها شعر شعراء الندوة السيفية أثر من آثار خصائص الشعر في القرن الرابع الهجري عامة إذ أن أغلب شعراء الأمير الحمداني وفدوا على حلب من بيئات أخرى ولا سيما العراق ولا شك أنهم كانوا متأثرين في شعرهم الحمداني ببيئاتهم التي أتوا منها ، ولكننا على الرغم من هذا كله سنحاول جهدنا أن نبين السمات الخاصة التي اتسم بها الشعر الحمداني في بيئة حلب .

إن من أبرز خصائص الشعر الحمداني في هذه الفترة التأثر بالبيئة الجميلة التي خص الله بها حلب من حدائق غُنّ ورياض فيح ومحاسن فينانة وأزاهير فتانة ، فلقد ترك هذا الجمال الطبيعي الساحر أثراً كبيراً في نفوس الشعراء فتغنوا بصور الطبيعة وصدحوا بآيات حسنها وشدوا بروائع جمالها .

وتنوع شعر الطبيعة إلى روضيات وزُهريات ووصف للأنهار والمياه

والثلوج والفصول وبرع في هذا اللون من الشعر الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والخالديان والوأواء والببغاء .

وكما تأثر شعراء الندوة السيفية بالبيئة الطبيعية الخلاّبة تأثروا أيضاً بالبيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها فوصفوها وصفاً دقيقاً بارعاً وتحدثوا عن مظاهرها الحضارية ووصفوا أدوات الكتابة والموسيقى والطرب والغناء والشموع والمجمرة والمذبة والمروحةوموائد الطعام وما شابهها من ملامح الحياة الاجتماعية.

وكما كان للبيئة الطبيعية والاجتماعية أثر في خصائص الشعر الموضوعية كان لشخصية سيف الدولة وحروبه المتواصلة مع الروم أثر في هذا المجال فبرز شعر الجهاد ووصف المعارك واصطراع الفرسان وقراع الأبطال وتحرك الجيوش وقطع الفيافي والقفار واجتياز المياه والأنهار ، ولقد أطال الشعراء في وصف الخيل وعنوا بأمرها وتغنّوا بسرعتها ونشاطها وقوتها وبراعتها وتفوق في ذلك المتنبي وأبو فراس والسري الرفاء .

ولقد اتسم شعر الجهاد بالطابع القصصي فالمتنبي في وصفه لوقائع ومعارك سيف الدولة يحكي تفاصيل المعركة وكأنه ينقلنا إلى ساحتها لنشهد ما يحدث بها من هامات متطايرة ودماء جارية وطعن وضرب وكر وفر وإقدام وإحجام . ويرى الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي يبلغ في شعره هذا الغاية التي ليس بعدها متقدّم لشاعر أو ناثر وأنه يعسر على الباحث أن يختار مقداراً مماثلاً له من الشعر الحماسي البليغ من الملاحم الكبيرة مثل الإلياذة اليونانية أو الشاهنامة الفارسية أو المهابهارتا الهندية [1] .

ولقد أوحى جهاد سيف الدولة وبطولته إلى الشعراء المعاني الرائعة كقول المتنبي في الأمير الحمداني :

---

(١) ذكرى ابي الطيب (٩١) .

نهبتَ منَ الأعمارِ ما لو حويته　　لهنئتِ الدّنيا بأنّكَ خالدُ

وقال ابن جنّي لو لم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلاّ بهذا البيت لكان قد أبقى فيه وحده ما لا يخلقُه الزّمان [1] .

ومن الروائع في هذا المجال قول النامي :

هذا عَجاجٌ فأينَ الأفُقُ وهو قَناً　　وتلك خيلٌ فأينَ الأرض وهي دمُ ؟

وما أجمل قول ابن نُباتة السعدي [2] :

سيوفُكَ أمضى في النفوس من الرّدى　　وخوفك أمضى من سيوفك في العِدى
فتىً يتحامَى لَذّةَ النّوْمِ جَفْنُهُ　　كأن لذيذَ النّوْمِ في جفنه قَذى
أطرفُكَ شاكٍ أمْ سُهادُكَ عاشِقٌ　　يغارُ على عينيكَ من سِنَةِ الكرى

ولقد كان لشخصية سيف الدولة أثر واضح في استحداث سمات فنية في شعر بعض الشعراء خاصة المتنبي الذي تفرد في مخاطبة الأمير بمثل مخاطبة المحبوب والصديق ولقد تنبه إلى ذلك الثعالبي وأشار إليه [3] ومثاله قوله لسيف الدولة :

مالي أكتّمُ حُبّاً قد برى جسدي　　وتدّعي حبَّ سيف الدولةِ الأمَمُ
إن كانَ يجمعُنا حُبّ لغُرّتِــهِ　　فليتَ أنّا بقدْرِ الحُبّ نقتسمُ

وهذه الخاصية وُجدت في شعر المتنبي بعد اتصاله بسيف الدولة ، وعلّة ذلك أن الشاعر قد أحب الأمير المجاهد المنافح المتصدي للعدوّ الغادر . فلذلك ملك عليه قلبه وحاز إعجابه .

---

(١) اليتيمة ط ٣٤ (١ / ١٥٧) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ١٩٢) .
(٣) اليتيمة (١ / ١٩١) .

ولقد مزج بعض شعراء الندوة السيفية بين الغزل والحرب فاستعملوا ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجدّ،وامتاز بذلك منهم المتنبي وقد أشار إلى ذلك الثعالبي — أيضاً — وذكر أنها من محاسنه التي لم يُسبق إليها وأنه أظهر فيها الحذْق بحسن النقل وأعرب عن جودة التصرف والتلاعب بالكلام . كقوله [1] :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأسَلِ   والطّعْنُ عندَ محبّيهِنّ كالقبَلِ

وقوله وهو من فرائده :

شجاعٌ كانَ الحرب عاشقَةٌ لَهُ   إذا زارها فدّتهُ بالخيل والرَّجْلِ

وكقوله :

والطّعْنُ شَزْرٌ والأرضُ واجفَةٌ   كأنّما في فُؤادهــا وهَلُ
قدْ صَبَغَتْ خدّها الدماءُ كَما   يصبغُ خَدَّ الخَريدَةِ الخجَلُ
والخيْلُ تَبْكي جلودُها عَرَقاً   بأدْمُعٍ ما تسُحّهــا مُقَلُ

ولقد مزج أبو فراس أيضاً في شعره بين الغزل والحرب فقال :

لمْ أنْسَ قولتَهُنّ ، يومَ لقينني   أزْرَى السّنان بوجهِ هذا البائسِ
قالَتْ لهنَّ ، وأنكرَتْ ما قُلْنَــهُ   أجَميعُكُنّ على هَواهُ مُنافسي
إنّي ليُعْجِبُني إذا عــــايَنتُهُ   أثرُ السّنانِ بصحنِ خدّ الفارسِ

ومن خصائص الشعر في هذا العصر شيوع الأسلوب المنطقي وقوةُ الرّبط بين الأبيات وتسلسل الموضوع وعدم الانتقال من غرَض إلى آخر

---

(١) اليتيمة (١ / ١٩٢) .

إلاّ بمناسبة وبعد تمام الغرض الأول وتنسيق المعلومات وذكر الأسباب بعد المسببات ، ومثال ذلك قول المتنبي :

تشتكي ما اشتكيتَ من ألمِ الشوْ ... قِ إليها والشوقُ حيثُ النحولُ

فكأنه يقول أنا صادق في شكواي لأن برهان دعواي قائم وهو نحول جسمي من ألم البعد ووحشةِ الفراق وكثرة السّهر .

ومثله قول ابن نباتة السعدي :

وما استبْطأتُ كفّكَ في نَوالٍ ... على عدْواءِ نَـأي واقترابِ
ولو كانَ الحجابُ لغـيرِ نَفْعٍ ... لما احتاجَ الفُؤادُ إلى حِجابِ

وفي الموضوع نفسه يقول الصنوبري[1] :

غلبتُمْ على قلْبي فصرتمْ أحقَّ بي ... وأملكَ لي منّي فصرتُ لكم عبدا
جرى حبّكم مجرى حياتي ففقْدكم ... كفقْدِ حياتي لا رأيت لكم فقْدا

ومثله قول الوأواء :[2]

قد سرّني أنهمْ قدْ سرّهم سقَمي ... فازدَدْتُ كيما يُسرّوا بالضنى سقما
اللهُ يعلمُ أنّي يوْمَ بيْنِهـمُ ... ندِمْتُ إذ لمْ أمُتْ في أثرهم ندما

وقد كثرت في شعر الشعراء المصطلحات العلمية وأسماء العلوم وأسماء الآلات العلمية وغيرُها ، فمن المصطلحات الفقهية قول كشاجم[3] :

---

(١) الروضيات (٥٠) .
(٢) ديوان الوأواء (٢٠٠) .
(٣) زهر الآداب (٢ / ١٠٥) .

فديتُ زائرةً في العيدِ واصلةً والهجرُ في غفلةٍ من ذلكَ الخبرِ
فلمْ يزلْ خدَّها ركناً أطوفُ بهِ والخالُ في خدِّها يُغني عن الحجرِ

ومن اصطلاحات الخط وعلم القراءات ما جاء في قول كشاجم يصف أجزاء القرآن الكريم (١) .

وكأنَّ الخطوطَ فيها رياضٌ شاكراتٌ صنيعةَ الأنواءِ
وكأنَّ البياضَ والنقطَ السو دَ عبيرٌ رششته في مُلاءِ
وكأنَّ العُشور والذَّهبَ السا طعَ فيها كواكبٌ في سماءِ
وهيَ مشكولةٌ بعِدَّةِ أشكا لٍ ومقروءةٌ على أنحاءِ

ومن المصطلحات الهندسية قول كشاجم يصف بركارا استهداه (٢) :

جُدْ لي ببركاركَ الذي صنعتْ فيهِ يدا قينهِ الأعاجيبا
ملتئمُ الشعبتينِ معتدلٌ ما شينَ من جانب ولا عِيبا
شخصانِ في شكلٍ واحدٍ قُدِرا ورُكّبا بالعقولِ تركيبا
لولاهُ ما صحَّ خطُّ دائرةٍ ولا وجدْنا الحسابَ محسوبا
العدْلُ فيهِ فإنْ عدلْتَ إلى سواهُ كان الحسابُ تقريبا

ونحن نلاحظ أثر المعارف الدينية في قول الوأواء (٣) :

لها حكمُ لقمانٍ وصورةُ يوسفٍ ونغمةُ داودٍ وعفّةُ مريمِ
ولي سُقمُ أيوبٍ وغربةُ يونسٍ وأحزانُ يعقوبٍ ووحشةُ آدمِ

ويظهر أثر المصطلحات الفقهية في قول المتنبي :

---

(١) زهر الآداب (٢ / ١٠٤) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ١٠٥) .
(٣) ديوان الوأواء (١٧٦) .

قفى تغْرَم الأولى من اللّحظِ مهجتي بثـانيـةٍ والمتلفُ الشيءَ غارمُه

ونلمح قواعد النحو في قول المتنبي أثناء خطابه لسيف الدولة :

إذا كان ما تنويهِ فعْلاً مُضارِعاً مضى قبل أن تلقى عليهِ الجوازِم

ومن الخصائص الفنية البارزة في الشعر الحمداني شيوع المقطوعات الشعرية في دواوين الشعر وإن كان انتشارها بشكل بارز ليس بجديد فقد انتشرت منذ أوائل العصر العباسي ونظم الشعراء أغراضهم ومعانيهم على شكل مقطوعات تدور كل واحدة منها حول فكرة واحدة ولعل هذا كان سبباً من الأسباب التي تكمن في الإكثار من نظم المقطوعات وإلى جانب هـذا وذاك ما ذكره الدكتور شوقي ضيف من أن ازدهار الغناء في العصر شجع الشعراء على نظم مقطوعاتهم الشعرية [1] .

وقد بيّن ابن رشيق الحدّ الذي يفرُقُ به بين القصيدة والمقطوعة ، فقال[2] وقيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معَيب عند أحد من الناس . . . ومن الناس من لا يعُدّ القصيدة إلاّ ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد .

ولقد انتشرت المقطوعات في أغلب دواوين شعراء الندوة السيفية وأكثروا منها وديوان أبي فراس من خير ما يمثل الاتجاه إلى المقطوعات ، فلقد بلغت في شعره مائتين وستين مقطوعة بينما بلغ عدد القصائد ثلاث عشرة ومائة قصيدة فقط .

ومن الشعراء الذين أكثروا من المقطوعات أيضاً الوأواء الدمشقي الذي

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (٦٣) .
(٢) العمدة (١ / ١٨٨) .

زادت عدد مقطوعاته على ثلاثمائة مقطوعة وكل منها تقل عن سبعة أبيات على حين ترى قصائده التي يحتوي كل منها على سبعة أبيات فأكثر أقل من الثلاثين ، وكثرت المقطوعات كذلك في دواوين الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والنامي وغيرهم من شعراء الندوة السيفية .

أما بالنسبة للأساليب فلقد تباينت في شعر شعراء الندوة للسيفية بين السهولة والسلاسة في الألفاظ حيناً والجزالة والفحولة في التعبير حيناً آخر وذلك تبعاً للموضوعات الشعرية التي طرقها الشعراء .

ولقد أقبل الشعراء الحمدانيون على العبارات الرقيقة اللينة وانصرفوا إلى حد كبير عن الأساليب البدوية الخشنة التي لا تتناسب مع العصر وذوقه وبرزت هذه الظاهرة واضحة في بعض الألوان الشعرية كالغزل ووصف الطبيعة والخمر ، كما أن شعرهم الأخوي أتسم بالعذوبة والوضوح ، واتسم الرثاء أيضاً باللين والرقة إلى جانب العبارات الشجية التي تصور ما بنفس الشاعر من أسى وحزن ، وقد اتضح لنا هذا جلياً في رثاء الصنوبري الحزين الباكي لابنته الوحيدة « ليلى » وفي رثاء أبي فراس لابنه ورثاء كشاجم لأمه وأبيه .

أما بالنسبة للمدح والفخر ووصف المعارك والحروب فلقد اتسمت هذه الأغراض بالجزالة والقوة والفخامة ولنستمتع معاً إلى قول أبي فراس[1] :

أتَعجَبُ ان ملكنا الأرض قسراً ... وأن تُمسي وسائدنا الرقابُ ؟
وتُربطُ في مجالسِنا المذاكي ... وتبركُ بينَ أرجلنا الرّكابُ ؟
فهذا العِزّ أثبتَـهُ العَوالي ... وهذا الملكُ مكّنَهُ الضّرابُ
وأمثالُ القسيّ من المَطايا ... يجبُّ غِراسها الخيلُ العِرابُ

---

(١) اليتيمة (٢ / ٥١) .

ونحن نلاحظ هنا لفظ الشاعر الجزل القوي ومحاكاته لما كان يجري عليه الفخر منذ الجاهلية .

ولعل الأمثلةالكثيرة التي أوردناها خلال حديثنا عن المدح والفخر وشعر الحرب تكفينا مؤونة إيراد الشواهد مرة ثانية .

ولعل جهاد الأمير الحمداني وبطولته ومعاركه العظيمة ووقائعه الكثيرة مع الروم كان لها الأثر الكبير في سلوك الشعراء طريق الجزالة والقوة في اللفظ في وصفهم لجهاد الأمير والإشادة بشجاعته وبأسه .

ويتحدث أحد النقاد القدامى عن الأساليب وتباينها فيقول [1] :

« أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ولا هزلك بمنزلة جدّك ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتب كلا مرتبته وتوفّيه حقّه فتلطّف إذا تغزّلت ،وتفخّم إذا افتخرت ، وتتصرّف للمديح باللياقة والظّرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه » .

ويقول ابن الأثير [2] الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها ما يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام الأعياد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك » .

ويرى الأستاذ الشايب [3] أن للغزل أسلوباً يمتاز بالرقة واللّين والسهولة

---

(١) الوساطة (٢٤) .
(٢) المثل السائر (١ / ٦٥) .
(٣) الاسلوب (٧٧ / ٨٣) .

في غير ابتذال وأن للرثاء أسلوباً رقيقاً ليّناً وللمديح والهجاء أسلوباً جزْلاً واضحاً شديد التأثير وللوصف أسلوباً يختلف باختلاف ما يوصف به فهو جزل قوي في وصف الحروب وأصوات الطبيعة وحوادثها المفزعة وليّن سَلِس في وصف العواطف الرقيقة ورائع جذّاب في وصف البروق اللامعة .

أما بالنسبة للمعاني فلقد صرَف شعراء الندوة السيفية همّهم لانتقاء معانيهم ونقد شعرهم وانتفعوا في ذلك بحركة النقد التي نشِطت نشاطاً كبيراً في هذه الفترة من تاريخنا الأدبي . ولقد أشار إلى ذلك السري الرفاء في قوله[1] :

أغْرَبْتُ في تحبيرِهِ فروَاتُهُ ... في نُزْهَةٍ منه وفي استغرابِ

وقطعْتُ فيه شيبةً لم تشتغلْ ... عن حسنِهِ بصباً ولا بتصابي

وإذا ترقْرَقَ في الصحيفة ماؤه ... عبِقَ النسيمُ فذاكَ ماءُ شبابي

ولقد أعجب الثعالبي بمعاني شعراء عصره حتى إنه بالغ في تفضيلها على معاني الشعر كافة فقال[2] : . . . كانت أشعار الإسلاميين أرقّ من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن ، وأنظم للطائف والبدائع من أشعار سائر المذكورين ، لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظّرف ، تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز ، ومن حد الشعر إلى حد السحر فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرهم وثمرة قرائحهم ، وأبكار ألفاظهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة وأوفرها نصيباً في كمال الصنعة ورونق الطلاوة . . . »

وعلى الرغم من جودة المعاني في الشعر السيفي تلك التي مالت إلى الابتكار

---

(١) اليتيمة (٣ / ١٤٦) .
(٢) اليتيمة طبعة ١٩٣٤ (١ / ٣) .

والتجديد فإنا نجدها اتصفت بالمبالغة والغلو حتّى خرج الشعراء عن الممكنات إلى المستحيلات وهذا مستهجن عند جملة الأدباء والنقاد ولم ينفرد الشعراء الحمدانيون بهذه السمة إذ أنها كانت من ظواهر الشعر في القرن الرابع الهجري عامة .

ولقد أكثر المتنبي من الغلو والمبالغة وأغرم بذلك حتّى قال عنه ابن رشيق إن أبا الطيب أكثرُ الناس غلوّاً وأبعدهم فيه همة حتّى لو قدَرَ ما أخلى منه بيتاً واحداً وحتّى بلغت الحال إلى ما كان له عنه غنىً وله عنه مندوحة [1] . ومن مبالغاته قوله :

فلمّا رأوْهُ وحدَهُ قبلَ جَيْشه ... دَرَوْا أنّ كلّ العالمينَ فضولُ

وقوله :

إنْ كان قد ملَكَ القُلوبَ فإنّهُ ... ملَكَ الزّمانَ بأرضِه وسمائِه
الشّمْسُ منْ حُسّادِه والنصرُ من ... قرُنائِه والسّيْفُ من أسْمائِه
أينَ الثّلاثَةُ من ثَلاثِ خِلالِه ... من حُسْنِه وإبائِه ومضائِه
مضتِ الدّهُورُ وما أتيْنَ بمثْلِه ... ولقَدْ أتى فعَجِزْنَ عن نظرائِه

وقوله :

أرجو نداك ولا أخشى المِطالَ بهِ ... يا منْ إذا وهَبَ الدّنيا فقدْ بخِلا

وقوله :

بمنْ أضرِبُ الأمثالَ أم منْ أقيسُهُ ... إليكَ؟ وأهلُ الدهرِ دونك والدهرُ

---

(١) العمدة (٢ / ٦٠) .

وقوله :

فهو أمضى في الرّوعِ من ملكِ الموْ تِ وأسرى في ظلمةٍ من خيالِ

وقوله :

لوْ كانَ عِلْمُكَ بالإلهِ مقَسَّماً في النّاسِ ما بعثَ الأله رسولا

وقوله :

ويستكبرونَ الموتَ والموتُ دونَه ويستعظمونَ الموتَ والموتُ خادمُهْ

وقوله في مخاطبة سيف الدولة :

إنْ كانَ مثلكَ كان أو هو كائن؟ فبرئْتُ حينئذٍ من الإسْلامَ

ومن مبالغاته في مجال الغزَل قوله :

كفَى بجِسْمي نحولاً أنّني رجُلٌ لولا مخاطبتي إيّاكَ لمْ ترَني

ومن مبالغات شعراء الندوة السيفية قول الوأواء [١]:

ولوْ نَصبوا رحى بإزاء دمعي لكانتْ من تحدّره تدورُ

وقول أبي عثمان الخالدي :

وأنحلَني بالهَجْرِ حتّى لو انّني قذىً بينَ جَفْنَي أرمدياً توجّعا

وقولُ ابن نُباتة السعدي في مدح سيف الدولة :

ولو أنّ الفُراتَ عصى عليْهِ لردَّ السَّيلَ منهُ أنْ يَسيلا

---

(١) ديوان الوأواء (١١١) .

وقول السري الرفاء[1] :

وأجْرَيْتَ بالنَّلِّ الدِّماءَ فلو جرَتْ به الخيلُ حَوْلاً ما أثرْنَ القساطلا

ونحن نرى أن الإفراط في الغلو والمبالغة يزري بالشعر ويقلّل من قيمته ويُبعده عن الإحساس الصادق والانفعال الجياش . ونحن نميل إلى رأي الجرجاني الذي لا يستسيغ خروج الشعراء بالمبالغة إلى حد الاستحالة فهو يقول[2] : « فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين وموجودٌ كثيراً في الأوائل . والناس فيه مختلفة فمستحسن قابلٌ ومستقبحٌ رادٌّ . وله رسوم متى وقف الشاعرُ عندها ولم يتجاوز الوصفُ حدَّها جمع بين القصد والاستيفاء ومسلم من النقص والاعتداء فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال إلى الإحالة وإنما الإحالة نتيجة الإفراط وشعبة من الإغراق .

ومن الخصائص الظاهرة في الشعر الحمداني كثرة استخدام الصور والأخيلة إذ أن الشعراء قد أكثروا من استخدام الاستعارات الجميلة والتشبيهات المركبة والجناس والطباق والاقتباس إلى ما شابهها من فنون البديع .

والخيالُ عنصر مهم في رسم الصور المتخيلة وهو الملَكَة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم وهم لا يؤلفونها من الهواء إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها تختزنها عقولهم وتظلّ كامنةً في مخيلتهم حتى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها[3] .

وقد اعتمد شعراء الندوة السيفية في رسم صورهم التعبيرية على الفنون البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات وأكثر الشعراء منها في شعر وصف الطبيعة والخمر والغزل .

(١) ديوان السري الرفاء (٢١٥) .
(٢) الوساطة (٣١١) .
(٣) في النقد الادبي : شوقي ضيف (١٦٧) .

ولقد كانت الطبيعة الزاهية بألوانها وجمالها الفتان مصدر وحي لخيال الشعراء ولعل الصنوبري –كما قلنا سابقاً– أعظم الشعراء في هذا الباب وقد عرف عند النقاد ومؤرخي الأدب بشاعر الرياض والزهر . ومن شعره الجميل في هذا الباب وصفه للنرجس والورد وإقامته حِواراً طريفاً بينهما مليئـاً بالاستعارات الجميلة [1] . كقوله :

زَعَمَ الوَرْدُ أنّهُ هو أبْهى ... من جميعِ الأنْوارِ والرَّيحانِ
فأجابتْهُ أعينُ النرجس الغَضّ بذُل من قولها وهوانِ
أيّما أحسنُ : التودّد أم مُقْلَةُ رِيمٍ مريضَةِ الأجفانِ
أمْ لماذا يرجو بحمرته الورْدُ إذا لم تكنْ لهُ عيْنانِ
زَهَى الوَرْدُ ثم قال مجيبـاً ... بقياسٍ مستحسنٍ وبيانِ
إنَّ وَرْدَ الخدودِ أحسنُ من عيْنٍ بهاً صفرةٌ منَ اليرقانِ

ويصف الوأواء البنفسج فيشبّهه بالنار عند إيقادها [2] :

وبدا البنفسَجُ لي فقلْتُ لخاطِري ... في وصفِهِ كالنارِ في إيقادِهـا
حَكَتِ الشّكولُ بخدّها أوراقَهُ ... وحكَى لذي التشبيهِ صبغَ حِدادِها

والسري الرفاء يجعل الربيع فرِحاً يغنّي لقدوم المطر الباكي فيقول [3] :

وغنّى ارتياحاً إلى عارِضٍ ... يغَنّي وعبْرَتُهُ تنسَكِبْ

ويشبه كشاجم شقائق النعمان بشعلة نار متقدة أو مطرفٍ أحمر لأمير في جحفل جرّار [4] :

---

(١) فوات الوفيات (١ / ١١١) .
(٢) ديوان الواواء المخطوط (٥٧) .
(٣) اليتيمة (١ / ٤٩٥) .
(٤) الديارات (٢٥٩) .

وإذا ما بدا الشّقائقُ فيهـا خالَهُ النّاظرونَ شعلةَ نارِ
أو كما نُشِّرَتْ مطارفُ حمرٌ لأميرٍ في جَحْفَلٍ جرّارِ

ويُفتَنُ أبو فراس بالجلّنار ذي اللون الأحمر والأصفر الناصع فيشبّههما بقراضة الذهب فيقول :

وجُلّنـارٍ مشْرِقٍ على أعالي شَجَرَهْ
كأنَّ في رؤوسِهِ أصْفَرُهُ وأحْمَرَهْ
قُراضَةٌ منْ ذَهَبٍ في خِرَقٍ معَصْفَرَهْ

والزّاهي يصف ليلةً شديدة الريح منهمرة المطر فيشبّه الليل بالجفن والبروق بالعين فيقول[1] :

الرّيحُ تعصُفُ والأغْصانُ تعتنِقُ والمُزْنُ بـاكيَةٌ والزهرُ مغتبقُ
كأنّما الليلُ جفنٌ والبروقُ لهُ عينٌ من الشمس تبدو ثمَّ تَنْطَبِقُ

وكما أكثر شعراء الندوة السيفية من الفنون البيانية في وصف الطبيعة تراهم فُتنوا بها في وصف الخمر والكأس والساقي وفي الغزل ووصف المحبوب وجماله الفتّان ولين قوامه ودلّه وهجره .

وكثيراً ما قَرَن شعراء الندوة السيفية في الوصف بين الطبيعة والخمر وبين الخمر والغزل بل كثيراً ما قرنوا بين هذه الفنون الثلاثة .

ودواوين شعراء البلاط الحمداني حافلةٌ بهذا اللون من الشعر الذي يستمد الألوان البديعة والصور البيانية الجميلة من جمال الطبيعة الخلاّب والمجمتع

---

(١) اليتيمة (١ / ١٧٢) .

والحياة المترفة في ذلك العصر وهي تتسم بالرقة والروعة والجمال .

* * *

وفي القرن الرابع انتشر فن البديع انتشاراً لا مثيل له في عصور الأدب السابقة ويكفينا في ذلك ما شاع من مقامات بديع الزمان الحمداني وقد أصبحت هذه الظاهرة تعبر عن ذوق العصر في الميل إلى الاصطباغ بالمحسنات البديعية حتى أصبح استخدامها هو المقياس الأدبي .

ومن الطبيعي أن ينعكس تأثير هذه الظاهرة على الشعر آنذاك .

ولقد شاع فن البديع في العراق شيوعاً كبيراً ولعل ذلك له ارتباط بالحضارة التي كانت سائدة آنذاك والتي تأثرت بالصبغة الفارسية التي تميل إلى التأنق والزخرفة في كل الفنون ،

أما بالنسبة لشعراء الندوة السيفية فإنهم لم يكونوا جميعاً من المولعين باستعمال البديع بل إن عدداً كبيراً منهم لم يكن يقصد البحث عن البديع وإذا أتى في الشعر فإنه يأتي عن طريق المصادفة وعفو الخاطر .

ونحن نرى أن الشعراء الحمدانيين لم يعمدوا إلى الإغراب في البديع والتضحية بالمعاني كغيرهم من شعراء عصرهم فلذلك بقيت أساليبهم متسمة بالوضوح والسهولة .

كما نلاحظ أن الألوان البديعية كثرت في فنون شعر الطبيعة والخمر والغزل وقلّت في الأغراض الجديّة التي كانت تدور حول بطولة الأمير الحمداني وجهاده ضد الروم .

وهكذا نلحظ أن شعراء الندوة السيفية امتاز شعرهم بخصائص معينة

انفردوا ببعضها والتقَوْا ببعضها الآخر مع شعراء عصرهم ، فلقد امتازوا بشعر الجهاد الذي كان لحروب سيف الدولة مع الروم الأثر الأكبر في موضوعاته وصوره كما امتازوا بوصف الطبيعة والحياة الاجتماعية وبشعر الحكمة المفلسفة . أما أساليبهم فقد رقّت ألفاظها وبرعت معانيها وإن كان بعضهم قد جنح إلى الغلوّ والمبالغة كأبي الطيب المتنبي . ولقد أكثروا من المقطوعات الشعرية وغلبت على بعض دواوين شعرائهم كالوأواء وأبي فراس والنامي كما أنهم امتازوا باستخدام الصور البيانية والأخيلة الرائعة فأكثروا من التشبيهات المحلقة والاستعارات العذبة والكنايات اللطيفة . واستخدموا ضروب البديع وفنونه ولكن كان ذلك في الأغلب بدون إسراف أو إهدار للمعنى وتميزوا بهذا عن غيرهم من شعراء ذلك العصر الذين فتنوا بصنوف الزخرف اللفظي فتكلّفوا وتعسفوا وأهدروا المعاني من أجل التنميق والتزويق الذي كان مظهراً سائداً في تلك الفترة من تاريخنا الأدبي .

المصادر والمراجع

المخطوطات :

١ ـ ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ـ تأليف عبد السلام سرحان ـ رسالة مخطوطة ـ بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

٢ ـ اخبار الدول المنقطعة ـ تأليف جمال الدين ابي الحسن علي بن ظافر الأزدي ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ح (١٣٥٥) .

٣ ـ اخبار الدول وآثار الاول ـ تأليف احمد بن سنان المعروف بالقرماني ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم (٩٥١٩) .

٤ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ تأليف ابن العديم ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقم (١٥٦٦) .

٥ ـ ديوان ابن نباتة السعدي ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٢ أدب (ش)

٦ ـ ديوان كشاجم ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم (٥٩٧) أدب

٧ ـ ديوان الوأواء ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٤١٧) أدب .

٨ ـ رسائل ابي اسحاق الصابي ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم (١٤٦٦) .

٩ ـ شعر الوأواء الدمشقي (مختارات) مكتبة جامعة الدول العربية ـ ميكروفيلم رقم (٣٦٩) .

المطبوعات :

١٠ ـ ابحاث ومقالات ـ تأليف احمد الشايب ـ طبع النهضة المصرية ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

١١ ـ ابو فراس الحمداني ـ تأليف احمد ابي حاقة ـ طبع بيروت ١٩٦٠.

١٢ ـ ابو فراس ـ فارس بني حمدان وشاعرهم ـ لعمر فروخ ـ بيروت ١٩٥٤م.

١٣ ـ ابو فراس الحمداني ـ لفؤاد افرام البستاني ـ سلسلة الروائع ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٣٩م.

١٤ ـ ابو الطيب المتنبي ـ لجوزف الهاشم ـ الطبعة الثالثة ـ المكتب التجاري ١٩٦٦م.

١٥ ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ـ للدكتور محمد مصطفى هدارة ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٠م.

١٦ ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ للمقدسي ـ طبع ليدن ١٩٠٦م

١٧ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ للقفطي ـ طبعة الخانجي ١٣٢٦هـ

١٨ ـ ادب الطبيعة ـ لعبد اللطيف السحرتي ـ طبع الاسكندرية ١٩٣٥م

١٩ ـ ادب العرب ـ لمارون عبود ـ دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠م .

٢٠ ـ ادباء العرب في الاعصر العباسية ـ لبطرس البستاني ـ ببيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٤٠م.

٢١ ـ ادب النديم كشاجم ـ طبعة بولاق ١٢٩٨هـ.

٢٢ ـ ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ـ لياقوت الحموي ـ طبع مارجيليوث .

٢٣ ـ اسرار البلاغة ـ لعبد القاهر الجرجاني ـ نشر محمد رشيد رضا ـ مطبعة الترقي بمصر ١٣٢٠هـ.

٢٤ ـ الأسلوب ـ لأحمد الشايب ـ طبع المطبعة الفاروقية ـ بالاسكندرية ١٩٣٩م.

٢٥ ـ اصول النقد الأدبي ـ لأحمد الشايب ـ طبع القاهرة ـ الطبعة السابعة ـ ١٩٦٤م.

٢٦ ـ اعلام العرب في الفنون ـ لعبد الصاحب عمران البرجيلي ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦م مطبعة النعمان بالنجف الأشرف .

٢٧ ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر امـراء الشام والجزيرة ـ لعز الدين ابي عبد الله بن شداد ـ تحقيـق دومينيـك سورديل ـ طبع دمشق ١٩٥٣م.

٢٨ ـ اعلام الكلام ـ لأبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني ـ الطبعـة الاولى ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

٢٩ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ تأليف محمد راغب الطباخ ـ الطبعة الاولى ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م.

٣٠ ـ الأعلام ـ للزركلي ـ المطبعة العربية ١٩٢٨م بمصر.

٣١ ـ أعيان الشيعة ـ لمحسن العاملي ـ مطبعـة الترقي ـ بدمشق ـ الطبعة الاولى ١٣٤٦هـ ـ ١٩٤٥م.

٣٢ ـ الامبراطورية البيزنطية ـ لفورمان بينز ـ طبـع لجنـة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠م.

٣٣ ـ الامبراطورية البيزنطية ـ لنبيه عاقل ـ طبع دمشق ١٩٦٩م.

٣٤ ـ الأنساب ـ للسمعاني ـ طبع ليدن .

٣٥ ـ البداية والنهاية ـ لأبي الفـداء ـ الحافظ بن كثير الدمشقـي ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٣٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ لجلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل ـ الطبعة الاولى ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٣٧ ـ بلوغ الأرب ـ للألوسي ـ مطبقة الاستقامة ـ الطبعة الثانية ١٩٤٠م.

٣٨ ـ تاريخ الأدب العربي ـ لكارل بروكلمان ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ طبع دار المعارف ١٩٦١م.

٣٩ ـ تاريخ الأدب العربي ـ لأحمد حسن الزيات ـ مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر ـ الطبعة السابعة ١٩٣٩م.

٤٠ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ لجورجي زيدان ـ مطبعة الهلال ١٩١١م

٤١ ـ تاريخ بغداد ـ للحافظ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ـ طبع دار الكتاب العربي ببيروت .

٤٢ ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ لجورجي زيدان ـ مطبعة الهلال ـ الطبعة الرابعة ١٩٣١م.

٤٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ـ للدكتور حسن ابراهيم حسن ـ الطبعة الثانية ١٩٤٩م.

٤٤ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ للاستاذ احمد شلبي ـ الطبعة الاولى بالقاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م.

٤٥ ـ تاريخ الشعر العربي ـ لمحمد عبد العزيز الكفراوي ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

٤٦ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ لكارل بروكلمان ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٥م.

٤٧ ـ تاريخ الطبري ـ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر .

٤٨ ـ تاريخ العرب ـ للويس سيديو ـ ترجمة محمد عادل زعيتر ـ طبعة الحلبي ١٩٤٨م.

٤٩ ـ تاريخ مدينة دمشق ـ لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ مطبوعات المجمع العلمي بدمشق .

٥٠ ـ التاريخ الكبير ـ لابن عساكر ـ مطبعة روضة الشام ١٣٢٢هـ.

٥١ ـ تاريخ الامم والملوك ـ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ المكتبة التجارية ١٣٥٨هظ ـ ١٩٣٩م.

٥٢ ـ تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ـ طبع بيروت ١٩٠٩م.

٥٣ ـ تتمة ديوان الصنوبري ـ تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ـ طبع دار الكتاب العربي بحلب ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٥٤ ـ تجارب الامم ـ لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ـ طبع بغداد .

٥٥ ـ تجديد ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ مطبعة المعارف ١٩٣٧م.

٥٦ ـ تطور الخمريات في الشعر العربي ـ لجميل سعيد ـ مطبعةالاعتماد ١٩٤٥م.

٥٧ ـ التنبيه والاشراف ـ لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ـ تصحيح ومراجعة عبدالله الصاي ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

٥٨ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ لابن بدران ـ طبع الشام ١٣٣١هـ.

٥٩ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ للثعالبي ـ مطبعة القـاهرة ١٩٠٨م.

٦٠ ـ جامع التواريخ المسمى « نشوار المحاضرة » لأبي الحسن التنوخي ـ تصحيح مرجيليوث ـ مطبعة هندية بمصر .

٦١ ـ الجديد في الأدب العربي ـ لحنا الفاخوري ـ طبع بيروت ١٩٦٤م.

٦٢ ـ جمهرة انساب العرب ـ لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ طبع دار المعارف ١٩٤٨م.

٦٣ ـ جواهر الأدب ـ لأحمد الهاشمي ـ طبع مؤسسة المعارف ـ الطبعة الأولى .

٦٤ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ لآدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التاليف والنشر والترجمة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

٦٥ ـ خزانة الأدب ـ لابن حجة ـ طبع مصر ١٢٩١هـ.

٦٦ ـ خزانة الأدب ـ لعبد القادر البغدادي ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.

٦٧ ـ خطط الشام ـ لمحمد كرد علي ـ طبع المطبعة الحديثة بدمشق ـ ١٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.

٦٨ ـ الخيال الشعري عند العرب ـ لأبي القاسم الشابي .

٦٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٧٠ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ لابن الشحنة الحلبي ـ طبع المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٩م.

٧١ ـ دراسات في الأدب العربي ـ لانعام الجندي ـ طبع بيروت .

٧٢ ـ دمية القصر للباخرزي ـ طبع المطبعـة العلميـة بحلب ـ الطبعـة الاولى .

٧٣ ـ الديارات ـ للشابشتي ـ تحقيق كوركيس عواد ـ الطبعة الثانية ـ منشورات مكتبة المثنى ببغداد ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٧٤ ـ الدولة الحمدانية ـ لفيصل السامر ـ الطبعـة الاولى ـ بغـداد ١٩٧٠م.

٧٥ ـ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ـ للدكتـور ابراهيم احمـد

العدوي ـ الطبعة الثانية ـ طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨م.

٧٦ ـ الدولة البيزنطية ـ للباز العريني ـ طبع دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٥م.

٧٧ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي ـ شرح الواحدي ـ طبع برلين ١٨٦١م.

٧٨ ـ ديوان ابي فراس ـ تحقيق سامي الدهان ـ طبع بيروت ١٩٤٤م.

٧٩ ـ ديوان ابي فراس ـ رواية ابي عبدالله الحسين بن خالوية ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.

٨٠ ـ ديوان الخالديين ـ تحقيق سامي الدهان ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

٨١ ـ ديوان السري الرفاء ـ طبع مكتبة القدس ١٣٥٥هـ.

٨٢ ـ ديوان الصنوبري ـ تحقيق احسان عباس ـ طبع بيروت ـ دار الثقافة ١٩٧٠م.

٨٣ ـ ديوان كشاجم ـ طبع بيروت ١٩٤٣م.

٨٤ ـ ديوان الوأواء الدمشقي ـ تحقيق سامي الدهان ١٩٥٠م.

٨٥ ـ ذكرى أبي الطيب ـ لعبد الوهاب عزام ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.

٨٦ ـ ذيل تاريخ دمشق ـ لابن القلانسي ـ طبع المطبعة اليسوعية ببيروت ١٩٠٨م.

٨٧ ـ الرثاء ـ لشوقي ضيف ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ـ الطبعة الثانية .

٨٨ ـ الرسالة الحاتمية ـ لأبي علي محمد بن الحسن الحاتمي ـ طبعة الجوائب ١٣٩٢هـ.

٨٩ ـ الروضيات من شعر الصنوبري ـ جمع راغب الطباخ ـ المطبعة العلمية بحلب ١٩٣٢م.

٩٠ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ـ لابن العديم ـ تحقيق سامي الدهان ـ طبع دمشق ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٩١ ـ زهر الآداب ـ لأبي اسحاق الحصري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الرابعة ـ دار الجيل ١٩٧٢م.

٩٢ ـ سرح العيون ـ لابن نباتة ـ الطبعة الاولى .

٩٣ ـ سيف الدولة الحمداني ـ لمصطفى الشكعة ـ الطبعة الاولى ١٩٥٩م.

٩٤ ـ سيف الدولة ـ لأندره دايفتس ـ تعريب اسكندر مرباشي ـ طبع بيروت ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م.

٩٥ ـ سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ لسامي الكيالي ـ طبع دار المعارف بمصر .

٩٦ ـ شاعر بني حمدان ـ لأحمد بدوي ـ طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٢م.

٩٧ ـ الشاعر الطموح ـ لعلي الجارم ـ طبع دار المعارف .

٩٨ ـ شاعرية ابي فراس ـ لنعمان ماهر الكنعاني ـ طبع بغداد .

٩٩ ـ شذرات الذهب ـ لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ـ طبع مكتبة القدس ١٣٥٠هـ.

١٠٠ ـ التبيان ـ للعكبري ـ شرح ديوان المتنبي ـ الطبعة الاولى ١٣٠٨هـ

١٠١ ـ شرح ديوان المتنبي وتحقيقه ـ لعبد الرحمن البرقوقي ـ طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٠٢ ـ شعر الحرب في أدب العرب ـ لزكي المحاسني ـ طبع دار المعارف بمصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠م.

١٠٣ ـ شعر الحرب في العصر الجاهلي ـ لعلي الجندي ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ١٩٦٦م.

١٠٤ ـ الشعر الجاهلي ـ لمحمد النويهي ـ اخراج الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة .

١٠٥ ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي ـ لسيد نوفل ـ طبع القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٤٥م.

١٠٦ ـ الشعر في ظل سيف الدولة ـ لدرويش الجندي ـ الطبعة الاولى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٩م.

١٠٧ ـ شعر النامي ـ تحقيق صبيح رديف ـ مطبعة دار البصري ـ بغداد ١٩٧٠م.

١٠٨ ـ الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ طبع دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ـ .

١٠٩ ـ صبح الأعشى ـ في صناعة الانشا ـ للقلقشندي ـ طبع مصر ١٣٣٣هـ.
١١٠ ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ ليوسف البديعي ـ تحقيق السقا ومحمد شتا وعبده زيادة ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣م.
١١١ ـ صلة تاريخ الطبري ـ لعريب بن سعيد القرطبي ـ طبع المكتبة التجارية ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
١١٢ ـ الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ـ تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد ابي الفضل ابراهيم ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٥٢م.
١١٣ ـ صورة الارض ـ لابن حوقل ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
١١٤ ـ ظهر الاسلام ـ لأحمد امين ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤م.
١١٥ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ـ لحسن احمد محمود واحمد ابراهيم الشريف ـ الطبعة الاولى ـ دار الفكر العربي ١٩٦٦م.
١١٦ ـ العبر في خبر من غبر ـ للحافظ الذهبي ـ تحقيق فؤاد سعيد ـ الكويت ١٩٦١م.
١١٧ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ لابن خلدون ـ طبع بولاق ١٢٨٤هـ.
١١٨ ـ العرب والروم ـ لفازيليف ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة وفؤاد حسنين علي.
١١٩ ـ العصر العباسي الثاني ـ للدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
١٢٠ ـ العمدة ـ ابن رشيق القيرواني ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢م.
١٢١ ـ عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ طبع دار الكتب المصرية.
١٢٢ ـ عيون الأنباء في طبقات الاطباء ـ لابن أبي أصيبعة ـ الطبعة الاولى ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م.
١٢٣ ـ فجر الاسلام ـ لأحمد امين ـ الطبعة الثالثة ١٩٣٥م.
١٢٤ ـ الفخر والحماسة ـ لحنا الفاخوري ـ طبع دار المعارف.
١٢٥ ـ الفرق بين الفرق ـ لعبد القاهر البغدادي ـ طبع القاهرة ١٩١٠م.

١٢٦ ـ فن الشعر الخمري ـ لايليا حاوي ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت.

١٢٧ ـ فن الفخر ـ لايليا حاوي ـ الطبعة الاولى ـ بيروت ١٩٦٠م.

١٢٨ ـ فن المتنبي بعد الف عام ـ لابراهيم العريض ـ الطبعة الاولى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٢م.

١٢٩ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ لشوقي ضيف ـ الطبعة السادسة ـ طبع دار المعارف بمصر .

١٣٠ ـ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ـ للدكتور مصطفى الشكعة ـ طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨م.

١٣١ ـ الفهرست ـ لابن النديم ـ مكتبة الخياط ـ بيروت .

١٣٢ ـ فوات الوفيات ـ لمحمد بن شاكر الكتبي ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر .

١٣٣ ـ في الأدب العباسي ـ لمهدي البصير ـ الطبعة الاولى ـ بغداد ١٩٤٩م.

١٣٤ ـ فيض الخاطر ـ لأحمد امين ـ الطبعة الخامسة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٩م.

١٣٥ ـ القاموس المحيط ـ للفيروزابادي ـ الطبعة الثالثة ـ المطبعة الاميرية ـ بولاق ١٠٣١هـ.

١٣٦ ـ قدماء ومعاصرون ـ لسامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ١٩٦١م

١٣٧ ـ القديم والحديث ـ لمحمد كرد علي ـ الطبعة الاولى ـ ١٩٢٥م.

١٣٨ ـ قراضة الذهب ـ لابن رشيق القيرواني ـ الطبعة الثالثة ـ الخانجي ١٩٢٦م.

١٣٩ ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير ـ تصحيح الشيخ عبد الوهاب النجار .

١٤٠ ـ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ـ للصاحب بن عباد ـ الطبعة الاولى ـ تحقيق محمد حسن آل ياسين ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

١٤١ ـ لسان العرب ـ الطبعة الاولى ـ المطبعة الاميرية ـ بولاق ١٣٠١هـ

١٤٢ ـ المتنبي بين ناقديه ـ لمحمد عبد الرحمن شعيب ـ دار المعارف ١٩٦٤م.

١٤٣ ـ المتنبي ـ لزكي المحاسني ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

١٤٤ ـ المتنبي ـ لشفيق جبري ـ مطبعة ابن زيدون ـ دمشق ١٩٣٠م.

١٤٥ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الاثير ـ تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.

١٤٦ ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضري ـ الطبعة الخامسة ـ المكتبة التجارية .

١٤٧ ـ المحمدون من الشعراء ـ لعلي بن يوسف القفطي ـ تحقيق حسن معمري ـ الرياض دار اليمامة ١٩٧٠م.

١٤٨ ـ المختصر في اخبار البشر ـ لأبي الفداء ـ المطبعة الحسينية ـ مصر .

١٤٩ ـ المديح ـ لسامي الدهان ـ طبع دار المعارف .

١٥٠ ـ مروج الذهب ـ للمسعودي ـ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٦٧م.

١٥١ ـ المزهر ـ للسيوطي ـ مطبعة صبيح .

١٥٢ ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ لابن فضل الله العمري ـ تحقيق أحمد زكي ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.

١٥٣ ـ مسالك الممالك ـ للاصطخري ـ طبع ليدن ١٩٢٧م.

١٥٤ ـ المسالك والممالك ـ لابن خرداذبة ـ طبع ليدن ١٨٨٩م.

١٥٥ ـ المصايد والمطارد ـ تحقيق الدكتور محمد اسعد اطلس .

١٥٦ ـ مصر في عهد الاخشيديين ـ دكتور سيدة الكاشف ـ طبعة ١٩٥٠م

١٥٧ ـ مصر والشام ـ للدكتور سعد أطلس ـ طبع مكتبة المعارف ١٩٤٥م

١٥٨ ـ مطالع البدور ـ لعلي بن عبدالله البهائي الغزولي ـ مطبعة ادارة الوطن ـ الطبعة الاولى ١٢٩٩هـ.

١٥٩ ـ مطالعات في الكتب والحياة ـ لعباس محمود العقاد ـ طبع المكتبة التجارية ١٩٢٤م.

١٦٠ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ طبع دار صادر ـ بيروت .

١٦١ ـ معجم الشعراء ـ للمرزباني ـ نشر مكتبة القدسي .

١٦٢ ـ معجم ما استعجم ـ لعبد الله بن عبد العزيز البكري ـ طبع لجنة

التاليف والترجمة ١٩٤٥م.

١٦٣ ـ مع المتنبي ـ لطه حسين ـ الطبعة العاشرة ـ دار المعارف بمصر.

١٦٤ ـ مقدمات بديع الزمان الهمذاني ـ طبعة بيروت .

١٦٥ ـ الملل والنحل ـ للشهرستاني ـ المطبعة الادبية بمصر ١٣١٧هـ.

١٦٦ ـ المنتحل ـ للثعالبي ـ شرح وتصحيح محمد ابي علي ـ المطبعة التجارية بالاسكندرية ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م.

١٦٧ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ـ لابن الجوزي ـ الطبعة الاولى ـ دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ.

١٦٨ ـ الموازنة بين الشعراء ـ لزكي مبارك ـ الطبعة الثانية ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.

١٦٩ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ باشراف محمد شفيق غربال ـ طبع دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٥م.

١٧٠ ـ النجوم الزاهرة ـ لابن تغرى بردى ـ الطبعة الاولى ـ بمطبعة دار الكتب ١٩٣٢م.

١٧١ ـ نخبة أدبية وتاريخية لماريوس كنار ـ طبع الجزائر ١٩٣٤م.

١٧٢ ـ النقد الادبي ـ لأحمد امين ـ الطبعة الثالثة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م.

١٧٣ ـ نقد الشعر ـ لقدامة بن جعفر ـ تحقيق كمال مصطفى ـ ط ١٩٤٨م.

١٧٤ ـ النقد المنهجي عند العرب ـ لمحمد مندور ـ طبع دار نهضة مصر ١٩٦٠م.

١٧٥ ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ لكامل الغزي ـ ١٣٤٥هـ ـ ١٩٤٢م.

١٧٦ ـ نهاية الأرب في فنون العرب ـ للنويري ـ طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٣م.

١٧٧ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ تحقيق وشرح محمد ابي الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٥١م.

١٧٨ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان ـ تحقيق احسان عباس .

١٧٩ ـ يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ بتحقيق محمد اسماعيل الصاوي ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة الصاوي ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣١م.

١٨٠ ـ يتيمة الدهر ـ للثعالبي ـ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ١٩٤٧م.

١٨١ ـ يتيمة الدهر ـ للثعالبي ـ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٣م.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

أغراض وفنون





د. سعود محمود عبد الجبار

الشعر

في رحاب سيف الدولة الحمداني

يأتي مشروع مكتبة الأسرة الأردنية ومهرجان القراءة للجميع، بهدف توفير طبعة شعبية زهيدة الثمن، تكون في متناول يد الأسرة الأردنية في كل بيت.

ويهدف هذا المشروع إلى تعميم الثقافة والمعرفة، وربط الأجيال بالتراث الثقافي والحضاري للأمة، والتواصل مع الثقافات الإنسانية.

إن الكتاب الجيد هو سفر باتجاه الذات ومعرفتها ومعرفة الآخر، وهو ومضة لإضاءة عصرنا هذا، من أجل إنجاز رسالتنا التنويرية، القائمة على مشروع الدولة الأردنية منذ انطلاقة الثورة العربية الكبرى ومشروعها النهضوي.

لقد تباينت إصدارات هذه السلسلة في موضوعاتها، ومضامينها، واتجاهاتها، ورؤاها، آملين أن تقدم للقارئ زاداً معرفياً متكاملاً، وتلبي رغبات وحاجات مختلف الشرائح الاجتماعية.

طبع بدعم من:



السعر : (٣٥) قرشاً